أعلام فى التاريخ الاسلامى

أفكار للتجديد
و
مواقف للحياة

[redacted]

سامح كريم

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

أعلام فى
التاريخ الإسلامى

طبعة مزيدة ومنقحة

الناشر : الدار المصرية اللبنانية
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٩٩٤٥ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى: 5 - 235 - 270 - 977
تجهيزات فنية : ار ـ تك
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع : آمون
العنوان: ٤ فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م
الطبعة الثانية: شعبان ١٤١٧ هـ ـ يناير ١٩٩٧م
تصميم الغلاف: محمد العتر

إهداء

إلى أبى:

شئت لى التعليم، وقلت لى ذات يوم: «اقرأ»..

وهذه الصفحات خلاصة قراءات لكل ما تيسَّرَ لى من كتب تتناول سيرة محمد ﷺ، وسِيَر أصحابه، وكل مَنْ سار على هَدْيه من السلف الصالح.. ممن عودتنى مع إخوتى أن نقتدى بقيمهم منذ الصغر.. لا لأن أجدادنا غرسوا فى نفوسنا أننا ننحدر أصلا من أصلابهم، وأننا جئنا من الأرض التى شَرَّفها الله بنور كتابه الكريم، ولكن لأننا حين تعرفنا على رسوله ﷺ وأصحابه وكل من سار على هديه أكْبَرْنَا فيهم كل الفضائل..

وهكذا كنت يا أبى تغرس فى نفوسنا القيم والمبادىء والمثل العليا قبل كل شىء.. فلم تهتم - مثلا - بتلقيننا أننا أحفاد بكوات أو باشوات بقدر ما كنت تهتم بتذكيرنا أننا أحفاد مَنْ ضحوا وبذلوا، وهان عليهم المال والسلطان والولد فى لحظة تلبية نداء الواجب الوطنى فى الثورة العرابية ليكونوا وقوداً للخونة والمستبدين.

إليكَ يا أبى أهدى هذه الصفحات، راجياً أن تكون صدىً طيباً لما غَرَسْتَهُ فى نفسى ذات يوم من قيم حتى تطمئن روحك فى مثواها الأخير.

ابنك

«سامح»

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب فى طبعته الأولى، أتيح له من التوفيق مالم يتح لكتاب آخر من كتب مؤلفه. . فقد نفدت الطبعة الأولى منه خلال شهور قليلة، وقد أجمع الكاتبون والنقاد أو كادوا يجمعون ـ مشكورين ـ على الرضا عنه، والإعجاب به ولعله ظفر أيضًا بقبول من القارىء العربى. . والدليل نفاد طبعته الأولى خلال أشهر معدودات.

وقد يتساءل القارئ لهذه الطبعة الجديدة عن سبب ذلك. . وأَصْدُقُه القول. . بأن السبب المباشر والأساسى والحقيقى، هو: لقيمة ما تحمله صفحاته من تأريخ لهذه الشخصيات الفذة فى التاريخ الإسلامى، فكل شخصية أمة وحدها، بما تركت من أعمال خالدة لا تزال مراكز العلم والبحث تتناولها بالتأمل والدراسة، وما تركت من مواقف باهرة ضد ما فى حياتنا المعاصرة من عجز وضعف. . .

هذه الشخصيات كانت بمثابة مناطق الجذب للقارئ العربى. ومعنى هذا أن تاريخنا العربى الإسلامى ينطوى على الكثير الذى يروق القارئ العربى المعاصر، وأن هذه الأعمال والمواقف لتلك الشخصيات استطاعت أن تشد انتباه هذا القارئ، وتصرفه عن وسائل أخرى لتوصيل المعرفة فى قنواتها الميسرة والمتاحة، سواء فى الصحيفة المقروءة، أو الإذاعة المسموعة منها والمرئية وهو دليل جديد يفيد بأن القديم لا يُهجر لأنه قديم، وأن الجديد ينبغى أن يُطلب لأنه جديد، وإنما يهجر القديم إذا برىء من النفع، وخلا من الفائدة. وإذا تحقق ذلك فليس الناس بأقل حاجة إليه منهم لكل جديد. وأن الكتاب لا يزال فى صدارة وسائل توصيل المعرفه بالنسبة للقارئ، بشرط أن يتضمن مادة موثقة، وتناولاً مقبولاً، واخراجا حسنا وطباعة جيدة.

ففى هذا الكتاب كم هائل من الشخصيات تتباين طباعهم وعطاؤهم ما بين

قائد عسكرى، وإمام زاهد، وعالم يملأ طباق الأرض علمًا، وناسكة تملى على الحياة سلوكًا رفيعًا، وشهيد يضرب المثل فى التضحية والفداء، وقاض يرهب بعدله الحكام الضعاف المتخاذلين من صغار الحاكمين، ونحاة يضعون لحياتنا الثقافية أسُسًا لسلامة لساننا العربى، وجامع أحاديث نبوية يقطع آلاف الأميال بحثًا عن تصحيح حديث يشك فى صحته، ومجدد فى التفكير الإسلامى يؤكد بأن الإسلام دين ودنيا، وحامل رسالة فى الحياة دون تحقيقها الموت. . . . هذا الحشد البالغ خمسًا وسبعين شخصية يربطه خيط رفيع. . هو الإيمان بالحياة المتجددة. . فكرًا راقيًا، وعملا عظيمًا، وموقفًا خالدًا، وسلوكًا نبيلاً. . ليتركوا لنا قدوة نتمثلها فى حياتنا المعاصرة تقول: إن التاريخ يصنعه الأعلام الذين هم القادة للجماهير، وهم العقل المدبر لهذا الطوفان البشرى الهائل، فاعتبروه وتمثلوه، حتى يستفيد حاضركم من ماضيكم فى بناء مستقبلكم.

وإذا كان لمؤلف هذا الكتاب أن يقول كلمة فى مقدمة هذه الطبعة الثانية. فهى الشكر لهذا الاستقبال الحسن من القارئ والناقد والكاتب، مؤكدًا بأنه جهد متواضع أسعفه عون من الله وتوفيقه، لتوضيح بعض ملامح صورة هذه الشخصيات الفذة، بما اشتملت عليه هذه الصورة من أعمال عظيمة، ومواقف خالدة، راجيًا من الله عز وجل أن يكون عند حسن ظن هؤلاء جميعًا فيما يقدم من أعمال.

وإذا كانت هناك كلمة شكر من القارئ أو الناقد أو الكاتب وأيضًا المؤلف فإنما توجه للناشر محمد رشاد صاحب الدار المصرية اللبنانية. كنموذج من الناشرين المثقفين الذين تغلب الأريحية فى شخصياتهم، على المنفعة فى أعمالهم، فينظرون إلى الكتاب على أنه خدمة ثقافية أكثر منه سلعة تجارية، فلا يدخرون جهدًا مستطاعًا فى إخراجه بالصورة التى تليق بما تتضمنه صفحاته من مادة موثقة تدور حول ترسيخ القيم والمبادىء فى حياتنا.

والله أسأل أن يوفقنا جميعًا إلى مافيه الخير

سامح كريم

المعادى ـ نوفمبر ١٩٩٦

مقدمة الطبعة الأولى

في صحبة مباركة لهذا السلف الصالح، امتدت أكثر من أربع سنوات، كانت هذه الصفحات.. وكم كانت هذه الصحبة مباركة حقاً! وكم كان لها أثر جليل على النفس.. مبعثه هذه العظمة الباهرة لهؤلاء الرجال الذين شرفتُ بصحبتهم وتتبع أخبارهم، والذين صبغوا بأعمالهم الخالدة، ومواقفهم العظيمة تاريخ خَير أُمَّة أُخرجت للناس.. تاريخ سطرت صفحاته الأحداث على امتداد أكثر من أربعة عشر قرناً مَن الزمان.

هذه الأعمال، وتلك المواقف، كانت من الضخامة والشموخ إلى درجة أن تصورها البعض - أحياناً - من قبيل الأساطير، وماهي بأساطير، وإنْ بدت من فرط إعجازها كالأساطير، إلا أنها في واقع الأمر حقائق جرت بها الأقلام قديماً وحديثاً، لكنْ قد تكون الحقائق أغرب من الخيال أحياناً.

هذه الحقائق التي تضمنتها أعمال ومواقف هذه الشخصيات تسمو وتتألق، لا بِقَدْرِ ما تريد لها هذه الصفحات المتواضعة، أو بقدر ما أراد لها - من قبل - الكاتبون... بل بِقَدْرِ ما أراده لها أصحابها من بذل وعطاء في سبيل الله. فوصلت بجهدها المبرور - بدون قصد - إلى هذا السمو الروحي، وذاك التألق التاريخي. مما جعل هذه الشخصيات تعيش في وجداننا إلى اليوم.

لقد جاءت هذه الشخصيات الفذة في يومها الموعود، وأوانها المرتقب لتثرى الحياة، ويساير الناس تطورها المضطرد، وليجعلوا أيامها. .بل شهورها وسنواتها.. .لها تاريخ.

* فإذا كانت أيام هذه الحياة تهيب بمن يحافظ على وحدة أبناء الإسلام كما أراد لها رسول الإسلام، وإنقاذه من رجعية مكروهة تُحَوِّل الخلافة الراشدة إلى مُلك

عَضُوض يتوارثه الأبناء عن الآباء. . . وجدنا بين هذه الشخصيات أفذاذاً عملوا وجاهدوا بدم القلب ووهج الفكر، وصلابة الفولاذ، ـ قدر استطاعتهم ـ على إنقاذ وحدة المسلمين من هذه الفتنة التى أخذت برقابهم، إلى درجة أنهم قدَّمُوا حياتهم ثمناً لذلك، وفضلوا الموت والاستشهاد على الجاه والسلطان، بعد أن لاحت في الأفق أول فتنة بين المسلمين بمقتل ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه، حين اختَصَم لها فريق، وانتصر لها فريق آخر. ونتج عن هذه الخصومة مالايزال يفرق شمل المسلمين إلى شيع وأحزاب.

لقد أَحْدَثَ مقتل عثمان رضى الله عنه والمصحف بين يديه ـ وقاتلُوه داخل الدار وخارجها ـ صدعاً كبيراً فى جسم الأمة الإسلامية، وكانت المشكلة فى كيفية رَأْبِ هذا الصَّدْع بما يحقق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم. . هى المشكلة الأولَى التى قابلت الإمام علىَّ بن أبى طالب، كَرَّم الله وجهه، فى أول يوم تَوَلَّى فيه أمور المسلمين أميراً عليهم، حتى أن المسلمين لم يستقبلوا خلافة الإمام الجديد بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان، ومن قبله خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين. . من رضا النفوس، وابتهاج القلوب، واطمئنان الضمائر، واتساع الأمل، وانبساط الرجاء. . وإنما استقبلوا خلافته بكثير من الوجوم والقلق، والإشفاق واضطراب النفوس، واختلاط الأمور، وحيرة العقول. . . لا لأن علياً كرم الله وجهه كان خليقًا بأن يثير فى نفوسهم وقلوبهم شيئاً من هذا، بل لأن ظروف حياة المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان قد اضطرتهم إلى هذا كله اضطراراً ليس منه بد.

وتمر الأحداث حادة ومثيرة. . فالخلافات مستمرة بين الإمام على كرم الله وجهه وخصومه، وأولهم معاوية بن أبى سفيان، الذى كان يطالب بدم ثالث الخلفاء، وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب، كما قُتِلَ ثالثهم من قبل، وتنتهى بمقتله الخلافة الراشدة.

ويتفرق شَمل المسلمين شيعًا وأحزابًا، ليتأسس ملك عضوض، لايقوم على الدين وقيمه، وإنما يقوم على السياسة ومنافعها. . وكان يُظَنُّ حين استقام هذا الملك لمؤسِّسِه معاوية بن أبى سفيان عشرين عاما، أنه سيمضى فى طريقه وادعًا

مطمئنًا مستقرًا لأبناءِ أمية دهرًا على أقل تقدير، لكنه لم يستقر فيهم إلاَّ ليتحول عنهم إلى بنى العباس، ولا يتحوّل عنهم فى يُسر ولين. . لأن الفتنة لم تنقض باستشهاد الإمام الحسين بكربلاء، ومن قبله موت أخيه الإمام الحسَن رضى الله عنهما مسمومًا بأيدى معاوية وابنه يزيد. كذلك لم تنقض بموت مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان وخليفته يزيد، بل اشتدت هذه الفتنة حتى عرَّضت المسلمين ودولتهم لخطُوب ومحن ليست أقل جسامة من الخطوب والمحن التى حدثت قبل ذلك.

وفى صفحات هذا الكتاب الذى بين أيدينا نلمح أعمالاً ومواقفَ لشخصيات كانت بمثابة المُثل العليا التى دعا إليها الإسلام. . . برغم ما سُفِكَ من الدماء، وما أرهق من النفوس، وما انتُهِكَ من الحرمات.

* وإذا كانت هذه الحياة تهيب بمن ينقذ الإسلام من جمودٍ لايقره كتاب الله، وسُنة رسوله ﷺ، بتجديد يواكب حركتها المستمرة، على اعتبارِ أن التجديد حركة دائمة متصلة ما اتصلت الحياة، التى بطبيعتها متغيرة متجددة تجديدًا يحمى الحياة الإسلامية نفسها، حين يجهر بالحق، فيصون المجتمع من الانتكاس، فإننا نجد من بين الشخصيات التى تضمنتها صفحات هذا الكتاب مجددين يتعالون على التعصب، ويرتفعون على التشيع، ويدركون أن الإسلام ـ فى حقيقته ـ ليس نظاماً دينياً فحسب، بل هو نظام سياسى، واقتصادى واجتماعى، وإلاَّ فما معنى أن تمتد رقعته من شبه الجزيرة العربية إلى غيرها من الدول والممالك شرقاً وغرباً؟! إن الإسلام ليس عبادة فحسب، بل عمل وجهاد أيضاً.

وإذا كان الإسلام كذلك ـ وهو بالفعل كذلك ـ فلن تكون تعاليمه بمعزل عن التطور، أو مواكبة المجتمعات الجديدة التى انضوت تحت لوائه بعد الفتوحات. حتى ترتكز هذه التعاليم على دعائم تمتد جذورها فى قلب فردٍ يدين بهذا الدين الحنيف، مما يؤدى إلى إقامة علاقة خصبة العناصر الدينية والدنيوية ويعمَل على تقاربهما.

فالإسلام دين متطور لايرفض التجديد، بل يراه لازمًا لزوم الحياة نفسها، ومواكبًا لاستمرارها على مسرحها، على اعتبار أنه دين أتى بالقواعد العامة التى

تصلح لكل زمان ومكان. والتجديد يأتى لتنظيم الفروع التى لا تمس جوهر هذه القواعد الإسلامية العامة فى إطار مسئولية التفكير فى صلاح الدنيا والآخرة معاً.. ولا يقتصر الأمر فى هذا الدين على ما يصلح الآخرة وحدها، بل يدخل فيه مايصلح الدنيا أيضاً، حتى يمكن النهوض بالمجتمع الإسلامى على النحو الذى صار عليه الإسلام من دولة تمتد شرقاً وغرباً.

لذلك اتسع الإسلام للتجديد فى كل زمان ومكان.. تجديد يقوم به رجاله المخلصون بنص حديث الرسول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة عام مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها..».

هذا التجديد الذي أقره الإسلام، والذى يعمل على إحياء السنة، وإماتة البدعة، وإحياء ما اندرس.. هو عين ما نلمحه فى هذه الصفحات من جهود عظيمه لنَفَرٍ من المجددين، علماء وفقهاء ومفكرين، حاولوا جاهدين إصلاح الأمة على ضوء ما جاء بالكتاب والسنة.

وإذا كانت هذه الحياة تهيب بمن يعطينا مُثلا طيبة عن التصوف كحركة إيجابية فى الإسلام، أولها تقدير قيمة العمل إلى جانب العبادات، حيث أن هذا الدين لايقر أن يعيش بعض أفراده عالة على الآخرين بدعوى الانصراف التام إلى العبادة، ولا يعترف بما يفعله بعض المنتسبين للطرق الصوفية من ارتداء الهلاهيل بدعوى الزهد فى طيبات الحياة، ولا يقبل إقامة الأضرحة لشيوخ هذه الطرق، وتقديس مريديهم لهم، وتوسلهم بهم فى قضاء حوائجهم، ويرفض سلبية المشاركة فى بناء المجتمع بدعوى الانصراف التام عن هذا العالم المادى، إنما التصوف الحقيقى هو الذى لايقر هذه الصور ولايعترف بها. لأنه فى الأصل قائم على الأصول الإسلامية، وفى مقدمتها القرآن الكريم والسُّنة الشريفة. وهذا الكتاب وهذه السنة لاتقبل الرهبنة . فلا رهبنة فى الإسلام.

وفى هذه الصفحات شخصيات صوفية تدعو مريديها إلى قيمة العمل، وتحث عليه صراحة، وليس ضمناً، كما ترفض الشَّعْوَذَة والهوس، وترويج الأقاويل حول خوارق الأفعال. وكم كانت لهذه الشخصيات من أعمال إيجابية قائمة على

العلم والإيمان. ومواقف عظيمة باهرة فى وجوه المستبدين من الحكام، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بظلم وقع على الرعية. وكم كان الحكام يرضخون لمطالب هؤلاء الأولياء لأنها فى الأصل قائمة على تذكيرهم بقدرة الله عز وجل، إلى درجة أن هؤلاء الحكام كانوا يخافونهم ويتوددون إليهم ابتغاء رضائهم.

هذه الشخصيات الصوفية ـ كُلٌّ فى مكانه ـ يقدم أفعالاً تؤكد بما لايدع مجالاً للشك أن التصرف حين يكون قائماً على أسس إسلامية حقيقية فلا ضرر منه ولا ضِرار، بل يكون له عظيم الأثر فى حياة الناس.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يجاهد فى سبيل الله، لإقامة دعائم الإسلام ونشره، والزَّوْد عنه، فإننا نجد من بين هذه الشخصيات التى اهتم بها هذا الكتاب، رجالاً كان لهم عظيم الأثر فى هذا المجال، سواء فى عصر الخلافة الراشدة، أو فيما تلاه من عصور، مدركين تماماً أن الجهاد فى سبيل الله فريضة من فرائض الإسلام.

ومن هذه الشخصيات الفذة.. مَنْ أسهم بجهود مبرورة فى توسيع رقعة الإسلام لتشمل العديد من الأمم والممالك، حين شارك فى فتوحاته حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً، بعد أن حررتهم هذه الفتوحات الإسلامية من عبودية أباطرة الرومان وقياصرة الفُرس، فنرى نماذج للبطولات التى أسهمت فى تحرير هذه الأمم والممالك من هاتين القوتين العُظْمَيين فى العالم القديم، وخير مثال لذلك تحرير مصر من الرومان، وتحرير الشعوب التى تدور فى فلك فارس من استبداد واستعباد قياصرتها، لتدخل هذه الشعوب تحت مظلة الإسلام.

ولم تتوقف روح الجهاد فى سبيل الله إذا دعت الحاجة إليه فيما تلا عصر الخلافة الراشدة، فنرى نماذج من البطولات فى الجهاد كان لها مواقف جليلة من الصليبيين والتتار، منهم مَنْ كان يقطع مئات وآلاف الأميال من بَلَده مُيَمِّماً جهه شطر واحدة من حواضر الإسلام، تتعرض لعدوان صليبى، أو آخَر تتارى، فيقف إلى جانب إخوته فى الإسلام، يدافع معهم أكثر مما يدافع عنهم، لأنه فى الأصل يعتبر نفسه مجنداً للدفاع عن الإسلام كعقيدة استهدفت لهذا العدوان أوذاك.

ترى أيضاً ـ فى هذا الجانب ـ علماءَ وفقهاءَ أفذاذًا يقومون بالدعوة إلى الجهاد، ولا يقتصر عملهم على مجرد دعوة الناس إلى ذلك، وإنما يمتد عملهم إلى المشاركة الفعلية فى دفع العدوان عن المسلمين ليأخذ مكانه بين المجاهدين كفرد من الأفراد.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يعطينا أمثلة ونماذج طيبة للقضاء العادل، فإننا نجد فى هذه الصفحات قضاة يحكمون بين الناس بالعدل فى مواجهة حكام جائرين مستبدين، مؤكدين مسلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث فصل سلطة القضاء عن سلطة الإدارة، أو ما نعرفه فى نُظمنا الحديثة بالسلطة التنفيذية. فكان عملُ هذا الخليفة ـ فى هذا المجال بالذات ـ سابقاً على عصره، وعلى مدنية أوروبا الحديثة فى الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية وحكمته فى ذلك أن يُمكِّن القضاء من الحكم بالعدل بين الناس. فيستوى أمامه الحاكم والمحكوم، ولايطغى على سلطته فى الحكم بين الناس حاكم أو أمير.

ولعل الإسلام بهذا العمل الحضارى.. كان سباقاً إلى ما نعرفه اليوم بسيادة القانون. التى يستوى أمامها الحاكم والمحكوم، الغنى والفقير، بلا تمييز أو استثناء، وأساس ذلك ما استحدثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من استحداث الفصل بين السلطة الإدارية والسلطة القضائية. وقد كان جادًا حازماً فى هذا القرار، حتى أنه بدأ بنفسه أيام توليه أمور المسلمين كخليفة لأول الخلفاء أبى بكر رضى الله عنه، ففصل قضاء المدينة عن سلطته، وأقام أبَا الدرداء قاضياً عليها. ثم جعل قضاء الكوفة لشريح، وقضاء البصرة لأبى موسى الأشعرى، وقضاء مصر لقيس ابن أبى العاص السهمى... وكان القاضى فى هذه الأمصار يقوم بجانب الوالى، وله سُلطته القضائية التى لا يتنازل عنها، ولا يتعدى عليه والٍ أو أمير.

وبين هذه الشخصيات التى ذخرت بها صفحات هذا الكتاب نلمح نماذج لقضاة عادلين وقفوا فى وجه الحاكم حين استبد وظلم، وردّوه إلى شرع الله، ليحكموا بينه وبين الرعية بالعدل، وليس عليهم ـ فى حكمهم ـ رقيب سوى ضميرهم الذى يستند إلى كتاب الله وسنة رسوله، حتى أن أحد هؤلاء القضاة ـ وهو القاضى بكَّار بن قتيبة ـ كان يقيم الليل مُتَهَجِّدًا داعياً ألاَّ يكون قد أصدر حُكماً فيه شُبهة

ظُلم لأحد حتى يلقى ربه تقياً نقياً، عابداً تائباً. وغيره أمثلة عظيمة. جسدت القضاء فى الإسلام على أحسن وجه.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يقوم بتجميع أطراف المعارف وإعدادها وتبويبها حتى تنشط حركة التقنين العلمى فى اللغة، والفقه، ونقل ثقافات الآخرين إلى لساننا العربى... نجد من بين شخصيات هذا الكتاب علماء وفقهاء قاموا بإعداد الموسوعات ودوائر المعارف، ولعل هذا الاتجاه إلى تجميع أطراف المعارف. كان من الخطوات الجادة والحاسمة فى تطور العقل الإسلامى وتقدّمِه على النحو الذى استفاد منه غير اللسان العربى فى نهضته وتطوره.

لقد كانت رسائل إخوان الصفا الشهيرة بمثابة دائرة معارف أشارت مبكراً إلى التنوير من ناحية جمع المعارف وإعدادها وتيسيرها للباحثين والدارسين. وفى هذه الصفحات نلتقى بعلماء ومؤرخين أنفقوا حياتهم فى إعداد تمثل هذه الموسوعات ودوائر المعارف، منهم القلقشندى، صاحب موسوعة صُبح الأعْشَى. التى لاتزال صفحاتها تقدم الكثير لكل دارسٍ أو باحثٍ، أو راغب فى معرفة.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يقدم مثالاً للمنهج الشامل لرجل الدين، ذلك الذى لا تقتصر صفحاته على علوم الدين، من فقه، وحديث، وتفسير فحسب، وإنما نراه يتجاوز ذلك إلى العلوم المدنية، كالطب، والحساب، والجبر، والمقابلة، وغيرها من علوم حرص أسلافنا من المسلمين الأقدمين على إتقانها، بشكل تأثرت به أورُبا فى عصورها الوسطى، حين استعانت بمناهج العرب الشاملة فى نهضتها الحديثة.

ومن بين هذه الشخصيات التى تقدمها صفحات هذا الكتاب مَن كان يهتم بهذا المنهج الشامل لرجل الدين، فنراه يُتقن الطب أو الهندسة أو الرياضيات أو الفلسفة إلى جانب إتقانه لعلوم الدين.

ومثل هذا المنهج الشامل مهم بالنسبة لرجل الدين، فإلى جانب إتقانه لعلوم الدين ينبغى أن يكون على بَيِّنَة بقسط من العلوم المدنية، ولعل ذلك كان من الأسباب المهمة فى فكرة جامعة الأزهر التى ضمت إليها الكليات العلمية بجانب

الكليات المعنية بالدين واللغة والأدب، أملاً فى أن يستخدم الأزهر هذا المنهج الشامل الذى عرفه المسلمين الأوائل.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يعطينا أمثلة طيبة لأدب الحوار بين المسلمين، حتى يرجع إلى أدب الإسلام فى الحوار، أولئك الذين ينصبون من أنفسهم أوصياء على عقول الناس، وما تخفى صدورهم، فيلتزم حوارهم بعفة اللسان، ويحرص على صون الكرامة، ويقدمُ حُسنَ الظن بالنية والقصد، ويبعد عن جارح اللفظ وسيء العبارة، عملاً بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾.. أو منهج القرآن الذى يحمى كلمات الحوار ـ شفاهية أو مكتوبة ـ بقوله: ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.. أو أدب القرآن ـ حتى فى مجادلة أعداء المسلمين من المشركين ـ فى قوله: ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ولعل الصحابة رضوان الله عليهم اتبعوا هَدْىَ الرسول ﷺ فى عِفَّة اللسان، فكانوا نماذج رائعة لأدب الحوار، ولنأخذ مثلا لذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، المعروف بالشدة، حيث كان لايتحيز، ولا يتعصب، ولا يغلظ، ولا يشتد، ولا يعنف أحداً فى عبارة، وإنما كان يتبادل الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، ولا يميل إلاَّ إلى جانب الحق فى مودَّة، حتى يقنع مَنْ يجادله برأيه، أو يقتنع هو برأى مَنْ يجادله، حتى ولو كانت امرأة، وهو أمير للمؤمنين.

فى هذه الصفحات نلتقى بشخصيات تقدم نماذج لأدب الحوار، فى مقدمتهم الإمام الليث بن سعد فى حواره مع الإمام مالك فقيه المدينة، وكيف استرسل الحوار بينهما فى رفق ولين، كُلٌّ يوضح وجهة نظره بدون إسراف فى قول يجرح الآخر، وغيرهما من شخصيات مما يؤكد بصورة أو بأخرى أن الإسلام دين يهتم بأدب الحوار، وما فيه من الحفاظ على كرامة الآخرين، وما يتضمنه من عمق في التفكير لايتأتى إلاَّ ممن يثق فى صدق موقفه، فيدافع عنه حتى يقنع به غيره.

* وإذا كانت الحياة تهيب بنصف المجتمع إلى المشاركة فى البناء، فإننا نلمح فى هذه الصفحات نماذج عظيمة للمرأة المسلمة التى تقف جنباً إلى جنب الرجل فى كل ميادين الحياة، فلاتكتفى بوقوفها معه فى ميادين القتال مجاهدة فى سبيل الله لإقامة ونشر دينه فى عصر النبوة، وإنما تقف أيضاً إلى جانب الرجل فى الميدان العلمى، فنراها وقد أدركت من أمر دينها الشىء الكثير، مثل الرجل سواءً بسواء.. نرى نساءً فُضليات أَصَبْنَ من العلم والفقه ورواية الحديث، وحَمَلْن السنة النبوية والأحكام الدينية كما حملها الرجل، وتلقاها عنهن الرجال أنفسهم. نرى شخصيات نسائية عظيمة زخرت كتب الفقه والحديث بمروياتهن، ولم يفرق أحد بينهن وبين الرجال، ولم تكن ثقافتهن مقصورة على روايات الحديث والتفقه فى الدين، وإنما امتدت كذلك إلى الأدب إبداعًا ونقدًا، والسياسة نظرًا وعملاً، والتأريخ تسجيلاً وتعليقاً.

فنرى مثلاً مشاركة المرأة المسلمة بالرأى والمشورة فيما نتبينه من سيرة السيدة زينب وموقفها الباهر، قبل وبعد مأساة كربلاء.. كما نرى إسهام هذه المرأة فى الحركة الأدبية الإبداعية، مما نتبينه من أشعار الصحابية عاتكة بنت زيد، أو إسهام فى الحركة الثقافية نتبينه فى الندوة الأدبية للسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، حين التقى بها فحول شعراء العربية فى زمانها، ومنهم الفرزدق، وجرير، وعمر بن أبى ربيعة.. كما التقى بها أيضاً كتاب الأغنية وواضعو ألحانها الجميع يقصدون هذه الندوة ويعرضون إنتاجهم الإبداعى على سيدة هذه الندوة. وهذا جعل نُقاد الأدب ومؤرخيه يعتبرون الندوة الأدبية للسيدة سكينة أول ندوة أدبية فى الإسلام تقيمها امرأة إن لم تكن فى تاريخ الأدب..

كما نرى أمثلة لراويات الحديث تتقدمهن السيدة فاطمة النبوية، التى أعتمد على روايتها ابن إسحاق، وابن هشام فى تسجيلهما للسيرة النبوية التى هى أصل لكل كتابة عن النبى ﷺ وسيرته الشريفة.

* وإذا كانت الحياة تهيب بمن يؤرخ للإسلام أحداثه، أو يُؤَصِّل للغة العربية قواعدها، أو يقيم للعلم دوراً نظامية.. فإننا نجد فى هذه الصفحات علماء فى اللغة كانوا بمصر ووصفهم ابن خلدون فى مقدمته بالسَّبْق قبل غيرهم فى هذا

المجال، الذى يحافظ على لغة القرآن ويحكمها بقواعد. . كما نجد مؤرخين كباراً تبقى كتاباتهم سجلاً يرجع إليه الباحثون عن أى عصر من العصور الإسلامية. ونجد علماء آخرين أخذوا على عاتقهم مهمة تأسيس أول دور نظامية للعلم، سواء فى الإسكندرية، أو فى القاهرة خَرَّجتَ عديداً من طلاب العلم ممن كان لهم كبير الأثر فى الحياة العلمية بعد ذلك.

* * *

وغيرهم من الشخصيات ذات الأعمال الخالدة، والمواقف العظيمة، وهم الذين قصدوا مصر وافدين من كل أقطار الدولة الإسلامية. منذ القرن الأول الهجرى، إمَّا طلباً للأمن والأمان، أو رغبة للاستقرار بعيداً عن مناطق الغليان السياسى، أو بحثاً للاستزادة من علم أبنائها. .

ومن الملفت للأنظار أن يكون معظم هذه الشخصيات التى اختارت مصر مكاناً لها، والتى اختصتها صفحات هذا الكتاب بالاهتمام، إمَّا من الصحابة الأجلاء الذين وفدوا إلى مصر مع عمرو بن العاص للمشاركة فى تحرير مصر إبَّان خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأقاموا بها حتى وفاتهم، أو من أبناء وبنات آل البيت الذين وفدوا أيضاً إلى مصر فراراً من عسف واستبداد بنى أمية، ومن بعدهم بنى إلعباسى، ليستقروا فيها حتى الوفاة. . . مّما يؤكد أن مصر دائماً قبلة العالم العربى والإسلامى، وموطن الحكمة والمعرفة، ومستقر العلم والعلماء، ومنطلق كل حركة إيجابية تُوَجَّه للخير. . كما يؤكد أن مفهوم القومية الضيق الذى عرفناه فى مطلع العصر الحديث، لم يكن معروفا فى العصور الإسلامية الأولى، بل كان مفهوم الوطن العربى الإسلامى هو السائد. ولهذا كان أى عالم أو مفكر أو أديب. . يرحل عن بلده وموطنه الأصلى يجد الترحيب فى أى قُطر آخر من أقطار الأمة الإسلامية، ولا يشعره أهل هذا القطر الوافد عليه بأنه غريب بينهم، بل سرعان ما يصبح من نسيج هذا القطر، ويعتبر مواطناً فيه كسائر المواطنين. وهذا عين ماحدث بالنسبة للشخصيات التى اهتمت بها صفحات هذا الكتاب، والتى وفدت إلى مصر ومن فارس والعراق والجزيرة العربية شرقاً، أو من الأندلس والمغرب وتونس غرباً، واستقروا بها، وأصبحوا مواطنين فيها، وانتسبوا إليها فى

حياتهم ومماتهم، ولم يربطهم بأوطانهم الأصلية سوى مسقط الرأس والنشأة الأولى، وهو ما يؤكد بصورة عامة أن مصر بلد الأمن والأمان، والعلم والمعرفة، والعقيدة والدين. . وهو ما لايتيسر كثيراً فى غيرها من بلاد العالم الإسلامى.

وطبيعى ألا يجمع هذه الشخصيات عصرٌ بعينه، ولامكان محدد أَتَوْا منه. إن ما يجمعهم هدف واحد، هو الإسهام فى إعلاء صَرْح الإسلام بإيمانهم وأعمالهم، وليؤكدوا حقيقة انتهى إليها المؤرخون القدامى، ويؤكدها الكُتّابُ المحدثون، وهى أن التاريخ الإسلامى متصل الحلقات منذ بدأ حتى اليوم، كما أنه يتميز بخاصية قد تفتقر إليها أحياناً كتابات التاريخ بوجه عام، ألا وهى الصدق فى تحرى الحقائق. . ولعل ذلك يرجع إلى أسباب، أهمها: أن التأريخ للشخصيات الإسلامية قائم على رواية الخلف عن السلف، والمحدثين عن الأقدمين، منذ زمن بعيد، لعله بدأ منذ أن قام الإخباريون المسلمون الأوائل ينقلون منها زاداً كثيراً وصل إلينا.

ولما استوى للمحدثين ماجمعه الأقدمون. جاء دور الشرح والتعليق، مع بقاء هذا التراث الإسلامى ثابتاً غير قابل لجديد فى جوهره، وكل اجتهاد فيه هو فى اختيار طرق العرض والتناول، ولعل ذلك هو ماجعل المحققين والدارسين للسير والتراجم الإسلامية. يقسمون المهتمين بها إلى فريقين:

* فريق عاش فى ظل كتب الأولين يقرؤها ويتأملها، ويجتهد فى شرحها والتعليق عليها، حتى يقربها من أبناء عصره.

* وفريق صبغ أعماله بصبغة أدبية وفنية، ليخرج على الناس بعمل مبدع فى ظاهره له، وفى حقيقته معتمد على غيره.

ولهذا يمكن القول ـ اتفاقاً مع هؤلاء الدراسين والمحققين ـ بأن متناول الشخصيات الإسلامية هو فى الأصل قارىء. . قرأ وتأمل ثم اجتهد فى البحث عن طريقة لعرض وتناول ما قرأ. . وهذا عين ما حدث لى فى تقديم هذه الشخصيات التى تتضمنها الصفحات التالية.

ولعل هذا المنهج فى التناول قد لايجهد الذين يريدون إرجاع مادته القديمة فى

جوهرها وأصلها، الجديدة فى شكلها وعرضها إلى مظانها الأولى.. فى مصادر للمعرفة مثبتة، كمراجع فى آخر الكتاب، أو كآراء يستند إليها فى صلب صفحات الكتاب.

* * *

يبقى بعد ذلك أمران لابد من توضيحهما:

أولهما: أن هذه الصفحات المتواضعة لاتزعم لنفسها القدرة على تقديم العظمة الباهرة لِخَمْسٍ وسبعين شخصية حفلت بهم مادة هذا الكتاب - حسبها أن تومئ إلى سماتها وملامحها الأساسية، وتنطلق إلى سمائها وآفاقها.

وثانيهما: أن هذه الصفحات في مجموعها لا تزعم لنفسها أيضاً بأنها كتاب فى التاريخ بمعناه المتعارف عليه، وإنْ كان التاريخ لُحْمَتُها وسُدَاها، فكتابة التاريخ لها مفهومها وأسلوبها.. وهو بالقطع ليس كتاباً فى الفلسفة - وإنْ كان إعْمالُ الفكر فيه نغمة سائدة - إذ أن للفلسفة مجالاتها ومناهجها.. ولا هو بالذى يمكن إدراجه فى نوع التراجم والسير - وإنْ كانت صفحاته تعنى بتتبع مسار كل شخصية من الميلاد إلى الموت.. ومن بداية التفكير إلى أعلى مستوى له من النضج - إذ أن لكتابة الترجمة أو السيرة أسلوبها الخاص الذى يحيط بمختلف المناشط لصاحب السيرة أو الترجمة، ولشتى عناصر مذهبه فى الحياة، ورأيه فى الناس والأشياء.

الأَحْرَى أن أقول: إن هذه الصفحات - التى أسعفها عونٌ من الله وفضل - لا تَعْدو أن تكون مجرد انطباعات ترسبت في الذهن نتيجة قراءات امتدت على مدى سنوات، ثم كانت الرغبة فى تسجيلها بشكل يقربها من القارىء المعاصر، خاصة إذا كانت آراء هذه الشخصيات فى كل جوانب الحياة: من فكرية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية، وقبل ذلك كله دينية.

أقول للقارىء الكريم: إن هذه الصفحات لاتعدو أن تكون إشارة إلى هؤلاء الأعلام فى التاريخ الإسلامى إلى أعمالهم ومواقفهم، قيمهم ومبادئهم، مسيرة حياتهم وحقيقة مماتهم... وكل ذلك يصلح زاداً روحياً يُتَزَوَّدُ به. والله المستعان.

* * *

١ عمرو بن العاص
«محرر مصر من الرومان»

كان واحداً من ثلاثة وصلت معادتهم للإسلام ونبيِّه عليه الصلاة والسلام حداً جعله عليه الصلاة والسلام كان دائم الدعوة عليهم، ويتضرع إلى الله تعالى تقدير أن يُنزل بهم عقابه جزاء ما يصنعون للإسلام ورجاله من الأضرار والشرور. ومع تزايد ضرر وإيذاء هؤلاء الثلاثة لم يكف النبى عن التوجه إلى الله أن يجزيهم بما يفعلون. حتى تنزل الوحى على قلبه الصادق الأمين بهذه الآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(١)

وهنا أدرك النبى معنىَ الأمر الإلـهى الذى تتضمنه هذه الآية الكَريمة، وهو أن يكفَّ عن الدعاء عليهم، وأن يجعل أمرهم إلى الله، فهو القادر على كل شىء، فإما أن يظلوا على شركهم فيحل بهم عذابه، وإمَّا أن يتوب عليهم ويغفر لهم، وهو التواب الغفور. ولقد أراد الله للثلاثة طريق التوبة، وتحولوا من مناهضين مقاومين للإسلام إلى مؤمنين برسالته مدافعين عنه. وكان عمرو بن العاص أحد هؤلاء الثلاثة. فقد أسلم وآمن، وأصبح صحابياً جليلاً، وقائداً وسياسياً أعَزَّ الله به الإسلام، وفتح على يديه «مصر» وغيرها من الأمصار.

إذن ليس مصادفة أن نبدأ بسيرة عمرو بن العاص رضى الله عنه فى حديثنا عن أعلام التاريخ الإسلامى بمصر، فى وجود هذه الكوكبة الشريفة من آل النبىﷺ،

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٢٨.

إذْ كان عمرو هذا هو الصحابى الجليل الذى جعلته الأقدار سبباً لإهداء الإسلام إلى مصر، وإهداء مصر للإسلام.

لقد تعوَّد المؤرخون أن يصفوا عَمْراً بفاتح مصر، بيد أن هذا الوصف لدور هذا الصحابى الجليل فيه تجاوز وجَوْر، لما قدمه لمصر من فضل وبركة، ولعل أحق الصفات لدور عمرو فى مصر أن ندعوه بمحرر مصر من الرومان.

فمصر يوم أهَلَّت عليها طلائع الإسلام كانت نهباً للرومان، ومن قبلهم الفُرس والهكسوس، وكان أهلها يقاومون هؤلاء الغزاة بكل ما أُوتوا من حول وقوة، لكن يوم أن دوت فوق مشارف بلادهم صيحات الكتائب الإسلامية المؤمنة بكلمة: «الله أكبر» سارعوا جميعاً فى زحام مجيد، صوب الفَجْر الجديد، وعانقوه، واجدين فيه خلاصهم من قيصر والرومان.

فعمرو ورجاله لم يفتحوا مصر إذن بقدر ما فتحوا أمام مصر الطريق لتصل بالحق مصايرها، وتربط بالعدل مقاديرها، وتجد نفسها وحقيقتها فى ضوء كتاب الله وكلماته، ومبادىء الإسلام.

وكم كان عمرو حريصاً على أن يُباعد أهل مصر عن المعركة، ليظل القتال محصوراً بينه وبين الرومان، ومن أجل ذلك يخاطب أهل مصر قائلا: «إن الله بعث محمداً بالحق، وأمره به، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أدى رسالته ومَضَى بعد أن تركنا على الواضحَة، وكان مما أمَرَنَا به الإعْذَار إلى الناس. فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فَمَنْ أجابنا فهو منا،له ما لنا، وعليه ما علينا. ومن لم يجبنا إلي الإسلام عرضنا عليه الجزية وبذلنا له الحماية والمَنَعة، ولقد أخبَرنا نبينا أن مصر ستُفتح علينا، وأوصانا بأهلها خيراً فقال: «ستُفْتَح عليكم ـ بعدى ـ مصْرَ، فاستَوْصُوا بِقَبطها خيراً فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً» فإنْ أجَبْتُمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذمة إلى ذمة».

وعندما انتهى عمرو من كلمته صاح الأساقفه والرهبان قائلين: «إنَّ الرحم التى أوصاكم بها نبيكم. لَهِىَ قرابة بعيدةٌ لا يصلُ مِثْلها إلاَّ الأنبياء».

وكانت هذه خير بداية للتفاهم المرجو بين عمرو وأهل مصر.

لكن كيف دخل عمرو الإسلام، وأصبح من الصحابة الأجلاء؟ إن لذلك قصة

عجيبة، ومن عجبها أن يكون إسلامه على يد النجاشي ملك الحبشة، وذلك أن النجاشي كان يعرف عَمْراً بسبب تردده على الحبشة، وفى زيارته الأخيرة - قبل إسلامه - جاء ذكْرُ الرسول ﷺ الذى يدعو إلى التوحيد، ويهتف بمكارم الأخلاق، وسأل عاهل الحَبشة عَمْراً: كيف لاتؤمن به وهو رسول الله حقاً؟

ورد عمرو بسؤال: أهو كذلك؟ فأجاب النجاشي: «نعم. . فَأَطِعْنِي يا عَمْرو واتَّبعه، فإنه والله لَعَلَى الحق وليظهرنَّ على مَنْ خالفه».

وعندما عاد عمرو يمم وجهه شطر المدينة لِيُسْلم، وفى طريقه وجَدَ خالد بن الوليد، وعثمان بن أبى طلحة ذَاهِبَيْنِ لنفس الغرض، ودخل ثلاثتُهم على النبى ﷺ، واقترب منه عمرو وقال: «يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يُغْفَرَ لى ما تَقَدَّم من ذنبي». فقال النبى ﷺ: «يا عَمْرو، بايعْ، فإن الإسلام. يَجُبُّ ما قبله، والهجرة تجبُّ ما قبلها». ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أسْلَمَ الناسُ وآمَنَ عمرو ابن العاص».

وبعد إسلامه سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «عجبتُ فى ذهنك وعقلك. . كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟».

فقال عمرو: «وما عَجَبُكَ ياعمر فى رجل قلبه بيد غيره، لايستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده». وقال عمر رضى الله عنه: «صَدَقْتَ والله يا عَمرو».

وكان إسلامُ عمرو بن العاص خيراً وبركة على هذا الدين، فقد كافح وجاهد، وعقد له النبى ﷺ اللواء فى غزوة «ذات السلاسل»، وجعله على ثلثمائة من كبار المهاجرين والأنصار، من بينهم أبو بكر الصديق، والفاروق عمر، والقائد أبو عبيدة بن الجراح. . فأظهر كفاءة نادرة.

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى استمر على إيمانه وكفاحه وجهاده فى سبيل نشر دين الله، فاشترك فى حروب الرِّدَّة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، وفى خلافة عمر رضى الله عنه عقد له اللواء على الجيش الذى سار لتحرير فلسطين، وتوالت انتصاراته على الرومان فى الشام، حيث أظهر بسالة فائقة يوم اليرموك، ويوم أجنادين.

وعمرو بن العاص هو الذى طلب من عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يدعو مصر بدعوة الإسلام. .

ويوم أن لبى هذا الصحابى الجليل نداء ربه ـ وكان والياً على مصر ـ رفع بصره إلى السماء فى ضراعة وخشوع مناجياً ربه وقال: «اللهم لا بَرِئَ فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإلاَّ تدركنى رحمتك أكُن من الهالكين» .

وظل فى ضراعاته وابتهالاته حتى صعدت روحه إلى بارئها، وكانت آخر كلماته: «لا إلـه إلا الله».

وتحت ثرى مصر ـ التى جعلته الأقدار أن يكون سبباً فى دخولها الإسلام ـ ثَوَى جثمان عمرو رضى الله عنه، وفوق أرضها الطيبة لا يزال مجلسه قائماً هناك بالفسطاط (مصر القديمة) تحت سقف مسجده العتيق، مسجد عمرو، كأول مسجد بنى فى مصر على التقوى، «الله أكبر». وليعلن أنه من هنا مَرَّ التاريخ الإسلامى وترك بصماته الخالدة. .

ويستوقفنا فيما كُتب فى تاريخ الإسلام عن عمرو بن العاص كتاب الأستاذ العقاد الذى حين يتناول شخصيته، فإنه يبدأ بنشأته فى بطنٍ من بطون قريش المشهورة، وهم بَنُو سَهْم، ويتطرق إلى صفاته الحسية والنفسية والخلقية، معطياً إياه حقه من الدراسة والبحث، ليحدثنا بعد ذلك عن انتقاله من التجارة إلى الإمارة، بما فى ذلك من مفارقات، ومؤكداً قيمة التجارة فى حياة عمرو بن العاص، حيث كانت مدرسته الكبرى فى السياسة والفتوحات. . ثم ينتقل إلى موضوع تحرير مصر، فيقدمه بمسألة بديهية هى أن الصدام بين العرب والرومان كان قدراً محتوماً منذ اللحظة التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية، وكُتبَ لها البقاء، مبرراً ذلك بأن الإسلام رسالة تتجه إلى أسماع الناس وقلوبهم، ولأن للدولة الرومانية سلطاناً قائماً يحول بين رسالته والأسماع، ولهذا يتم تحرير مصر على يدى عمرو بن العاص، مؤكداً أن هذا التحرير لم يكن مكروهاً من سكان مصر وقتئذ، لأنه نَشَرَ الأمنَ والاطمئنان اللَّذَيْن زعزعهما الرومان فى البلاد.

وحين نتوقف مع العقاد عند وصفه لدهاء عمرو بن العاص الذى اشتهر به، نجده يقدمه بأنُه قد أحْصَى العرب دهاتهم فى الإسلام فعدُّوا أربعة، هو منهم،

وجعلوا لكل واحد منهم مزية يمتاز بها عن الآخرين، فقالوا: إن معاوية للرَّوِيَّة، وعمرَو بن العاص للبديهية، والمغيرة للمعضلات، وزياداً لكل كبيرة وصغيرة.

ولو تكلم العرب بالاصطلاح الحديث لقالوا عن عمرو بن العاص: إن حيلته هى حيله العبقرية المطاعَه التى تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم، وآياتها أنها عبقرية مُعبرة، تلهم الخاطر السريع، كما تلهم التعبير عنه فى كلمة وخبر. . وهذه العبقريةالتي يختلط أمرها أحياناً على مَنْ يراقبونها فيتهمونها بالطيش، ويرمونها بالتهور. لأنهم يُسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل، فيبدو لها ما يظل خافياً عليهم، متلبسًا فى أعينهم، ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها فى السرعة والنفاذ. مثلا قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ فقال: «الإصابة بالظن، ومعرفه ما سيكون بما قد كان.»

ويفسر العقاد ذلك بقوله: إن الأصح أن يُقال: إن التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقل عمرو بن العاص نفسه، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة، بين اليقين والتخمين، يأخذ مَنْ أمامه بالنظرة الخاطفة، فإذا هو قد وصل، فى حين أن الذى أمامه لايزال يتحرى طريقه للوصول. .

ذلكم هو عمرو بن العاص حقاً وصدقاً.

* * *

٢ أبو الدرداء أول قاضى للمدينة

ظهر الإسلام ودولتا الروم والفُرس تتنازعان حكم العالم بالقوة والاستبداد، وكانت دولة الروم تدين بالنصرانية، ولكن نشأة هذه الدولة فى الوثنية من قبل كان لها أثرها فى نصرانيتها، فلم تأخذ فيها بالنصرانية التى تدعو إلى المحبة والتوحيد الخالص. . بل اضطهدت المتمسكين بها، وناصرت الذين يذهبون فيها إلى عقيدة التثليث، وكانت هذه الدولة - الرومانية - قد ورثت الفلسفة اليونانية فيما ورثته عن دولة اليونان قبلها، فأخذت تنحرف بهذه الفلسفة نحو تأييد عقيدتها فى النصرانية، حتى آثَرَتْ فى ذلك فلسفة أفلاطون على فلسفة أرسطو، لأن فلسفة أرسطو واقعية لا تؤيد انحرافها فى العقيدة، وإنما تتسع له فلسفة أفلاطون صاحبة المثل العقلية، لأنها فلسفة خيالية يمكن التوفيق بينها وبين ذلك الانحراف. . . ولهذا كان لابد من ظهور قوة ثالثة تمثلت فى الدولة الإسلامية تعيد للحياة ما افتقدته من العدل والتسامح. . هذه الدولة قامت على أكتاف رجال كان من بينهم «أبو الدرداء عُوَيمر بن مالك.»

وأبو الدرداء صحابى جليل، جمع إلى إيمان القلب ورحمته رجاحة العقل وحكمته، فكان بحق هو الحكيم، وهو الزاهد، وهو العابد، وهو الأوَّاب، وهو التقى الذى إذا أطْرَى الناس تُقاه وسألوه الدعاء أجابهم فى تواضع مُبْهِرِ قائلا: «لا أُحْسن السباحة. . وأخاف الغَرَق». وهكذا كان مسلكه فى الحياة، التواضع الجم، والزهد الجميل.

لكنَّ أبا الدرداء كان يحْسن ما يُطْلَبُ منه، وأى إحسان يُطلب من إنسان هو فى التقى والورع مضرب الأمثال؟ ويكفيه شرفاً أنْ نزلت فى شأنه بعض آيات القرآن

الكريم، وأن يسأل النبى صلى الله عليه وسلم المولى عز وجل أن يشد أزْرَ الإسلام والمسلمين بإسلام أبى الدرداء، وأن يقول عنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله وَعَدنى إسلام أبى الدرداء» وقد كان، فما هى إلا فترة من الزمن لم تطل حتى كان أبو الدرداء من الذين مَنَّ الله عليهم بنعمة الإسلام.. وكان وَعْدُ الله حقاً.

وفى مجال الحكمة كان حكيماً تتفجر الحكمة من جوانبه، يقول لمن حوله من الصحابة الأجلاء: «ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند باريكم، وأنماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزو عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم، وخيرٌ من الدراهم والدنانير؟ ويصمت الحاضرون انتظاراً لما يقوله ذلك الحكيم الذى وُجِدَ بينهم، وتشرئب أعناق الذين ينصتون إليه، ويسارعون بسؤاله: «أى شىء هو يا أبا الدرداء؟» وهنا يستأنف أبوالدرداء حديثه ووجهه.. يتألق بنور الحكمة والإيمان: «ذكر الله.. ولذكر الله أكبر»!! صدقت يا أبا الدرداء، وهل هناك أجَلُّ وأعظم مِنْ ذِكْر الله.. ألا بذكره تطمئن القلوب.. ولم يكن أبو الدرداء.. بكلماته هذه يبشر القوم بسلبية مطلقة، ولا بالتنصُّل من تبعات الدين الجديد.. تلك التبعات التى يأخذ الجهاد مكان الصدارة منها.. لم يكن هذا هو أمره، وهو الرجل الذى قيل عنه إنه أُمَّةٌ فى رجل، حيث حمل سيفه مجاهداً مع النبى صلى الله عليه وسلم منذ أسلم حتى جاء نصر الله والفتح.. ولم يكن بهذا الرجل الذى لايعرف ما يقول، وإنما هو حقاً وصدقاً يعقل كل مايقول.

إن أبا الدرداء كان رجلا من ذلك الطراز الذى يجدد نفسه على أكمل ما تكون كان فيلسوفاً يخلو إلى التأمل، وحكيماً يأوى إلي محراب الحكمة، وزاهداً ينذر حياته بنشدان اليقين، وإنسانا يتملكه شوق عارم إلى رؤية الحقيقة واللقاء بها، ومؤمناً تفتحت بصيرته على الجوانب التى تخفي على الذين لايتمتعون مثله بشفافية الإيمان.

وإذْ آمنَ بالله رباً واحداً لاشريك له، وبرسوله نبياً، وبالإسلام ديناً فقد تأكد له بأن هذا الإيمان بما أوجب عليه من واجبات وفَهْم.. هو طريقه الأمثل إلى اليقين والحقيقة التى ينشدها كل حكيم أو فيلسوف يستبطن الحكمة من أعماقها.

لقد استولت العبادة والتأمل على نفسه وكل حياته، ويوم أن بايَعَ الرسول ﷺ على هذا الدين الجديد كان من أكبر تجار المدينة.

وفى هذا يعلن أبو الدرداء راضياً مرضياً، سعيداً هادئ البال، لأنه أدرك الحقيقة، فيقول: «أسلمتُ مع النبى ﷺ وأنا تاجر، وأردت أن يجتمع لى العبادة والتجارة فلم يجتمعا، فرفضت التجارة، وأقبلت على العبادة، وما يسرنى اليوم أن أبيع وأشترى فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار حتى لو يكون حانوتى على باب المسجد.. ألا إنى لا أقول لكم: إن الله حَرَّمَ البيع، ولكنى أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله». ويصغى القوم لمن باع دنياه بثمن غير قليل، حيث فضل الآجلة على العاجلة، الآخرة على الدنيا..

هكذا أوفى أبو الدرداء القضية حقها.. فهو يسارع قبل أن يسأله القوم: وهل حَرَّمَ الله التجارة؟ فينفض عن الخواطر هذا التساؤل مشيراً إلى الهدف الأسمى الذى كان ينشده، ومن أجله ترك التجارة.. وهو نشدان ذلك الكمال الفعلى الذى يرنو إليه كل إنسان، يريد الهداية لمعراج يرفعه إلى عالم الخير الأسمى، ويشارف به الحق فى جلاله، والحقيقة فى مشرقها، والنور فى سطوعه.. إنها نعمة الإيمان الذى لايدانيه شيئاً فى الحياة.. وهل هناك فى الحياة أعظم وأسمى من هذه النعمة؟ وليس هذا بغريب على أبى الدرداء؟؟ الذى آخَى النبى ﷺ بينه وبين سَلْمَانَ الفارسى والذى شارك غزوات الرسول ثم فى الفتوحات الاسلامية ومنها فتح مصر الذى جاءها مع عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كأحد قادة المسلمين.

ولعلنا بعد هذه اللمحة السريعة عن أبى الدرداء نطوف مع المفكر الإسلامى خالد محمد خالد فى تقديمه لجوانب من شخصية هذا الصحابى الجليل لنتعرف على شخصيته أكثر وأكثر.. ولنبدأ بفلسفته تجاه الدنيا وتجاه مباهجها وزخرفها- على حد تعبير هذا المفكر الكبير - فنراه متأثراً بآيات القرآن التى تحض على جَمْعِ المال فى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾[1]. ومتأثراً أيضاً بالحديث الشريف، حيث يقول ﷺ: «ما قَلَّ وكَفَى، خيرٌ ممَّا كثُرَ وألْهَى». وقوله: «تفَرَّغُوا من هُموم الدنيا ما استطعتم، فإنه مَنْ كانَت الدُّنيا أكبَر هَمِّه فرقَ الله شَمْلَهُ، وجَعَلَ فقرهُ بين عينيه. ومَنْ كانت الآخِرَة أكبرَ هَمِّه جَمَعَ شَمْلَهُ، وجعَلَ غِناهُ فى قلبه، وكان الله إليه بكل خير أسرع».

ولذلك نرى أبا الدرداء كان زاهداً فى المال، راثياً لعبيده، فيقول: «اللهم إنِّى أعُوذ بكَ منْ شتَاتِ القَلْب»، وحين سُئل: وما شتات القلب يا أبا الدرداء؟ أجاب: «أنْ يكون لىَ فى كل وادٍ مالٌ». إنه بهذا الإدراك يدعو إلى إمتلاك الدنيا بالاستغناء عنها، ولعل ذلك يبدو فى قوله: «مَنْ لم يكن غنياً عن الدنيا.. فلا دنيا له».

ولعل وجهة نظره فى الدنيا لم تكن مجرد نظرية، بل كانت تطبيقاً فنرى موقفه يوم أن خطبِ يزيد بن معاوية بن أبى سفيان إبنته «الدرداء»، يرفضه، ولا يقبل خطبته. ويزيد مَنْ هو يزيد؟ إنه ابن من أبناء أشراف العرب وسادتهم! غير أن أبا الدرداء الذى باع الدنيا من أجل الآخرة يرفضه ويفضل عليه أحد فقراء المسلمين: لا لسبب إلا لكونه رجلاً صالحاً. ويُدهش الناسَ من تصرفُه هذا، إذْ كيف يُفضل فقيراً على أمير فيردهم قائلا: «ما ظنكم بالدرداء ـ يعنى ابنته ـ إذا قام على رأسها الخدَمُ والخصيان، وبهرَهَا زخرف القصور. أين دينها يومئذ؟».

كلمات لا تصدر إلا من مؤمن حكيم، امتلك الدنيا دون أن تمتلكه.. حكيم يقول: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك، وأن تُبارى الناسَ فى عبادة الله تعالى».

وخصال كثيرة يَتمتع بها هذا الصحابى الجليل، كانت مضرب الأمثال بين الناس.

* * *

(١) سورة الهمزة ـ الآيتان ٢، ٣

٣

عقبة بن عامر
مبعوث عمر إلى قواته فى الشام

نحن الآن فى رحاب سيرة صحابيٍّ جليل، وقائد من قادة الفتح الإسلامى، ووالٍ تحمَّل المسئولية، فحفظ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وعالمٍ وفقيه يرجع إلى أحاديثه الرُّوَاة المحدِّثون، وفوق ذلك كله رجل مشهود له بالتقوى والإيمان منذ أن بايع النبى ﷺ ودخل فى الإسلام يوم قدوم النبى ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة.

هذا الرجل هو عقبة بن عامر الجُهَنِىُّ.

فكما تُحدثنا المصادر والروايات أن هذا الصحابى الجليل كان من الأوائل الذين جاءوا مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر بهدف تحريرها من الروم.. وكان للمسلمين خطة فى ذلك الفتح، مؤداها أن يقوموا بحصار الإسكندرية قبل أى إقليم آخر من أقاليم مصر - بعد فتح مصر - لغرضين من أغراض الحرب.

أولهما: لأن الإسكندرية كانت مكاناً تتمركز فيه القوة الحقيقية الضاربة للروم، واتخذت هذه القوة حصوناً شيدوها لذلك، أو كانت مَعَدَّة للدفاع عن مصر ضد أى هجمات تأتيها من ناحية البحر المتوسط، ولهذا اعتبرت الإسكندرية مفتاحاً لمصر من الجهة الشمالية.

وثانيهما: لقُرْب هذه المدينة أكثر من غيرها من المدن المصرية للقوات الرئيسية لدولة الروم، إحدى، القوتين العُظْمَيَيْنِ فى العالم القديم، وهو مايجعل مدَّها بقوات أخرى عبر البحر أمراً ميسوراً.

لهذا ولغيره من أسباب كانت خطة المسلمين بعد تحريرهم لمصر هى حصار

الإسكندرية أولاً قبل أى مدينة بمصر كلها، حتى يتيسر بعد ذلك استيلاؤهم على بقية أقاليم مصر.

ولهذا أيضاً واصَلَ عمرو بن العاص حصاره للإسكندرية فترة من الوقت، موجهاً بعض قواته إلى عُمق مصر فى الأقاليم، حتى مصر الوسطى، وقد اختار أربعة من كبار القادة ليكونوا فى مقدمة هذه القوات المتوجهة إلى أقاليم مصر، وهم عقبة بن عامر الجهنى، وعبد الله بن حُذَافة السهمى، وخارِجَة بن حذافة العَدَوى، وعُمير بن وهب الحمى.

هؤلاء الأربعة ـ كما أشار عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد كانوا من أقدر الرجال كفاءة، وهم أيضاً من الرجال المشهود لهم بحسن التصرف فى الشدائد والأزمات..

كان دور عقبة بن عامر بين هؤلاء الأربعة هو أن يقوم بتحرير عدد من القرى المنتشرة حول القاهرة أو ما عُرِفَ بعد ذلك بالفسطاط فيتم بذلك تحرير مصر كلها.. وقد فعل ذلك، فبقى مُحاصِراً لهذه القرى فترة، تم فيها لعمرو بن العاص تحرير الإسكندرية من الروم.

هذا الدور الذى اختير عقبة بن عامر للقيام به لم يكن سهلاً، فيكفى أن تطبق عليه قوات الروم، ومعهم أهالى هذه القرى، للقضاء على هذه القوة التى يقودها عقبة.

إن اختيار هذا الصحابى الجليل لهذه المهمة كان بناءً على ثقة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، ثقه ناتجه عن كفاءة واقتدار تميز بها عقبة، فهو رجل من أصحاب النبى ﷺ، بايعه وآمَنَ به بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وفى ذلك يسجل ابن عساكر ـ مستنداً إلى مايقوله عقبة عن نفسه: «بَلَغَنى قدوم النبى ﷺ المدينة وأنا فى غُنَيْمة لى، فرفضتها، وتوجهتُ إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يارسول الله بايِعْنِى. فقال عليه الصلاة والسلام: بيعة أعرابية، أو بيعة هجرية! فبايعنى ﷺ».

ومن وقتها لازَمَ عقبة بن عامر رضى الله عنه النبى ﷺ، وكان من أصحاب

الصُّفَّة، المقربين الذين يقومون بخدمة النبى الكريم، حتى أنه كان يقود البغلة الخاصة بالنبى ﷺ فى الأسفار أو التوجه إلى الغزوات، وكثيراً ما كان النبى الكريم ينزل عن بغلته، ويأمر عقبة بنِ عامر بالركوب إشفاقاً عليه، ورحمة به، ليمشى ﷺ على رجليه.

وطبيعى أن يكون عقبة بن عامر رضى الله عنه ـ وهو الصحابى المقرب إلى النبى ﷺ ـ مُقَرَّباً لمن يجئ بعده من الخلفاء الراشدين خاصة أبى بكر الصديق، والفاروق عمر رضى الله عنهما. ففى عهد خليفة رسول الله أبى بكر رضى الله عنه، كان عقبة بن عامر من الرجال الموثوق بهم، والذين يُستعان بهم فى الكثير من الأمور المهمة، هذا إلى جانب أنه أَبْلَى بلاءً حسناً فى مناصرة أبى بكر فى حربه ضد المرتدين، وكان يفعل هذا مؤمناً بأنه إنما يفعله لمناصرة الإسلام، هذا الدين الذى اختاره عن رضا واقتناع، ويناصر نبيه الكريم، الذى رأى منه عن قرب مالم يره الكثيرون من الصحابة، فوقف على جوانب عدة من أخلاق هذا النبى الذى قال عنه القرآن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] فقد كان حقاً وصدقاً على خُلُق عظيم بين البشر.

وفى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه، كان لعُقْبة بن عامردور فى الفتوحات الإسلامية، فإلى جانب دوره الكبير فى تحرير مصر كان له دور عظيم فى فتح الشام، لقد كان المبعوث المُؤْتَمَن بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقواته فى الشام، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه فى أثناء فتح دمشق قطع الطريق بينهما وبين المدينة المنورة فى سبعة أيام. لتبليغ المؤمنين بما أنجزه المسلمون هناك من انتصارات، ورجع إلى دمشق عائداً من المدينة فى يومين ونصف يوما ببركة دعائه عند قبر النبى ﷺ، وتشفُّعِه به فى تسهيل صعوبات الطريق.

وإذا كانت لعقبة بن عامر إسهامات جليلة فى الفتوحات الإسلامية، فله إسهامات أخرى فى مجال العِلم والمعرفة. فيقول عنه أبو سعيد بن يونس، أحد الرواة الموثوق بهم:

---

(١) سورة القلم ـ الآية الرابعة.

«كان عقبة بن عامر الجهنى قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، صحيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو آخر مَنْ جَمَعَ القرآن الكريم، حيث يذكر المؤرخون أنهم رأوا مصحفاً فى مصر على غير كتابة مصحف عثمان، وقد ذُيِّلَ فى آخره عبارة: كَتَبَهُ عُقبة بن عامر».

ولذلك نجد أهل مصر يثقون به، ويستمعون إليه، ويحفظون عنه، فيذكر ابن تغرى بردى: «أن لأهل مصر فيه اعتقاداً عظيماً، ولهم عنه نحو مائة حديث شريف..».

وقد ذكر ابن عبد الحكم أحاديث عقبة بن عامر رضى الله عنه التى رواها عنه أهل مصر، ومنها: «مَن توضَّأ فأحْسَنَ وضوءه، ثم صَلَّى غير ساهٍ ولا لاهٍ كُفِّر عنه ما كان قبلها من سيئاته».

وقال عقبة بن عامر رضى الله عنه: «كنت آخُذُ بزمام بغلة النبى ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: ياعقبة ألا تركب؟ فأشْفَقْتُ أن تكون معصيةً.. فنزل رسول الله ﷺ وركبتُ هُنَيْهَةً. ثم ركب عليه الصلاة والسلام فقال لى: هل لا أُعَلِّمُكَ سورتين؟ فقلت بَلَى يارسول الله.

فأقرأنى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم وصَلَّى بهما وقال: اقرأهُما كلما قُمْتَ ونمت..».

ولقد تولى عقبة بن عامر رضى الله عنه ولاية مصر من قِبَل معاوية بن أبى سفيان، خلفاً لأخيه عتبة بن أبى سفيان فى سنة أربع وأربعين هجرية، فكان من الثمانين صحابياً الذين وقفوا على قبلة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط.

وقد كتب وهو والٍ على مصر إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله أرضاً يبنى فيها منازل ومساكن، فأمَرَ له معاوية بألف ذراع.. هذه الأرض التى خصَّصَها له معاوية تقع فى محافظة الجيزة الآن، وبالتحديد بجوار منطقة الدقى، والتى عُرِفَتْ وقتئذ «بمنية عقبة» حيث كانت كلمة «منية» تعنى ميناء، لأن هذه المنطقة كانت واقعة فى ذلك الوقت على الشاطئ الغربى للنيل قبل تحوله قليلا إلى الشرق، ثم حُرِّفت كلمة «منية عقبة» فأصبحت تُعْرَفُ الآن «بميت عقبة» نسبة إلى هذا الصحابى الجليل.

ويذكر الرواة المؤرخون أن فتره ولاية عقبة بن عامر على مصر استمرت ثلاث سنوات، من بعدها تولى ولاية مصر مَسْلَمة بن مُخَلَّد، من قِبَل معاوية بن أبى سفيان أيضاً.

ولقد اكتنف عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلَّد ولاية مصر أسلوباً من أساليب معاوية بن أبى سفيان الملتوية، بدأه بأن طلب من مسلمة بن مخلد أن يكتم نبأ توليه أمر مصر خلفاً لعقبة بن عامر، مُسَيِّراً إيَّاه إلى مصر، وفى الوقت نفسه آمِراً عُقبة بغزو «رُودَس» مستعيناً بمسلمة بن مخلد وخرج الاثنان: عقبة بن عامر، ومسلمة بن مخلد إلى الإسكندرية، وتوجها - كما أمَرَهُما معاوية - إلى «رُودَس» عن طريق البحر. فلما انشغل فى الأمر عقبة استولى مَسْلَمَة على سَرِير إمْرَته وولايته كما رسم له معاوية بن أبى سفيان، وعندما بلغ عقبة بن عامر هذا الأمر قال غير آسفٍ على ماحدث: «مالى أَرَى الأمر أبطأ علىَّ!»، إشارة إلى أنه كان ينتظره، حتى يتحرر من تبعات الولاية وما قد تجلبه على صاحبها من آثام ربما لايكون له ذنب فيها اللهم إلا أنه أصبح مسئولا عن أمر المسلمين.

والحق أن طريقة معاوية بن أبى سفيان فى عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلَّد رضى الله عنهما. كانت لا تخلو من مكر مصدره معاويه بالطبع. وأقل مايقال عنها بأنها واحدة من الأساليب الملتوية لمعاوية بن أبى سفيان، فضلا عن كونها تنافى تماماً الكثير من القواعد المرعية فى مثل هذه الأحوال، خاصة أنها تتعلق بصحابى جليل مثل عقبة بن عامر، وهو مَنْ هو؟ إنه أحد المقربين إلى النبى ﷺ وخلفائه من بعده.

وهناك من الروايات والمراجع التاريخية ما يقرر أن معاوية فعل ما فعل لأنه أدرك ما لعقبة بن عامر من قبول واستحسان، وحُبّ وولاء من المصريين، مما أصبح خطراً عليه، فقد يستطيع أن يستقل بمصر منفصلاً عن الدولة الإسلامية.

وعلى أى حال مهما يكن ما لدى معاوية من أسباب ومسببات لعزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلد، فإن ذلك لايتيح له أن يسلك معهما مثل هذا الأسلوب الملتوى.

وبعد هذا العزل غير الكريم.. أقام عقبة بن عامر بمصر مدة عشر سنوات، فلم يبرحها عائداً إلى المدينة المنورة، حتى توفى سنة ثمان وخمسين هجرية، لِيُدْفَنَ فى القرافة الكبرى، وليكون قبره مزاراً يتبركُ به الخَلَفُ عن السَّلَف لورع صاحبه وتقواه، وجهاده فى سبيل الإسلام.

* * *

٤ مسلمة بن مخلد
مقاتل شهد له الأعداء

مسلمة بن مخلَّد صحابى جليل تفتحت كرامته طفلاً صغيراً على نور الإسلام، فكان من الفتية الذين آمنوا بربهم، فمثلوا مستقبل الإسلام وفتوته وشبابه. كان يعتز بأنه أدرك عشر سنوات من آخر عمر المصطفى ﷺ، فلم يكتف بالسمع عنه وإنما أضاف إلى ذلك الرؤية أيضاً، والحضور المباشر فى مدرسة الإسلام الأولى، على أيدى معلم الإسلام والهادى إليه محمد ﷺ.. فكان حقاً وصدقاً من المؤمنين به وبرسالته، إيماناً لا يخالطه شائبة من شوائب الجاهلية الأولى.

ولما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر المسلمين خليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحدث ماحدث من ردّة ورجعة.. كان هو فى طليعة الشباب المؤمن المجاهد فى سبيل استمرار الدعوة التى بشّر بها النبى ﷺ، ولم يخالجه شك فى خيرها لأمة العرب، برغم ما نشط به البعض ـ مناوئين ومشككين ـ بل كان ذلك يزيده يقيناً وصلابة بإستمرار الدعوة بعد أن لَبّى المبشرُ بها نداءَ ربه سبحانه وتعالى، ككل نفس ذائقة الموت.

وحين جاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بقى كما هو على إيمانه، ثابتاً، وفى سبيل نشر الدعوة مجاهداً، وفى إعلاء كلمة الإسلام وفياً.. لم يكن ما يفعله بالقول، وإنما بالفعل، بعد أن أخذ الإسلام طريقه إلى الانتشار، فتجاوز جزيرة العرب إلى غيرها من الأمصار والبلدان والأمم، عندئذ كان مجاهداً فى سبيل نشر هذه الدعوة كواحد من جنود الفاروق عمر رضى الله عنه، أينما وجَّهَهُ، مؤتمراً بأمره، مؤمناً بأنه إنما يفعل ذلك من أجل استمرار الدعوة التى فتح عينيه على نورها يوم كان صبياً صغيراً.

كذلك كان مسلمة بن مُخلَّد واحداً من القادة الأربعة للمدد العظيم الذى أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. ليدعم به قوة المسلمين التى تواجه الروم، إحدى القوتين العظميين فى العالم القديم، غداة فتح مصر.

هؤلاء الأربعة هم: «الزبير بن العوام»، و «عبادة بن الصامت»، و «المقداد بن الأسود»، و «مسلمة بن مخلد».. وقد كانوا جميعهم ممن ثبت حسن إيمانهم وجهادهم فى سبيل نشر دين الله فى حياة رسوله ﷺ، أو بعد وفاته.

لقد قال عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، موجها خطابه إلى قائد فتح مصر عمرو بن العاص، وهو يومئذ على أبوابها: «كنت قد وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعرف...».

هكذا قال الفاروق عمر عن الأربعة، ومنهم «مسلمة بن مخلَّد» وما كان لسان عمر رضى الله عنه ينطق إلا بالصدق. وما كانت نظرته فى الرجال ومعرفته بأقدارهم تخيب فى يوم من الأيام. وهل كان تقدير الفاروق عمر يميل يمنة أو يسرة فى رجل يبعثه للجهاد فى سبيل. الإسلام؟ بالقطع لا، فهو أعرف الناس بمن يقوم بمثل هذه المهام الجسام، ولذلك يقدمهم إلى كبير قواده فى فتح مصر بقوله: إن الرجل منهم مقام ألف رجل، لما له من صدق وعزيمة، وإيمان وتقوى، وتضحية وفداء.

وينضم مسلمة كما انضم الثلاثة الآخرون فى صفوف المجاهدين أفراداً، لايطالبون بعلو مركز، أو قيادة أفراد، فليس هذا هدفهم، إنما الهدف هو إعلاء كلمة الله، ويستوى فى ذلك كونه فرداً أو قائداً، فالمهم بلوغ الهدف.

وليس غريباً والأمر كذلك أن يستشير عمرو بن العاص ـ صاحب الحيلة والدهاء، والقائد الذى شهد بكفاءته فى المعارك المؤرخون ـ هؤلاء الأربعة، ومنهم مسلمة بن مخلد رضى الله عنه فى كل خطوة كان يخطوها... وليس غريباً أيضاً أن ينفذ ما أشار به عليه «مسلمة بن مخلد» على وجه التحديد فى خطة فتح مدينة الإسكندرية.

لقد أشار «مسلمة بن مخلد» أن يعقد اللواء لعبادة بن الصامت، لما له من مواصفات معينة، لعل أبرزها هيبته وضخامته، تلك التى اندهش لها الروم. وقد

أخذ بذلك عمرو بن العاص لثقته بأن «مسلمة بن مخلد» من الرجال المخلصين الذين لا يُستهان برأيهم في مصير الأمم، سواء في الحرب أو السلام.

وحين تكون الحرب بين المسلمين والروم نجد مسلمة بن مخلد بين الصفوف، لا على أنه القائد الذى يأمر ويوجه ويقف خلف القوات ليكون آخر مَنْ يُقتل وأول من ينقذ، لكن نراه مجرد فرد من الأفراد يكر ويفر، يُبارز ويضرب، يلتحم ويصارع، فنراه عندما حمى وطيس المعركة يبارزه فارسٌ من فرسان الروم، يبدو أنه أُعدّ خصيِّصاً لملاقاة صناديد الفرسان، فيصرعه بضربة من الخلف، يسقط مسلمة ابنَ مخلد بسببها عن جواده، وتعوقه قوة الضربة ومفاجأتها، إلى جانب بطء حركته لبدانته، فقد كان رضى الله عنه رجلاً بديناً، فيكاد الفارس الرومى يهوى عليه بسيفه ليجهز عليه ويقتله لولا أن حماه رجل من المسلمين،فغطي مسلمة بسيفه حتى يستعيد توازنه.

غضب عمرو بن العاص عندما علم بما حدث، وعاتَبَ ولامَ «مسلمة» أن يتقدم هكذا الصفوف وهو المستَهْدَفُ من العدو،واتخذ لوم عمرو بن العاص لونًا من التقريع والتوبيخ، مما أغْضب مسلمة، ولكنه كظم غضبه. من عمرو كما كظم غيظه مِمَّا حدث، وحالت أخلاقه من أن يفصح عمَّا يشعر، بل أسَرَّهُ فى نفسه.

وتتوالى معارك الفتح الإسلامى بين المسلمين والروم، ويشتد القتال بين الطرفين.. حتى إذا اقتحم المسلمون حصنا حصيناً بالإسكندرية يدخله عمرو ومعه مسلمةَ ونفر من الرجال، تكر عليهم جحافل قوات الروم وتجبر المسلمين على الخروج من هذا الحصن الذى استولوا عليه، ولا يبقى من المسلمين إلاَّ أربعة من الذين لم يستطيعوا الخروج لاشتداد الهجمات، كان عمرو بن العاص نفسه، ومسلمة بن مخلد من هؤلاء الأربعة الذين لم يعرفهم الروم.

وتكلم رومى بالعربية، حيث بدأ فى المساومة قائلاً: «إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم». فامتنعوا عليهم. فعاد الرومى يقول: «إن فى أيدى أصحابكم رجالاً منا أسروهم، ونحن نعطيكم العهود..نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم.. فأبى الأربعة رافضين».

فأستأنف الرومى مساومته لعمرو ومن معه، بدون أن يعرف شخصياتهم، قائلا: «هل لكم إلى خطة نصف بيننا وبينكم، أن يبرز منكم رجل، ومنا وجل، فإن غلبَ صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإنْ غلبَ صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم».

وهنا رضى المسلمون الأربعة بهذا الأمر، برغم ما كانوا يعلمون مسبقاً أن الروم يشتهرون بالمهارة فى المبارزة والقتال، وأنهم لكى يكسبوا الجولة فلابد أن يختاروا من بينهم أكثرهم مهارة.. ولكنهم وافقوا على ذلك. وماهى إلا لحظات حتى برز من بين الروم رجلٌ قوىٌّ البنية، ضخم الهيئة، يبدو أنهم كانوا يدَّخرون أمثاله لمثل هذه المواقف الحاسمة.

وأراد عمرو بن العاص أن يُلاقى هذا الرومى بنفسه، فمنعه مسلمة حتى لايتعرض للقتل وهو القائد الأعظم لفتح مصر، فيكون قتله بلاءً على أصحابه من المسلمين، وفضَّل أن يتقدم هو، حتى لو قُتل فلن يكون قتله. بمثل قتل عمرو.. واستأذنه على ذلك، فقال عمرو بن العاص: «دونك.. فربما فَرَّجَّها الله بك».

وبارز مسلمة بن مخلد هذا الرومى القوىَّ عدة مرات، بعدها استطاع مسلمة أن ينقضَّ عليه ويقتله، ليخرج المسلمون الأربعة من الحصن عملاً بما اتفقوا عليه مع الروم قبل المبارزة.

وقد ندم عمرو بن العاص واستحيا من لومه وتوبيخه وتقريعه لمسلمة بن مخلد، حتى أنه قال له ـ وقد استأثره على نفسه وفداه بسيفه: «والله ما أفحشتُ قط إلا ثلاث مرار.. مرتين منهم فى الجاهلية، وهذه الثالثة.. وما منهن إلا وقد ندمت عليها، وما استحييت من واحدة منهن أشد ما استحييت مما قلتُ لك.. والله إنى لأرجو ألاَّ أعود إلى الرابعة ما بقيت سامحنى يا مسلمة».. وسامحه «مسلمة» على ما حدث.

هذه الصورة الجليلة من التضحية والفداء، من الشجاعة والإقدام، من الأدب والخلق... تقدم لنا جانباً من جوانب أخلاق هذا الصحابى الجليل مسلمة بن مخلد. وهو جانب مضئ يجمل التَّأسِّى به والاحتذاء به، كمثال يرينا كيف كانت

طباع هؤلاء الرجال من القوة والعظمة، مما كان له أكبر الأثر فى القضاء على وجود الروم بمصر، وتحرير أبنائها. ثم تخييرهم فى أن يدخلوا فى دين الله أفواجاً وإذا بقى أحد على دينه القبطى فله الأمان بين المسلمين، ولهذا أيضاً سارع المصريون إلى الدخول فى حظيرة الإسلام لما رأوه من رجاله الذين جاءوا فاتحين من المبادئ والقيم، وهو مالم يكن يرونه عند الروم وقتئذ.

وكان مسلمة بن مخلد رضى الله عنه مثالاً طيباً لهذا الدين الذى يراد له أن يدخل مصر.. فقد كان ورعاً تقياً بين الناس أميناً مخلصاً فى عبادته للخالق، مكافحاً مجاهداً فى الدفاع عن دينه، حتى أصبح مضرب الأمثال، إذ يقول عنه المقريزى - نقلا عن مجاهد رضى الله عنه: «صليتُ خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة، فما تركَ ألفاً ولا واواً».

وقال أيضا المقريزى نقلا عن مجاهد: «كنتُ أرانى أحفظ الناس للقرآن الكريم، حتى صليت خلف مسلمة الصبح، فقرأ سورة البقرة فما أخطأ..»

وقال الواقدى: «إن مسلمة كان إذا قرأ القرآن فى المحراب.. يسمع سقوط دموعه على الأرض».

ولعل خير ما نختم به الحديث عن هذا الصحابى الجليل من وثائق وروايات، ما قاله عنه الإمام أحمد بن حنبل: «إن مسلمة بن مخلد شهد فتح مصر وسكنها، ثم ولاه معاوية بن أبى سفيان مصر بعد عزل عقبة بن عامر رضى الله عنه، وذلك فى سنة سبع وأربعين للهجرة، وقد جمع له معاوية الصلاة، أى الإمامة والخطابة، وكذلك الخراج، أى النواحى المالية، وأضاف إلى ولايته على مصر بلاد المغرب».

وأما عن وفاته فيذكر السخاوى ما يؤكد أنه توفى بمصر ودفن فيها ضمن مَنْ دفن من عظماء الإسلام قائلا: «وبمصر الموضع المعروف بمذبح الجمل، فيه قبر الرجل الصالح مسلمة بن مخلد الأنصارى».

وتتفق أغلب المصادر والمراجع القديمة والحديثة مع قول السخاوى، مؤكدة أن مسلمة بن مخلد رضى الله عنه قد مات بالفعل فى مصر، ودُفن فى القاهرة، وبالتحديد فى مصر القديمة، فى المكان المعروف فيها بمذبح الجمل، وقد بُنى على قبره ضريح يظلله فى مسجد يحمل اسمه حتى الآن.

* * *

٥ عبد الله بن الحارث الزبيدى
قائد من أهل الصفة

خرج أهل المدينة لاستقبال محمد ﷺ، زرافات ووحدانا، رجالا ونساءً، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته، ومن مؤامرة قريش عليه، ومن احتماله أشد القيظ فى هذه الرحلة المضنية، بين كثبان تهامة، وتلالها وجبالها، التى ترد أشعة الشمس لظىً وسعيراً.

خرجوا من بيوتهم يثيرهم تطلعهم إلى رؤية هذا الوافد العظيم.. لما انتشر من خير دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة، ومما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم، وكانت عندهم موضع التقديس.. يضاف إلى ذلك سبب آخر، هو أن النبى ﷺ قد هاجر من مكة إلى المدينة ليقيم بها، وكل طائفة بالمدينة ترتب لهذا المقام الشريف، كلٌّ حسب حاجته ومصلحته.. لكن بين هؤلاء وهؤلاء بشر، انغمرت قلوبهم بالإيمان، فلا حاجة لهم ولا مصلحة إلاَّ الترحيب بالوافد العظيم.. إنهم الأنصار الذين قال فيهم النبى ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعْباً.. لسلكتُ وادى الأنصار وشِعْبهم، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرءًا من الأنصار» . وذلك لاستقبالهم العظيم..

ومن هؤلاء الذين أحبوا محمداً وأحبهم عبد الله بنى الحارث الزبيدى.. ذلك الأنصارى الذى أعد نفسه لخوض تجربة الإيمان، والذى تُجمع كل المراجع التاريخية على أنه كان من الصحابة المقربين إلى النبى ﷺ، وأنه عليه أفضل الصلاة والسلام هو الذى سمَّاه عبد الله بعد أن كان اسمه العاصى، حيث يذكر الطبرى قصة خلاصتها أن النبى ﷺ سأله: ما اسمك؟

فقال: «العاصى»: فقال النبى ﷺ: «العاصى»؟ إثم عند الله.. ومن يومها تبدل إسمه من العاصى إلى عبد الله، وكان يُكنى بأبى تراب، تشبها بالإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكان من الحريصين على العبادة، الأمر الذى شد انتباه غيره من الصحابة فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار.. والجدير بالذكر أن عبد الله بن الحارث عَدَّه الرواه والمحدثون والمؤرخون من أصحاب الصفة. وهم جماعة من فقراء المؤمنين الأوائل، كانوا ينقطعون فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة للعبادة وسُمُّوا بأهل الصُّفة.. ويرجع ذلك إلى أن النبى ﷺ كان يطلب منهم أن يصطفوا صفاً خاصاً بهم عند الصلاة، وكان موقعهم بالنسبة للحرم النبوى فى الجهة المقابلة لحائط القبلة، فكانوا يفعلون ما يُطلب منهم حتى عرفوا بهذا الاسم أو تلك الصُّفَة.

وأما الحكمة التى من أجلها طلب النبى من أهل الصُّفَّة، ومنهم عبد الله بن الحارث، أن يصطفوا صفاً خاصاً بهم، هى أن يراهم جمهور المصلين فيُحسنوا عليهم بدون أن يُريقوا ماء وجههم بالطلب أو بالسؤال.. كان النبى ﷺ يطلب كل مساء من أغنياء الصحابة أن يأخذ كل واحد منهم جماعة من أهل الصفة يستضيفونهم فى العشاء، وكان النبى يبدأ بنفسه فيجمع عدداً من هؤلاء المؤمنين ليكونوا فى شرف ضيافته.

وأما عن مجىء هذا الصحابى الجليل إلى مصر ودفنه بالمحلة الكبرى فيذكر ابن الزيات فى كتابه أن عبد الله بن الحارث الزبيدى كان فيمن دخل مصر من الصحابة ودفن فيها، فقال: ممن دخلها عبد الله بن الحارث من أصحاب الرسول ﷺ، وآخر من مات بها بعد أن عمرَّ عُمراً طويلا «ولكن ابن الزيات لم يذكر أسباب حضور عبد الله بن الحارث الزبيدى إلى مصر واستقراره بها.

وقال الإمام أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه: «حججتُ طفلاً مع أبى في سنة من السنين، فرأيتُ الناسَ يزدحمون فى الحَرَم، فسألت عن ذلك، فقيل لى: أنه عبد الله بن الحارث الزبيدى من أصحاب محمد ﷺ. فأخذنى أبى من يدى ثم أجلسنى أمامه وقال: يابنى، اسأله أن يمر بيده على رأسك.. فسألته فمرَّ بها..» ولم يذكر أبو حنيفة رضى الله عنه شيئاً عن مقدمه إلى مصر واستقراره بها حتى الوفاة.

وعن نفسه وعن صحبته المباركة للنبى ﷺ يذكر عبد الله بن الحارث قائلا: لقد رأيتنى سابع سبعة أوسادس ستة مع رسول الله ﷺ فى دار رجل، فمر بلال فناداه بالصلاة، فخرج، فمررنا برجل وبُرْمَتُهُ على النار، فقال رسول ﷺ: أطَابَتْ بُرمتك؟ قال الرجل: نعم، بأبى أنت وأمى. فتناول منها تصنُّعاً، فلم يزل يمسكها حتى أحرم بالصلاة وأنا انظر إليه «وهذا دليل على أن هذا الرجل الصالح كان من قلة المرافقين للنبى».

وعن فتح مكة تكلم المقريزى فذكر أسماء من شهد فتحها من الصحابة الأجلاء نقلاً عن ابن الحكم، فقال: «قدم عبد الله بن الحارث بن الزبيدى إلى مصر فى جيش عمرو بن العاص.. وكان معدوداً من فرسان الصحابة، وتولى قيادة فيلق من فيالق الجيش، وأبلى بلاء حسناً فى فتح مدن مصر وقراها. وهنا تتضح الإشارة إلى وصوله إلى مصر وسبب ذلك.

وتواصل روايات المؤرخين تأريخها لشخصية هذا الصحابى الجليل عبد الله بن الحارث، فتذكر أنه عندما استتب الأمر للمسلمين فى مصر بدأ عمرو بن العاص يخط الخطط فى الفسطاط القديمة للقبائل العربية التى وفدت معه للفتح، كما أنه استبقى بعض الصحابة الذين يأنس لهم ويطمئن إليهم وكان من بينهم الصحابى الجليل عبد الله بن الحارث. الذى أقطعه إحدى قرى الوادى بالمحلة الكبرى حالياً وهى صفط تراب، فسكنها هذا الصحابى، وبنى بها داراً ومسجداً، وقد كانت داره التى سُميت بدار الأنصارى، ويبدو أن هذه القرية سُميت بكنيته أبى تراب.

وكانت داره ملتقى لكل وافد أو عابر سبيل، ينزلها حتى على سبيل التبرك، حيث يحظى بلقاء واحد من أصحاب محمد ﷺ، فيجد من صاحب الدار عبد الله ابن الحارث كل كرم ومودة، برغم تواضع إمكانياته التى كانت تصل أحياناً إلى حد الكفاف. لكن برغم ذلك كان يجود بما عنده متذكراً ما تعلمه من النبى ﷺ الذى كان يجود بكل ما عنده لأى عابر سبيل، أو صاحب حاجه، فيشمله بعطفه ورقته ومودته، حتى لايجعله يشعر بما كان يريد أو يحتاج.. وهى سلوكيات لا تكون إلا مَمنْ كان نبياً رسولا. وكثيراً ما كان هذا الصحابى الجليل يحدث من يقصده عن هدى النبى وتعاليمه وأحاديثه، بأسلوب من كان قريباً منه، عليه الصلاة والسلام.

وأما مسجد عبد الله بن الحارث فقد تحول فى حياته إلى دار للعلم، إلى جانب كونه داراً للعباده، فقصده طلاب العلم يستزيدون من علم هذا الصحابى الذى استقاه من النبى ﷺ وصحابته، وظل على هذا الحال حتى كانت وفاته فى عام ٨٨ بعد أن عمَّر طويلاً، فقيل إنه تجاوز المائة عام، قضى معظمها فى العبادة والجهاد فى سبيل الله.

* * *

٦ سارية الجبل
قائد فتح فارس

كان من أشد الناس إيماناً، ومن أكثرهم جهاداً. . وكان من صحابة رسول الله ﷺ، حيث أدرك الإسلام وآمن به مبكراً وتشرَّب مبادئَهُ وقيمَه. . وكان ممن جاهد وكافح ونافح فى حياة النبى ﷺ، أو بعد مماته فى عصر الخلفاء الراشدين، وكان من السابقين الذين رفعوا راية هذا الدين الحنيف فى الجزيرة العربية أو فى غيرها من الأمصار التى دخلها الإسلام. وقد أبلى بلاءً حسناً فى ذلك إبَّان خلافة الفاروق عمر رضى الله عنه، حين قام بفتح بلاد فارس، فكان هذا الصحابى الجليل من أعمدة جيش المسلمين. وكان إلى جانب كونه فارساً مغواراً لايُشَق له غبار كان شاعراً مرهفَ الحس.

ذلك هو سارية بن زُنَيم بن عمرو بن عدى بن بكر بن كنانه أشد الناس حضراً ومدنية.

اختلفت الروايات فى شأن تاريخ ميلاده. فمنها ما يرى أنه ولد قبل الهجرة، ومنها مايرى أنه ولد قبل ظهور الإسلام، ولعل الرأى الثانى هو الأرجح، أى ولادته قبل ظهور الإسلام وإلاَّ فكيف تكون إنجازاته التى تمت فى صدر الإسلام وهو لم يزل طفلا صغيراً؟ كيف يكون مثلا مسئولا عن جانب من القوات فى فتح فارس إذا لم يكن من قبل قد تدرب على فنون الحرب وإدارته وقيادته، وهو ما لم يتوفر لطفل صغير وُلد بعد الهجرة. . ثم كيف يمكنه أن يتدخل فى أمر قد اتخذه النبى ﷺ، وهو إهدار دم ابن شقيقه، لأنه قال شعرًا رثى فيه قَتْلى بدر من المشركين، وهجا رسول الله ﷺ، وأن يقبل النبى وساطته فيصفح عن ابن أخيه الذى أعلن إسلامه، لو لم يكن سارية رجلاً ناضجاً، له من الفضائل والأعمال فى سبيل الله ما يجعل النبى ﷺ يقبل وساطته.

إذن فالأرجح أنه وُلد قبل الإسلام، وأنه أسلم وحسن إسلامه قبل الهجرة أو بعدها، وهو فى سن تسمح له باتخاذ هذا القرار، الذى يجعل أقرب الأقربين عدواً له..

أمَّا؛ لماذا اختصر اسمه الطويل إلى اسم «سارية الجبل» وعُرف به فى التاريخ الإسلامى؟ فإن لذلك قصة حقيقية، ومصدر صدقها أنها وردت فى الروايات والمصادر والأخبار الموثقة، بحيث لاتختلف واحدة عن غيرها، وإنْ كانت فى تفصيلاتها ووقائعها أغرب من الخيال، وقد شاهدها أو عاصرها أو سمع بها وقالها نفر من الصحابة الأجلاء، رضوان الله عليهم. وأن الذين عُنُوا بنقلها نفرٌ من أكثر المؤرخين دقة وتمحيصاً، وفى مقدمتهم ابن الأثير، والطبرى، والبلاذرى، وأن هذه القصة لاتختلف فى رواياتها من الأقدمين أو المحدثين. مما لا يدعو مجالا للشك.

القصة تبدأ حيث قصد «سارية الجبل» بَلَدَيْنِ من بلاد الفُرس، هما «فسا» و«درانجرد»، فلما انتهى إلى المكان الذى يعسكر فيه الفُرس نزل عليهم بقواته وحاصرهم، وأطال حصاره لهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا مدداً، فأتى إليهم أكراد فارس، وكان أفراد هذه المدد من الكثرة بحيث جعلوا قوات الفُرس تحيط بقوات المسلمين من كل جانب.. ويتغير الموقف، فيصبح سارية وقواته إزاء هذا الحشد من القوات غير المتوقع فى وَضْعٍ حرج. فما هى إلا فرصة مواتية من فرص الحرب حتى تطبق هذه القوات الكثيرة العدد على المسلمين وتفنيهم عن آخرهم.

وفى الجانب الآخر فى المدينة المنورة.. أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يستولى عليه قلق شديد، مصدره أن هذه القوة بقيادة «سارية» لا قبَلَ لها على مواجهة هذه الأعداد الكبيرة من قوات الفرس، وهكذا يشغله أمر هذه القوة الإسلامية المعرضة للهلاك، حتى إذا هجع إلى النوم رأى فيما يرى النائم انبلاج الصبح، وابتداء المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرس، وموقف الفريقين، وإعداد كل فريق، وأن المسلمين متمركزين فى صحراء، إنْ أقاموا فيها أُحيط بهم من كل جانب، فوقعوا فى مصيدة وحصار قد تكون فيه نهايتهم المحتومة، وإن هم تحركوا من مكانهم ولجئوا إلى جبل هناك جعلوه حائطاً يحمى ظهورهم لم

يُهاجموا إلا من جهة واحدة، وربما كان ذلك محققاً لنصرهم، أو على الأقل لنجاة نفر غير قليل منهم.

واستعاذ بالله الفاروقُ عمر رضى الله عنه من هذه الرؤيا التى ضاعفت من قلقه على قواته، حتى إذا حَلَّ موعد الصلاة، أمر مناديه أن ينادى المسلمين: «الصلاة جامعة»، ثم قام فى الناس خطيباً مستهلا خطبته بقوله: «أيها الناس؛ إنى رأيتُ هذين الجمعين ـ يقصد المسلمين والفرس ـ وأخبرهم بما رأى، ثم صاح فجأة وبغير مقدمات وهو مستمر فى خطبته: «ياسارية.. الجبل.. من استرعى الذئب ظلم» فالتفت القوم بعضهم إلى بعض مندهشين من عبارة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، تلك التى لم تكن لها مقدمات أو علاقه بما يقول، فلما فرغ من صلاته سأله برفق الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «ما شىء سَنَحَ لك فى خطبتك؟». ورد عمر رضى الله عنه: «وما هو؟».. قال على: «قولك: ياساريةُ الجبَلَ.. الجبَلَ، من استرعَى الذئب ظلم».. قال عمر مندهشاً: «وهل كان ذلك منى؟»، قال على: «نعم» قال عمر: «ربما لأنه وقع فى خلدى هذه الساعة أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عَدَلُوا إليه قاتَلَوا مَنْ وجدوا وقد ظفروا، وإن جاوَزُوا هلكوا.. فخرج منى ما تزعم أنك سمعته».

لكن الغريب والعجيب حقاً أنه فى تلك الساعة أجمع سارية ومَنْ معه إلى الاستناد إلى الجبل والتحصين به، وقاتلوا الفرس من جانب واحد، فظفروا بهم، وانتصروا عليهم، وقتلوا منهم ـ وهم فى أعدادهم القليلة ـ أعداداً كثيرة.

غير أن الأغرب والأعجب أنه عندما جاء البشير بالفتح والانتصار بعد شهر من هذا الحدَث، ذكر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أن سارية ومَنْ معه قد سمع فى ذلك اليوم فى تلك الساعة، حين جاوزوا الجبل، صوتاً هو بعينه صوت عمر بن الخطاب ينبههم بقوله: «ياسارية الجبل.. الجبل، من استرعى الذئب ظلم».. فتوجهوا من فورهم إلى الجبل، واستندوا إليه، وكان لهم النصر.

ويذكر هذا المبشر بالانتصار الذى أرسله سارية إلى المدينة أن المسلمين قد استولوا فى هذه المعركة على مغانم منها سَفط[1] فيه جواهر، رأى سارية الجبل ومَنْ معه من المسلمين أن يقدموه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى أنقذهم فى ساعة العسرة قائلا: «إن سارية والمسلمين استوهبوا هذا السَّفط بما فيه.. وجعله لأمير المؤمنين..» وهنا تجهم وجه عمر رضى الله عنه وقال فى غضب بالغ: «لا، ولا كرامة، حتى تقدمَ على ذلك الجند.. فتقسمه بينهم».

وفى طريق عودته من المدينة إلى حيث يوجد سارية وقواته بفارس ومعه هذا السَّفَط المملوء بالجواهر - كان الناس يسألونه: هل سمع ومن معه شيئاً يوم الوقعة؟ فكان يرد عليهم: «نعم سمعنا يا سارية.. الجبل وقد كدنا نهلك لولا أن نبهتنا هذه العبارة من أمير المؤمنين إلى الجبل فلجأنا إليه، واعتصمنا به، ففتح الله علينا..».

هذه القصة استوقفت كُتَّابَ السير قديماً وحديثاً، وقد علق عليها الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «الفاروق عمر» بما يفيد صدق وقوعها، مبرراً ذلك ومؤكده.

ويبقى من هذه السطور فى معرض سيرة هذه الصحابى الجليل سارية الجبل سؤال، هو: كيف وصل إلى القاهرة ليتوفى ويدفن فيها؟

لعل إجابة هذا السؤال دعت الكثير من العلماء والباحثين إلى مزيد من التقصى والبحث فى الكتب القديمة.. حتى يثبتوا أن هذا الضريح الذى يعرفه العامة فى مصر بضريح ومسجد سارية الجبل، هو بالفعل ضريح هذا الصحابى الجليل، فتذكر الدكتورة سعاد ماهر فى تأريخها لمسجده: «إنه بالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم، لم نجد ذكراً لأحد منهم أن سارية الجبل الصحابى الجليل قد وفد إلى مصر، واستقر بها، ومات ودفن فيها.. ولكن من ناحية أخرى لايوجد ذكر فى هذه الكتب لمكان آخر استقر فيه «سارية» حتى توفى فيه ودفن. وما يؤكد ذلك أن

(١) السَّفَطُ: وعاء توضع فيه الأشياء.

ابن جبير يذكر عند حديثه عن مشاهير الصحابة فى مصر، بأن سارية الجبل رضى الله عنه قد جاء مصر واستقر فيها، محدداً قبره فيقول: «إنه يوجد بسفح المقطم بالقاهرة. وهو بالفعل المكان الذى يعرفه العامة والخاصة بأنه يخص سارية الجبل، الصحابى الجليل رضى الله عنه. وهو ما قامت بالتأريخ لمسجده وضريحه الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن مساجد مصر وأولياء الله الصالحين، مما يؤكد بصورة أو بأخرى تواجد رفات هذا الصحابى الجليل هنا بمصر كغيره من الصحابة الذين وفدوا إلى مصر لسبب أو لآخر.

* * *

٧ بشر بن أبى أرطأة
الذراع الأيمن فى تحرير مصر

يخطئ مَنْ يظن أن الإسلام دخل مصر فاتحاً، أو حتى منْ يبالغ عن عمد وسوء قصد فيقول: غازياً ففى هذا الوصف لدخول الإسلام مصر تجاوز واجتراء، تجاوز للمعنى العظيم الذى أحدثه الإسلام بدخوله مصر، واجتراء على هذا المعنى السامى، فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام فاتحاً أو غازياً، يفتح البلاد ويغزوها بحد السيف، إنما الإسلام كان يحررها من تسلط واستبعاد إمبراطوريتين فى العالم القديم ـ الفُرس والرومان ـ اللتين ذاقت منهما الأمم والشعوب سوء العذاب.

ومصر بالذات ـ كما يرى المنصفون من المؤرخين ـ كانت تقاوم الرومان، ولكن بدون جدوى.. ويوم أحلت عليها طلائع الإيمان كانت مُعَدَّةً ومهيأة تماماً لاستقبالها.. فليس مصادفة أن يسارع أهلها إلى هؤلاء المؤمنين الذين يدخلون البلاد وعلى ألستهم «الله أكبر» تدوى، فتملأ الأرض رحمة وعدلا، فتطمئن النفوس التى وجدت فى الإسلام خيرَ خلاصٍ من الرومان واستعبادهم.. ومن هؤلاء الذين شكلوا طلائع كتائب الإسلام إلى مصر.. بِشْر بى أبى أرْطَأة.

وبشر ابن أبى أرطأة المعروف فى الإسكندرية بسيدى بِشْر، من صحابة رسول الله ﷺ، وإليه تُنسب الكثير من المنشآت، وأهمها مسجده الذى يوجد به ضريح يضم جثمانه الطاهر، وبه أيضاً تسمى بعض الشوارع والميادين بالعاصمة الثانية فى مصر، كما تُنسب إليه بعض الدور التجارية الموجوده الآن بالإسكندرية.... هذا الصحابى الجليل الذى ترجح أغلب المصادر بأنه هو الموجود بالإسكندرية قد وفد إلى مصر أيام الفتح الإسلامى كواحد من المجاهدين فى سبيل نشر الدعوة

الإسلامية، وقد أبلى بلاءً حسناً فى الحروب التى قادها عمرو بن العاص، مع الرومان لتحريرمصر.

ولعل بشر بن أبى أرطأة قد شرف بهذا العمل الكبير وهوالاشتراك فى تحرير مصر، مع غيره من المسلمين، حيث إنه لم يشارك فى غزوات النبى ﷺ، وذلك لصغر سنّه، كما تذهب إلى ذلك بعض الروايات والمراجع القديمة والحديثة، وفى مقدمتها «دُرُّ السَّحابة فيمن دخَلَ مصر من الصحابة» و «مساجد مصر».

لقد جاء فى كتاب «دُرُّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة أن بشرَ بن أبى أرطأة كان من صحابة رسول الله ﷺ، وأنه شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص من قِبلَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأنه اختلط بأهلها، وكان من شيعَة معاوية ابن أبى سفيان، وشهد معه من قبل معركة صفين، وأنه تولى إمارة البحرين فى خلافة معاوية لقاء مساندته له فى صراعه ضد على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

والحق أن اختيار بشر بن أبى أرطأة طريقه إلى جانب معاوية بن أبى سفيان كان من الاختيارات المحرجة فى حياة كثير من المؤمنين، ومنهم هذا الصحابى الجليل، إذ كيف يكون هذا الاختيار غير صعب وهو مبنى على الوقوف فى مواجهة على ابن أبى طالب آخر الخلفاء الراشدين، وابن عمّ النبى ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء، رضى الله عنها، وصفى النبى، وفارس الإسلام، وأبو الحسن والحسين ريحانتا رسول الله ﷺ؟

ثم كيف يشترك فى معركة - أعنى «صفّين» - يكون طرفها الآخر من المسلمين، وقد عَهِدَ النبى ﷺ للمسلم ألاَّ يضعَ سَيفاً على عُنق أخيه المَسلم، مهما تكن الأسباب والعلل؟ وكيف يقبل المسلمون أن يسهموا فى إذكاء نار الفتنة التى فرقت جمعهم وتماسكهم شيعاً وأحزاباً؟ فتنة لم تنته إلى يومنا هذا؟

لكن معاوية بدهائه وحيلته استطاع أن يقنع بشر بن أبى أرطأة، كما استطاع من قبل إقناع غيره من كبار الصحابة، مصوراً لهم أنهم إنما يفعلون ذلك كى يصلوا إلى قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه للثأر منهم.. وليس الخروج إلى «صفين»

معناه حربَ عليٍّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وسفك الدماء الذكية الطاهرة للمؤمنين. . ومن عجيب الأمور أن هذه الخدعة قد انطلت على الكثيرين، فلم يتنبهوا إلى أن معاوية يصنع ذلك لنفسه إلاَّ بعد فوات الأوان ووقوع الفتنة.

وعلى هذا خرج بِشْر بن أبى أرطأة مع مَنْ خرج لملاقاة على بن أبى طالب فى صفين، وحدث ماحدث ،وتواترت الأحداث من بعدها، وتأكد المؤمنون أن معاوية لم يكن يبحث ـ كما قال ـ عن قتلة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضى الله عنه، وإنما كان هدفه التخلص من رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، حتى يمكنه تحويل الخلافة الراشدة إلى مُلْكٍ عَضُوض له ولأبنائه وأحفاده من بعده، وسفك دماء المؤمنين.

وهنا أدرك بشر بن أبى أرطأة ـ كما تذكرالرويات التاريخية ـ الحيلة الماكرة، ولكن بعد فوات الأوان،وبعد أن أصبح معاوية بن أبى سفْيان من القوة بحيث يستحيل التمرد عليه ومنجاهرته بالعداوة. . ويفضل بِشْرُ الصمت،كغيره ممن سالموا معاوية، خوفاً من بطشه، بل والرحيل إلى مصر، تلك التى كان قد قَضَى فيها ما قضَى أيام الفتح الإسلامى مع عمرو بن العاص، فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

نقول لم يجد هذا الصحابى الجليل مكاناً فيه الأمن والأمان خيراً من مصر يلوذ به من الأمويين الذين استفحل بطشهم، واستشرى شرهم، خاصة مع أهل البيت، وكل من يفكر حتى فى مناصرتهم، أو يعترف بفضلهم على العالمين. وهل هناك فضل أكبر من أن يكون محمد ﷺ هو أساس هذا البيت الشريف!؟

وفى مصر ـ أو بالتحديد على واحد من سواحلها بالإسكندرية ـ عاش هذا الصحابى ما بقى له من سنوات فى حياته، فكان مثالاً طيباً. لصُحْبَة مباركة، هى صحبة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وكان بيته ومسجده ملتقى لمن آمن بمحمد ورسالته، يحدوه فى ذلك أمران:

أما أولهما فهو من الصحابة. وكم كان لهذا الأمر من تقدير وتقديس عند الناس، فما زال الإسلام فى بداياته لم يمض عليه قرن من الزمان، ومازالت

ذكرى انتصاراته ماثلة فى الوجدان، ومازال الناس فى كل مكان دخله الإسلام يتشوقون إلى رموزه، وفى مقدمة هذه الرموز أصحاب محمد ﷺ.

وأمَّا الأمر الثانى الذى جعل الناس يُقبلون على هذا الصحابى الجليل بشر بن أبى أرطأة فهو أنه كان من الذين أبلوا بلاءً حسناً فى تحرير مصر من الرومان، ودخول أهلها فى دين الله أفواجا، ونشر مبادئ هذا الدين وقيمه القائمة أساساً على العدل والمساواة، فليس هناك فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى، وقد استشعر الناس هذه المعانى جميعها فى هذا الصحابى الجليل.

وهكذا استقر هذا الصحابى الجليل بالإسكندرية إلى آخر أيام حياته، حتى أنه بعد أن فاضت روحه الطاهرة بنى له مسجداً فى الحى الذى كان يسكنه.. ونُسب الحى بأكمله إليه، وهو المعروف الآن بسيدى بِشْر، أحد أحياء الإسكندرية الآن، تخليداً لاسم هذه الصحابى الجليل الذى اختار هذه المدينة دون غيرها من المدن العربية أو المصرية.

* * *

٨ عبد الله بن عمرو بن العاص
سبق أباه إلى الإسلام

من النماذج العظيمة فى تاريخ الإسلام.. تلك التى أفرزها هذا الدين الحنيف فى فترة وجيزة، هذا الصحابى الجليل الذى اصطبغت أفعاله وأعماله بمبادئ الإسلام وقيمه، حيث تجده قائم الليل، صائم النهار.. لايعرف لسانه مايؤذى به أحداً، ولا ينطق إلا بذكر الله.. تالياً قرآنه، ومسبحاً بحمده، مستغفراً لذنبه، تراه وقد تذوق حلاوة الإيمان، فلم يعد الليل والنهار يكفيان لتعبده، هذه العبادة التى كان يحرص عليها بشكل غير مألوف مِمَّا جعل النبى ﷺ ـ الذى جاء يدعو الناس إلى عبادة الله ـ يضطر للتدخل فى عبادة هذا الصحابى الجليل، حيث رأى فيها تشدداً وتزيُّداً لم يحث عليهما الإسلام، حتى قالوا عنه: إنه كان من التوَّابين العابدين الأوَّابين..

ذلك هو عبد الله بن عمرو بن العاص.. ومنذ أن سبق أباه عَمْرَو بن العاص إلى الإسلام، ووضع يمينه فى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلبه مضاء بنور الله، ونور طاعته.. وظل متمسكاً بإيمانه حتى لفظَ أنفاسه الأخيرة.

وبقدر ما كان أبوه عمرو بن العاص مشهوراً بالذكاء والدهاء وسعة الحيلة بقدر ماكان عبد الله مشهوراً بين الصحابة رضوان الله عليهم بالعبادة والزهد وصدق الإيمان، وكأنه خُلِقَ كى يكون قديساً عابداً، لايشغله عن الذى خُلِقَ له وهُدِىَ إليه شيءٌ فى الدنيا، ولا يُنسيه ما اقتنع به وآمَنَ أىُّ شاغل من شواغلِ الحياة.

كان يعكف على القرآن.. فكان كلما نزلت منه آية حفظها واستوعبها وتدبرها، حتى إذا تَمَّ واكتمل القرآن فى قلبه لم يكن لجميعه حافظاً فحسب، أو ينطبع على ذاكرته كتابا يردد آياته.. بل كان يحفظه ليكون بعد ذلك عبداً صالحاً، يحل ما

أحل الله، ويحرمً ماحرم، ويستجيب له فى كل ما يدعو إليه.. يحفظ القرآن لينير قلبه، وتهدأ نفسه، وكأنه يردد قوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(1).

أيامه كلها تتلخص فى أنه من الفجر إلى الفجر فى عبادة موصولة. صيام وصلاة، وتلاوة للقرآن، حتى استدعاه النبى ﷺ وقال له: «ألمْ أُخبَرْ أنكَ تصوم النهار لا تفطر، وتصلى الليل لا تنام.. فحسبُك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام..»

قال عبد الله: «إنى أطيق أكثر من ذلك ياسول الله».

قال النبى ﷺ: «فحسبُك أن تصوم فى كل جمعة يومين».

قال عبد الله: «فإنى أطيق أكثر من ذلك يارسول الله».

قال النبى ﷺ: «فهل لك إذن فى خير الصيام.. صيام داود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً..». وقد قصد الرسول ﷺ من ذلك أن يخفف عن هذا الصحابى المؤمن ويُيسر له أمر دينه، وخير الأمور الاعتدال.

وعاد النبى ﷺ يسأل عبد الله بن عمرو بن العاص بعد إقباله على العبادة إقبالاً شديداً مماً يُشكل خطراً حقيقياً على حياته، الأمر الذى كان يشغل بال أبيه عمرو ابن العاص فيشكوه إلى النبى ﷺ، فقال له النبى: «علمتُ أنكَ تجمع القرآن ليلة، وإنى أخشى أن يطول بكَ العُمر وأن لا تقدر على قراءته.. اقرأه فى كل شهر مرة.. اقرأه فى عشرة أيام مرة، اقرأه كل ثلاث..».. ثم قال له النبى ﷺ: «إنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سُنتى فليس منى»، مؤكداً معنى اليُسْر فى العبادات.

فى هذه المرة التى أمر النبى ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بالقصد فى العبادة، مجدداً له مواقيتها.. فى حضور أبيه عمرو بن العاص أخذ النبى يَدَ عبد الله ووضعها فى يد عمرو بن العاص وقال: «افعل ما أمرتُك به وأَطِعْ أباكَ» قالها

(1) سورة الرعد ـ من الآية ٢٨.

النبى ﷺ متأكداً أن عبد الله بما أوتى من إيمان سوف يطيع والده مادام ما يؤمر به ليس معصية للخالق.

هذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص حيث تضع الحرب مع المشركين أوزارها، أما إذا خرج جيش الإسلام إلى جهادٍ يلاقى فيه المشركين الذين يشنون عليه الحرب والعداوة كما يقول المفكر الإسلامىّ خالد محمد خالد: «وجدناه فى مقدمة الصفوف.. يتمنى الشهادة بروح محبٍ وإلحاح عاشق».

مقاتلا صنديداً لايشق له غبار، حيث تنقلب السماحة إلى شراسة من أجل الحق.

وقد اشترك في معظم غزوات النبى ﷺ مع المشركين بقلب مؤمن مفعم بالإيمان.. ولم يكن فى واحدة منها متردداً أو هياباً.. ولكن ما أكثر تردده وما أكثر خشيته يوم أن دعاه أبوه عمرو بن العاص للاشتراك فى موقعة «صفين» حيث اختار عمرو بن العاص عدم الوقوف إلى جانب الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنه وناقشه فى ذلك الأمر طويلا، إذ كيف يشهر المسلم السلاح فى وجه أخيه المسلم.. ولما يَئِسَ أبوه من رفضه وتردده ذَكَّرَهُ بنصيحة رسول الله ﷺ قائلا: «ألم يقل لك الرسول أطِعْ أباك؟!».

وهنا صدع عبد الله لأمر أبيه، وتوجه إلى المعركة، ولكنه لم يشهر سلاحاً، وهو أمر يؤكده أغلب المؤرخين والرواة، مُعَلِّلاً ذلك بأنه أطاع أباه فى التوجه، ولم يشارك فى الحرب.

ويذكر المفكر الإسلامى الكبير خالد محمد خالد أن المؤرخين اختلفوا فيما إذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص قد اشترك فى هذه المعركة أم لا، لأن القتال لم يلبث إلا قليلا حتى وقعتْ واقعةٌ جعلت عبد الله يتحول ليكون ضد الحرب وضد معاوية بن أبى سفيان، وذلك أن عمارَ بن ياسر الذى كان يقاتل مع الإمام علىٍّ رضى الله عنه، وكان موضع إجلال مطلق من أصحاب الرسول ﷺ. فقد تنبأ فى يوم بعيد بمصرعه وقتله بأيدى فئة باغية، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أحد الذين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

هذا الصحابى الجليل - عمار بن ياسر - قُتِلَ فى هذه المعركة، وسَرَى النبأ كالريح، وانتفض عبد الله بن عمرو منزعجاً غاضباً قائلا: أو قد قُتِلَ عمارٌ..؟! وأنتم قاتلوه..؟! إذن فأنتم الفئة الباغية التى تنبأ بها رسول الله فى حديثه...

ولم يكتف بذلك، وإنما أعلن هذا أمام جيش معاوية هاتفاً فيهم بأنهم بُغَاة - بنص حديث رسول الله - لأنهم قتلوا عماراً. وقد صدقت نبوءة رسول الله ﷺ قائلا: «وها أنتم - أى أفراد جيش معاوية - الفئة الباغية».

وعلم معاوية بن أبى سفيان بما يقول عبد الله بن عمرو بن العاص، فدعا معاويه عَمْراً ومعه ابنه عبد الله، وقال لعمرو: « ألا تَكُفُّ عنا مجنونك هذا؟»

فقال عبد الله: «ما أنا بمجنون، ولكنى سمعتُ رسول الله يقول لِعَمَّار: تقتلك الفئة الباغية».

قال له معاوية: «فَلِمَ خَرَجْتَ معنا؟».

قال عبد الله: «لأن رسول الله أمَرَنى أن أُطيع أبى، وقد أطعتُه فى الخروج، ولكنى لا أُقاتل معكم».

وقصة أخرى يذكرها الأستاذ خالد محمد خالد تشير إلى إيمان عبد الله بن عمرو، الذى كان يختلف ولاشك عن أبيه عمرو بن العاص حيث قال لمن يجلس معه فى مسجد الرسول أثناء مرور الإمام الحسين رضى الله عنه: أتحبون أن أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ إنه هذا الذى مرَّ بنا.. الحسين بن على.. إنه ما كلمنى منذ «صِفين، ولأن يرضى عنى أحبُّ إلىَّ من حُمر النَّعَم.»

واتفق مع أبى سعيد الخدرىِّ على زيارة الإمام الحسين، وحينما التقى الاثنان سأله الإمام الحسين: «ما الذى حَمَلكَ على الخروج مع معاوية» فأجاب عبد الله بأن ذلك كان تنفيذاً لتعاليم الرسول ﷺالذى نصحه بأن يطيع أباه فيما يطلب، وقد طلب منه الاشتراك فى الحرب فأطاع.

وهكذا ظل عبد الله بن عمرو بن العاص عابداً قانتاً حتى وفاته بمصر، ودَفْنه فى مكان داره بجوار مسجد أبيه عمرو بن العاص بمصر القديمة، كما يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية، وابن قتيبة فى معارفه، وما تؤكده الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر.

* * *

٩ قيس بن سعد
سياسى روض الإسلام دهاء

على الرغم من أن مصر لم يَشْرُف ثراها برفات الصحابى الجليل قيس بن سعد ابن عبادة الخزرجى، فإنَّ تاريخ الإسلام بها لايمر مروراً عابراً على اسم مَنْ كان والياً عليها من قِبَلِ الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه. إن بلاد مصر من أقصاها إلى أقصاها لاتنسى هذا الصحابى الذى رفع راية الحق والعدل والرحمة بعد تحريرها فى كل شبر فيها، وتجسيداً لهذه المعانى جميعها فلا تخلو محافظة من محافظات مصر من شارع أو ميدان يحمل اسم هذا البطل العظيم.. عرفاناً وتقديراً لمكانته فى الإسلام بصفة عامة، وقدراته الشخصية بصفة خاصة، وهذه القدرات التى أفاض فى الحديث عنها المؤرخون القدامى والمفكرون المُحْدَثُون، وفى مقدمتهم المفكر خالد محمد خالد، والكاتب عبد الرحمن الشرقاوى، فيما كتباه عنه، إما بصورة مباشرة أو بأخرى غير مباشرة. وفى كل الأحوال لاتنسى هذه الكتابات وغيرها فضل هذا الصحابى الجليل. حين تتناول سيرته بالإجلال والتقدير.

كان أنصار النبى ﷺ فى المدينة يعاملونه على حداثة سنّه كما يعاملون الزعماء. حتى إنهم قالوا قولا نقلته الكتب القديمة والحديثة معاً، قالوا: «لو استطعنا أن نشترى لقيس لحية بأموالنا لفعلنا». ومعنى هذه العبارة أن قيساً كان أَجْرَدَ، ولم ينقصه من صفات الزعامة من كرم وجود، وشجاعة وبسالة، واقتحام وجُرأة فى عرف أبناء زمانه سوى «اللحية» التى كان الرجال يتوجون بها وجوههم، كإشارة لنضج صاحبها.

ولعل إشارة الرسول ﷺ إلى بيت قيس بن سعد لأعظم دليل وأصدق شاهد على عراقة هذا البيت وتمسكه بالقيم الأصيلة للإسلام والعروبة معاً. لقد قال الرسول عنه.

«إن الجود شيمةُ أهل هذا البيت».

ولعلَّ رأىَ قيسٍ نفسه وفى قدراته تمدنا بدليل آخر يوضح ملامح وسمات هذا الصحابى الجليل الذى يتفجر حيلة، وذكاءً ومهارة، لقد قال عن نفسه. وكان صادقاً: «لولا الإسلام، لمكرْتُ مكراً لاتطيقه العرب»!.

نقول: كان صادقاً فيما قاله عن نفسه، والدليل ما تمدنا به أحداث حياته، فمثلا كان مع الإمام علىٍّ كرم الله وجهه ضد معاوية بن أبى سفيان فى معركة صفين، وكان يخطط للمواجهة بشكل قد يودى بمعاوية ومن معه فى ساعات، غير أنه كان يرجع إلى نفسه متفحصاً ما ذهبت إليه حيلته وذكاؤه، فيجدها من المكر السَّيىء الخطر، وهنا يتذكر قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1] فيستنكر ما قد فكر فيه، ويتوسل ويستغفر. ولعل معاوية وأصحابه قد استفادوا من مثل هذه القيم التى كان يتسلح بها أمثال قيس بن سعد وإمامهم علىٌّ بن أبى طالب، فكان معاوية بما جُبِلَ عليه من دهاء ومكر يقنَصهم من فضائلهم.

وفى إسلام قيس بن سعد لَدَليلٌ آخر على نُبْل وفضيلة هذا الشاب فضلاً عن أسرته، فها هو ذا أبوه سعد بن عباده يُدنيه من مجلس النبى ﷺ ويقدمه له قائلا: «هذا خادمُك يارسول الله»، فيدنيه منه الرسول ﷺ ويُباركه، ويُعلى من شأنه ومكانته إلَى درجة أنه كان من المقربين إليه، وهو ما أشار إليه الصحابى أنس بن ملك قائلا: «كان قيس بن سعد من النبى ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير».. وهى مكانة لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، فالرسول برؤيته الثاقبة كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدرك قيمة انضمام هذا الشاب الواعد إلى الإسلام فى بداياته، فليست أخبار هذا الشاب فى الجاهلية ببعيدة عن الأذهان. هذه الأخبار

(١) سورة فاطر ـ من الآية ٤٣.

التى تسجل كيف كان قيس يعامل الناس بذكائه الإنسانى، فكانوا لايحتملون منه وَمْضة ذهن واحدة.

حتى كانت المدينة وما حولها لا تحسب حساباً لدَهاء أحد مثل دهاء هذا الشاب . .

غير أن قيساً بعد أن دخل تحت مظلة الإسلام ـ وصار من أشد المدافعين عنه، وقبل كل ذلك تشربت نفسه وقلبه بقيم هذا الدين الحنيف ـ أصبح لا يعامل الناس بدهائه، وإنما بإخلاصه. وكان كلما واجه موقفاً صعباً يأخذه الحنين إلى دهائه وحيلته ومكره فيعود إلى نفسه مكررا عبارته: «لولا الإسلام. . لمكرتُ مكراً لاتطيقه العرب».

وكما تقرر الكتابات قديمها وحديثها بأنه ليس هناك خصلة تفوق الذكاء عند قيس سوى خصله الجود والكرم، هذا الجود وذاك الكرم لم يكونا فطرةً أو خُلُقاً مفطوراً عليهما فحسب وإنما كانت مكتسبة أيضاً من أهله وعشيرته التى تميزت بها بين قبائل العرب قبل الإسلام وبعده. كما أشار النبى (ﷺ) قائلا: «إن الجود شيمة أهل هذا البيت».

ففى هذا البيت، وبين هذه العشرة أُرْضِع قيس الجود والكرم حتى إن الشيخين أبى بكر وعمرَ قالا عن جود قيس وكرمه: «لو تَرَكْنَا هذا الفتى لسخائه لأَهْلَكَ مالَ أبيه». وعَلِمَ سعد بن عبادة بمقالة الشيخين الجليلين، فقال: «مَن يُعذرنى من أبى قحافه وابن الخطاب يُبخِّلان علىَّ ابنى».

ويضاف إلى خصلة الجود فى شخصية هذا الصحابى الجليل خصلة أخرى، هى الشجاعة، لتصبح من الجود صنوان لا يفترقان، أو وجهين لعملة واحدة. . وشجاعته كانت من نوع نادر يعتمد على الصدق بدل الدهاء، ويتميز بالوضوح والمواجهة، وليس بالمراوغة أو المناورة.

ويحدثنا التاريخ فينقل لنا من أمر هذا الصحابى الجليل الكثير والمثير معاً، ولعلنا نتوقف عند فترة تواجده بمصر بعد أن وَلاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب حكمها تقديراً لمكانته وقدراته التى هى وحدها تملأ هذا المكان العزيز والهام فى الدولة الإسلامية، فقد كانت مصر أثمن درة فى تاج هذه الدولة المترامية الأطراف، مصر التى كانت عين معاوية بن أبى سفيان دائماً ترنو إليها من دمشق

بالشام، ولذلك لم يكد يرى قيساً يتولى حكمها حتى جُن جنونه، وخشى أن يحول قيس بينه وبين حكمه فيها إلى الأبد، حتى لو انتصر هو على الإمام علىٍّ كرَّم الله وجهه انتصاراً حاسماً.

ومن هنا بدأ فى الدس لقيس عند أمير المؤمنين الإمام على، ويحيك له المكائد، ولعل معاوية نجح فيما أراد. وإلا فما معنى أن يستدعى على بن أبى طالب قيس بن سعد من مصر ليبلغه بنبأ عزله من الحكم.. ويدرك قيس بذكائه وفطنته أن وراء قرار الإمام على مكيدة من معاويه الذى فشل من قبل فى استمالته إليه، فيقبل قرار أمير المؤمنين راضياً، والأكثر يضاعف من ولائه لعلى حتى يرد على دهاء معاوية، هذا الولاء النابع من الاقتناع الحقيقى بأحقية على بن أبى طالب فى الخلافة دون غيره.

وهكذا لم يُشعر قيس الآخرين بأن علياً كرَّمَ الله وجهه قد عزله عن مصر، فما الولاية، ولا الإمارة، ولا الجاه، ولا السلطان عنده سوى وسائل يخدم بها عقيدته ودينه منذ وضع يده فى يد رسول الله ﷺ. ولئن كانت إمارته على مصر وسيلة لخدمة عقيدة هذا الدين. فإن موقفه بجوار على بن أبى طالب فى معركته ضد البطلان وسيلة أخرى لاتقل أهمية عن الولاية والإمارة. وهكذا نراه قد تقبل قرار العزل راضياً مطمئناً ومعلقاً بأن هذا القرار تأخر عن موعده.. يالها من عظمه!! ونراه أيضاً يلتقى بخليفته فى حكم مصر.. محمد بن أبى بكر فيوجه نظره إلى ما يوفقه فى مهمته الصعبة فى وجود خصمين كبيرين هما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، حيث كانا يديران المعارك ضد على بن أبى طالب من الشام، وهو مانلمحة عند الحديث عن ولاية محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما.

لكن ماهى أسباب اهتمام معاوية بن أبى سفيان بقيس بن سعد؟ وماهى تحركاته ضده؟ وماهو موقف قيس نفسه من معاوية؟

أما الأسباب فهى معروفة، وهى اهتمامه بمصر خاصة، وإمكانيات واليها قيس بن سعد، وعداوة معاويه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، ولذلك بدأ تحركه ضد قيس منذ أن تولى حكم مصر من قبل الإمام على ضد هذا الوالى الذى كان يقول عنه معاوية فى معرض حديثه عن مواجهته للإمام علىٍّ: «إن علياً استعمل

على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو يعدل عندى مائة ألف فارس، وإنه فى موقعه هذا لأثقل خلق الله علينا، مخافة أن يُقبل علىٌّ بن أبى طالب فى أهل العراق، ويقبل قيس فى أهل مصر فأقع بينهما».

وكان قرار معاويه الذى أملاه عليه صاحبه عمرو بن العاص أن يُهادن قيس بن سعد ويُمنيه بما يشاء حتى يأمن شره، ويدس بينه وبين الإمام على، وبدأ خطته بأن كتب إلى قيس: «إنْ كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أثرة رأيتموها، أو ضربة سَوْط ضربها، أو شتيمة رجل. . . فإنكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أن دمه لم يكنْ يحل بكم، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم إدّاً[1] فتب إلى الله يا قيس. فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فَافْعَلْ، وتابِعْنَا على أَمْرِنا، ولَكَ سلطان العِرَاقَيْن[2] إذا ظهرتُ أنا ما بقيتَ أنت، ولمن أحببت من أهل بيتك الحجاز مادام لِى سلطان، وسَلْنى غير هذا عما تحب. فإنك لا تسألنى أمراً إلا أُوتيته، واكتبْ إلىَّ برأيك فيما كتبت به إليك والسلام».

«معاوية بن أبي سفيان»

ولم يتعجل قيس بن سعد الرد على معاويةِ بن أبى سفيان، لأنه يعرف مقدماً ما يهدف إليه، وآثر ملاينته إلى آخر المدى حتى يعرف كل خطته، وكتب إليه: «أمَّا ما سألتنى عن متابعتك، وما عرضت علىَّ من الجزاء فقد فهمته، وهذا أمر لى فيه نظر وفكر، وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك، ولن يأتيك من قبلى شىء تكرهه».

«قيس بن سعد»

ورد عليه معاوية غاضباً: «أمابعد؛ فقد قرأتُ كتابك، فلم أرَكَ تدنو فأعدك سلماً، ولم أرَكَ تُباعد فأعدك حرباً، وليس مثلى يُصانع المخادع ومعه عدد من الرجال، وبيده أعنة الخيل، فلأ ملأنها عليك ياقيس خيلا ورجلا. . ».

«معاوية بن أبى سفيان»

وهنا رد عليه قيس بن سعد: «أما بعد؛ فإن العجب من اغترارك بى، وطمعك فىَّ، واستسقاطك رأيى، أتسومنى الخروج من طاعة أَوْلى الناس بالإمْرة، وأقولهم

(١) إدّاً: أى أمرا عظيما.

(٢) العراقين أى البصرة والكوفة.

للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم إلى رسول الله وسيلة!؟ وتأمرنى بالدخول فى طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله سبيلا!؟ ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس!! أما قولك إنى مالئ عليك مصر خيلا ورجلا، فوالله لأشغلنَّكَ بنفسك، حتى تكون نفسك أهم إليك.. إنك لذو حظ».

«قيس بن سعد»

ويغضب معاوية بعد قراءته لرسالة قيس بن سعد ويحنق ويزداد كرهاً له، خاصة أنه فى كل مواقفه كان إلى جانب على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه. ويعزم معاوية على أمر، هو أن يكيد له عند الإمام علىٍّ، ويعرض الأمر على صاحبه عمرو بن العاص. وانتهيا إلى مكيدة عبرً عنها معاوية بعد ذلك قائلا: «ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندى من مكايدةً كدت بها قيس بن سعد عند على بن أبى طالب، حين امتنع منى قيس، قلت لأهل الشام: لاتَسُبُّوا قيس بن سعد، ولاتدعو إلى غزوه، فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ـ أى رسائله ـ ونصائحه. ألا ترون مايفعل بأهل «خربتا» يجرى عليهم أعطياتهم وأرْزاقهم، ويؤمن سربهم؟!».

وكانت «خربتا» التى يشير إليها معاوية قرية فى البحيرة، اعتصم بها عشرة آلاف مقاتل من القبائل العربية التى استوطنت مصر بعد تحريرها، وقد رفضوا البيعه للإمام على، وأرسلوا إلى عامله على مصر قيس بن سعد قائلين: «إنّا لا نقاتلك، فأبعث عمالك، فالأرض أرضك. ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى مايصير أمْرُ النَّاس» فوافقهم قيس على ذلك، ولم يقهرهم على البيعة، لأنه رأى صواباً فى ذلك، وأن الخطأ إذا حاربهم. وهو ما أكدته الأحداث.

لذلك استفاد معاوية من المسلك السياسى من قيس بن سعد فى الوقيعة والمكيدة بينه وبين الإمام على كرم الله وجهه. وكان ماحدث من أمر عزل هذا الصحابى الجليل عن حكم مصر..

وفى المدينة المنورة التى شب فيها مات هذا السياسى الذىّ روض الإسلام دهاءه.. مات قيس بن سعد الذى كان يقول: «لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة فى النار.. لكنت من أمكر هذه الأمة».

مات بالمدينة ولكن تربة مِصر التى غرس فيها المبادئ والقيم لن تنكره!

* * *

١٠ محمد شبل الأسود
اسم يدل على صفات صاحبه

فى بيت وارف بالنعمة والنعيم، مزهو بالسيادة والشرف، مكرم بالعزة والنسب. . ولأب له فى قريش الصدارة والزعامة، ولأم متواضعة، كل ما حققته من ألقاب الحياة أنها من السرارى أو الجوارى، نشأ وترعرع هذا الفتى ليكون من بَعْدُ أَحَدَ الصحابه الأجِلاَّء.

هذا الرجل الصالح تبدو مراحل حياته فى صورة قد تعجز عن تكوينها القصص والروايات التى ينسجها المبدعون من وحى خيالاتهم، فيرتاب فى مصداقيتها كل من يَقْرَؤُها أو يستمع إليها. . ولا يجد فكاكاً سوى القول بأنها خيالات فنان. . فمن ذا الذى يصدق أن هذا الرجل يولد هناك بالحبشة، لينتقل إلى المدينة المنورة. . ليجوب قلب الجزيرة العربية حتى يستقر به المقام فى واحدة من مدن مصر هى المنوفية ليموت فيها شهيداً ضمن عشرات من الشهداء شرفت بهم هذه البقعة من أرض مصر. . ذلكم هو الصحابى الجليل محمد شبل الأسود.

ومحمد شبل الأسود هى الشهرة أو التسمية التى بها اشتهر وعُرِفَ محمد بن الفضل بن العباس بنى عبد المطلب لبأسه وقوته وشجاعته وإقدامه على الجهاد فى سبيل الله. . ويعلو نسبه ومرتبته، حيث إنه من أشراف قريش أعظم قبائل العرب فى العالم القديم. . وهى سمات وملامح لاتدانيها إلا صفات الأشبال والأسود.

وشبل الأسود رضى الله عنه كان يتسم بصفات ومقومات كثيرة تجعله جديراً باهتمام وتقدير صحابة رسول الله برغم صغر سنه، فهو إلى جانب كونه من آل البيت رضوان الله عليهم فهو ابن الفضل بن العباس، ابن عم النبى ﷺ، وعمه

العالم الفقيه عبد الله بن العباس راوى الحديث ومفسره الذى ترجع إليه كل المصادر الموثوق بها.. وهو - إلى جانب ذلك - عُرِفَ عنه قوة فى الإيمان، وسماحة فى الخلق، وعلو فى الهمة منذ أن أسلم.. فكان بحق من فتية الإسلام وشبابه ممن نِيطَ بهم رفع راية الإسلام واستمراره بعد وفاة النبى ﷺ، والدفاع عَمَّا بشر به هذا الدين من قيم ومبادئ، تعاليم وعقائد.. فلم يرتد أو تلعب بعقله الشكوك والظنون.. وإنما استمر قوى الإيمان ثابت العقيدة.

وإذا كان شبل الأسود لم يشرف بالجهاد فى سبيل الله مع الرسول الكريم وصحابته الأجلاء - لحداثة عمره - فقد شرف بهذا الجهاد حتى استشهد ودفن جثمانه الطاهر بضريح يظله مسجده المعروف بمسجد سيدى شبل بالمنوفية.. إحدى مدن أقاليم مصر التى تعتز ولاشك بأن ثراها يضم رفات هذا الصحابى الجليل.

لكن كيف جاء إلى هذا المكان الذى يبعد مئات الأميال ليدفن فيه؟ وكيف عاش فيه إلى أن استشهد؟ ولماذا استشهد؟ وكيف نُعت بالأسود؟ إن لهذا قصة أو قصصاً تتلوها علينا المصادر القديمة والحديثة معاً.. والتى تؤكد بصورة أو بأخرى علو شأن هذا الرجل فى تاريخنا الإسلامى.

تبدأ هذه القصة منذ وُلد بالحبشة للفضل بن العباس ولد أسماه محمداً فى السنة التاسعة للهجرة، حينما كان الفضل يخرج بتجارة كبيرة للعرب إلى بلاد الحبشة، ولما انتهى الفضل من بيع تجارته.. حدث بينه وبين حاكم الحبشة خلاف على الضريبة المقدرة عليها، مما اقتضاه البقاء فترة لفض هذا الخلاف. ولما تم الصلح بين الطرفين، وَهَبَ حاكم الحبشة جارية حبشية بكراً من سراريه، اسمها ميمونة، هدية للفضل.. نظير صِدْقِه وأمانته وحُسْن تعامله.

وقبل الفضل الهدية، وعزم على الزواج منها، وعند عقده عليها تصادف أن حضر جماعة من الصحابة الأجلاء من المدينة المنورة يستطلعون تغيب الفضل بن العباس ومعه تجارة العرب.. فعقد له عليها فى السنة الثامنة المقداد بن الأسود، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وفى السنة التاسعة ولدت ميمونة للفَضْل ولده محمد شبل الأسود.. ولعله نُعت بالأسود نسبة إلى سواد لونه الذى ورثه عن أمه الحبشية الأصل.. كما أضيف شبل إلى اسمه لاشتهاره بالشجاعة والإقدام.

وأما عن مجيئه إلى مصر فيذكر البعض أنه حضر مصر على رأس جيش لمحاربة بعض المتمردين على الإسلام، وأنه مات شهيداً ضمن من استشهد بالمنوفية فى المنطقة التى عرفت باسم قرية الشهداء، نسبة إلى استشهاد عدد من المسلمين فى تلك المعركة التى تشير إليها الكثير من المصادر التاريخية بأعتزاز وتقدير.

لكن البعض يقول إنه حضر إلى مصر فى وقت الفتنة التى أعقبت وفاة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأنه قُتل على أيدى الموالين لمعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص فى مصر لنصرته لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه. . اللذَين طاردا كل من كان يتشيع للإمام علىّ وآل البيت رضوان الله عليهم فى مصر وغيرها.

ويقول البعض الثالث، إن ما تؤيده الدراسات الحديثة، وفى مقدمتها دراسات الدكتورة سعاد ماهر بكتابها مساجد مصر، أنه حضر مصر واستشهد بها فى المعارك التى حدثت بمنطقة المنوفية بين أنصار عبد الله بن الزبير، وبين جنود مروان بن الحكم، واستشهد فى عام ٦٥٠م ودفن فى مقابر الشهداء، وهو ما تؤكده جميع المراجع التاريخية.

ومهما يكن الخلاف بين المؤرخين حول سبب حضوره مصر وسنة حدوث ذلك، فإنَّ الجميع يؤكدون أنه استُشهد ودُفن بمصر فى المكان الذى أُنشِئَ عليه مسجده الذى يضم ضريحه المعروف باسم سيدى «شبل» بالمنوفية. فسوف تبقى سيرته على مر الزمن كواحدة من السير التى تقترب من الأساطير، مع أنها ليست بأساطير، وإن بدت من فرط إعجازها كالأساطير.

إنها ليست كذلك، فهى حقائق تشكل كل ماكان لرجال الصدر الأول فى الإسلام من شخصية وحياة، من أعمال ومواقف، من قيم ومبادئ، وأنها لتسمو وتتألق لا بقدر ما يريد لها المؤرخون والواصفون. . بل بقدر ما أراد لها أصحابها وذووها، وبقدرما بذلوا فى سبيل بناء دولة الإسلام من جهد وعمل.

محمد شبل الأسود جاء هكذا الحياة كغيره من رجالات الإسلام الأبرار فى أوانهم المرتقب ـ كما قلنا من قبل ـ ويومهم الموعود فحين كانت هذه الحياة تهيب

بمن يجدد لقيمها الروحية وشبابها وصوابها جاء هؤلاء الرجال ليؤمنوا برسالة الإسلام ونبيه الكريم. وحين كانت هذه الحياة تهيب بمن يضع عن البشرية أغلالها، ويحرر وجودها ومصيرها جاء هذا الرجل وغيره وكأنهم الثوار والمحررون. وحين كانت الحياة تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة جاء هؤلاء الرجال رواداً ومعلمين.

ولهذا ولغيره لم يكن غريباً أن يولد شبل الأسود فى الحبشة، وأن يكتسب سواد لونها، وأن ينتقل إلى المدينة المنورة حيث يكتسب إلى مصر مجاهداً، حيث ينال شرف الجهاد والشهادة. إنه واحد من الذين خَصَهُم القدر بأن يكونوا بُناة خير أُمَّة أخرجت للناس.

ويرحل عن دنيانا هذا الصحابى الجليل ليترك لنا الكثير من القيم الروحية، والسيرة الطيبة التى تجعل منه بطلا على مر العصور واختلاف الأماكن فى تاريخ الدولة الإسلامية.

* * *

١١ محمد بن أبى بكر الصديق
أول رأس تـذبح بيـد مسـلم

فى رسالةمن أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، إلى عامله واليه الجديد على مصر محمد بن أبى بكر قال فيها: «. . . واعلم يامحمد أنى قد وليتُكَ أعظم أجنادى: أهل مصر. . ووليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه علي نفسك، وتحذر منه على دينك، ولو كان ساعة من نهار، فإن استطعت ألا تُسخط ربَّكَ لرضًا أحد من خلقه فافعل، فإن فى الله خلفاً من غيره، وليس فى شىء منه. فاشتد على الظالم. ولنْ لأهل الخير وقربهم إليك، واجعلْهم بطانتك وإخوانك. . ».

فى هذه الكلمات القليلة التى تشبه خطاب التكليف بالمسئولية فى النُّظُم السياسية الحديثة. نلمح مدى ثقة أمير المؤمنين الإمام على فى واليه محمد بن أبى بكر. . تلك الثقة يمكن استشعارها من مجرد اختياره لولاية مصر، وهى أكثر الولايات أهمية، فضلا عن أنها تمثل خطراً على الدولة الإسلامية فى وضعها الراهن وقتئذ، حيث تريد الفتنة أن تقتلع كل شىء عظيم أنجزه السلف العظيم. ومن هنا ندرك أن الوالى الجديد لابد أن يكون أهلاً لتحمل هذه المسئولات الجِسَام، فمن هو محمد بن أبى بكر والى مصر الجديد؟

لقد اختلف الرُّواةُ والمؤرخون فى أمر صُحبته للرسول ﷺ، فمنهم مَنْ كان يعده ضمن صحابته، لأنه وُلد فى عام حجة الوداع، ومنهم مَنْ لم يعده ضمن هؤلاء الصحابة الأجلاء، وإنما هو من التابعين الكرام. . ذلكم هو التقى النقى، المكافح المنافح محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما الذى تولى أمر ولاية

مصر فى خلافة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فى عام ٣٨ هـ، ولم يتجاوز الثلاثين.

ورث عن أبيه خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق الكثير من السمات والشمائل، فكان كثير العبادة والنُّسك صوَّاماً قَوَّاماً، صادق الوعد والعهد، ولعل محمدا أورث هذه الصفات الطيبة لإبنه القاسم من زوجته عاتكة بنت زيد الذى كان يكنى به، حيث كان القاسم من أكبر علماء زمانه حتى اعتبر من فقهاء المدينة السبعة.

ولاشك أن اختيار الإمام على كرم الله وجهه لمحمد بن أبى بكر لهذه المهمة الصعبة التى ينوء بها كاهل صناديد الرجال يؤكد كفاءة نادرة، وصدقاً فريداً لهذا الشاب التقى النقى، وأى مهمة تماثل صعوبتها تولّى أمر مصر وقتئذ؟ وقد كانت ولا تزال - باب المشرق العربى الإسلامى من ناحية، وأنها. . أى مصر - كانت وقتئذ كمثل كرة من النار تتأهب للانفجار بسبب قرار قتلة عثمان بن عفان إليها واختفائهم بها من ناحية أخرى، أى مهمه تماثل هذه المهمة؟

والحق أن محمداً كان جديراً بثقة الإمام على، كرم الله وجهه، لولا أن مخالفيه - وكانوا من دهاة الحرب والسياسة - اقتنصوه من حيث فضيلته. . فضيلة الصدق والمواجهة، لا أسلوب المكر والمراوغة.

وواضح من ثقة الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك الشاب التقى النقى محمد أن الأخير كان من الموالين للإمام فى الصراع الدائر بينه وبين معاوية بن أبى سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، واستغلال معاوية هذا الأمر لصالحه ولصالح ذريته من بعده.

كان على الإمام علىٍّ كرم الله وجهه أن يختار لمصر أكثر الناس إخلاصاً وصدقاً، لقربها من منطقة الخطر التى كان يتربع عليها معاوية فى الشام، فلم يجد أفضل من محمد للاضطلاع بهذه المهمة التى بدأها فى نصف رمضان سنة ٣٨هـ خليفة لقيس بن سعد بن عبادة الذى كان والياً على مصر وعزله الإمام على بفعل المكيدة التى صنعها معاوية، والتى أطاحت به بدون سبب أو إساءة. وبرغم ذلك فإن قيساً رضى الله عنه لم يبخل على خليفته محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما

بالنصح، لسببين أولهما: إخلاصه وإيمانه.. وثانيهما: خوفه على ذلك الشاب التقى النقى من مكر وخديعة معاوية بن أبى سفيان.

قال قيس لمحمد بن أبى بكر لحظة تسليمه ولاية مصر: «لايمنعنى عزله ـ يقصد الأمام علياً ـ إياى من نُصحى لك. ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز، فاحفظ ما أُوصيك به يَدُمْ صلاح حالك».

ثم قال:

دع ابن مخلَّد، وابن خديْج، وابن أرطأة.. ومن ضَوَى إليهم ـ وقد كانوا جميعاً من المطالبين بدم عثمان، المتمردين على الإمام على ـ فإن أتَوْكَ فاقبلهم، وإنْ تخلَّفوا عنك فلا تطلبهم، وأنْزِلِ الناسَ منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى، وتشهد الجنائز، فافعل، فإنَّ هذا لا ينقصك. إنكِ والله ما عملت لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة والله موفقك».

كان قيس صادقاً يقصد من النصيحة الأولى أن لا يجعل محمد بن أبى بكر يدخل فى حرب مع المصريين، يدبرها ويخطط لها من الشام معاوية بن أبى سفيان. وأما النصيحة الثانية مؤداها أن يتودد إلى المصريين فيعود مرضاهم أو يشترك فى جنائزهم، خصوصا وأن محمد ليس من المختالين الفخورين الراغبين فى الملك أو الرياسة.

وبرغم صدق قيس بن سعد الذى أكدته الأحداث فيما بعد، عمل محمد بن أبى بكر بعكس ما أوصاه به، بسبب مكيده صنعها معاوية مؤداها أن قيساً متواطئ مع الثلاثة المتمردين على أمير المؤمنين، وأشاع ذلك بين الناس، بشكل جعل محمداً يصدقه، فيحقق لمعاوية هدفه فى الإستيلاء على مصر، بل والنيل منه بقتله.

كيف كان ذلك؟ لندع الأحداث تجيب عن ذلك.. لقد بعث محمد بن أبى بكر إلى هؤلاء الثلاثة ومن معهم من المتمردين يدعوهم إلى بيعته وبيعة أمير المؤمنين، فلم يجيبوه، وهنا بعث إلى دورهم الجند فهدموها ونهبوا ما فيها، وسجنوا ذريتهم، فنصبوا له الحرب، حيث تمركزوا فى البحيرة، فهاجمهم، وكان القتالُ شديداً، وفيه ضعفت قوات محمد بن أبى بكر، لأنها حاربت المتمردين، وهم

آلاف، مضافا إليهم مدداً مستمراً يبعثه معاوية ويقوده عمرو بن العاص بكل ما أوتى من دهاء وتمرس ومعرفة بمصر التى كان أول من دخلها.

وهكذا ما كان لقوات محمد أن تصمد أمام هذه الجحافل الجرارة، وما كان منه إلا أن يقصد داراً خربة يختفى فيها فيتعقبه ابن خديج ويضرب عنقه ويفصل رأسه عن جسده. ليدخل هذا الجسد فى جوف جمار ميت بوحشية نادرة عجيبة، ولم يكفه ذلك، بل طاف بهذه الرأس الطاهر فى الشوارع، ليدعه بعد ذلك مع حطام أساس داره فى إهمال واستهتار، لا يراعى حتى حرمة الموت.

ظل الإمام على كرم الله وجهه أياماً لأيُرى إلا حزيناً مغلوباً على أمره، حتى قال له بعض أصحابه: لقد جزعت على محمد يا أمير المؤمنين. فقال: «وما يمنعنى؟ إنه كان لى ربيباً، ولابنىَّ أخا، وكنتُ له والداً، أعده ولداً».

ولم تستمر ولاية محمد بن أبى بكر لمصر أكثر من خمسة أشهر، ولم يبق منه سوى هذا الرأس الذى استطاع مولي له يدعى «زماماً» أن يدفنه فى المكان المقام به المسجد المسمى باسمه بمصر القديمة.

وهكذا كان رأس محمد بن أبى بكر أول رأس يُطاف به فى الإسلام، فقد سبقت رأس الإمام الحسين بثلاثة وعشرين عامًا. ومن عجيب الأمور أن يكون قتلة الأثنين ـ محمد بن أبى بكر الصديق، والحسين بن على بن أبى طالب ـ من بنى أمية وأن يكونك الدافع للقتل واحدًا هو تحويل الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض لمعاوية ولأبنائه من بعده.

وحين علمت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما بما حدث لأخيها كظمت غيظها حتى نزفت دما. ثم بكت أحر بكاء، وصرخت تلعن معاويه بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج، وضمت إليها أولاد محمد، وحرصت على نفسها الشواء أبدا، فلم تأكله حتى توفيت.

وظلت كلما تعثر قدمها تقول: «تعسا لمعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج» وتعودت أن تدعو عليهم عقب كل صلاة، وتتضرع إلى الله عز وجل أن يعاقب قتله شقيقها محمد بن أبى بكر.

وأما معاوية بن أبي سفيان فقد صعد منبر المسجد بدمشق وأذن بالناس للصلاة معلنا قتل محمد بن أبي بكر. وكأنها بُشْرَى يُبَشِّرُ بها أهل الشام... ثم قرأ عليهم كتاب عمرو بن العاص الذى كان قد بعث به بعد مقتل محمد بن أبى بكر. وفيه يقول: «أما بعد؛ فإنّ لقينا محمد بن أبى بكر، وكنانة بن بشر، في جموع جمّة من أهل مصر، فَدعونَاهُم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب، فرفضوا الحق، فجاهدناهم، واستنصرنا الله عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحونا أكتافهم، فقتل الله محمد بن أبى بكر، وكنانة بن بشر، وأماثِلَ القوم. والحمد لله رب العالمين..».

ونقل ذلك صاحبٌ لعليٍّ كرم الله وجهه كان قد جاء من الشام فقال لعليٍّ: «والله يا أمير المؤمنين، ما رأيت قط قوماً أَسَرَّ، ولا سروراً قط أظهر من السرور الذى رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبى بكر..». فردَّ عليٌّ رضى الله عنه: «أما إنَّ حزننا عليه على قَدْرِ سرورهم به.. لا، بل يزيد أضعافاً..».
والحق أن محمدَ بن أبى بكر كان من خيرة الرجال الذين يناصرون الحق أينما كان، ولا عجب، فهو لابن الصِّدِّيق أبى بكر رضى الله عنه، وإذا كان قد أخطأ هذا الخطأ الذى أطاح بحياته، فإنه ولاشك بوازع من إيمانه وصدْق نواياه، إذ كيف يطيب له أن يضع يده فى أيدى من شقوا عصا طاعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ونعنى بهم مَنْ أوصاه قيس بن سعد بعدم استعدائهم؟ ثم كيف يطيب له عيشٌ مع معاوية وعمرو بن العاص، وكلاهما من الدهاة فى الحرب والسياسة، يخططان للإطاحة به وقتله؟! لقد كان محمد بن أبى بكر ضحية فضيلة من فضائل دينه، وهى العمل على طاعة أولى الأمر.

* * *

١٢ عاتكة بنت زيد
صحابية يتزوجها الشهداء

السيدة عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، من المسلمات العابدات القانتات، وهى ممن عاصرْن النبى ﷺ، وممن آمَنَّ برسالته من نساء قريش قبل الهجرة، حتى إذا هاجر إلى المدينة كانت من السابقات إلى الهجرة.

والسيدة عاتكة رضى الله عنها أدركت، الإسلام مبكراً، فعرفت أن هذا الدين الحنيف يهتم ببناء شخصية المرأة على أساس من المساواة فى الإنسانية مع الرجل، وأنه ينبغى أن تتحمل المسئولية مع الرجل أُمّاً كانت أو شقيقة، أو زوجة، على اعتبار أنها تمثل نصف المجتمع الجديد.. هذه المسئولية التى جاء بها الذين كان يقويها التعلم والثقافة.

فهذا الدين قد حرص على تدعيم شخصية المرأة - بكراً كانت أو متزوجة، أو مطلقة، أو أرملة.. فاهتم باحترام رأيها فى حياتها وحفظها من كل ما يقلل من شخصيتها، حتى اهتم بأدق أمورها وخصائصها، وهو ما يخالف كل الشرائع السابقة التى امتدت إليها يد التحريف وحتى المدنية منها، وهو أمرٌ أكده الكثيرون من الباحثين والدارسين وفقهاء القانون.

كذلك عرفت هذه السيدة الفُضْلَى فيما تقرؤه وتسمعه عن الإسلام أنه لم يمنح هذا الاهتمام المميز للمرأة فى كل مراحل حياتها وظروفها الاجتماعية، أو بدافع الضرورة، أو خضوعاً للحاجة فحسب، بل لكونها كائناً يستحق هذا الاهتمام، وذلك الحرص.. ولذلك كانت هذه السيدة من السابقات إلى الإيمان بهذا الدين الذى يكرم بنات جنسها ويجعلهن أكثر كرامة مما سمعت ورأت فى الجاهلية..

وكان إيمانها عن اقتناع وترو، وليس عن اضطرار، أو قسر لطبيعتها التى سنعرف عنها الكثير بعد قليل.

فهى إلى جانب إيمانها بهذا الدين الحنيف، وهجرتها مع من هاجر من مكة إلى المدينة فى صحبة النبى ﷺ، وجهادها وعملها فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية فى بدايتها.. إلى جانب كل هذا ـ وهو فضل عظيم ـ فإن هذه السيدة كانت تتمتع بميزتين على جانب كبير من الأهمية فى زمانها، بل لعلها كانت تتفرد بهما عن كثيرات من بنات جنسها فى ذلك الحين.

أما الميزة الأولى التى تفردت بها السيدة عاتكة رضى الله عنها، فقد كانت على قدر كبير من الثقافة والمعرفة، مما جعل لوجودها معنى وقيمة ودلالة، بل وحضوراً يشد الانتباه.. فالمعروف أن السيدة عاتكة كانت من الشاعرات القليلات اللائى كُنَّ يَقُلْنَ الشعر فى الأغراض السامية، ولها فى ذلك شعر كثير، وكانت من النادرات اللائى يقرأن ويكتبن.

والميزة الثانية التى كانت تنفرد بها السيدة عاتكة رضى الله عنها هى أن الله حباها حسناً وجمالاً ملحوظين.. كما زادها الإيمان والتقوى والورع حُسْناً على حُسن، وجمالاً على جمال، حتى كانت مضرب المثل بين النساء عند أهل زمانها فى ثقافتها الشاعرية، وجمال خَلْقها وخُلُقها.

ولأن هذه السيدة الفُضْلَى كانت مؤمنة قانتة، شاعرة مثقفة، حافظة لنفسها.. فقد سارت على تعاليم هذا الدين الجديد.. الذى بَشَّر به محمد بن عبد الله فى الجزيرة العربية.. هذه التعاليم التى تهيب بالمرأة أن تعصم نفسها، وتحافظ على كرامتها، وتتبع سنن دينها، فلا تسمح لنفسها بالخطأ أو الزلل، أو معصية الخالق سبحانه وتعالى، فلا تفعل إلا ما شرعه وأمَرَ به، ولذلك نراها ـ وهى على هذه الصفات من نساء زمانها ـ قد تزوجت أكثر من مرة، من أكثر من رجل من الرجال المشهود لهم بالتقوى والصلاح فى صدر الإسلام، وهو أمرٌ مشروع.. وليس كما فسره بعض المستشرقين وخاضوا فيه.

فكانت زيجة هذه السيدة الفضلى الأولى من عبد الله بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم جميعا.. وكما تقول المصادر والروايات قديمها وحديثها: إن هذا

الزواج قد تم فى بداية الدعوة الإسلامية، والتى كانت تتطلب من المؤمنين فيها جهاداً مضاعفاً ومتصلاً. . وكما تقول هذه المصادر والروايات أيضا: يبدو أن هذا الزواج فى بداية أيامه ـ شأنه كشأن أى زواج ـ قد شغل عبد الله بن أبى بكر عن مواصلة الجهاد، أو جعله يتباطأ فيه أيَّاما قليلة هى التى تعقب ـ عادة ـ عقدالقران عند المتزوجين حديثاً. . غير أن هذا المتزوج ـ عبد الله رضى الله عنه ـ ليس ككل المتزوجين ولهذا يأمره أبوه أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يُطلق هذه السيدة إذا كانت تشغله عن أمر دينه والجهاد من أجله ولو أياماً. . فيصدع الابن لأمر أبيه رضى الله عنهما، برغم إعزازه وتمسكه بهذه الزوجة المؤمنة، فيطلقها، وينشد فى ذلك شعراً:

يقولون طلقها وحم مكانها ... مقيم عليك الهم أحلام نائم
وإنَّ فُراقَ أهلِ بيتٍ جمعتهم ... علىْ كبر منى لإَحدى العظائم

لكن الحزن يأخذ بكل أقطار نفس عبد الله رضى الله عنه، وإنْ لم يصرح به، إلا أن كُلَّ مَنْ رآه لاحَظَ عليه ذلك، وكان فى مقدمة من لاحَظَ ذلكَ والده الصديق أبو بكر رضى الله عنه، حتى إذا دخل عليه يوماً سمعه ينشد أبياتاً، منها:

أعَاتكُ قلبى كل يوم وليلة ... عليك بما تخفى النفوس مُعَلَّقُ
ولمَ أرَ مثلى طلَّقَ اليوم مثلها ... ولا مَثلها فى غير جُرْمٍ تُطَلَّق
لها كَلَفٌ جزلٌ ورأىٌ ومنصب ... وخلقٌ سَوِىٌّ فى الحياة مُصَدَّقُ

وظل الصديقُ ـ رضى الله عنه ـ ساهماً وهو يسمعه، متأثراً بكل كلمة يقولها هذا الابن، الذى تحمَّل صادقاً كل هذا العذاب فى سبيل طاعة والده، فى أمرٍ كان لا قبل له على تحمله. . ولكنه برغم كل شئ نفذه ولو على حساب نفسه. . وهنا رق قلب الصديق أبى بكر رضى الله عنه. . فأمر هذا الابن المطيع بأن يُرجعها رحمة به، وكان لهذا الأمر وقعٌ عظيم بالنسبة للابن، حتى أنه أنشد شعراً منه:

أعاتكُ قد طُلِّقْتِ فى غير ريبة ... ورجعت للأمر الذى هو كائنُ
كذلك أمرُ اللهَ غادٍ ورائحٌ ... على الناس فيه أُلفة وتباين

غير أن عبد الله رضى الله عنه لم يسعد طويلا برجعة زوجته عاتكة رضى الله

عنها، ولم يهنأ الزوجان المؤمنان بعودة السعادة إليهما طويلا، إذ سرعان ما عاجلت الزوج المحب منيته في واحدة من غزوات الجهاد فى سبيل الله، حيث خرج فى سرية من السرايا التى كانت تدفع الزوج عن الإسلام فى الطائف.. فأُصيب بسهم ومات لحينه فى المدينة بعد أن نقلوه إليها متأثراً بجراحه.

وبديهى والأمر كذلك أن تحزن هذه السيدة الفضلى على هذا الزوج المحب المجاهد فى سبيل الله حزناً شديداً، عبرت عنه، وهى الشاعرة المحبة، المؤمنة بقضاء الله، وبنُصرة دين الإسلام، وأودعت كل أحاسيسها فى كلمات قصيرة طويلة مشحونة بكل معانى النبل والوفاء، جاء فيها:

رُزِئْتُ بخير الناس بعد نبيهم وبَعْدَ أبى بكر وما كان قَصَّرَا

ولكن امرأة على هذا الحُسْن والجمال، والوعى والثقافة، والشاعرية والأدب، وقبل كل ذلك وبعده الإيمان والتعبد.. لايمكن أن تعيش بين الرجال بغير زواج.. لكن مَنْ ذا الذى يستطيع أن يحتل فى قلبها مكانة رجل مُحبٍّ رفىٍّ مؤمن استشهد فى سبيل الله، حتى قالت عنه بأنه لايسبقه فى الفضل غير النبى ﷺ والصديق أبى بكر رضى الله عنه؟ لقد كان هذا الرجل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. لقد تزوجها ثانى الخلفاء الراشدين، وعاشت معه إلى أن قُتل هو الآخر.

ولم يجرؤ على التقدم لخطبتها أو الزواج منها رجل بعد الفاروق عمر رضى الله عنه فترة من الوقت، وإنْ كان هناك من كان يتمناها من الصحابة.. حتى تقدم صحابى جليل هو الزبير بن العوام رضى الله عنه فاختارها زوجة له ومع زوجته أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أو كما يُطلق عليها: ذاتُ النطاقين.

وتذكر المصادر التاريخية قديمها وحديثها أن الزبير رضى الله عنه كان يغار عليها غيرة شديدة، وصلت إلى درجة أنه كان يمنعها من الخروج إلى المسجد للصلاة.. وكانت رضى الله عنها تبرر له ذلك، فقد أدركت بحسها ووعيها أنه مُحبٌّ لها حُباً مَلَكَ كل أقطار نفسه، فكانت تشفق عليه وتقول له فى رفق وعتاب: «لَا أزال أخرج حتى تمنعنى» فيرد عليها بما يفيد أنه يغار عليها لجمالها.. فتذكره بقول النبى ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله من مساجد الله» فيرضخ لذلك قائلا: «هو حق

وصدق». . ولكن طبيعة البشرية تغالبه ويعاود الغيرة عليها مرة ومرات. . حتى إذا تنكر لها فى مكان مظلم فَزِعَتْ ورجعت إلى بيتهما، وامتنعت عن الخروج إلى المسجد، ولم تفاتحه فى هذا الأمر، لأنها تدرك إنما يفعلهِ لفَرْط حبه لها وكلفه بها. إلى أن قال لها يوماً: لما لا تخرجين إلى المسجد؟ «فردت عليه وأجملت ما تكنه فى صدرها، حريصة على الأ تجرح مشاعره، وفى الوقت نفسه تبلغه رسالتها كزوجة وفية ومثقفة لها رأى فتقول له: «كنتُ أخرج والناسُ ناس. . وأما إذا فَسَد الناس فبيتى أوسع لى وأرحب أؤدى فيه فريضة ربى».

لكن يبدو أن سوء الطالع كان يلازم هذه السيدة الفضلى برغم إيمانها وصلاحها وتقواها. . فلا تدوم حياتها الزوجية مع أفاضل الرجال، حيث يُقْتَلُ الزبير بنْ العوام رضى الله عنه فى وقعة الجمل، ويُدفن هناك بعيداً عن المدينة المنورة بالبصرة فى العراق.

وهنا تتزوج عاتكة محمد بن أبى بكر، شقيق زوجها الأول عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهم. . وتدوم العشرة بينهما حيناً، ينجب خلالها منها ابنهما «القاسم» الذى كان يُكنى به، والذى يصبح فيما بعد من أكبر علماء زمانه، حيث يعتبر من فقهاء المدينة السبعة.

ولا تدوم هذه السعادة بالزواج والولد. . حيث يتولى محمد بن أبى بكر إمارة مصر من قِبَلِ ثالث الخلفاء الراشدين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، ليقتل هو الآخر بمؤامرة حاكها معاوية بن أبى سفيان وحليفه عمرو بن العاص وأصحابهما. . وتُجْمَعُ أشلاؤهُ فيما يشبه الجوال ويوضع فوق ظهر حمار يدورون به فى أحياء الفسطاط بمصر، الذى كان حاكمها وراعيها التقى. فلا تبكى ولا تنعى ولا ترثى هذه الزوجة فى زوجها الورع والتقوى والإقدام فحسب، وإنما تبكى وتنعى وترثى حال الدوله الإسلامية التى دبت فيها الفتنة، وأصبح نفر من الصحابة يأتمر بعضهم على بعض، حتى تتفرق هذه الأمة إلى شيع وأحزاب، والأكثر من ذلك أنها تتحول من أمة إسلامية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلى مُلْك عَضوض أسسه معاوية بن أبى سفيان ليتوارثه أبناؤه من بعده. . وفى هذا تنشد هذه الزوجة الثكلي قصيدة طويلة تشير إلى هذه الفتنة مطلعها:

إنْ تَقتُلوا وتمثُلُوا بمحمد   فما كان من أجْلِ النساء ولا الخمر

اللائي لحالها بعد مقتل زوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو يومئذ خليفة للمسلمين، فيخطبها لنفسه.. وعندما تدرك أن هذه الخطبة إنما هى بوازع الإشفاق ترفض بشجاعة.. فما كان الرفض سهلا من أىٍّ من النساء اللائي يخطبهن رجل فى مثل مكانة على بن أبى طالب، وكيف ترفض ويكفيها فخراً بأنها ستكون بديلة لفاطمة الزهراء رضى الله عنها بعد الوفاة؟ غير أن هذه السيدة الفضلى رفَضَتْ، وكان رفضها لأمير المؤمنين عَذْباً رقيقاً لطبيعتها، قائلة: «إنى أضِنٌّ بك يا بن عم رسول الله على القتل».. مشيرة فى هذا الرد بما كان يتندر به المسلمون قائلين: «مَنْ أحب الشهادة فليتزوج عاتكة» إشارة إلى أن كل من تزوجها مات شهيداً.

وكان آخر أزواج السيدة عاتكة بنت زيد ـ كما جاء فى كتب الأغانى والاستيعاب، ومعجم البلدان ـ الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، وعاشت معه وقتاً طيباً.. وآمنت بدعوته إلى أن قُتل فى كربلاء ومثلوا بجثته فرثته بقصيدة طويلة:

راحنا لانسيت حسينا   اقصدته أسنة الأعداء

وكان من الطبيعى، وقد آلت الأمور إلى هذا الحال ـ أن تنضم هذه السيدة الفضلى إلى جانبٍ آل البيت، الذين لقوا بعد القتل والتشريد من قبَل بنى أمية عقب مأساة كربلاء بالعراق، وأن تجئ إلى مصر فى صحبة السيدة زينب شقيقة زوجها الإمام الشهيد رضى الله عنهما.. فراراً من ظلم وعسف بنى أمية لآل البيت، وأن تعيش فى هذا البلد الآمن بقية سنوات عمرها، رافضة كل طلب للزواج منها، ناذرةً نفسها للتعبد والقراءة وكتابة الشعر.. حتى تتوفى فتدفن بمصر.. كما تذكر المصادر والكتابات القديمة والحديثة، وهو ما تؤكده الدكتورة سعاد ماهر فى تحقيقها عن وفاتها ودفنها فى حديثها عن المسجد والمشهد المقامان باسمها حتى الآن بالقاهرة.

هذه هى القصة الحقيقية لكثرة أزواج السيدة عاتكة رضى الله عنها.. مستندة

إلى المصادر الموثوق بها، مما يدحض أقوال جماعة المستشرقين الذين خاضوا فى سيرة هذه الصحابية الجليلة.. وقالوا فى ذلك أقوالاً لا تليق. بمَنْ كانت فى مكانتها، ولهم فيما يقولون أسباب وأسباب لا تخفى على أصحاب العقول.

إن كثرة زواجها كانت لها أسباب منها وفاة أزواجها، وأنها ـ كمسلمة ـ مؤمنة ـ لا تروق لها الحياة بغير شريك حياة فى الحلال، خاصة أنها كانت بعلمها وثقافتها وجمالها ومواقفها ومكانتها ملتقى لكل راغب فى الزواج من سيدة فضلى مؤمنة على هذا النحو الذى رأيناه.

* * *

١٣ الإمام الحسين
مجدد أراد إنقاذ الإسلام من الرجعية

منذ أن خرج خارجٌ فأَذَّنَ فى الناس: لقد قُتِلَ عثمان ثالث الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة، ومن بعده مقتل الإمام على كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين بالكوفة، ومن بعدهما مقتل الحسين بن على بكربلاء، والفتنة قائمة لاتنتهى، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة، وكانت كربلاء كَرْباً وبلاءً على المسلمين.. ومحنة اتصلت أعواماً وقروناً، وأثارت من الخطوب الجسام ما أثارت، وأى خطوب بعد سفك ما سفك من الدماء، وإزهاق ما أزهق من النفوس، وانتهاك ما انتهك من الحرمات، وقُضى بعد هذه الفتنة على سُنة الخلافة الراشدة، وتمزقت أوصال دولة الإسلام إلى شيع وأحزاب، وأُسس فيها ملك عضوض لا يقوم على الدين والمنفعة العامة، وإنما يقوم على السياسة والمصلحة الخاصة. وكان يظن مؤسسه معاوية أن هذا الملك سيمضى فى طريقه وادعاً مستقراً فى بني سفيان دهراً طويلا، ولكنه لم يستقر فيهم إلاَّ ليتحول عنهم فى عنف وشدة وغلظة عرضت المسلمين ودولتهم للخطوب المتتالية، وذلك حين غاب عنهم المثل الأعلى فى العدل الذى يملأ الأرض وينشر السلام. والذى تقطعت دونه الرقاب، قروناً متصلة بدون أن يبلغوا منه شيئاً حتى استيأسوا من قربه، ولم يستيئسوا من وقوعه، فمازالوا يعتقدون أن واحداً منهم سيأتى فى يوم من الأيام ليملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جوراً. وهذا واحد من المؤمنين المتطلعين إلى هذا العدل.. إنه الحسين بن على، الذى أراد إنقاذ الإسلام من رجعية، ولكنه قُتِلَ لتستشرِى الفتنة التى لاتزال إلى اليوم تفرق المسلمين بين سُنة وشيعة.

الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ الذى لايوجد مسلم فى العصر القديم أو

الحديث يحب محمداً ﷺ، ولا يقدِّر كل هذا الحنان الذى كان يغمر به سبطية، وأحب الناس إليه: الحسن والحسين، فبهذا الحنان النبوى الشريف أصبح الحسين فى عداد تلك الشخصيات الرمزية التى تتخذ منها الأمم والملل عنواناً للمحنة أو الألم أو الفداء، فإذا بهذه الشخصيات محبوبة عند كل فرد، وموضع عطفه وإشفاقه.. كأنما هذه الشخصيات تمتُّ إليه بصلة القرابة والرحم.. بل وأكثر من ذلك.

ولقد بلغ الإمام الحسين، مبلغاً من المكانة الرمزية، حتى أوشك بعض واصفيه أن يلحقوا به المعجزات والأساطير، التى انتهت بإنتهاء النبوة من على الأرض.

ولاشك أن مأساة الإمام الحسين.. تكفى وتزيد عن تلك الصور الرمزية التى نسجتها الأجيال المتعاقبة، وكيف لا يكون كذلك وقد كان ملء السمع والبصر فى خُلُقه وخِلْقته، فى أدبه وسيرته، فى مبادئه وقيمه. وإلى جانب ذلك فهناك شبه كبير بينه وبين جده ﷺ، وأبيه كرم الله وجهه. فقل فيه ما شئت من الصفات الكريمة، والمثل العيا، والأدب الجم.

لقد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من علم وأدب وفروسية، إلى جانب ما أوتى به من ملكة للخطابة التى تخلب لب من يسمعه، طلاوة لسان، وحسن بيان، وغنة صوت، وجمال إيماء.. استمع إليه مثلا فى توديع أبى ذر الغفارى حين أخرجه من المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه، بعد أن طرده من الشام معاوية بن أبى سفيان: «يا عمَّاه، قد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، وما أغناك عمَّا منعوك، وما أحوجهم إلى ما منعتهم.. واسأل الله الصبر، واستعذ به من الجشع والجزع. فإن الصبر من الدين والكرم، وأن الجشع لايقدم رزقاً، وإن الجزع لا يؤخر أجلا..».

قال ذلك وهو فى الثلاثين من عمره، فكأنما أودع فى هذه الكلمات شعار حياته كاملة، وخلاصة مبادئه، منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها شهيداً فى كربلاء.

ولكن كيف يقتل الحسين بيد مسلم، ويمثل بجثته أبشع تمثيل، كيف يقتل بيد من سمع الرسول ﷺ وهو يقول: «هؤلاء هم أَهْلُ بيتى، مَنْ أحَبَّهُم فقد أحَبَّنِى، ومَنْ عاداهم فقد عادانى».؟

إن لذلك قصة، بل مأساة ومحنة، لعل أهم أحْدَاثها تبدأ من لحظات تولى «يزيد بن معاوية» الخلافة بعد أبيه معاوية، وكما كان الإمام الحسين رضى الله عنه رافضاً للخليفة الراحل، فهو أيضاً رافض للخليفة الجديد، حتى يستدعيه أمير المدينة «الوليد بن عقبة»، وصاحب بيت المال «مروان بن الحكَم» ليعرِضا عليه مبايعة يزيد، فيرفض، ويصير الحوار عاصفاً بين« الطرفين، فيه يستخفُ به مروان ويعربد حين يقول للإمام الحسين عن البيعة: «إنها لا تعدو أن تَكون كلمةً، فليقلها». . وهنا يسألهما الإمام الحسين: «أتعرفانِ معنى الكلمة؟. . الكلمةُ فُرْقانٌ بين نَبىٍّ وبَغِىٍّ». وينصرف عنهما غير مبايع.

ويبقى الحسين فى المدينة يعظ الناسَ ويوضح لهم أُمورَ دينهم ودنياهم، حتى يصله كتابٌ من ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يدعوه فيه إلى التوجه إلى الكوفة بالعراق، فالناس فيها مُتَشوِّفُون إليه، ويبايعونه أميراً للمؤمنين، يطبق شريعة الله التى جاء بها رسوله ﷺ، ونَفَّذَها خلفاؤه الراشدون رضى الله عنهم.

ويعلم يزيد بذلك، فيزداد حنقاً وغضباً، ويأمر رجله بالكوفة «ابن زياد» بأن يقضى على كل من يبايع الحسين، وفى مقدمتهم مسلم بن عقيل، وأن يأتيه برأس الحسين نفسه حياً أو ميتاً فور وصوله!

وسواء أدرك الإمام الحسين الخطر المحدق به وبأُسرته أو لم يدركه، فإن طبيعته التى ورثها عن أبيه ـ رضى الله عنهما ـ كانت تمنعه فى كل الأحوال من التردد فى أمرٍ قد اتخذه. . ويستعد للرحيل مصحوباً بأُسرته، وآل بيته من النساء والأطفال، برغم تحذِير عبد الله بن عباس رضى الله عنه، وتأكيده له بغَدْر مَنْ يتوجه إليهم، فيرفض تحذيره، ويبدأ فى الرحيل.

وهناك عند «كربلاء» يتأكد من صدق هذا الصحابىِّ الجليل حين يكتشف أن انصاره بالكوفة قد خذلوه، وأن مَنْ بقى على عهده قد قُتِلَ، وفى مقدمة هؤلاء القتلى ابن عمه مسلم بن عقيل رضى الله عنه.

وفى الجانب الآخر تستعد الكوفة بالغدر والقتل والتنكيل لملاقاة الحسين وآل بيته وشيعته.

وتتوالى الأحداث سريعة، حتى إذا التقى الجمعان تساقط النفر القليل من أنصار الحسين، حتى لايبقى إلاّ الحسين وآل بيته من النساء والأطفال، فيصرخ فى سماء المعركة بأنه الشهيد ابن الشهيد، ويتقدم شاهراً سيفه وسط صرخات الأطفال، ونحيب النساء، ويتكاتف عليه القوم بالمئات، وتتكالب عليه السيوف، وتستهدفه النبالُ والحراب حتى يخر صريعاً مضرجاً بالدماء، وليس فى جسده الطاهر موضعٌ سليم من الطعان.

ولا تكتفى هذه الأعداد المأجورة الظامئة إلى مزيد من دماء الأبرياء بما صنعت بابن بنت رسول الله وبأطفاله ونسائه، وإنما يُقبلون على جثته فيجزون رأسها، ليحملوا الرأس الشريف إلى أميرهم يزيد بن معاوية فى الشام!!.

وهكذا يبقى الإمام الحسين على مرِّ القرون الشهيد ابن الشهيد، وأبا الشهداء.. ولايبقى من جثمانه غير هذا الرأس الطاهر الذى حَمَلَهُ الفجَرةُ إلى كبيرهم يزيد بن معاوية، ليطوفون به فى عدة أمصار إسلامية حتى يستقر أخيراً فى ضريحه المقام بمسجده بالقاهرة بالقرب من الأزهر الشريف.. وفى هذا يتفق بحث الأستاذ العقاد مع الدكتورة سعاد ماهر، ومن قبلهما أبحاث للمقريزى، والبيلاوى، وعلى مبارك، بما نتيجته أن المرحوم عبد الرحمن كتخدا لَّما أراد توسيع المسجد المجاور بالمشهد الحسينى، قيل له: إن هذا المشهد لم يثبت فيه دَفْنٌ، فأراد تحقيق ذلك، فكشف المشهد الشريف بِمَحْضَرٍ من الناس، ونزل فيه كلٌّ من الأستاذ الجوهرى الشافعى، والشيخ الملوى المالكى، وكانا من كبار العلماء العاملين وقتئذ، وشاهَدَا الرأس بداخله، فانْبَنَى على شهادتيهما - فى محضر من الناس - تحققٌ وجود الرأس الشريف فى مكانه بالمسجد الحسينى بالقاهرة.

على أنه قد يهون المكان فى وجود المكانة.. ومكانة الحسين - كمعنى ورمز - عظيمة خالدة فى القلوب والضمائر، متجسدة راسخة فى الأفكار والخواطر، لأسباب كثيرة، منها أنه واحد من المجددين فى الإسلام، وآية تجديده أنه أراد أن ينقذ الإسلام من رجعية مقيته، يتنافى معها - فى زمانه - تواجد هذا العدل الذى بَشَّرَ به جده العظيم، أما كيف كان ذلكَ، فإن له قصة أخرى، تبدأ فصولها منذ أن لجأ معاوية بن أبى سفيان إلى إيثار ابنه يزيد بولاية العهد من بعده، وسلوكه فى

ذلك أسلوب القوة، فكان بهذا أولَ مَنْ سَنَّ هذه السُّنة الرجعية فى الإسلام.

ولعل أول من زين له ذلك «المغيرة بن شعبة» ـ وكان لايقل مكرًا ودهاءً عن معاوية نفسه ـ حينما أراد عزله من الكوفة، فذهب إلى الشام، وبدلا من يقابل معاوية قابل ابنه يزيد وقال له: «إنه وقد ذهب أعيان أصحاب رسول الله وآله وكبراء قريش، وإنما بقى أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيًا، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين ـ يقصد أبيه معاويه ـ أن يعقد لك البيعة؟ فقال به يزيد: «أَوَ ترى ذلك يتم؟ قال المغيرة: «نعم».

وهنا أخبر يزيد أباه بذلك. فاستدعى معاوية المغيرة وقال له: «مايقول يزيد؟ فرد المغيرة: «يا أمير المؤمنين، قد رأيت ماكان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خَلَف، فاعْقدْ له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تُسفك دماء، ولا تكون فتنة». فقال معاوية وقد أعجبته الفكرة: «ومَنْ لى بهذا؟» فقال المغيرة: «أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصْرَيْن أحد يخالفك».

وهنا يتضح أن المغيرة يعمل لمصلحة خاصة، هى ضمان بقائه والياً على الكوفة وإنْ ألبسَه ما ألبسه من ثوب المنفعة العامة.

وطبيعى أن يعيد معاوية المغيرة بن شعبة إلى الكوفة والياً عليها، طالباً منه أن يمهد لذلك، وبدأ يُحبب الناس فى هذا الأمر، حتى أجابه إليه بعض أنصار بنى أمية، فأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية، فزينوا له البيعة ليزيد، حتى يقوى عزمه عليها، وكان نتيجة ذلك أن أرسل إلى عامله بالبصرة زياد، طالباً منه أن يمهد لذلك، فأرسل إليه زياد ينصحه أن يتريث فى هذا الأمر لعدم استكمال شروطه فى يزيد.

فعمل معاوية بنصيحة زياد، وأقلع عن هذا الأمر.. ثقة فى زياد الذى كان يعتبره ساعده الأيمن، ولا يحب أن يخالفه.

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم ـ عامله على المدينة المنورة ـ كتاباً. يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد، فقرأه مروان، ثم قرأه على الناس فى

المسجد. فهاج القوم وماجوا، وقام عبد الرحمن بن أبى بكر فقال: وما الخيار أردتم لأُمّة محمد. . إنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل خلفه هرقل! وقام الحسين بن على فأنكر ذلك، ومثله فَعَلَ عبد الله بن الزبير.

فلما بلغ معاوية ذلك سار إلى المدينة والتقى بالحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وحدثهم فى موضوع بيعة يزيد، فقال له عبد الله بن الزبير: نخيرك بين ثلاث خصال: أتصنع كما صنع رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً، فارْتضى الناسُ أبا بكر. فرد معاويه ليس فيكم مثل أبى بكر، وأخاف الاختلاف. فقالوا له صدقت. فاصنع كما صنع أبو بكر. فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من بنى أمية فاستخلفه، أو إن شئت فاصنع كما صنع عمر بن الخطاب، جعل الأمر شورى فى ستة نفر، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه. فقال معاويه لهم: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا. فقال لهم مهدداً: فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم. وأنه قد أعذر من أنذر. ثم أخبرهم صراحة بأنه سيجمع الناس لهذا الأمر، وهددهم بالقتل إنْ أظهروا خلافاً له.

ثم جمع الناس فقال لهم مشيراً إلى هؤلاء الثلاثة ـ الحسين بن على، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عمر ـ : إنَّ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لايُؤْخذ رأى دونهم، ولا يقضى إلاَّ عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا أو بايعوا ليزيد، فبايعوه ـ أنتم ـ على اسم الله. فبايع الناس، وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء الثلاثة أولا، حتى إذا التقوا بهم قالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون، فلِمَ رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ ورد الثلاثة: والله ما فعلنا. فقالوا لهم: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ فقالوا: كَادَنَا ـ أى صنع مكيدة ـ وهذا جانب من مكر معاوية ودهائه.

والحق أن هؤلاء الثلاثة ـ وهم بالفعل من خيرة سادة قريش ـ كان لهم عذرهم فى هذا السكوت على هذه المكيدة التى دبرها معاويه لأسباب كثيرة، ليس منها الخوف من القتل. فمثل هؤلاء لايخافونه القتلى. . فى مقدمة هذا الأسباب اجتماع كلمة المسلمين على معاويه بن أبى سفيان أميراً لهم فى ذلك الوقت، وهم ثلاثه لايصح ولايجوز لهم الخروج على ذلك الإجماع، وربما كان معاويه يعرف ذلك مقدماً، ففعل ما فعل مطمئناً.

غير أنه من ناحية أخرى لايستطيع منصفٌ أن يُبْرِئَ معاوية وصُنعه، فقد أضاف إلى رجعيته فى تحكيم السيف فى خلافة على بن أبى طالب، رجعية أخرى فى أخذ الناس بالقوة فى بيعة ابنه يزيد. وقد رضى الناس فى ظاهر الأمر لقيام سلطانه، وكراهتهم شق عصا الطاعة.

فَرَأَى الحسين أن ينتظر إلى أن يذهب مايخشاه الناس من ذلك، لعلمه أنهم عند موت معاوية لن يدينوا ليزيد، ولن يَفُوا بهذه البيعة التى أُخذِت منهم بسلطان أبيه وحيلته، لأنها بيعة باطلة.

ومات معاوية، وكان الوالى على المدينة المنورة الوليد بن عتبة، فأرسل إليه يزيد طالباً منه أن يأخذ البيعة له من الحسين، فلما طلب الوليد من الحسين هذه البيعة قال له: أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على الناس علانية، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً.

ولم يكن الحسين يريد البيعة ليزيد، ولكنها حيلة مشروعة لجأ إليها ليتمكن من القيام بما عزم عليه من العمل للقضاء على هذه الرجعية التى ابتدعها معاوية فى الإسلام، وتخليص الناس من عسف بنى أمية واستبدادهم، وإقامة حكم الشورى الذى يراعى مصالح الرعية قبل مصلحة الراعى، ويسير على العهد الذى كان عليه فى أيام الخلافة الراشدة.

ونفذ الحسين ما أراد، رافضاً البيعة ليزيد، وخرج من المدينة إلى مكة، وكاتَبَ شيعته بالكوفة، فكتبوا إليه كتاباً جاء فيه: « إنه ليس علينا إمام فاقدم علينا، لعل الله يجمعنا بك على الهدى. فإن النعمان بن بشر فى قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه فى جمعة، ولا نخرج معه فى عيد، ولو قد بلغنا مخرجك. أخرجناه من الكوفة وألحقناه بيزيد فى الشام. »

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليأخذ له بيعتهم، فلما قدم عليهم اجتمعوا عليه، وبايعه منهم اثنا عشر ألفاً. وهنا قام رجل ممن يؤيد يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشر فقال له: « إنك ضعيف أو مستضعف، قد فسد البلد» فقال له النعمان: «لأن أكون ضعيفاً فى طاعة الله أحبُّ إلىّ من أن أكون قوياً فى معصيته، ماكنت لأهتك ستراً».

وعلم يزيد بذلك. فعزل النعمان بن بشر عن الكوفة، وأضافها إلى عبيد الله بن زياد، واليه على البصرة، وأمره أن يطلب مسلم بن عقيل ويبحث عنه، فإن ظفر به قتله.. ورسم له حيلة من الحيل التى تعودها بنو أمية لبلوغ مايريدون، حتى ولوكان بغير وجه حق، المهم أن يبلغوه.

كانت الحيلة أن يأتى عبيد الله بن زياد فى وسط بعض أهل البصرة إلى الكوفة متلثماً، حتى لا يعرف شخصيته أحد، فكان لايمر على أحد فيسلم عليه إلا رَدَّ عليه مُرَحِّباً وقائلا: عليك السلام يا بن رسول الله. وقد ظنوا أنه الحسين بن على قد وصل لتوِّه من المدينة. واستمر عبيد اله بن زياد على هذا الحال حتى دخل قصر الإمارة، وجعل يبحث عن مسلم بن عقيل حتى وجده وقتله.

وكان مسلم بن عقيل قبل قتله قد أرسل إلى الحسين يطلب منه سرعة الحضور إلى الكوفة، فتجهز الحسين فى نحو ثمانين رجلا من أهله وأربعين فارساً، ونحو مائة رجل من شيعته وسار يقصد الكوفة التى تنتظره، والآلاف التى ترحب بمقدمه كما أبلغه عقيل.. غير أن عقيل بن مسلم قد قُتِل، والأحداث قد تطورت بشكل ليس فى صالح الحسين الذى توجَّهَ إلى الكوفة بدون أن يعرف هذه التطورات.. أما فى الجانب الآخر فقد أعد عبيد الله بن زياد جيشاً على رأسه عمر بن سعد بن أبى وقاص ـ الذى كان داهية فى فن الحرب والقتال، والتقى الجمعان: الحسين فى هذه القلة من الرجال والعتاد، وجيش ابن زياد بقيادته المدربة، ورجاله الذين يعدون بعشرات الآلاف، وعتادهم.. وكانت النتيجة المتوقعة أن يُقتل الحسين.

ومن هنا حق القول بأن الحسين راح شهيداً فى سبيل القضاء على الرجعية السياسية التى أرادها معاويه وابنه يزيد، وبنو أمية بعد ذلك للإسلام. وله فى ذلك أجر الشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الخير للناس، وفى سبيل المصلحة العامة، ولا ينقص من أجره فى ذلك تقاعس من استشهد فى سبيلهم عن نصرته. لأن الحق لا ينقص من قدره تهاون الناس فى نُصرة القائمين به.

ومن أنصار هذه الرجعية من يرى أن الحسين قد قُتل بسيف جده عليه أفضل الصلاة والسلام، لأنه خرج على إمام من أئمة المسلمين.. وهذا قول مردود من

أساسه وقد رد عليه المفكر الإسلامى المرحوم عبد المتعال الصعيدى فى ثلاث نقاط . .

أولها: أن البيعة ليزيد كانت باطلة ـ كما سبق أن رأينا من حيل.

ثانيها: أن يزيد لم يجمع الناس على بيعته بعد موت أبيه، بل كان ممن خرج عليه أهل المدينة، وقد طردوا عامله منها فاستبدله بمسلم بن عقبة، الذى حاصر المدينة حتى استسلمت له، فأباحها لجيشه ثلاثة أيام قضاها فى القتل والسلب والنهب. وكان ممن خرج عليه أهل مكة، إذ دعا فيها عبد الله بن الزبير لنفسه أميراً عليها، فسار إليه مسلم بن عقبة، وقد مات فى الطريق، فقام مكانه الحُصَين بن نُمير، ودار قتال بينه وبين عبد الله بن الزبير، استمر إلى ما بعد وفاة يزيد بن معاوية»، وهذا يعنى أن مكة ومن قبلها المدينة لم تجمع على بيعة يزيد.

وثالثها: أن الحسين بن على لم يقم بعمله مجازفة، أو بدون تلمس الطريق إليه، فقد أرسل أولا مسلمَ بن عقيل إلى أهل العراق. فقام بالبيعة له قبل أن يسير إليهم، ثم أرسل إليه أنَّ بالعراق قوة تمكنه من أن يصل بها إلى غايته من القضاء على تلك الرجعيه الجاهلية. . فسار إليهم على هذا الأساس، ولو أنهم صدقوا وقاموا معه لوصل إلى غرضه، وذهب أمر يزيد الذى يحتج به عليه، فلا يكون عليه فى ذلك أية شائبة، وإنما دمه فى عنق يزيد أولا ، وفى عنق من دعاه من أهل العراق، ثم تخلى عنه ثانياً.

وعلى هذا فقد عَدَّ مفكرو الإسلام الحسين رضى الله عنه من مجددى القرن الأول الهجرى، ذلك لأنه قد نفذ بنظرته إلى المستقبل، فأدرك أن ما يفعله معاوية، والأمويون من بعده، إنْ هو إلاَّ رجعية مقيتة، يخالف ما قام به الإسلام من مبادئ وسياسات أساسها الشورى فى اختيار أمير المؤمنين، لا أن تكون الخلافة ملكاً يتوارثه الأبناء جيلا بعد جيل، فليس الحسين يحرص على الخلافة لمأرب أو هدف دنيوى أو معنوى ـ فيكفيه شرفاً أن يكون ابن بنت رسول الله، وابن الإمام على كرم الله وجهه، وهى ميزات ليس لها مثيل ـ بقَدْر ماهو يحرص على استمرار مبادئ الإسلام وقيمه، وأولها الشورى.

* * *

١٤ السيدة زينب
صاحبة الرأى والمشورة

السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ كانت عند أهل العزم والتصميم أمَّ العزائم، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم، وعند أهل مصر والسوادن الطاهرة.. كان يرجع إليها الأئمة الكبار ـ ومنهم أبوها علىّ وأخواها الحسن والحسين ـ فى الرأى والمشورة، فسُميت صاحبة الشورى، وكانت دارها فى المدينة المنورة ملتقى الضعفاء، واسمها نداء المحتاجين، فلُقبت بأم العواجز، وتحوَّل بيتها فى مصر إلى مقر يعقد فيه الوالى لقاءاته بالرعية واجتماعاته مع رجاله تحت إشرافها، فَعُرفت برئيسة الديوان. وكانت فى ساحة الوَغَى وفوق أعواد المنابر بليغة فصيحة، تسيطر على المشاعر والألباب، فوُصفت بأنها سيدة البيان.

تلك هى السيدة زينب، حفيدة الرسول ﷺ، من ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، أشرف نساء الأرض حسباً ونسباً، وابنة الإمام علىٍّ كرَم الله وجهه الذى تربى فى أحضان النبوة، فاقتبس منها النور والهدى، فبقى متصدياً لنشر العلم والفتيا، حتى كان يقول: «سلونى.. سلونى عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلاَّ وأنا أعلم أنزلت بالليل أو بالنهار».. الإمام على الذى وصفه الرسول الأعظم لابنته الزهراء عند زواجها بقوله: «فوالله لقد أنكحتك ـ أي زَوَّجتُك ـ أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً». والشقيقة الصغرى للسبطين الحسن والحسين رضى الله عنهما اللذَّين كانا أقرب أهل الأرض إلى قلب جدهما الرسول الأعظم، واللذين أوصى محبتهما، وجعل محبتهما من محبته عليه الصلاة والسلام.

وهكذا نجد أنه إن كان فى واحدة من النساء فضيلة، فقد تجمع للسيدة زينب رضى الله عنها الكثير من الفضائل.. ففيها وفاء وصدق، وصفاء ونقاء، وشجاعة

وإقدام، وإباء وشمم، وعلم وبلاغة، وعبادة وتقوى، وعفة وزهد، وإذا تيسرت بطولة من البطولات لواحدة من النساء فقد تجمعت بطولات متعددة فى السيدة زينب، ومنها الإيمان بالمبدأ، وعلو الهمة، واحتمال إنكار الذات، والجهاد فى سبيل الله، وقول الحق، والتضحية والفداء.

هل نحن فى حاجة إلى مزيد؟ ربما.. وأول ما يستوقفنا من سيرتها - مسترشدين بما جرت به الأقلام قديماً وحديثاً - ميلادها، حيث وُلدت بالمدينة المنورة بعد أخويها الحسن والحسين، فى شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة.. وعلى هذا فقد أدركت من حياة جدها الرسول الأعظم خمس سنوات.. لقيت خلالها من الجد كل عطف وحدب وحنان، ومن الأب والأم كل رعاية واهتمام، حتى تحقق لها مبكراً قبسات النبوة من جانب، ونور الحكمة من جانب آخر، فورثت عن الجد الرسول الأعظم ما لا يحصى ولا يُعد من الفضائل، ومن الأم فاطمة الزهراء التقى والعفاف، والطهارة والهدى. وعن الأب الإمام علىٍّ الفصاحة والبلاغة، والعلم والإيمان، وعن الشقيقين السبطين التضحية والفداء، وإنكار الذات، والإيمان بالمبدأ.. ذرية كريمة، بعضها من بعض.

سماها جدها الرسول الأعظم باسم ابنته زينب، التى كانت قد توفيت قبل ذلك بقليل، وتربت كأخويها الحسن والحسين فى حجر النبوة.. فتفتحت كرامتها طفلة صغيرة على أحداث جليلة، ورجال عظماء، ينشئون خير أمة أخرجت للناس.. لكن هذه الحياة العامرة بنور العلم والإيمان، المزدحمة بالأحداث والأعمال لم تدم.. فقد حَدَثُ جلل هز الأمة من أقصاها إلى أقصاها. وهل هناك حَدَث أكثر جللاً من وفاة جدها النبى ﷺ، لتلحق به أمها الزهراء بأقل من سنة، فيسيطر عليها حزن يملك كل أقطار نفسها، لكنه يجعلها أنضج إدراكاً، وأرهف حساً، وأكبر سناً.. وكيف لا؟ وقد كان عليها أن تعمل بوصية الأم الحبيبة وهى على فراش الموت، بأن تكون لأخويها الحسن والحنسين أُمًّا، وللبيت راعية، حتى وإن أعوزتها التجربة فى هذه وتلك.. وهكذا تختارها الأقدار لتحمل الأعباء والمسئوليات وهى لم تزل فى عمر الورود.. حتى إذا شبت وجاوزت مرحلة الصبا إلى الشباب يطلبها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب للزواج، ويوافق

الأب فى غير تردد، وترضى البنت فى غير نقاش، وهل يكون هناك تردد أو نقاش فى أمر عبد الله بن جعفر، أول مولود ذكر فى الإسلام؟ وأصغر مَنْ بايَعَ النبى ﷺ وقُبلت بيعته، إذ كان لم يبلغ العاشرة، حتى قال النبى ﷺ عنه وعن أبيه جعفر: «اللهم اخلف جعفراً فى أهله، وبارِكْ لعبد الله فى صفقة يمينه».

وكان يلقب بين المؤمنين بقطب السخاء، حتى إنه يُرْوَى عن جوده وكرمه أن امرأة سألته شيئاً فأعطاها أضعاف ما طلبت، فقيل له: « ياعبد الله، إنها لا تعرفك، وكان يرضيها منك اليسير.. فقال: «إن كان يرضيها منى اليسير فإنى لا أحب إلا الكثير، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى».. من هذا الرجل المناسب يتم زواج السيدة زينب، لا لتنتقل إلى بيت زوجها الحالى، ولكن لتبقى فى بيت أبيها فى المدينة المنورة، وتنتقل معه إلى الكوفة، حيث ولى أمر المسلمين ليعيشا فى مقر الخلافة فى رعاية الأب أمير المؤمنبن، حيث كان يرجع إليها، ويؤمن بصواب رأيها، وصِدْق حدسها.. وتنجب «زينب» لابن عمها ذُرية صالحة، لم يبق منهم غير اثنين: «على» و «أم كلثوم».

وإذا كانت هذه هى النشأة فى بيت الجد والأب والزوج، حياة يظلها الطهر والإيمان فطبيعى أن تنصرف السيدة زينب إلى العبادة. فنراها صورة جليلة لمن قاما بتربيتها، ونموذجاً لحياة فاضلة كريمة.. ونراها صَوَّامَةً قوّامة، قانتة تائبة، تقضى أكثر ليلها متهجدة.. تالية للقرآن، مبتهلة، داعية خاشعة، تردد هذا الدعاء الذى لقنه إياها الجد، الرسول الأعظم: «يا من لبس العزَّ وتردَّى، سبحان من تقطف بالمجد وتكرم، سبحان من لاينبغى التسبيح إلا له جل جلاله، سبحان من أحصى كل شىء مدداً لعلمه وخلقه وقدرته، سبحان ذى العزة والمنِّ والنعم، سبحان ذى القدرة والجود والكرم، - اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك... باسمك الأعظم، وكلماتك التامات، أن ترحمنى يا أرحم الراحمين».

وعن أبيها الإمام على كرم الله وجهه ترث هذا الدعاء: «ياعمادَ مَنْ لا عمادَ له، وذخر من لا ذخر له، يا سندَ من لا سند له، يا مَنْ لم يكن مثله قبل ولا بعد، ولا كفو، ولانِد، ولا نهاية ولاحد، بحرمة اسمك ارحمنى برحمتك ياأرحم الراحمين».

ولم تصرفها عبادتها ونسكها وابتهالاتها وخشوعها عن التفكير فى آيات الله فى خلقه، أو تلقى ما يسمح به زمانها من علم وفكر، وكيف لا تهتم بالعلم والتفكير، وقد سمعت عن مكانة العقل والعلم مما نُقل عن جدها الرسول الأعظم حيث قال: «العلماء ورثة الأنبياء» وقال: «لَموتُ قبيلة أيسر من موت عالم». وسمعت من أبيها قوله: «ثلمة الدين.. مَوْتُ العلماء». وقبل ذلك سمعت قول الحق تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.. هذا إلى جانب أنها تربت فى مدينة العلم النبوى، وصحبت أبيها الإمام إلى يوم استشهاده، فنهلت من علمه الكثير، وعاشت حينًا من الدهر مع أخويها: الحسن والحسين، فنهلت منهما الكثير أيضًا، ولذلك خاطبها ابن شقيقها علىٌّ زين العابدين بن الحسين، رضى الله عنهما: «أنت يا عَمَّتَاهُ بحمد الله عالمة غير معلمة، وفهمة غير مفهمة» يقصد بذلك كما يقول أحد مؤرخيها الأستاذ على أحمد شلبى فى كتابه عنها «إن علمها هو مما مُنِحَ وفُتح به على رجالات بيتها الرفيع، وأفيض عليها إلهامًا».

ولذلك فقد روت الحديث عن أمها، وعن أبيها، وعن أخويها.. كما روت عن أم سلمة، وأم هانئ.. ولذلك رَوَى عنها ابن عباس، وعلى زين العابدين، وعبد الله بن جعفر، وفاطمة النبوية رضى الله عنهم أجمعين.

ومما سجله عنها مؤرخوها للدلالة على كثرة علمها وتبحرها هذه القصة التى تُروَى بأن أخويها الحسن والحسين كانا يتذكران ما سمعاه من جدهما النبى صلى الله عليه وسلم من علمٍ، فدخلت عليهما السيدة زينب مستأذنة وملقية عليهما السلام، وجلست معها وقالت: «سمعتكما تقولان إن جدى ﷺ كان يقول: «الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّن وبينهما مُشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه. ألا فإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حمَى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجسدُ كُله، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجسدُ كله.. ألا وهى القلب» اسمعا يا حسن ويا حسين، إن جدكما رسول الله ﷺ ذكر ثلاث درجات فى الدين: الحلال، والحرام، والمشتبه.. أمَّا الحلال فهو ما أحله الله تعالى، بأن جاء القرآن الكريم بحله، وبَيَّنَهُ

الرسول ﷺ فى بيانه الواضح، كحل الشراء والبيع، وإقامة الصلاة فى أوقاتها، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وترك الكذب، والنفاق، والخيانة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأما الحرام فهو ما حرَّمَهُ القرآن الكريم، وهو على النقيض من الحلال. . ويبقى المشتبه، وهو الشىء الذى ليس بالحلال ولا بالحرام. . والمؤمن الذى يريد لنفسه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، ما عليه إلا أن يؤدى ما أوجبه عليه رب العالمين، ويسير فى طريق القرآن الكريم، ويقتدى بالنبى الكريم، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضِه وأصبح دينه نقياً.

وأما مَنْ سَارَ فى طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرَّمه الله. وإن لكل ملك حِمىً بجوار ملكه، وحمى ملك الملوك محارمه، ولقد قال النبى ﷺ: «اتق المحارم تكن أعْبَدَ الناس»، وإن الله تعالى أودع الإنسان مضغة وجوهرة، إذا صلحت فإن الجسد يكون صالحاً نقياً، وهى القلب، فإذا كان سليماً فإن صاحبه يكون يقظاً لأمور دينه ومبادىء شريعته. يرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة، ومن سلك هذا السبيل يكون يوم القيامة من الفائزين. إن حياتنا فى الدنيا مرحلة من المراحل التى توصل الإنسان إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار، وليس بعد الموت عقاب،ولا بعد الدنيا إلا الجنة أو النار.»

وما إن انتهت من حديثها حتى قال الإمام الحسن: «أنْعِمْ بِكِ يا هاشمية. .حقّاً إنكِ من شجرة النبوة المباركة، ومن معدن الرسالة الكريمة».

وأمَّا عن زهدها ـ رضى الله عنها ـ فقد كانت مضرب الأمثال فى ذلك، برغم غنى زوجها وثرائه، ولعلها فى ذلك كانت تلتزم بالحكمة القائلة بأن الزاهد من يحب خالقه ويبغض ما يبغض خالقه، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت إلى حرامها. . أو بحديث جدها الرسول الأعظم «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين، وزهده فى الدنيا، وبصره عيوبه». وقد رأت ما عليه أمها الزهراء، التى كانت تفترش حصيراً من سعف النخيل لنومها، والتى كانت تلبس الخشن من وبر الإبل، وتطحن الشعير بيدها حتى تدمى، وتعجن وتخبز، وتقوم بعمل البيت كله فى غير كلل.

وقد رأت أيضاً ما كان عليه أبوها أميرالمؤمنين على بن أبى طالب الذى كان يرقع مدرعته ـ أى ثيابه عند الخياط حتى أحصى فيها سبعين رقعة، حتى قال «والله لقد رقعت مدرعتى هذه حتى استحييت من راقعها». ولم يكن لديه يوم بويع بالخلافة غير حصير صغير كان يجلس عليه مفضلا الآخرة على الدنيا.. فلا عجب والأمركذلك أن تكون السيدة زينب زاهدة، وأن تكون مثالاً ونموذجاً لهذا الزهد، وأن يصل الزهد عندها حَدّاً جعلها تزهد فى المال والولد والبيت والزوج، وراحة البال، وهدوء النفس، لتلحق بأخيها الإمام الحسين مؤثرةالآخرة على الدنيا ساعية إلى الجهاد فى سبيل نصرة الحق، ولسان حالها يقول: «الآخرة خير وأبقى».

ويضاف إلى خصلة الزهد عندها خصلة أخرى هى الصبر على المكاره، ولعلها ورثت هذه الخصلة عن جدها الرسول الأعظم، الذى بلغ من صبره على مكاره قومه أن خاطبه القرآن الكريم: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ها هِىَ ذى حفيدته يصيبها من أحداث الزمان ما لو أصاب الجبال الرواسى لَتَضعضعت جوانبها، وتصدعت أركانها من الهول والقسوة، إلا أنها قابلت كل ذلك بقلب مطمئن، ممتثل لأمر الله تعالى، مؤمنة بقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[2].

أو الحديث جدها الرسول الأعظم حيث قال: «الإيمان شطران: شطر صَبر، وشطر شُكر».

كانت بداية صبرها على المكاره حين فتحت عينيها بفقدان أحب الأحباب الجد والأم، حتى إذا قطعت من الزمن سنوات تفجع باستشهاد أبيها الإمام وهو على قمة الدولة الإسلامية.. وتتوالى المآسى والنكبات والكوارث بمرور الأيام، بضيعة معاوية وأعدائه، حتى يكون من ضيعته تدبيرموت شقيقها الحسَن رضى الله عنه مسموماً على يد زوجته الجعدة اللعينةالتى تواطأت مع ابن أبى سفيان. وتختتم

(١) سورة الكهف ـ الآية السادسة. وباخع نفسك: قاتلها غَماً وحَسْرَةً.
(٢) سورة البقرة ـ من الآية ١٧٧

سنوات حياتها بمأساة كربلاء، يوم شاهدت بعينها استشهاد الشقيق والإبن وابن العم وابن الشقيق من خيرة رجال المسلمين.

حقاً إذا كانت كربلاء كَرْباً وبلاءً على المسلمين عامة، فقد كانت أشد كرباً وأقسى بلاءً على السيدة زينب خاصة.. ففى كربلاء قُتل لها فى يوم واحد شقيقها الإمام الحسين، وستة من إخوتها لأبيها هم: «العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد، وأبو بكر، وثلاثة من أبناء شقيقها الحسين، وقيل إنه قُتل لها ولدان من أبنائها.. وبقية أسرة أبيها من الرجال، ولم يبق سوى ابن شقيقها علىّ زين العابدين بن الحسين الذى أنقذه مرضه من الموت.. يُضاف إلى هؤلاء من استشهد من قبل فى الأيام الماضيه، وفى مقدمتهم ابن عمها مسلم بن عقيل بن أبى طالب على أيدى زبانية يزيد بن معاوية».

وبرغم ما حدث يوم كربلاء الذى كان فادحاً وأليماً فإن السيدة زينب كانت مثالاً للصبر والتضحية والفداء، بل والثبات والشجاعة والإقدام، حيث كانت هى السيدة الرائدة يوم كربلاء، فكانت تواسى المظلوم، وتسهر على المريض، وتضمد جراح المصاب، وتقى العطشى، وتستثير هَمَمَ المجاهدين. وننظر إلى موقفها فى ذلك اليوم، حيث ترى ابن شقيقها على زين العابدين، وهو الوحيد الذى بقى من الرجال حين عظم الأمرعليه، واشتد بعد استشهاد أبيه وإخوته وأبناء عمومته، هنا تقول له عمته السيدة زينب فى ثبات نادر: «مالى أراك تجود بنفسك يا بقية جدى وأبى وإخوتى؟! والله إن هذا لَعَهْدٌ من الله لجدِّكَ وأبيك، إنه أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون فى أهل السموات، أنهم يحملون ويجمعون هذه الأشلاء المقطعة، والجسوم المضرجة بالدماء فيدارونها، ويَنْصبون علماً لقبر أبيك الشهيد لا يمحى رسمه، ولا أثره ولا يزداد إلا عُلواً على مر الأيام وَكَرِّ الليالى.. ويتحدون أئمة الكفر وأشياع الضلالة فى محوه وطمسه، فلا يزداد إلا ظهوراً».

ولننظر إليها وهى تلقى نظرة أخيرة على الأشلاء المقطعة لشقيقها الإمام الحسين، وكيف اختلطت دماؤه الطاهرة بالرمال، وفى الوقت نفسه تحين منها نظرة عابرة إلى ما بقى على قيد الحياة من آل البيت فلا تجد إلا النساء والأطفال ـ وهنا

يعلو صوتها حتى لكأنه يشق عنان السماء من قوة بيان تأثيره: «يا محمداً، صلى عليك مليك السماء.. هذا حُسين بالعراء مقطع الأعضاء والأجزاء، وبناتك أصبحوا سبايا.. إلى الله المشتكى، وإلى محمد المصطفى، وإلى على المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء وإلى حمزه سيد الشهداء.. يا أصحاب محمد، هؤلاء ذرية المصطفى يُساقون سوق السبايا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا بِأَبِى مَنْ أضحى معسكره يوم الاثنين منها، بأبى من لاغائب فيرجى، ولا جريح فيداوى، بأبى من نفسى له الفدا، بأبى المهموم حتى قضى، بأبى العطشان حتى مَضَى، بأبى من شيبه يقطر بالدماء، بأبى من كان جده المصطفى».

ومن كربلاء يسير الموكب الحزين إلى الكوفة، والغريب أن يخرج أهلها لاستقباله أبناء علىٍّ كرم الله وجهه، الذى خذلوه من قبل، والأغرب أن يقدم أهلها الطعام والشراب لأفراد هذا الموكب الذى قُتِلَ رجاله، وعلى رأسهم الإمام الحسين فتبادرهم السيدة فاطمة النبوية قائلة: «يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام». ذلك لأن آل البيت لا تجوز عليهم الصدقات.. وتومئ السيدة زينب موافقة ابنة شقيقها طالبة من يقدم ذلك بالامتناع. والأغرب من ذلك أن تأخذهم دهشة ومفاجأة.. حيث يرون بنات أمير المؤمنين على بن أبى طالب يدخلون الكوفة غبر عفر، سبايا وأسرى.. فتنعقد منهم الألسنة خشية من جلال الموقف.. متناسين متجاهلين تقاعسهم أيام أن حشد الطاغية يزيد ورَجْلُه المتعطش للدماء ابن زياد. وهنا تقف السيدة زينب شامخة الوجه منتصبة القامة، تكشف ما جيل عليه أهل الكوفة من نفاق: «الحمد لله، والصلاة والسلام على أبى محمد وآله الطيبين الأخيار، أمَّا بعد؛ يا أهل الكوفة، يا أهل الخداع والغدر، أتبكون اليوم؟ فلا رَقَأَت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بَعْد قوة أنكاثاً، تتخذ من إيمانها دَخَلاً مكراً بينكم، ألا أهل فيكم إلا الصَّلَف (التكبر) والكذب، والشنف والتبغض، وملق الإماء، وعجز الأعداء». أتبكون وتنتحبون؟ أى والله، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلا، فقد ذهبت بعارها وشنَّارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً، وأنى يرمضون بعد قتل سليل خاتم النبوة، ومَعْدن

الرسالة. . فتعساً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعى، وتبت الأيدى، خسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضُربت عليكم الذلة والمسكنة، . . ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أى كيد لرسول الله فَرَيْتم، وأى كريمة له أبرزتم، وأى دم له سفكتم، وأى حرمة له انتهكتم. . لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً. . . ».

وطبيعى أن يتأثر كل من سمع كلمتها، التى كشفت الكثير، حيث أدركوا فداحة هذا الحدث الذى تحاسبهم عليه الأجيال. . حيث تركوا أبناء رسول الله لهذه الطغمة الباغية تقتلهم وتمثل بجثثهم وتسبى نساءهم، وتسوق أطفالهم. . حدث هذا لأن أهل الكوفة خذلوهم.

ويتكرر هذا الموقف العصيب حيث يكون الموكب عند أمير الكوفة عبيد الله بن زياد. . اليد الباطشة ليزيد بن معاوية، حيث استغل الأخير كراهيته للإمام الحسين ورغبته فى أن يقدم لأمير المؤمنين ما يثبت أقدامه فى الكوفة. . وها هى ذى السيدة زينب تلتقى وجهاً لوجه مع قاتل شقيقها الحاقد عليه ابن زياد. . الذى يبتدرها قائلا: «الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وكَذَّبَ أُحْدُوثتكم». فترد عليه السيدة زينب رضى الله عنها فى ثبات وتجلد: «الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه ﷺ، وطهرنا من الرجس تطهيراً. . إنما يفتضح الفاجر، ويكذب الفاسق وهو غيرنا». ويرد ابن زياد: كيف رأيت صُنع الله فى بيتك وأخيك؟ وترد السيدة زينب: ما رأيتُ إلا خيراً. . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم. فانظر كيف أنت يومئذ ثكلتك أمك يا ابْنَ مرجانة» وهنا يشتد حنقه وغيظه حتى لا يستطيع السيطرة على نفسه أو مشاعره، فيقول متشفياً: لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسينِ والعصاة، والمردة من أهل بيتك! فقالت له: لَعَمْرِى، لقد قتلت كهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى. فإنَ كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت.»

ويتكرر هذا الموقف فى مجلس يزيد بن معاوية أمير المؤمنين. . بعد انتقال الموكب إلى مقر الخلافة بالشام. . وقد جئ برأس الإمام الحسين رضى الله عنه، ووضع بين يديه فى إناء. . ليوجه إليه الحديث وكأنه (جبّى) فيضرب جنبيه بكلتا

يديه متشفياً وقائلا:

ليت أشياخى ببدر شهدوا　　جَزَعَ الخزرج من وقْعِ الأَسَل

فترد عليه السيدة زينب: أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء فأصبحنا نُساقُ كما يساق الأسارى، أن بنا هواناً على الله، وبكَ كرامة، وأن هذا لعظيم خَطَرِكَ عنده فشمخت بأنفك، ونظرت فى عطفكَ، تضرب أصدريك فرحاً، وتنفض مذوريك مرحاً؟! أمن العدل يا بن الطُلَقَاء تخديرك حرائرك وإماءَك، وسَوْقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا، هُتكت ستورهن، وأبديت وجوههن؟! ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء.. فكِدْ كيدك، واسْعَ سَعْيكَ، وناصب جهدك، فوالله لاتمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدَنا، ولا تدحض عنك عارها. وهل رأيك إلاَّ فند، وأيامك إلا تتمدد، وجمعك ألا تبدد يوم ينادى المنادى.. ألا لعنة الله على الظالمين. ثم ترد عليه ببيت من الشعر قائلة:

لا هَلَّوا واستهلو فرحاً　　ثم قالوا يايزيد لا تشل

ولم يستطع الطاغية يزيد أن يقاطعها برغم ماهو عليه من جبروت وقسوة، ومافيه من سلطان وهيبة.. بل ظل مشدوها، حيث افتضح أمره ولم يجد ما يقوله سوى:

يا صيحة تُحْمَدُ مِنْ صوائح　　ما أهْوَنَ النوْحَ على النوائح

وهكذا كانت السيدة زينب رضى الله عنها أول سيدة فى الإسلام شاءت لها الأقدار أن تقوم بهذا الدور السياسى على مسرح الأحداث.. وهى سيدة جريحة مطحونة من هول المأساة.. وهكذا أصبح موقف السيدة زينب وقوة تعبيرها عنه.. جعل من كربلاء مأساة دامية على مر الزمن.. وتوالى الأجيال.

وقد يسأل سائل: كيف كانت هذه السيدة ـ وهى المرأة العربية التى لم تخرج من البادية ـ على هذه الصورة من رباطة الجأش، وقوة العزيمة.. وفصاحة اللسان وقوة البيان؟

إن لذلك أسباباً وأسباباً. منها ماتتمتع به من مكانة فريدة، وينبع ذلك من نسبها وحسبها

وبيئتها. . ومنها ما عُرف عنها أيضاً من حُبّ للعلم والمعرفة، وكيف لا وقد رأينا ثقافتها من أحاديثها ومناقشاتها للملوك والأمراء، وهى فى أسوأ الظروف وأقسى الأحوال.

وهناك أسباب جعلت السيدة زينب رضى الله عنها محوراً لهذه المأساة الدامية، وخيرمعبر عن وقائعها، الأمر الذي جعل كل المصادر التي تناولت سيرتها أو سيرة شقيقها الإمام الحسين لا تخرج فى مادتها عمّا قالته السيدة زينب كمصدر موثوق به.

ولعل موقفها هذا جعل يزيد نفسه يتردد ويضعف، ويرجو أن يغريها بالمال، فعرض عليها رد أموالها التى نُهبت منها ومن زوجها وأبنائها. وهنا ترد عليه قائلة فى إباء وشمم: «يايزيد، ما أقسى قلبك!! تقتل أخى وتعطينى المال!! والله لا كان ذلك أبداً».

ويتناقل العرب أخبارها فيزدادون إعجاباً بموقفها وثباتها، حتى كانت القبائل تنتظرها فى طريق العودة إلى المدينة المنورة، وتظل حشودهم أياماً حتى يَرَوَنْ عقيلة بنى هاشم التى استطاعت أن تحقر من شأن ابن زياد فى الكوفة، وابن معاوية فى الشام.

ويستقر بها المقام فى المدينة المنورة، ويلتف حولها الناس، فتندد بعدوان يزيد بن معاوية، وبَغْى عبيد الله بن زياد، وطغيان أعوانهما على آل البيت. . فأثارت ثائرة الجميع، وهيجت الألباب والمشاعر، وألهبت بمنطقها السياسى الجماهير على حزب الشر. . وهنا خشى يزيد على نفسه، فأمر أن تغادر المدينة. . إلى حيث تشاء من البلاد فى أرض الله، فيما عدا الحرمين الشريفين.

وطبيعى أن ترفض الرحيل من بلد الأجداد والآباء والأحباب، وأن يتمسك بها الناس، فقد رأوا فى أحاديثها تنفيساً عمّا يكنونه ليزيد وأعوانه وزبانيته من كُرْه واحتقار. . وتتدخل ابنة عمها عقيل قائلة: «يابنت عماه، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء. . فطيبى نفساً وقَرِّى عيناً، وسيجزى الله الظالمين. . . أتريدين بعد ذلك هواناً؟! ارحلى إلى أى بلد آمن».

وتختار السيدة زينب مصر دارَ إقامة لها. . لما سمعته عن أهلها من محبة ووقاء لآل البيت، ولما عرفته من أن مصر كنانة الله فى أرضه، لها من السمات والسماحة ما يجعلها مكاناً آمناً لأولياء الله. . فتجئها مصحوبة بنفر قليل من آل بيتها، وتبقى بها ما يقرب من عام، فيه تمهد أرض الدار الآخرة، يوم لقاء ربها. . وتكون دارها هى قبرها، وهو مسجدها الآن.

* * *

١٥ السيدة سكينة
صاحبة أول ندوة أدبية فى الإسلام

السيدة سكينة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما، اشتهرت فى تاريخ الثقافة العربية بأنها صاحبة أول ندوة أدبية تقيمها المرأة، ويقف ببابها الرجال، وقد كان من بين هؤلاء الرجال.. فحول الشعراء فى تاريخ هذه الثقافة.

ولعل حق هذه السيدة سكينة رضى الله عنها فى هذا المجال قد أصبح محفوظاً، ليس على مستوى الثقافة العربية فحسب، وإنما على مستوى الثقافات الأجنبية أيضاً.

ولعل سبب شهرة ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها فى التاريخ.. يرجع إلى مكانة وقيمة مَنْ كان يقصدها من الشعراء، وفى مقدمتهم «الفرزدق» و «كثير» و «جرير» و «جميل» و «عمر بن أبى ربيعة»، وما كان يصدر عنها من أحكام نقدية.. حتى كان الشاعر لا ينشر قصيدة على الناس قبل أن ينشدها داخل الندوة وتجيزها السيدة سكينة رضى الله عنها.

ولم تقتصر الندوة على الكلمة الشاعرة فحسب، وإنما امتدت إلى الاهتمام بكثير من فنون القول.. حتى إذا غطى اهتمامها الكلمة شعراً ونثراً انتقل إلى الكلمة لحناً وغناءً، حيث استوعبت ندوتها الموسيقى والغناء، وكان حكمها على كل ذلك مبنى على علم واسع، وإحساس صادق.

لكن لايمكن التعرف على جوانب من هذا الدور الثقافى المهم فى حياة السيدة سكينة خاصة، والثقافة العربية عامة، بدون معرفة شىء عن نشأتها الأولى فى بيئة طاهرة، تجل الكلمة شعراً ونثراً، وتقدر قائليها شعراء كانوا أو كُتَّاباً.. وإذا

ما تيسر ذلك فلا مناص من معرفة علاقة هذه السيدة الطاهرة بمجتمعها. وقبل كل ذلك علينا أن نتعرف على مسألة وجودها بمصر فى الضريح المقام بالمسجد المعروف باسمها بالقاهرة، على ضوء ما وصل إلينا من كتابات وروايات للعلماء والمؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين.

اختلفت الروايات فى شأن وجود رفاتها الطاهرة فى الضريح المقام بمسجدها الموجود بحى الخليفة بالقاهرة، فى الشارع المسمى باسمها. فالإمام الشعرانى يذكر فى طبقاته: «أنه لما دخلت السيدة نفيسة مصر كانت عمتها السيدة سكينه رضى الله عنهما المدفونة قريباً من دار الخلافة مقيمة بمصر، ولها الشهرة العظيمة».

ويؤيد هذا القول ابن زولاق، حيث يسجل فى عيونه: «أن أول مَنْ دخل مصر من ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما، وذلك أنها حُملت إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ليدخل بها».

وبقية الروايات التى تؤيد وجود رفاتها الطاهر بمصر تعتمد فى جملتها وتفصيلها على هذه القصة التى تناقلتها الكتب الحديثة عن الكتب القديمة والتى تروى: «أنه لما خطب الأصبغ السيدة سكينة رضى الله عنها. كتبت إليه تقول: « إن أرض مصر وَخِمَة، فبنى لها بمصر مدينة الأصبغ في منطقة يقال بجوار حلوان الآن، إلا أن هذا الأمر لم يَرُقْ فى عين الخليفة عبد الملك بن مروان، فخَيَّرَ ابن أخيه الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان؛ الذى كان والياً على مصر وقتئذ قائلاً: إمَّا أن تأخذ ولاية مصر أو سكينة».

ويقول النسابه العبيدى: «إن السيدة سكينة صحبت عمتها السيدة زينب بنت الإمام على رضوان الله عنهم فى خروجها إلى مصر، حين أدرك الخليفة يزيد بن معاوية خطر مقامها بالمدينة، فأمر واليها أن يفرق بينها وبين الناس حتى لاتكون فتنة».

لكن فى المقابل نجد بعض الروايات ترى أن رفات السيدة سكينة رضى الله عنها موجود بالبقيع فى المدينة المنورة، وتعلق على هذه الروايات الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها عن السيدة سكينه قائلة: «وإنْ صحت هذه الروايات، فلعل السيدة سكينة قد عادت من مصر إلى الحجاز بعد وفاة عمتها السيدة زينب رضى الله عنها عام ٦٢ هجرية».

ويقول صاحب كتاب الأبصار: «لا عِبْرَةَ بالاختلاف فى دفن بعض أهل البيت - رضوان الله عليهم - الذين لهم بمصر مزارات.. فإن الأنوار التى على أضرحتهم شاهد صِدْق على وجودهم بهذه الأمكنة».

وأياً مّا تكون هذه الروايات التى تؤيد وجود الرفات الطاهر لهذه السيدة الفضلى بمصر، فى المسجد الذى بناه خصيصاً لها عبد الرحمن كتخذا عام ١١٧٣هـ وكتب عليه اسمها، أو التى ترى غير ذلك، فإن الثابت الذى لم يختلف حوله المؤرخون والرواة قديمهم وحديثهم، أن هذه السيدة الطاهرة قد شرفت أرض مصر مرة أو مرتين على الأقل، وربما نزلت وأقامت فى هذا المكان المقام عليها ضريحها بمسجدها بالقاهرة، وإلا فما معنى أن يُقام لها دون غيرها من آل البيت هذا الضريح فى هذا المسجد، فى هذا المكان من القاهرة، لو لم تكن لها علاقة به، سواء كانت هذه العلاقة قد تمت بالوفاة، أو بالزيارة؟!

والآن ماذا عن سيرة هذه السيدة الطاهرة؟

تقول الروايات قديمها وحديثها، ولاتختلف فى ذلك إلا فى طريقة التناول: إنه عندما طرق الإمام الحسين رضى الله عنه باب امرىءالقيس بن على الكلبي طالباً يد ابنته «الرباب» عمت البهجة والفرحة أقطار نفسه، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو بهذه المصاهرة الكريمة سيرتبط ببيت محمد ﷺ، فأى شرف وأى عزة تطاول هذا النسب؟

إن طالبَ اليد هو الحسين، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على وفاطمة الزهراء، رضى الله عنهما.. وكفى بهذا شرفاً وعزة.. وطبيعى والأمر كذلك أن يستجيب والد العروس لهذا القادم الحبيب لتدخل ابنته «الرباب» - ذات الحسَب والنسب، والأدب والحُسْن - بيت الحسين وتُنجب له فيمن تنجبَ من الذكور عبد الله الذى استشهد مع أبيه فى كربلاء، وعلى زين العابدين، وهو آخر من بقى من أبناء الحسين من الذكور يوم كربلاء وسكينة، وفاطمة النبوية رضى الله عنهم.

وسميت الفتاة الأولى آمنة، تيمناً باسم أم النبى ﷺ، وسُميت الثانية فاطمة تيمناً بأم الحسين فاطمة الزهراء، لكن تغير اسم الفتاة الأولى إلى سكينة، حيث

اعتادت أمها الرباب أن تناديها به لأسباب، منها: الاحترام والتقدير لاسم الجدة العظيمة التى أنجبت البشير النذير محمداً ﷺ، ومنها أن هذه الفتاة الصغيرة اتصفت دون بقية أخواتها بسمات خاصة: هدوء نفس، وطيبة قلب، وطول استغراق، مما جعل نفوس أهل البيت تهفو إليها وتسكن، وترتاح إلى أدبها وذكائها وتستقر.

ولعل هذا المعنى يترجمه شعر والدها الإمام الحسين رضى الله عنه:

لَعَمْرِى إننى لأُحبُّ داراً تكون بها سكينةُ والرَّبَابُ
أحبهما وأبذل كل مالى وليسَ لعاتبٍ عندى عتابُ

وهكذا غلب الاسم المستحدث «سكينة» على الاسم الأصلى «آمنة» ليتلاشَى الأخير. ويبقى على مر الزمان «سكينة» اسماً لها.

وإذا كانت السيدة سكينة قد نشأت فى مهاد العلم والفضل، والحسب والنسب.. فجدها لأبيها هو الإمام علىّ كرم الله وجهه، وأبوها الإمام الحسين، وعمُّها الإمام الحسن، أول أمير للمؤمنين بعد الخلفاء الراشدين الأربعة.. وأنها نشأت فى بيئة حديثة العهد بظهور الإسلام، ووثيقة الرابطة بالجد الأعظم النبى ﷺ، شديدة التمسك بهذا الدين الجديد... فكان من الطبيعى أن تكون عابدة قانتة، حافظة لدينها.

غير أن هذه البيئة المتفردة لم تُنسِها سماتها المتميزة بها عن غيرها، حيث بدأت شخصيتها تتبلور وهى فى الثالثة عشرة من عمرها، حتى أنه لم يأت موسم الحج فى العام الستين للهجرة إلا كانت هذه الفتاة قِبْلة الأنظار، والمثل الذى يُحتذى به بين فتيات المدينة.

وفى هذا الموسم ـ كما تنقل الروايات قديمها وحديثها ـ شاعَت «الطُّرَّة السكينية» أو «الجمة» أو «القُصَّة» أو «الخصلة»، فلم تبق شابة فى المدينة إلا قلدتها فى تصفيف شعرها، واستمرت هذه الحالة من التقليد والمحاكاة فترة من الزمن، حتى تجاوز الفتيات إلى الشباب، فراح يقلد هو الآخر هذه «الجمة السكينية» الأمر الذى انزعج له بعد ذلك عمر بن عبد العزيز حين كان والياً على

المدينة، فكان إذا وجد شاباً يصفف جمته على الطريقة السكينية جَلَده، وأمر بقص شعره، مبرراً ذلك بأن الإسلام لايقبل تشبُّه الرجال بالنساء، حتى لو كن من أفضلهن.

ولا تعنى هذه الطبيعة التى فَطَرَها الله عليها من الحُسْن الذى تُؤْخذ له القلوب أن تكون هذه السيدة الطاهرة منصرفة عن دينها، بل علي العكس، حيث كانت تصل فى تعبدها إلى درجه الاستغراق التام، والانصراف الأتم عَمَّن حولها، وهو ما يؤكده قول والدها الإمام الحسين رضى الله عنه،حين جاءه ابن أخيه الحسن المثني بن الإمام الحسن رضي الله عنهم، طالباً الزواج من واحدة من ابنتيه: سكينة، أو فاطمة، فقال له الإمام الحسين: اخترتُ لك فاطمة ، فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة الزهراء، أما سكينة فغالبٌ عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح للرجال..».

وإلى جانب استغراقها وتعبدها ـ وهذا أمر طبيعى كما قلنا ـ كان لها استغراق آخر يترجمه اهتمامها بالأدب وتذوقها له. ولعل هذه السمة اكتسبتها من البيئة المحيطة بها عامة، تلك التى كانت بيئة أدب، ومكانتها كإبنة للإمام الحسين وحفيدة للإمام على، وما كانا عليه كل منهما من بلاغة فى القول وفى الأدب، ربما يميزهما عن آل بيت النبى ﷺ.

هذه البيئة فى عموميتها وخصوصيتها كانت تعنى بالشعر خاصة، وتزداد العناية بهذا الجانب من الأدب، حيث عمدت الدولة الأموية ـ بعد ذلك ـ إلى جعله وسيلة من وسائل الدعاية لسياستها الغريبة، فانصرف الناس إليه، فكان من الضرورى أن يهتم الطرف المقابل، وهو المناهض لبنى أمية من آل البيت، ومنهم ـ أو ندوتهافما بعد ـ السيدة سكينة رضى الله عنها بهذا الضَّرْب من فنون القول.

لم يكن غريباً والأمر كذلك أن يكون مجلس السيدة سكينة رضى الله عنها ـ أو ندوتها فيما بعد ـ عامراً بالأدب، منصرفاً إلى الشعر منه خاصة، وهى خاصية لعلها تكون جديدة، على الأقل بعد الإسلام، حتى إن الدكتورة سعاد ماهر أشارت إليها بالقول: «وإذا كان الغرب يفتخر بندوات نسائه العلمية والأدبية فى القرن الثامن عشر، فإن للعرب أن يتباهوا ويفخروا بندوات نسائه فى الأندلس، التى سبقت

الغرب بعدة قرون، فقد كانت ندوات ولأّدة بنت المستكفى فى القرن الحادى عشر الميلادى مَجْمَعَ العلماء وأهل الأدب والفن. على أن ندوات «ولأّدة» لم تكن الأولى من نوعها فى الإسلام، فقد سبقتها فى القرن الأول الهجرى ندوات نسائية فى المدينة المنورة. وكان أول مَنْ سنها هى السيدة «سكينه» بن الإمام الحسين، ثم تبعتها بعد ذلك غيرها من سيدات قريش».

ويؤكد هذا القول ما امتازت به ندوة السيدة «سكينة» من العلم الغزير، والأدب الرفيع، والشعر الرقيق، حيث تسجل الروايات أنه كثيراً ما اجتمع ببابها فحول شعراء العربية، وفى مقدمتهم «جرير، والفرزدق، وجميل، وكثير وابن أبى ربيعة». خصوصاً فى موسم الحج من كل عام، طالبين أن تأذن لهم بإنشاد أشعارهم من وراء حجاب.

لقد وصلت إلى أسماع الحاضرات فى ندوة السيدة «سكينة» رضى الله عنها أشعار مجنون ليلى، وتشبيب جميل بُثينة، وغَزَل كُثَيِّرٍ عَزَّةٍ، وهجاء جرير للفرزدق، وروايات عمر بن أبى ربيعه الخيالية، وكانت صاحبة الندوة هى الأخرى قائلة للشعر، راوية وناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه وقوافيه، ذوّاقة لمعانيه عارفة لأقدار قائليه.

وتحدثنا الروايات القديمة، وهى ما تنقله الكتابات الحديثة، من أن عدداً من الشعراء كان بينهم الفرزدق، وجرير، وجميل. اتفقوا فيما بينهم على حضور ندوة السيدة «سكينة» ليحتكموا إلى رأيها فيمن يكون أشعرهم وأنشد كل منهم شعره، حتى جاء دور جميل، فأنشد قائلا:

لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهدْ ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد؟
وأفضل أيامى وأفضل مشهدى ... إذا هيج بى يوماً وهن قعود

وهنا قالت السيدة «سكينة» رضى الله عنها لجميل: أنت الذى جعلت قتيلنا شهيداً، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يومَ تدافع عنا وتجاهد، ولم تتعد ذلك إلى قبيح.. أنت أشعر الموجودين.

وفى ندوة أخرى حضرها «الفرزدق» مع غيره من الشعراء، بعد أن أتم حجه،

فبادرته السيدة «سكينة» رضى الله عنها قائلة: من أشعر الناس؟ وكأنها بذلك تذكره بما تم فى ندوة سابقة، فتثيره إلى قول ما.. عنده فأجابها الفرزدق باعتزاز: أنا. فقالت له فى حضور الشعراء: فقالت له أشعر منك جرير إذْ يقول:

بنفسى من تَجَنُّبُهُ عزيزٌ ... عليَّ ومَنْ زيارته لِمَامُ
ومَنْ أمسى وأصبح لا أراه ... ويَطْرُقُنى إذا هَجَعَ النيَامُ

وأسمعها الفرزدق بعض أشعاره، وكانت بالفعل عظيمة المستوى، ولكن السيدة «سكينة» رضى الله عنها كانت تريد أن تستثير لديه جانب التحدى، فقالت له: صاحبك جرير أشعر منك، حيث يقول:

لولا الحياءُ لهـا جنى استعبَارُ ... ولزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
لا يلبثُ القُرَناء أنْ يتفرقوا ... ليلٌ يكرُّ عليهمو ونهارُ

فقال الفرزدق: والله لئن أَذِنْتِ لى لأسمعنَّكِ ماهوخير منه.. وأسمعها ماهو أجود مما قال من قبل. فقالتَ له ـ وكأنها تصرَ على أن يأتى بأحسن ما عنده: جرير أشعر منك إذ يقول:

إنَّ العيُونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يحيينَ قَتْلاَنَا
يصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ به ... وهُنَّ أضعفُ خلق الله إنساناَ

كانت تعلم جيداً القدرة الشاعرية للفرزدق، ولكنها كانت ترغب فى استثارته بمقارنته بمن ينافسه، وهو جرير. فهى فى الحقيقة لا تتحيز لواحد منهما دون الآخر.. وإلاَّ فما معنى أن تنقد شعر جرير فى ندوة أخرى، وتقول عن أحد أبياته وهو:

طرَقَتْكَ سيدةُ القُلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارْجعى بسلام

بأنه ينقصه الكثير من آداب اللياقة، والخروج على حُسْنَ السلوك، حيث يرد أى طارقه فما بالنا لو كانت هذه الطارقة هى سيدة القلوب؟! وقد لاَقَى حكمها عليه رِضاً من الحاضرين.

واشتملت ندوة السيدة «سكينة» على الموسيقى والغناء إلى جانب الشعر. فقد

كانت لها أُذُن تميز بين ضروب الألحان، الأمر الذى جعل اثنين من أكبر المطربين فى زمانهما ـ وهما «الغريض» و« ابن سريج» يحتكمان إلى رأيها فيمن يلحن أفضل، حيث قال لها ابن سُرَيْج: سيدتى، إنى كنت قد صنعت لحناً وحسنته فَنازَعينيه الغريض، فأردنا أن نحتكم إليك.. فأىّ منا قدمتيه فينا تقدمً. فقالت: هاته.. فبدأ يغنى هذا البيت كما لحنه:

وعرِّجى علينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ　　　إنكِ لا تفعلى تحرجى

فقالت: هاته أنت يا غريض.. فَغَنّاها الغريضُ كما لحنها. فعادت وقالت لابن سريج: أعده، فأعاده. وسألت الغريض أن يفعل ففعل. فسكتت لحظات قالت بعدها: ما أشبهكما باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الحسان. لايُدْرَى أيهما أحسن؟!

وهكذا كانت السيدة «سكينة» رضى الله عنها. حتى قال عنها ابن خلكان: «بأنها سيدة نساء عصرها، وأحسنهن أخلاقاً، وأكثرهن تعبداً، وأرفعهن نسباً. وقال عنها الأصفهانى: «إن امرأة تُخْتَارُ على السيدة سكينة لمنقطعة النظير».

ولعل فى هذه القصة ما يترجم ذلك ويتجاوزه إلى وصف سمات شخصيتها بوجه عام والقصة تقول: إنه كان يتوافد على ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها شريفات المدينة، وبنات أعرق بيوتها، ولقد حدث ذات مرة أن قالت بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه تفخر بأبيها: «أنا بنت الشهيد». وسكت الجميع، فلم تجسر إحداهن أن ترقى بمقام أبيها، أو أخيها، أو زوجها، إلى مقام أمير المؤمنين وصهر النبى وصاحبه، ثالث الخلفاء عثمان بن عفان. غير أن الأنظار اتجهت إلى صاحبة الندوة السيدة سكينة رضى الله عنها انتظاراً للرد، أولا: للحكم على ما قالت ابنة عثمان رضى الله عنه.. وثانياً: لأنها كانت وقتئذ هى سيدة المدينة بلا منازع. ولكنها ظلت صامتة لا ترد ولا تعلق على قولة بنت عثمان، حتى حان موعد الصلاة وارتفع صوت المؤذن: «أشهد أنْ لا إلـه إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، وعندئذ نظرت السيدة سكينة رضى الله عنها إلى بنت عثمان رضى الله عنه، وقالت موجهة الحديث إليها: «أهذا أبى أم أبوك؟» وسكتت بنت عثمان رضى الله عنه لأنها لم تجد رداً عليها.

تلك هى السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، رضى الله عنهما، خير مثال للمرأة العربية المسلمة المؤمنة المثقفة.. التى استطاعت أن تخلّد اسمها على مر الزمن.

* * *

١٦ السيدة فاطمة النبوية
رجع إليها ابن اسحق فى السيزة النبوية

تُعرف السيدة فاطمة النبوية فى التاريخ الإسلامى، بأنها راوية الحديث الشريف، والأحداث الجليلة.

ففى مقدمة الأسماء التى استند إليها ابن إسحاق فى روايته للسيرة النبوية، التى كتبها ابن هشام لتُعْرف باسمه، «سيرة ابن هشام» كان اسم السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين ابن الإمام علىّ رضى الله عنهم.

وتحت عنوان: «إسنادات الرجال» تجد اسم السيدة فاطمة ضمن الأسماء القليلة الموثوق بها والتى رجع إليها كل من ابن إسحاق وابن هشام، فاستندا إليها فى روايتهما للسيرة النبوية.

ويستوقفنا استنادهما إليها ـ بالمجلد الأول فى رواية حديث مهم عن جدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها. . ومصدر أهمية هذا الحديث أنه كان فى اختبار الوحى الذى لجأت إليه أم المؤمنين لتدرك بفطرتها الأنثوية: أهو مَلَكٌ من السماء أم شيطان من الأرض. . . ولتقولها للنبى ﷺ عن جبريل عليه السلام: «يَا بْنَ عَمٍّ، اثبتْ وأَبْشِرْ، فوالله أنه لَمَلَك من السماء وما هذا بشيطان من الأرض»، وهو ما تناولته الكتابات الحديثة عن القديمة، والخلف عن السلف، وسيظل كذلك مصدراً موثوقاً به إلى قيام الساعة، والسبب أن راويته هى السيدة فاطمة النبوية، الموثوق بها فى الحديث.

وفى المجلد الثانى للسيرة النبوية، نجد ابن إسحاق وابن هشام يستندان إليها فى رواية تاريخية على جانب كبير من الأهمية، لأنها كانت هى الأساس الذى ترجع

إليه كل الكتابات الخاصة بالتاريخ بسرية زيد بن حارثة إلى مدين، حيث نقلت عن رسول الله ﷺ قصة إرساله لهذه السرية، والهدف من ذلك، وهو ما يتناوله العلماء والمؤرخون المحدثون عن الأقدمين، والخلف عن السلف.

والشواهد كثيرة على رواية هذه السيدة الطاهرة للحديث النبوى، والوقائع التاريخية الجليلة كما هو مسجل فى بطون الكتب.. ولكننا قصدنا سيرة ابن هشام لأنها هى الأصل وهى الأساس الذى تستقى منه كل الكتابات قديمها وحديثها وقائع السيرة وأخبارها، للتأكيد إلى أن هذه السيدة الطاهرة كانت من المصادر الأولى الموثوق بها فى الوقت نفسه لرواية الحديث الشريف، والوقائع التاريخية لمصادر لاغنى عنها لمعرفة الإسلام في صورته الأولى التى جرت بها ألسنَة رجاله ونسائه من السلف الصالح.

هذه إشارة سريعة إلى مكانة السيدة فاطمة النبوية رضى الله عنها فى التاريخ الإسلامى، فماذا عن سيرتها الذاتية؟ وماذا عن العصر الذى وُجدت فيه؟ وماذا عن موقفها من الفتنة الكبرى التى أطاحت بوحدة الدولة الإسلامية فحولتها إلى شيع وأحزاب؟ وماذا عن مأساتها مع غيرها من أبناء وبنات النبى فى كربلاء؟

تمر القرون متتالية، بما فيها من أجيال وسنين وأيام، ولا تزال الصورة التى تجرى بها أقلام الكتاب، وتدور حولها ألسنة الرواة كما هى.. صورة مأساة كربلاء، يوم استشهاد الإمام الحسين رضى الله عنه ومعه كثير من آل البيت النبوى الشريف، فى هذه البقعة من الأرض ولا يبقي من أبناء الحسين سوى على زين العابدين رضى الله عنهما وجمع من النساء، تتقدمهم السيدة زينب شقيقة الإمام الشهيد رضى الله عنهما.

ومن بين تلك النساء كانت السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الشهيد.. وكانت يومئذ شابة صبية تحتمى بعمتها السيدة زينب رضى الله عنهما، ولا منجى ولا مغيث من بطش الأمويين سوى رحمة الله.

لكن مَنْ هى هذه السيدة الطاهرة التى تربت فى كنف والدها الإمام الحسين، فنهلت من مَوْرده، وتحلت بخُلُقه، وكانت صورة منه فى شجاعته وجرأته، وصَلاحِه وتديُّنه، وتعبده وتقواه وورعه؟!

ومتى ولدت؟ وفى أى عصر من عصور الخلافة الإسلامية؟ أعصر جدها الإمام علىّ؟ أم عصر عمها الإمام الحَسَن؟ أم عصر مغتصب الخلافة معاوية بن أبى سفيان؟

وكيف كانت فى سنوات عمرها الأولى؟ وما اكتنف هذه السنوات من أحداث جسام بالنسبة للأمة الإسلامية عامة، وبيت النبى ﷺ خاصة؟ وغيرها من أسئلة حَارَ لها الكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين.

من هى السيدة فاطمة النبوية؟ يكفى أن نقول إنها بنت الإمام الحسين من زوجته الرباب، والشقيقة الصغرى للسيدة سكينة، والكبرى للإمام على زين العابدين، وحفيدة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء رضى الله عنها، أى أنها من بنات وأبناء النبى ﷺ وكفى!!

ومتى ولدت؟ فى هذا الأمر تتوارد الكتابات وتختلف.. ومن هذه الكتابات «طبقات الأتقياء» التى يقول صاحبها ابن حيان: إنها لحقت بربها وهى فى السبعين من عمرها.. ومن ناحية أخرى تجمع كل الروايات والمصادر التاريخية على أنها توفيت فى عام ١١٠ هجرية.. وإذا تأملنا ما قاله ابن حيان، وما أورده المؤرخون والرواة كان ميلادها فى عام ٤٠ هجرية.

وإذا كانت قد دارت فى هذا العام - وهو الأرجح بشهادة أكثر الباحثين والدارسين - فإن مكان مولدها كان فى مدينة الكوفة فى أخريات أيام خلافة جدها علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، الذى استشهد فى شهر رمضان من العام نفسه (٤٠هـ) كما هو ثابت فى التاريخ الإسلامى.

نقول: وُلدت هذه السيدة الطاهرة قبل استشهاد الإمام علي وليس بعد استشهاده، لأن أحداث هذه السنة لم تذكر أن الإمام الحسين قد رزُق بمولودة من زوجته الرباب بعد استشهاد أبيه الإمام على كرم الله وجهه.

وقد سماها والدها الإمام الحسين فاطمة تيمناً باسم أمه فاطمة الزهراء، ولعلها كانت أشبه الحفيدات بها، كما كان أبوها أكثر الناس شبهاً برسول الله ﷺ.

وهكذا وُلدت هذه الطفلة فى فترة الخلافة التى احتوطتها المؤامرات والدسائس،

والتى انتهت بمقتل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب، واختيار المسلمين لابنه الحسن رضى الله عنه أميراً للمؤمنين ليبقى فترة تتراوح بين الثلاث والأربع سنوات. .حدث قبلها وبعدها ما حدث من أمور جسام.

وهنا تفتحت عيناها طفلة صغيرة على أحداث جسام، وبالقطع كانت لا تعيها ولا تدركها، حتى لو أعيدت على مسامعها مرة ومرات، إذا كيف تدرك مثلا هذا الصراع القائم بين عمها أمير المؤمنين الإمام الحسن وبين معاوية بن أبى سفيان، وهى لم تزل طفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها فى الحياة؟

وكيف تدرك ابنة الأربع سنوات أن عمها أمير المؤمنين قد تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية بعد اتفاق الطرفين على أن يخلف الإمام الحسن معاوية بعد وفاته؟

وكيف تدرك هذه الطفلة معنى رحيل أبناء الإمام علىٍّ كرم الله وجهه عن الكوفة إلى مدينة رسول الله، ثم إجبارهم على الرحيل من مدينة جدهم إلى مكة بعد وفاة الإمام الحسن مسموماً؟

ثم كيف تدرك ابنة التاسعة وفاة عمها الحبيب الإمام الحسن مسموماً،وعلى أيدى من؟ فى الظاهر زوجته اللعينة «الجعدة»، ولكن فى الخفاء على أيدى معاوية ابن أبى سفيان وزبانيته.

هل تدرك فاطمة الطفلة البريئة التى لم تصل العاشرة من العمر أن معاوية قد تآمر مع زوجة العم لقتل العم، كى يتحلل من الاتفاق الذي أبرمه مع الإمام الحسن،والذى ينص صراحة على أن تئول الخلافة بعد معاوية إلى صاحبها والمتنازل عنها الإمام الحسن؟ كيف تدرك هذه الطفلة أن معاوية صنع ما صنع بسبط رسول الله ﷺ وريحانته كى ينكص بالعهد ويتنكر له حتى يخلو له ولأبنائه وأحفاده الخلافة. . فتتحول من خلافة قامت على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء والأحفاد؟

ولم ينتظر معاوية طويلا حتى ينسى الناس فعلته، بل راح فى جرأة واجتراء يسعى إلى أخذ البيعة لولده «يزيد»،ليكون أميراً للمؤمنين بعده.

لاشك أن هذه الطفلة التى شبت وأصبحت فتاة وضيئة ـ كما تصفها الروايات ـ

ـ قد سمعت بهذه الأحداث، وأدركت منها القليل ولم تعى منها الكثير، إلا أنها أحداث على أى حال لايمكن أن تمحوها الذاكرة على مر الزمن.

غير أنَّ الحدثَ الأكبر الذى رأته وأدركته ووعته، ولم تنسه قط طيلة حياتها هو يوم مقتل والدها الإمام الحسين فى كربلاء.

ياله من حدث جلل فى يوم رهيب!! أبداً مانسيته فاطمة، أو أى واحدة من آل البيت.. لأنه فجيعة تذكر بالعويل والنحيب، وكيف لا وقد سقط أمام أعينهم فى حومه الوغي الفارسُ الشجاع وسيفه مضرج بدمائه.. سقط صريعاً فى سبيل نُصْرة الحق.. سقط وحوله بنوه وذووه، ومن بعد سقط الجميع، حتى امتلأت ساحة كربلاء بجثث الأطهار الذين ما تخاذلوا عن نُصرته، فهم على قلة عددهم وتواضع عتادهم.. لم يفكروا لحظة فى تركه وحيداً لأشباه الرجال، ولا رجال، وإنما وقفوا معه فى حياته مدافعين مجاهدين، وصمدوا بعد استشهاده يظلون جثته الطاهرة بالسيوف والحراب.. ولكن هيهات أن تستمر سيوف وحراب قليلة أمام جحافل كثيرة من الجبناء غلاظ القلوب.. لقد خرصريعاً الواحد تلو الآخر، مفضلا أن يصبح جثة هامدة وشهيداً إلى جوار سيد الشهداء على أن ينعم بحياة خسيسة غير كريمة.

وهل تستطيع الإبنة الشابة فاطمة أن تنسى ذلك اليوم الذى فيه عُلقت رأس أبيها الطاهرة وبقية رءوس الشهداء على أعواد يطوفون بها شوارع الكوفة وطرقها ومن معهم من النساء والأطفال إلى حيث الطاغية ابن زياد.. ليأمر بمسير هذا الموكب الحزين إلى كبيرهم طاغية الأمويين يزيد بن معاوية فى الشام.

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى هذا الموكب الذى يتقدمه الرأس الطاهرة، وخلفها بنات الرسول وقد هُتكت ستورهن.. وهن يسعي بهن كالسبايا .. إلى مَنْ؟ إلى أمير الغوانى والخمور يزيد، ليَقُمْنَ فى مجلسه، وتتقدمهن السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية رضى الله عنهما!؟

اللحظات تمر ثقيلة متثائبه، واللقاء غير عادى بين مَنْ طَهَّرَهُنَّ الله تطهيراً، وبين حفيد آكله اكباد الشهداء وعيون الشرفاء زائغة فيما يكون عليه مصيرهن.. وعيون

الجبناء جائلة لا تعرف حرمة المقدسات، حتى إذا حانت نظرة من أحد رجال يزيد إلى هذا الحُسْن الربانىّ، إلى هذه الصبية الطاهرة فاطمة النبوية. . مال إليها راجياً أن تكون له، ومال على يزيد يسأله: «يا أمير المؤمنين هَبْ لى هذه الجارية تكون جارية لى».

هكذا يقولها وقد هان كل شىء عند الأمويين، حتى أصبحت المقدسات مباحة!؟ وترتعد فاطمة ابنة العشرين وتجفل، وتأخذ بثياب عمتها السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ وكأنها تحتمى من نظرات ذلك الفاجرالذى يعبث بحياء مَنْ طهَّرَهُن الله تطهيراً، وأبعد عنهن الرجس. . فتصيح العمةالحزينة الثكلى فى قوة وعزيمة لا تستغرب من ابنة الإمام علىّ وشقيقة الإمام الحسين وفوق هذا حفيدة النبى ﷺ،وتقول موجهة حديثها إلى يزيد وإلى هذا الفاجر الذى يعتبرفاطمة مجرد جارية توهب لمن يطلبها ليتلهى بها ويعبث: كذبت ولؤمت، ماذلك لَكَ ولا له».

وثار يزيد عندما سمع صياح السيدة زينب، ولم يَثُرْ من قبل على نديمه الفاجر حين أراد العبث بالمقدسات والمحرمات، وكبر فى عينيه أن تهاجمه السيدة زينب على هذه الصورة. . ووجد نفسه يصيح فيها قائلاً: «إنما أنت الكاذبة. . ولو شئتُ لفعلتُها وذهبت فتاتك للرجل». وإذا بالسيدة زينب تقول فى إصرار وعناد وكبرياء وشموخ وبلاغة وحكمة: «بل أنتَ الكاذب الشرير، وإنك لأعْجَزُ وأضعف من أن تتجاسر على ذلك. . إلا إنْ خرجت على ملة الإسلام وتبرأت من دين الله».

بعد هذا اليوم كرهت السيدة فاطمة بنت سيد الشهداء حياه الصخب والضجيج تلك التى عاشت فى أتونها الرهيب، وليكفها بين الماضى ما كان. . فقد اغتيل الجد بطعنه جبانة، ومات العم مسموماً، ثم استشهد الأب والإخوة وأبناء العم. . فأية حياة تلك التى قُدِّر عليها أن تعيشها فى المدينة أو فى مصر، حيث تسافر مع عمتها السيدة زينب رضى الله عنهما.

تعيش بقية عمرها بمصر صوامة قوَّامة، راوية للحديث، إلى درجة أن أخذ عنها الإمام أحمد بن حنبل، وابن ماجه، وأن يعظمها خامس الخلفاء الراشدين عمر بن

عبد العزيز ويُعْلى قدرها، حتى إنه حين ذُكرت فى مجلسه بأنها لا تعرف الشرَّ، قال: «إن عدم معرفة السيدة فاطمة للشر جنبها الشر نفسه».

وانصرفت هذه السيدة الطاهرة بعد ذلك عن الدنيا انصرافاً كلياً، لقد رأت الكثير، وعرفت الكثير وأدركت الكثير، وقاست من الكثير، فماذا تريد من الدنيا؟ وماذا يبقى لها من الدنيا؟ إنها تريد أن تقبل على العبادة وأن تنصرف إلى الاعتكاف، وأن يبقى لها أن يعرف الناس مكانتها، فيبحثون عنها ويستمعون إليها عن الذى يفيد وينفع حيث تقول ومن كلامها: «والله مانال أهل السفه بسفههم شيئاً، ولا أدركوا من لذَّاتهم إلا بعض ما نال أهل المروءات بجميل ستر اللّه».

بقى من هذه السيرة العطرة أمر خاص بزواجها، عن هذا الأمر تذكر الروايات التاريخية الموثقة أن الحسن المثنى بن الحسن بن الإمام على خطب من عَمِّه الإمام الحسين إحدى ابنتيه فاطمة أو سكينة، وقال: «اخترْ لى ياعمَّاه إحداهنَّ» فقال الإمام الحسين: «اخترتُ لك ابنتى فاطمة، فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة الزهراء.. أما فى الدين: فتقوم الليل كله، وتصوم النهار.. وأما فى الجمال: فتشبه الحور العين».

ويتزوجها ابن عمها فى حياة والدها الإمام الحسين رضى الله عنه، وتنجب له ثلاثة أبناء، منهم إبراهيم الجواد، وشقيقه الإمام محمد، اللذان استُشهدا على أيدى بنى العباس.

وقد مات عنها هذا الزوج قبل مأساة كربلاء.. وقبل أن يموت أوصاها بأن تتزوج.. وقد تزوجت بعد فترة من وفاته من حفيد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبعد موته امتنعت عن الزواج، حيثُ تقدم لها الكثيرون، فكان رَدُّها حازماً قاطعاً ـ كما تذكر الروايات ـ بأنها تزوجت مرتين، ومنَّ الله عليها بالولد فماذا تريد؟

وظلت هذه السيدة الطاهرة «فاطمة النبوية» بقية حياتها ـ سواءً بأرض الحجاز، أو بمصر، حيث يوجد مسجد لها باسمها، وفيه ضريح يُنسب إليها ـ ظلت عاكفة على العبادة، ومقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا.. وكانت مثلاً رائعاً من أمثلة الصلاح والتقوى، والاستمساك بأهداب الفضائل والمثاليات.. وهو أسلوب غير مستبعد من آل البيت، ومنهج تتبعه غيرها من بنات جنسها على مر الزمن.

* * *

١٧ زيد بن على زين العابدين
الفـارس الفـقيـه

ولد زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، المعروف فى مصر «بزين العابدين»، فى المدينة عام ثمانين للهجرة، فى وقت مازال رجع الأنين فيه على الإمام الحسين شهيد كربلاء يملأ الآذان. . ومازالت الفجيعة تغص الحلوق وتحرق الأكباد. . ومازالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين.

ولد زيد بن على زين العابدين وقد استشرى ظلم واستبداد ملوك بنى أمية، حتى كان الخليفة منهم لا يطيق نصحاً أو إرشاداً. . وإلا فما معنى أن يعلن أحدهم ـ وهو هشام بن عبد الملك بن مروان ـ وهو فى بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له: «اتق الله؟!».

وفى هذا المناخ السياسى المشحون بالأسى، وجلال الذكريات، وبالشوق إلى الحرية، وفى بيت عبد صالح خرج يطلب العدل للناس، ويناضل لاسترداد حق مسلوب. . هو الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى بقى من آل البيت يوم كربلاء حين أنقذه مرضه من أيدى قتلة أبيه وأشقائه. فى هذا البيت نشأ الطفل زيد بن زين العابدين. وحين توفى أبوه على زين العابدين تركه فى رعاية شقيقه الأكبر محمد الباقر، ليعيش فى مدينة الرسول ﷺ والتى كانت مُزدانة وتتشذ بالقُرَّاء، ورُواة الحديث، وعلماء الدين. . الذين مُسكوا ألسنتهم عن جور حكام بنى أمية، اتقاءً لشرورهم، حيث إنهم كانوا يبطشون بكل من يعارضهم، حتى لو كان ذلك سراً داخل النفوس والضمائر.

وعجب زيد بن على زين العابدين من سكوت أهل العلم عن المنكر، وعدم أمرهم بالمعروف.

وضاعف من ضيقه أنه كان يسمع خلال مواسم الحج والعمرة من رجال

يعيشون فى العراق أو غيرها من الأمصار سب الإمام على وزوجه فاطمة رضى الله عنهما على منابر المسلمين، وبأمر من حكام الدولة الأموية.

وهنا تساءل زيد: ولمَ صبره على هذا كله؟ ولكنه عاد ليقول : وما حيلته والناس، فى المدينة وغيرها من أمصار الدولة الإسلامية يتقون مواجهة بطش واستبداد الأمويين؟

وفكر فى الرحيل، فليست المدينة التى يعيش فيها هى كل المجتمع الإسلامى.. واختار البصرة والكوفة.. وهناك وجد مجتمعاً آخر متحركاً.. نفوس أفراده تغلى بالسخط والرفض لظلم بنى أمية..

على أن زيداً كان يتذكر تحذير أبيه زين العابدين، ثم رجاء أخيه محمد الباقر من فَتْح مصاريع أبواب الفتنة من جديد.

فليست صورة ما صنعه أهل الكوفة بجده الحسين، ومن قبله جدهْ لأبيه الإمام على ببعيدة عن عينيه.. هو يؤمن بأن عليه دَيناً، هو تعريف الناس أمر دينهم ودنياهم، لكن فى الوقت نفسه هناك شىء يراوده ويشغله بدون أن يعلن عن نفسه صراحة فالوقت لم يأت كى ينفذه!

وانصرف إلى العلم والدين وشغل نفسه بذلك.. ودَعَا الناس إلى إعمال العقل.. تُرى هل كان يبحث عن مخرج لأزمته. ولايجد سبيلا للوصول إلى ذلك إلا بإعمال العقل!؟

وفى الجانب الآخر كان الخليفة الأموى وعماله متربصين الدوائر بزيد بن على وجماعته. ولولا أن الخليفة كان يستشعر الخطر إنْ هو وثب عليهم لفعل.. وكيف يفعل وزيد هذا حوله جمع غفير من الفقهاء والعلماء والصالحين وأهل التقوى بينما حول الخليفة المأجورين والمرتزقة والجوارى.

وطبيعى أن يفكر الخليفة فى وسيلة يشوه بها هذا الإمام الشاب فى عيون مريديه، وهى الوسيلة نفسها التى يتبعها ملوك بنى أمية للتخلص من مخالفيهم: الحيلة، والمكر.

وافتعل هذا الخليفة وعماله عشرات الحيل لتشويه الإمام زيد فلم يفلح.. بل أتت أعمال هذا الخليفة بما لا يحب أو يرغب.. فالناس حول زيد بن زين العابدين يتزايدون، حتى وصل تعدادهم أربعين ألفاً.

هذا العدد الغفير من المؤيدين لزيد يطالبون بمبايعته خليفة للمؤمنين، ويستدعيه الخليفة الأموى، وتحدث بينهما مشادة، بعدها يصرخ الخليفة فى الإمام زيد قائلاً اخرج. ويقول له زيد: إذا خرجت فلن ترانى إلا حيث تكره.. وينفذ زيد رغبة مؤيديه فى مبايعته.

وتحدث المفاجأة يوم البيعة.. فكل من كان يطلب مبايعته يهرب خوفاً من الخليفة الأموى، حتى يصل عدد المؤيدين له مائتين، بعد أن تجاوزوا الأربعين ألفاً، ويناديهم المنادى: «اخرجوا من الذل إلى الكرامة» ولا يخرج أحد، ولا يرد أحد.

هنا يتذكر زيد بن زين العابدين مأساة جده الحسين.. ويهمس: أخاف أن يكونوا قد فعلوها حُسَيْنية وكان سلوكهم معه لا يختلف أبداً عن سلوكهم مع جده الحسين، ومن قبل مع الإمام على رضى الله عنه.. خزلوه فلم يُخْزَل، وقرر أن يقاتل دفاعاً عن الحقوق المسلوبة.

ويتقدم الإمام زيد فى نفر قليل لا يزيد على المائتين من فرسان الحق فى مواجهة جيش كثيف موصول العدد والعتاد، بل جيش المكر والخداع. والزيف والكذب.

ويخرج رجل على فرس من جيش الأمويين فى حماية السهام والنبال، ويأخذ فى سب فاطمة الزهراء رضى الله عنها، فيبكى زيد بن زين العابدين حتى تبتل لحيته ويصيح: «أما من أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله؟ أما من أحد يغضب لرسول الله ﷺ - ومن بين صفوف رجاله يهجم رجل على هذا البذئ الفاجر ويقتله.. وتحدث مفارقات وغرائب بعد ذلك.. الآلاف من جيش الأمويين ينقضون على زيد ورجاله فى هجمة رجل واحد ويقضون عليهم. ويستقر أحد هذه السهام فى جبهة الإمام زيد بن زين العابدين، وما أن ينزعه أحد أصحابه حتى

يموت. ويدفن من بقى من صحبه جثمان إمامهم زيد فى حفرة على الفور، خوفاً من التمثيل بجثته، كما حدث لجده الحسين رضى الله عنه.. لكن الأمويين ينبشون الحفرة ويمثلون بالجثة، ويفصلون عنها الرأس ليقدموه لكبيرهم ابن عبد الملك فى دمشق، الذى يأمر بتعليق الرأس الشريف على باب دمشق، فيقوم بعض الأتباع والمريدين بسرقة الرأس الشريف ويفرون به إلى مصر حيث يُدفن فى المقام الذى فيه مشهده بداخل مسجده المعروف بمصر.

وإلى جانب فروسية زيد وبطولته تلك التى كانت مضرب الأمثال، وإن كانت ليست بغريبة على آل البيت، كانت هناك ثقافته وعلمه وفقهه. والجمع بين الفروسية والعلم ليس بغريب على أبناء الإمام على كرم الله وجهه. فكما نعرف جميعاً أنه وأبناءه وفى مقدمتهم الحسن والحسين رضى الله عنهما كانوا يجمعون ـ إلى جانب الفروسية ـ الأدب والثقافة والتفقه فى الدين. وطبيعى أن يرث الحفيد زيد بن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين هذه الصفات جميعاً: الفروسية، والبطولة، والثقافة والتفقه فى الدين.

كان زيد يستمتع بهذه الأحاديث التى كان يسمعها عن أبيه «على زين العابدين» عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين، وإلى جانب هذه الأحاديث كانت هناك المناقشات التى تدور بينه وبين من يحضرون مجلسه، فزودته هذه وتلك بثقافة قلما تتوفر لواحد فى زمانه.. كيف وقد كان أقرب الناس من العلم النبوى الذى يمتد جيلا بعد جيل.. يضاف إلى ذلك أن ما حدث للإمام علىّ وشيعته من فواجع ومآسى جعلتهم مصدراً للأحداث، وملتقىً للعارفين بفضلهم، المدركين لحقهم السليب، ليس فى المدينة المنورة وحدها، بل فى العالم الإسلامى كله. ولهذا ولغيره أصبح من الطبيعى أن تتفتح عينا «زيد» طفلاً صغيراً على ما لم يتوفر لغيره من أطفال المدينة. حتى إذا نشأ وترعرع ودخل فى دور الصبا وجد المدينة من حوله تزدان بالقراء، ورواة الحديث، وعلماء الدين.. يتذاكرون فيما بينهم، ويتلقون طالبى العلم من كل أرجاء العالم الإسلامى، فانصرف إلى التعلم والدراسة عدة سنوات، حفظ فيها علوم آل البيت، وكل مالديهم من أحاديث، هذا بالطبع إلى جانب حفظ القرآن، وتأمل تفسير آياته.

حتى إذا توافر على فقه المدينة وعلمها فكر فى أن يتركها إلى غيرها من المدائن، وأقربها فى العراق، حيث سمع عن مدارس علمية وفلسفية جديدة بها، كما سمع أن هناك عدداً من الصحابة والتابعين الذى فروا إليها من عسف واستبداد بنى أمية وظلمهم.

ورحل إلى البصرة والكوفة للتزود بالعلم والفقه. وهناك وجد مجتمعاً آخر غير المجتمع الذى ولد وعاش فيه بالمدينة المنورة .ومصدر الاختلاف بين المجتمعين أن ما يسمعه فى العراق أمر يدعو إلى العجب، وأى عجب أكثر من تفضيل على بن أبى طالب على الشيخين أبى بكر وعمر؟!

أو تكريم الإمام على حساب النَّيْل من خليفتى رسول الله: أبى بكر وعمر. ولعل المفكر الإسلامى الراحل عبد الرحمن الشرقاوى عبر عن ذلك فى كتابه «أئمة الفقه التسعة» فذكر أنه فى العراق وجَدَ ـ أىْ زيد بن على زين العابدين ـ جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته، اضطرهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف.. والتفوا حوله. ومن هذه الجماعات المتطرفة من يدعى أن الوحى كان سينزل على الإمام على ولكنه أخطأ!؟ وآخرون يواجهون لَعْنَ الإمام على من فوق المنابر بصبٍّ اللعنات على الشيخين أبى بكر الصديق، والفاروق عمر بن الخطاب! ومنهم أيضاً من يعتقد بأن الإمام علياً لم يمت، ولكنه رُفع إلى السماء كعيسى ابن مريم عليه السلام! وكما تعلمّ من أبيه على زين العابدين، أو أخيه الأكبر محمد الباقر.. حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع، وحاور رؤساءهم، فأنكروا عليه رأيه، واتهموه بأنه يُناصب جده الإمام علياً العداء.. فأعلن براءته منهم جميعاً كما فعل أخوه الأكبر وأبوه من قبل».

وتوجه إلى الذين يتوافدون على مجلسه، يوضح لهم مزايا الشيخين، ويذكر فضلهما على الإسلام، ويعلن أن توليهما الخلافة مشروع وصحيح، بل وأعلن على الناس: «كان علىّ أفضل الصحابة إلاّ أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها. فإن عهد الحروب التى جرت أيام النبوة كان قريبا. وسيف الإمام على فى دماء المشركين من قريش كان لم

يجف بعد، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الإنقياد».

ولعله فى ذلك كان متأثراً برأى أبيه ورأى أخيه. ولعل ذلك وغيره جعل إمامين جليلين فى ذلك الوقت، هما أبو حنيفة النعمان، وواصل بن عطاء ينجذبان إليه لتقوم بين الثلاثة مودة وعلاقة علمية عظيمة.

وكما يذكر الشرقاوى: أنه فى العراق عَرف فيمن عَرف فرقاً تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر، وحول الإنسان، أمخير هو أم مسير، ووجد آخرين يبحثون عن مصادر الأحكام من أين يأتون بها إذا عرضت قضيةً ولم يجدوا لها حكماً فى القرآن أو السنة؟ إلى جانب جماعات أخرى يرى بعضها أن مرتكب الكبيرة كافر مُخَلَّدٌ فى العذاب، وبعضها يقول إن مرتكبها منافق يُظْهِر غير مايُبطن، فلو كان مؤمناً ما ارتكبها.. وثالث من رأيه أنه لا يضرَ مع الإيمان معصية، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ إلى أن يحاسبه الله.. وغيرها من أقضية فكرية وفقهية كانت تعج بها الحياة فى العراق. ومن عجيب الأمور أن هذه التساؤلات وجدت إجابات كافية وشافية من الإمام زيد، على الرغم من أن العراق كانت تعج وقتئذ بأكبر العلماء، وفى مقدمتهم أبو حنيفة النعمان، وواصل بن عطاء.

والحق أن القوم فى العراق التفوا حول الإمام زيد من منطلق حبهم لآل بيت الرسول، ومن منطلق ندمهم، لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين، وبكل أحلامهم فى أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة المفعمة بالفضائل. حين أصبح الإمام على أميراً للمؤمنين، فإذا الناس لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح، وإذا بعلى يُحيى سنة رسول الله ﷺ. وها هو ذا الحفيد العظيم زيد يعيدها من جديد. ولكن هل يتركه الأمويون وأميرهم هشام بن عبد الملك بن مروان؟ هل يتركونه وقد أعلن رأيه فى شروط الخلافة، وبأنها لابد أن تتوافر لها ثلاثة أركان: الشورى، والمبايعة، والعدل؟ أبداً لن يتركوه.. وحدث ما حدث وراح الإمام زيد ضحية فى سبيل الدفاع عمّا يرى أنه الحق.

لكنِ على أى حال بقى من عِلم هذا الفقيه الفارس الكثير، فمن مجالسه

خرجت فكرة الزيدية ـ نسبة إليه، والمنتشرة فى ربوع اليمن، وأجزاء من شبه الجزيرة العربية. وهى تقابل الإماميه، وهما أكبر فرق الشيعة، ولا تزالان باقيتين حتى اليوم وبقدر ما عُرف من الإمامية من تطرف، كانت الزيدية معتدلة، وأقرب إلى أهل السنة، ولعل ذلك راجع إلى أن إمامها زيد بن على ـ كما رأينا ـ كان معتدلا فى أحكامه، ولعل هذا الاعتدال اكتسبه من أستاذه واصل بن عطاء، حيث تأثر به فى علمه، ووفرة حجته، وسلامة حكمه. ولعل فى إختيار الزيدية لإمامهم نلمح هذا الاعتدال فشروط الإمامة عند الزيدية أربعة عشر، هى: «ذكراً ـ حراً ـ عاملاً ـ أفضل أهل زمانه ـ سليم الحواس والأطراف ـ لم يمارس مهنة مرذولة ـ عادلاً ـ ورعاً ـ كريماً ـ حسن الدراية بتصريف الأمور ـ علوياً ـ فاطمياً ـ شجاعاً ـ مجتهداً» ولا تنتقل الإمامة فى الزيدية بالوراثة. وإنما تنتقل للأصلح، على أساس الشروط السابق ذكرها.

* * *

١٨ الإمام حسن الأنور
عميد آل البيت

كان عالماً من ثقات العلم، وكان إماماً من كبار أئمة المدينة، وكان عميداً لآل البيت فى زمانه، وكان إلى جانب هذا كله فاضلا فى إنسانيته شريفاً فى خصومته، ودوداً فى عشرته، وفياً لصداقته، صادقاً فى كلمته. ذلك هو الإمام «حسن الأنور ابن زيد الأبلج» الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم.

نشأ حسن الأنور فى رحاب ما تركه جده الأعظم محمد ﷺ من قيم ومبادئ وعقائد.. يتلو القرآن الكريم ويتدبره، ويسترجع الحديث الشريف ويتأمله، ويقف على ما تركه السلف الصالح من صحابة رسول الله ويتدارسه، ويكثر من العبادة صياماً وقياماً طوال النهار، وأطرافاً من الليل.. هذا إلى جانب زهد وورع، تقوى، وصلاح، سماحة، وتواضع.. حتى إذا صقلته تجارب وقراءات الحياة.. صار إماماً يتطاير اسمه بين أرجاء الأمة الإسلامية.. إماماً يحمل من الألقاب السامية، ما لم يتحقق لواحد من الأئمة قبله.. فهو شيخ الشيوخ، وشيخ بنى هاشم، وعميد آل البيت فى زمانه، والتابع العالم، والعابد الحكيم. وشيخ المدينة.

وهكذا كان الإمام حسن الأنور قطباً وإماماً يقصده المسلمون من كل حدب وصوب، ومعلماً وأستاذاً، يتلقى عنه التلاميذ والمريدون العلمَ والفضل، ومرجعاً ومصدراً لما يغيب عن ذاكرة الحاضرين من هدى ونهج.

وقد كان من بين تلاميذه ومريديه ابنته نفيسة العلم والمعرفة رضى الله عنها، ومحمد بن إسحاق راوى السيرة النبوية، التى كتبها بعد ذلك ابن هشام، لتكون

المرجع الأول الذى يستند إليه كل باحث فى سيرة النبى وأصحابه على مر العصور.

وُلد هذا الرجل الصالح سنة ثلاث وثمانين للهجرة فى عنفوان عصر الأمويين، الذين كانوا يتعقبون أبناء آل البيت، ويتسمعون عنهم ما يريدون هم أن يقولوه، وإنْ لم يكن قد قالوه بالفعل، حتى يتصيدوا لهم الأخطاء. كما أدرك عن قرب فترة الود والصفاء التى قامت بين العلويين والعباسيين.. أيام كان البيتان متَّحدَيْنِ فى مواجهة خصم مشترك يتمثل فى الأمويين الذين خُيِّل إليهم أنهم بالجاه والسلطان يملكون الأرض ومَنْ عليها. ولكنه أدرك كذلك تنكر أبناء العم من العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الخلافة وأصبحوا يديرون أمور الدولة الإسلامية بدلا من الأمويين الذين صاروا ضعافاً، فلا حاجة لبنى العباس إلى أبناء عمومتهم من آل البيت لمواجهة خصم ضعيف، بل إن الحليف يتحول مع الأيام إلى خصم.

كما شاهد عن قرب أن العلويين لمن ينسوا حقهم فى الخلافة بعد مأساة كربلاء، بل كانت الخلافة شغلهم الشاغل، يطلبون حقهم فيها بكل وسيلة، ومن كل قائم عليها ـ أموياً كان أم عبّاسياً ـ لدرجة أنهم إذا ماوجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، ولم يَدَعُوها تمر. وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمام، أو انتمائهم إلى بيت رسول الله ﷺ، مفضلين الحياة الهادئة والانصراف إلى العبادة والاعتكاف، على الاشتغال بالحرب والسياسه.

وعلى الرغم من أن الإمام حسن الأنور ينتسب إلى العلويين ـ وهو منهم ـ فإنه يرتبط بصلة مصاهرة مع العباسيين، حيث كانت ابنته السيدة أم كلثوم متزوجة من مؤسس الدولة العباسية «أبى العباس السفاح». ولذلك اضطرته هذه المصاهرة على أن يكون غير بقية آل البيت، حيث كان أول مَنْ لبس العمامة السوداء شعار العباسيين من آل البيت، وأنه كان يتعاون مع العباسيين، حيث تولى إمارة المدينة المنورة، وعمره وقتئذ سبعة وستون عاماً من قِبَلَ الخليفة العباس أبى جعفر المنصور، وبقى فيها على ولايته ستَّ سنوات كاملة.

غير أن كل ذلك لم يشفع له عند الخليفة أبى جعفر المنصور نفسه عندما اقتضى الأمر أن يسجنه، وقد فعل بعد أن أقصاه عن الولاية، وصادر كل أملاكه،

ولم يتذكر أنه قد تعاون معهم، وأنه صِهْرُ مؤسس دولتهم، أو أنه قبل ذلك وبعده من أبناء عمومتهم.. كل ذلك لا يفيد إذا كان الأمر متعلقاً ببريق المناصب ومكاسب السلطة.. ولا يهم أن يُلْقَى القريبُ والصهر والحليف فى غياهب السجون إذا كان ضد المصلحة الخاصة.. فالعباسيون وقد استوت لهم الأمور، ودانت لهم الدنيا، وحققوا من متاعها الشيء الكثير، كانوا يتوجسون خيفة من آل البيت من العلويين. ويرصدون عليهم العيون فى كل مكان وزمان، حتى ولو كان إنساناً فاضلا كالإمام حسن الأنور، لإحساسهم بأنهم حصلوا على حق ليس لهم. وذلك باغتصابهم الخلافة من مستحقيها من ناحية، ولإيمان العلويين بحقهم من ناحية أخرى.

ونتيجة لهذا يظل الإمام حسن الأنور سجيناً فى عصر العباسيين حتى يتولى الخلافة المهدى. فيقدِّر فى هذا الإمام علمه وفضله ومكانته بين آل البيت الذين كانوا يعتبرونه عميدهم، فيأمر بإطلاق سراحه، ويرد إليه ما أُخِذَ منه وصودر.

ولعل الخليفة المهدى - وهو من العباسيين - كان يحقق من وراء ذلك هدفاً سياسياً، خلاصته أنه يريد مهادنة آل البيت فترة من الزمن!

وبعيداً عن السياسة ومتطلباتها تستوقفنا من تاريخ هذا الإمام اجتهاداته العلمية والفقهية، ومنها: إجازته للحجامة فى الصيام، وإجازته للطيب قبل الإحرام، وإقراره أن المزاحمة والسرعة فى الحج تضر الإيمان أكثر مما تنفعه.

ولعل هذه السطور فى ختامها تسجل أن للإمام حسن الأنور مكانة خاصة فى مصر، فإلى جانب علمه وفضله الذى رجع إليه واستفاد منه العلماء المصريون، فهو والد السيدة نفيسة، التى يعرفها المصريون بأنها نفيسة العلم والمعرفة. وتزداد هذه المكانة تقديراً من المصريين إذا علموا أن الإمام حسن الأمور كان بالنسبة لابنته السيدة نفيسه المعلم والإمام. قبل أن يكون الأب.

أما كيف وصل إلى مصر ونزل بها دون غيرها من الأمصار والبلدان الإسلامية فهناك العديد من أبحاث الأقدمين والمحدثين تؤكد بصورة أو بأخرى أنه وفَدَ إلى مصر واستقر بها، كما استقرت بها ابنته السيدة نفيسه، وأنه ظل بها حتى توفى ودفن فيها عن عمر يناهز الخامسة والثمانين عاماً.

* * *

١٩ السيدة نفيسة
«نفيسة العلم والمعرفة»

السيدة نفيسة رضى الله عنها ولدت قبل منتصف القرن الثانى للهجرة بخمس سنوات، وقد كان المسلمون وقتئذ أقوى أمم الغالم، وإن كان قد أثر فيهم ماأصاب الإسلام من نكسة، مصدرها أن الدولة قد حادت عن نظام الشورى، فتحول نظام الحكم بها في عصر بنى أمية من خلافة راشدة، إلى ملك عضوض، يتوارثه الأبناء عن الآباء. .

وهذا ما كان يؤخذ عليهم ـ من قبل المؤرخين ـ برغم حفاظهم على البلاد التى دخلت حظيرة الإسلام من الصين شرقاً، إلى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن الهند جنوباً إلى فرنسا شمالاً. ومن بعدهم جاء خلفاء بنى العباس، فكانوا أعظم قوة،وأبعد همّه، فقد امتازوا على الأمويين بأنهم لم يكن فيهم عنجهية تتجافى بهم عن الاستفادة من علوم ومعارف غيرهم، وتجعلهم يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم، حتى لم تكد تظهر هذه الدولة العباسية إلاّ أخذت تعمل على أن يكون للدولة الإسلامية «عظمة» علمية تضاهى عظمتها السياسية، ففتحت أبواب التجديد فى العلم، والمعرفة، والفلسفة، على مصاريعها. . حيث نظرت بعين التقدير إلى ما كان عند الشعوب القديمة غير العربية من علوم وفلسفات ومعارف، فبذلت قصارى جهدها فى نقلها إلى اللغة العربية. . وقد ابتدأ ذلك فى عهد ثانى خلفائها أبى جعفر المنصور. . ليستمر فى عهد من أعقبوه من الخلفاء العباسيين. حتى جاء المأمون فأربى فى ذلك على مَنْ سبقوه، حيث أقبل على طلب العلم والفلسفة والمعرفة إقبالا يشهد له بالكثير من الفضل.

لقد اتحف الخليفة المأمون فى سبيل العلم والفلسفة والمعرفة ملوك القسطنطينية

بالهدايا النفيسة، وكانوا قد زهدوا فى علوم وفلسفات أجدادهم من اليونانيين، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب، اختار لها المأمون أشهر المترجمين، وأمرهم بنقلها إلى العربية، ليرغب الناس فى قراءتها، حتى تنتشر بين المسلمين، ويصيروا بعد ذلك أساتذة العالم فى هذه العلوم والفلسفات والمعارف. وذلك حين أصبحت لهم حضارة عربية إسلامية، وصلت إلى درجة من الكمال يوم استكملت فى هذا القرن ما كان ينقصها من العلوم والفلسفات والمعارف، وظهر فيها المشتغلون باللغة بجانب المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية التى كانوا قد برزوا فيها من قبل فى القرن الأول الهجرى.

هذه السيدة الفضلى ماذا عن ميلادها ونشأتها؟

مع بداية هذا العصر المزدهر بعلومه وسياساته وثقافاته ولدت السيدة نفيسة بمكة عام ١٤٥ هجرية، وتفتحت عيناها طفلة صغيرة على حقيقة باهرة، هى أنها تعيش فى رحاب ما تركه الجد الأعظم محمد ﷺ من قيم ومبادىء، وتعاليم وقواعد رفيعة سامية.. فأبوها الإمام حسن الأنور بن الإمام زيد الأبلج بن الإمام الحسن ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم. هذا الأب الكريم النسب صار إماماً يتطاير اسمه بين أرجاء الأمة الإسلامية بما يحمل من الألقاب، وما يتصف به من صفات، فهو شيخ الشيوخ، وشيخ بني هاشم، وكبير آل البيت فى زمانه، والتابع العالم، والعابد الحكيم، والقطب المعلم.. الذى يتلقى عنه التلاميذ والمريدون العلم والفضل، وهو إلى جانب هذا المرجع الأخير الذى يرجع إليه حين يغيب عن الأذهان هدى الصحابه رضوان الله عليهم.

وطبيعى أن تدرك السيدة نفيسة الأحداث التى كانت تتعلق بمركز آل البيت فى نهاية عصر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية.

كما أدركت عن قرب فترة الود والصفاء الإنتقالية التى قامت بين العلويين من آل البيت، وبني عمومتهم من العباسيين، أيام كان البيتان مُتَّحِدَيْن فى مواجهة خصمهم المشترك والذى يتمثل فى الأمويين.. وأدركت كذلك تنكر أبناء العم من العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الخلافة الإسلامية، وأصبحوا يديرون أمور الدولة بدلا من الأمويين الذين صاروا ضعافاً، فلا حاجة إذن لبنى العباس لأبناء العم من

العلويين لمواجهة خصم بات ضعيفاً، بل إن الخليفة العباسى مع الأيام قد تحول إلى خصم لأبناء العم من العلويين.

ولقد سمعت هذه السيدة الفضلى فيما سمعت فى صباها الباكر أن العلويين وقد أصبح أمرهم كذلك ـ لم ينسوا أيضاً حقهم فى الخلافة بعد مأساة كربلاء، بل كانت الخلافة شغلهم الشاغل، يطلبونها بكل وسيلة، ومن كل قائم عليها، أموياً كان أم عباسياً ـ لدرجة أنهم إذا وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، حتى لايدعوها تمر، وإذا أنسوا فى نفوسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمام، أو انتمائهم إلى بيت رسول الله ﷺ.. مفضلين الحياة الهادئة، والانصراف إلى الدين والعبادة والاعتكاف، عوضاً عن الاشتغال بالحرب والسياسة.

وأدركت السيدة نفيسة رضى الله عنها والدها الإمام حسن الأنور.. أدركته عن قرب، فأدركت مدى الحرج الذى كان يلاقيه، فقد كان من العلويين، غير أنه كان يرتبط بصلة المصاهرة مع العباسيين، حيث كانت أختها الكبرى أم كلثوم متزوجة من مؤسس الدولة العباسية «أبى العباس السفاح» كما ذكرنا من قبل، ولذلك اضطرته هذه المصاهره أن يكون غير بقية العلويين. حيث كان هذا الأب العلوى أول من لبس العمامة السوداء شعار العباسيين، وأنه كان يتعاون معهم، حيث تولى إمارة المدينة وعمره وقتئذ سبعة وستون عاماً من قبل الخليفة العباس أبى جعفر المنصور، وبقى على ولايته ست سنوات. إلا أن كل ذلك لم يشفع له عند هذا الخليفة نفسه، وذلك عندما اقتضى الأمر أن يسجنه بفعل مكيدة ففعل بعد أن أقصاه عن الولاية، وصادر أملاكه، متناسياً تماماً ما كان له من معاوية، وأنه صهر مؤسس دولتهم، وأنه من أبناء العم!!

كل ذلك لايهم لَدَى العباسيين إذا كان الأمر متعلقاً ببريق المنصب، ومكسب السلطة.. فلايهم أن يلقى القريب والنسيب والحليف فى غياهب السجون إذا كان ضد المصلحة الخاصة، فالعباسيون وقد استوت لهم مقاليد الأمور، ودانت لهم الدنيا ومن عليها، وحققوا من متاعها الشىء الكثير.. كانوا يتوجسون خيفة من العلويين، ويرصدون عليهم العيون.. يفعلون هذا مع كل علوى.. حتى ولو كان انساناً فاضلاً عالماً مسالما كالإمام حسن الأنور. ولعل ذلك له أسباب كثيرة، فى

مقدمتها بالطبع الإحساس بأنهم اغتصبوا حقا ليس لهم.. وأنهم إزاء هذا الاحساس لابد وان يمحون أصحاب هذا الحق من الوجود.. حتى يستقر الأمر لهم.

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى المضطرب نشأت السيدة نفيسة وترعرعت، أو لعل اضطراب الأحوال قد أثمر نتيجة محورية فى بناء شخصية هذه السيدة الفضلى أصقل مداركها ومشاعرها فى وقت مبكر، يضاف إلى ذلك أنها فتحت عينيها على مظاهر التقى والإيمان. وفى الوقت نفسه سعة الرزق وبحبوحة العيش، والأكثر من ذلك أن تجد نفسها ضمن عشرات ينتمون إلى مدرسة أبيها الإمام حسن الأنور.. مدرسة تضم العلماء والمؤرخين على غرار ابن إسحاق راوى السيرة النبوية.. فى هذه المدرسة الأولى تلقت أمور دينها ودنياها، مما كان له كبير الأثر فى تكوين شخصيتها فيما بعد.

وإلى جانب كل هذه العوامل الخارجية المكونة لشخصيتها، ما فطرت عليه من ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وفهم سريع، واستيعاب لكل ما يحدث حولها من أمور وأحداث.. كانت تسمعها وتدخرها فى حافظتها.. وقد عاونها فى ذلك تعلمها المبكر للقراءة والكتابة، فقد تعلمت ذلك وهى فى السابعة من عمرها، ولم يكن فى زمانها ولا بيئتها مَنْ تحقق له ذلك فى مثل هذا العمر، إذ كانت الأمية سائدة فى نطاق البنين، فما بالنا بالبنات!

كان القرآن الكريم هو أول ماتهتم به وتحفظه بقلب مفعم بحب معانيه، وكانت الأحاديث النبوية الشريفة هى أهم ما تستوعبه بعد القرآن. فأتت عليها تستوعبها وتدرسها بعاطفة خاصة، لعل مصدرها أن قائل هذه الأحاديث هو الجد الأعظم وكانت علوم ومعارف زمانها غير بعيدة عنها، وإنما متاحة لها، فأقبلت عليها بعقلية متفتحة فذة.. وكانت فى كل ذلك على إيمان مبكر بأن التفكير فريضة إسلامية، أقرتها آيات الكتاب الكريم، وأكدتها الأحاديث الشريفة. وأن للعلم فى كتاب الله وأحاديث نبيه مكانة جليلة.

وهكذا تمثلت السيدة نفيسة أول ما تمثلت طريقة أبيها فى الانصراف إلى العبادة،

والخلوص لله عز وجل، حتى قيل عنها أنه إذا كان بلال بن رباح رضى الله عنه قد شق أول طريق فى التصوف. فإن السيدة نفيسة كانت من السابقات اللائي شققن طريقهن إلى التصوف بين النساء.

فى هذه السن المبكرة كانت تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن فى عبادتها، وتزيد كلما نَما جسمها وعقلها. . وكأنها تستشعر لذة بما تفعل. وهاهى ذى أمام الكعبة، تتعلق عيناها بأستارها هامسة: «إلـهى وسيدى ومولاى، منعنى عجزى وضاعف فرحتى برضاك عنى، فلا سَبَّبَ لى أتسببُ به يحجبك عنى». قد يدرك القارىء هنا مدى نضجها العقلى والوجدانى الذى أصابته مبكراً فى هذا الدعاء الحار الذى إنْ دل على شىء فإنما يدل على الإيمان فى سلوكها مع الخالق.

وهكذا كان حال السيدة نفيسة فى «أم القرى»، حتى إذا انتقلت إلى المدينة المنورة بصحبة أسرتها تضاعف إيمانها، وهى لم تزل بعد فى العشرين ربيعاً، وعلى هذا يمكن القول ـ اتفاقاً مع العلماء والمؤرخين ـ بأن هذه السيدة الفضلى قد سارت فى طريق الله عبر مدرستين عظيمتين: الأولى فى مكة، والثانية بالمدينة المنورة. . لتأتيه العلوم والمعارف من كل صوب وحَدْب. وها هو ذا أبوها الإمام حسن الأنور يصحبها مرات إلى قبر الجد الأعظم ـ كما تذكر الروايات ـ ويردد: «يا رسول الله، إنى راضٍ عن ابنتى نفيسة». ثم يرجع. ومازال يفعل هذا حتى رأى فيما يرى النائم رسول الله ﷺ يأتيه فى منامه ويقول له: «يا حسن، أنا راضى عن ابنتك برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راضى عنها برضاى عنها».

وفى المدينة يتصدر الإمام مالك بن أنس وقتئذ مجالس العلم، التى تجمع صفوة العلماء، ومن بينهم السيدة نفيسة، التى تتلقى ما لا تعرفه طيلة أربعة عشر عاماً قضتها فى رحاب هذا العالم الجليل حتى توفى، فيتحقق لها الحُسنيين معاً: شرف العلم، ومن قبله شرف النسب. وتستمر فى طريق العلم والمعرفة، وفيَّة لهما، حتى يصبحا ركيزة تُضاف إلى ركيزة عبادتها وصلاحها وتقواها.

ومع الأيام يزداد نضجها العقلى، ومعه تزداد محبتها للذات الإلـهية، وتُخلص فى هذا الحب فى خشوع وخضوع، وتبعد نفسها عمَّا نَهَى الله ورسوله، وتطهر

نفسها من كل شائبة مما يشين أفعال البشر، وتزهد فى هذه الدنيا التى تُبنى على الصراع والشرّ، وتُقبل على العبادة فى اعتدال وتعقل، جاعلة حياتها مرحلة تزود آخرتها بالعمل الطيب المثمر، فلا تقعد ولا تتواكل، بل تعمل لدينها ودنياها، فكانت بحق نعم المرأة العابدة العاملة الزاهدة. المرأة التى لاتنسى الأخذ بحقها المقسوم فى حياة أحَلَّ الله سبحانه وتعالى طيباتها لعباده المخلصين.

حتى أنه حين يتقدم لخطبتها ابن عمها «إسحاق ابن الإمام جعفر الصادق» رضى الله عنهما.. ترضى به خطيباً، وتحفظه زوجاً، وتعيش معه مُحبة، وتصبح دارهما فى المدينة المنورة ـ ثم فى مصر بعد ذلك ـ ملتقى للعُلماء، وكعبة لأعلام عصرها ممن عرفوا عنها أنها بحق «نفيسة العلم والمعرفة».

ومن المدينة المنورة انتقلت السيدة نفيسة وزوجها إلى مصر، ليلحق بهما والدها الإمام حسن الأنور رضى الله عنه بأربعة أشهر.. ولعلها اختارت هذا البلد الأمين طلباً للهدوء والاستقرار، بعيداً عمّا يذكرهم من خلافات وصراعات، عاشوا فيها زماناً.. صراعات وخلافات كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان حتى وإنْ بعدت السّنون وتغيرت الأحوال.

وتجد فى مصر وشعبها ما لم تجده فى غيرها من البلدان. لقد أحب هذا الشعب الكريم هذه السيدة الطاهرة.. احبها قبل أن يراها.. حين سمع بعلمها وفضلها وتُقاها وهى بمدينة الرسول. حيث كان الحجاج المصريون ينقلون أخبارها، فلما اختارت مصر مستقراً، وشعبها أهلاً، استُقبلت بكل حفاوة وتكريم منهم، حتى إذا استقرت بينهم تحقق لهم ما كانوا يسمعونه عنها، فازدادوا تعلقاً بها، ومن ناحيتها قابلت هذه المشاعر الصادقة بأفضل منها، برغم ماكان يساورها من قلق، خوفاً من أن يسىء بنو العباس فَهْمَ ذلك، فيفسدون عليها رضاً كانت تفتقده.

لقد رأى الشعب المصرى فى السيدة نفيسة ـ كما يذكر الأستاذ محمد شاهين حمزة ـ آماله الروحية تتحقق. فأقبل عليها إقبال الظمآن إلى الماء العذب. واشتد إقبالهم وتزاحمهم على بابها، حتى عاقها ذلك عمّا نذرت نفسها له من العبادة والعلم، وصبرت فترة، حتى إذا طالت راودتها فكرة العودة إلى حيث جاءت،

فصحيح أنها أحبت هذا الشعب، ولكنها تحب الله أكثر، وتود أداء فرائضه وتقوم بعبادته خير قيام .

وحين ترامَى إلى الشعب المصرى نبأ عزمها على الرحيل، فزع إلى واليه من قبَل الخليفة العباسي المأمون، ولم يَتَوانَ هذا الوالى عن التوجه إلى السيدة نفيسة طالباً منها البقاء بمصر، نزولاً على رغبة أهلها، فقالت له : «إنى جئت مصر بنية الإقامة الدائمة حتى الموت، وأن أدفن فى تربتها. . إنى امرأة ضعيفة، وأرى الناس قد تكاثروا علىَّ تكاثراً فاق طاقتى، وشَغَلَنِى عن زادى لمعادى. . ومكانى هذا صغير قد ضاق بالجموع الوافدة».

فقال لها الوالى: إنى سأزيل جميع ما تشكين منه لتبقى فى مصر. . وسأهيئ لك الأمر على الوجه الذى ترضين به.

وبالفعل يَسَّرَ لها مكاناً أفضل، ومن جانبها خصصت يومين فى الأسبوع تلتقى فيهما بالوافدين عليها، وطاب لها المقام بمصر. . ولم يكن موقفها من الشعب المصرى الملتف حولها سلبيّاً، بل كان إيجابياً إلى حد بعيد. . حيث أعطته مِمَّا أفاض الله عليها من فضل، فَنَهلَ من مجالس العلم التى كانت تعقد فى دارها، ومنحته صدق الدعوة إلى الله تعالى، وجمال التوجيه والإرشاد بخير الدنيا والآخرة، وقدمت من نفسها أنموذجاً متكاملا لما تكون عليه المرأة المسلمة المنتسبة إلى أشرف الخلق. . وهكذا ظل حبها باقياً فى مصر يتوارثه الأبناء عن الآباء فى حياتها أو بعد مماتها منذ وَطِئَتْ أقدامها أرض مصر إلى اليوم.

ومع مسئولياتها التى تجددت بمصر كانت تحافظ على تأدية شعائر الحج فى كل عام، حتى بلغ مرات حجها أكثر من ثلاثين مرة. فى بعضها كانت تتعمد المشى على أقدامها. . كما كانت تحافظ على عبادتها بصورة منتظمة، حتى قالت عنها ابنة أخيها زيد: «قمت بخدمة عمتى أربعين عاماً، فما رأيتها نائمة الليل ولا أفطرت النهار. . ولقد قلت لها ذات مرة أما ترفقين بنفسك ياعمتاه؟ فقالت كيف أرفق بنفسي وأمامى عقبات لا يقطعها إلاَّ الفائزون».

ولعلها فى ذلك كانت تتمثل جدها العظيم الإمام علىّ كرَّم الله وجهه. . حيث

كان يقول: «يا دُنيا غُرِّى غيرى.. إلىَّ تعرضت، أم إلىَّ تشوفت؟! لقد باينتُكِ ثلاثاً لارَجْعَةَ فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير. آه من قلة الزاد وبُعد السفر ومشقة الطريق!!». مشيراً إلى الدنيا التى هى طريق إلى الآخرة وما فيها من الأهوال.

ولعل شخصية السيدة نفيسة تبدو من أحاديثها وأقوالها، تلك التى سجلها مؤرخوها، ونقلها الخَلَفُ عن السَّلف لتبقى على مر القرون خير شاهد وأصدق دليل على عظمة خلود هذه السيدة الطاهرة.. فهى حين تتضرع إلى الله عز وجل بالدعاء تقول: «اللهم يا مَنْ عَلاَ فقدر، ومَلَكَ فَقَهَر.. أجْبُر من أَمَتِكَ ماانْكَسَرَ» فى هذا الدعاء نلمح رصانة عبارتها، وهو ما ورثته من بيئتها العربية ونسبها الكريم.. كذلك نلمح نظرتها الثاقبة إلى أحوال الدنيا وما فيها من متاع الغرور، حيث تقول: الدنيا كلها مرارة، فإنْ كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان، ونلمح أيضاً جانباً من شخصيتها، حيث توجه المسلم إلى أنه ليست الصلاة - وهى صلة العبد بربه - بكثرة عدد الركعات، إنما الأفضل أن تتحقق هذه الصلة حتى وإن كانت ركعتين وتقول: «إن ركعتين فى الصلاة فيهما الصِّلة المطلوبة فى الصلاة بين العبد وربه خير من ألف ركعة تجردت منها».. ثم إنها وقد أُتيح لها قسط وافر من العلم والمعرفة.. نراها تقول: «إن الإسلام غنى بتعاليمه عن الفلسفات الأخرى» هذا القول منها يدل على اطلاعها على هذه الفلسفات واكتشافها نواحى النقص والقصور فيها، وهو ما لا يتسنى إلا لعقلٍ استوعب المعارف المتباينة، ثم قارَنَ بينها.

ولعل إيمانها وصبرها وقوة عزيمتها يتجلى جميعه فى إصرارها على مواصلة الصوم، حتى وإن كان يقضى عليها.. وتقول لمن يطلب منها إفطاراً رفقاً بها: «واعجباً.. لى ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل أن يتوفانى وأنا صائمة. وأفطر؟! معاذ الله».

وسيدة على هذا النحو من العلم والفضل، والتقى والصلاح.. لابد أن تكون قِبْلَةً لأعلام عصرها من العلماء، وفى مقدمتهم الإمام الشافعى الذى كان يزورها، وكانت تستقبله وتفيض عليه، وتناقشه فى كثير من جوانب الفقه وأصول

العبادة.. ولم ينقطع عن زيارتها والاستزادة بفضلها إلا يوم أن اختاره الله إلى جواره. وكانت من المشيعين له.

وقصدها الإمام أحمد بن حنبل حيث التقى بها حين كانت تعود مريضاً من طلاب مجلسها العلمى، ويومها طلب منها صالح الدعوات، وكان يحرص على اللقاء بها كلما سنحت ظروفه فى مصر أو فى الحج.

ويروى أنها شهدت فى آخر حياتها ظلم أحد حكام مصر آنئذٍ. وبلغها من ظلمه وصوره حيث جاء أهل مصر متوسلين أن تتشفع لهم عنده حتى يرفع عنهم مظالمه.. فسألتهم أوقات وأماكن خروجه فعرفوها.. فما كان منها إلا أن استوقفت موكبه ونادته باسمه مجرداً. فاستجاب لها مترجلاً عن جواده واتجه إليها وهو يرتجف، فقالت له: «ملكتم فأسرتم، فكان منكم الجور والعسف، وقطع الأرزاق، وقد علمتم سهام الأسمار نافذة غير مخطئه لاسيما الصادر منها من قلوب أوجعتموها، وأكباد أذقتموها قسوة الجوع، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، فاعملوا ماشئتم، فنحن صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أى مُنْقَلَبٍ ينقلبون».

وهنا ارتعد الحاكم الظالم، وأقبل على السيدة نفيسة يترضاها ويعدها بأن يصلح كل شىء.

ومرت الأعوام والسنون، وعندما أخذ الوهن يدب فى أوصالها تخيرت لنفسها قبرها فى المكان الذى كانت فيه دارها، وفى نفس الحجرة التى عاشت فيها بقية حياتها بمصر، وحفرت قبرها بنفسها ونزلت إليه، وصلّت فيه مرات.. حتى إنه قيل بأنها قرأت القرآن الكريم بأكمله عدة مرات فى هذا القبر الذى أحبته إلى درجة أنه كان يطيب لها المقام فيه أحياناً ساعاتٍ طوالاً.

ولما أحست السيدة نفيسة رضى الله عنها بقرب نهايتها، راحت تستعد لذلك، وتقرأ سورة الأنعام. وراحت تستعيد آياتها فى ضراعة وتبتل، حتى إذا ما وصلت إلى قوله تعالى:

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها عن عُمر يناهز ثلاثةً وستين عاماً، لتُدْفَنَ فى القبر الذى أعدته بنفسها، والذى يقام عليه الآن ضريحها داخل مسجدها بالقاهرة. وحزن لموتها أهلُ مصر أجمعون. وكان يوم وفاتها من الأيام المشهودة فى ذلك العصر البعيد.

* * *

(1) سورة الأنعام ـ الآية ١٢٧.

٢٠ السيدة رقية
شلت يد رجل اعترضها

فى ربْع متسع، حوله بيوت قديمة، ذات غرفات كثيرة، وأضرحة ومساجد تناثرت هنا وهناك بحى الخليفة بالقاهرة، يستقر فى بروز ووضوح ضريح مميز، كُتب على واجهته ما يشير إلى أنه للسيدة رقية رضى الله عنها، حيث يفصل بينه وبين مسجد شجرة الدر المقابل له باب من الحجارة، محفور على أعلاه بيت من الشعرهو:

بقعة شَرُفَت بآلِ النبى   وبنت الرضا على رُقية

وهذا البيت يشير إلى أن هذه السيدة الموجود رفاتها الطاهر بهذا الضريح، واحدة من آل بيت النبى وعلى وجه التحديد هى بنت الإمام على الرضا بن موسى الكاظم بن محمد الباقر، بن على زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عنهم أجمعين.

هذا النسب الشريف يؤكده بالكثير من الحجج والأدلة أئمة مسجدها واحد بعد آخر، وكأنهم توارثوا هذه المعلومة المؤكدة فى تقديرهم على مر الزمن.

ويضاعف من الإحساس بمصداقية هذا التأكيد، ما اتفق عليه العامة الذين يعيشون فى هذه المنطقة، وعلى وجه التحديد حُرَّاس المقابر، وعُمَّال المدافن، إلى جانب الزائرين لهذا الضريح للتبرك به، وكأن هذه المعلومة متفق عليها بين الجميع.

وطبيعى ألاّ يكون هناك شك في مصداقية تواجد رفات هذه السيدة فى هذا المكان بالذات.. غير أن ما يجعل الشك قد يتطرق إلى القلب هو اختلاف بعض الكتابات التى أرَّخت لهذه السيدة، كما أرخت لغيرها من أبناء وبنات آل البيت. ولم يكن هناك شك فيما تذهب أو تقول، لأنها موضع ثقة.

من هذه الكتابات القديمة ما يرى أنها ليست حفيدة للإمام على بن أبى طالب من حفيده الإمام على الرضا، بل هى ابنة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه من زوجة أخرى غير السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وأنها - أى السيدة رقية - أخت كل من الإمامين الحسن والحسين والسيدة زينب رضى الله عنهم أجمعين، هى أختهم من أبيهم، وأنها قدمت إلى مصر مع مَنْ حضروا فى صحبة السيدة زينب بعد مأساة كربلاء، وأنها استقرت هنا بمصر إلى آخر أيام حياتها ودُفنت فى هذه البقعة التى تحيط بها أعداد من الأضرحة والمشاهد والمساجد بحى الخليفة.

ولم تذكر هذه الكتابات على وجه اليقين: لماذا هذه البقعة بالذات؟ هل كانت تعيش فيها قبل الممات؟ هل كانت تمر بها؟ أو أى من الأحداث التى تشير من قريب أو من بعيد إلى اختيار هذه البقعة بالذات مكانا لدفنها؟ لم تشر هذه الكتابات التى أتيح الاطلاع عليها. وفى الوقت نفسه لانجد فى كتابات أخرى قديمة وحديثة إلى شىء من هذا. رأياً مؤداه أنها ابنة الإمام على الرضا، وينتهى نسبها إلى الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، كما يشير بيت الشعر المكتوب على اللوحه المثبتة على وجهة ضريحها، ويتفق عليه أئمة مسجدها مع العامة الموجودين هناك بحى الخليفه.

أما كيف ولماذا جاءت مصر؟ فقد جاءت مع من جاءوا طلباً للأمن والاستقرار، وفراراً من الاضطهاد والتنكيل الذى لاقاه أبناء الإمام على كرم الله وجهه بعد مأساة كربلاء من الأمويين أو العباسيين على وجه سواء.

ومهما كان الاختلاف بين الرأيين حول نسب السيدة رقية رضى الله عنها ومجيئها مصر، فإنهما يتفقان حول ثلاثة حقائق مهمة:

أولها: أن السيدة رقية المدفون رفاتها تحت ثرى مصر بحى الخليفه واحدة من آل بيت النبى ﷺ، فسواء كانت ابنة للإمام على كرم الله وجهه من زوجة غير السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، أو حفيدة له باعتبار كونها ابنة الإمام على رضا.. فهى من آل البيت، ولها ما لآلِ البيت من التقدير والاحترام.

وثانى هذه الحقائق: أنها جاءت بالفعل إلى مصر واستقرت بها، ودُفنت فيها، إما فى صحبة السيدة زينب رضى الله عنها - على اعتبار أنها أختها لأبيها - أو جاءت

بعد ذلك مع مَنْ جاءوا من آل البيت فراراً من الاضطهاد والتنكيل الذى استهدف العلويين من آل البيت حتى تعقبوهم فى كل أرجاء الحجاز والعراق والشام، ولم يجدوا مكاناً أميناً يستقرون فيه غير مصر، وبين شعبها الذى يجل ويحترم آل البيت إجلالاً واحتراماً عظيماً.

لقد وصل أمر التنكيل بهذه السيدة الطاهرة ـ كما تذكر الروايات والكتابات التاريخية قديمها وحديثها ـ أنها تعرضت للقتل أكثر من مرة، وفى هذا يشير الأجهورى فى كتابه «مشارق الأنوار» مبرراً حضورها مصر ومؤكداً له، حيث قال: «إن السيدة رقية رضى الله عنها لما جاءت من المدينة المنورة اعترضها شخص من الأمويين وأراد قتلها، فوقفت يده فى الهواء وسقط ميتاً».

وهذه الرواية للأجهورى تحدد أنها جاءت فى عصر بنى أمية وليست فى عصر العباسيين.

وثالث هذه الحقائق: أن الكتب قديمها وحديثها التى تناولت ـ بالإشارة أو التفصيل ـ حياة السيدة رقية رضى الله عنها تجمع على أنها كانت من العابدات القانتات التائبات المؤمنات، وأنها كانت صَوَّامة بالنهار قَوَّامة بالليل.. طبيعة مكتسبةمن نسبها الطاهر. وأنه لهذا وذاك كان الناس يتجمعون حولها ويتبركون بها حية كانت أو متوفاة.

ولعل هذه الملاحظة لم يغفل عن ذكرها على مبارك فى خططه التوفيقية، حيث قال عن: «التكية المعروفة بتكية السيدة رقية رضى الله عنها، هى غاية فى الخفة والنورانية، وبداخلها ضريح السيدة رقية رضى الله عنها، تعلوه قبة، وبقُرْبه عدة أضرحة. وتوجد فيه قبلة مصنوعة من الخشب بنقوش غاية فى الاتقان.. كذلك توجد إلى جوار هذه التكية حنفيات وُضعت صهاريجها مملوءة بالمياه للوضوء، ويحيط بها جنينة صغيرة.. ويعمل بمسجد السيدة رقية رضى الله عنها مقرئ لآيات الذكر الحكيم، ويُقام لها ذكرٌ أسبوعى، ومولد فى كل عام.. تأكيداً لما لهذه السيدة الشريفة من تقدير لدى العامة والخاصة منذ وفاتها إلى الآن».

غير أن «على مبارك» و«الأجهورى» وغيرهما من المؤرخين والكُتَّاب لم يذكروا شيئاً عن حياتها الخاصة بمعنى هل تزوجت وأنجبت الولد أم لا؟ وفى أى عام كانت وفاتها؟! إلى آخر هذه المعلومات المطلوب تسجيلها للكتابه عن سيرة هذه السيدة الفضلى رضى الله عنها.

* * *

٢١ القاسم الطيب
الإمام المختبئ

تفتحت كرامته وهو طفل صغير على نهاية عصر، وبداية عصر جديد. والبداية والنهاية لا تختلف أمام عينيه، بل أمام عيون كل من ينتسب لآل البيت.. هذا الطفل هو بعينه الذى أصبح فيما بعد الإمام القاسم الطيب.

لقد انتهت دولة بنى أمية، وأرسل الثوار إلى جده جعفر الصادق رسلا يسألونه البيعة ليصبح خليفة على المسلمين، فهو حق أجداده الذين سلبته بنو أمية. ولكنه رفض. فبايع الناس أبا العباس السَّفَّاح، حفيد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين، ومنهم جعفر الصادق، أى أن الخلافة عادت إلى أقرب المقربين.

وتولى أبو العباس الخلافة، والتف حوله المنافقون، الذين زينوا من قبل الاستبداد للحُكامِ الأمويين، وشرعوا لهم الظلم والطغيان، حتى إذا مات أبوالعباس مؤسس الدولة العباسية وَرِثَ الخلافة من بعده الخليفة أبو جعفر المنصور، وإذ بهؤلاء المنافقين يحيطون به، وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذا بهم يوهمونه بأنه فوق القانون، حتى لقد جعلوه يوماً يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه.

ويتأمل جعفر الصادق كل هذا، ويستعيْذ بالله منه، فما هكذا كان الإسلام الذى بَشّرَ به جده الأعظم محمد ﷺ، واستمر على هَدْية الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم.

كان أبو القاسم هذا الطفل الصغير يرى فيما يرى دار جده الإمام جعفر وقد ازدحمت بالناس من كل أصقاع الدولة الإسلامية، وكأنه واحة وارفة الظل وسط هجير الصحراء.

ومما رأى وسمع تأكد أنه لم يجمع الناس على حب أحد فى زمانه مثلما أجمعوا على حُب الإمام جعفر الصادق، فإلى جانب ما كان يتسم به من سمات شخصية، من صفاء نفسٍ، وسعة أُفقٍ، ورهافة حس، واتقاد ذهن، وطيبة قلب تلتمس الأعذار للناس وإلى جانب كل هذا كان ذا علم وفضل. . علم الدنيا، فقد قيل : إنه كان أستاذا لجابر بن حيان. . وعلم الآخرة، حيث كان أستاذاً لأبى حنيفة النعمان، أحد أصحاب المذاهب الأربعة.

إن هذا الجد الصالح كان يُلقن أبناءَهُ - ومنهم محمد أبو القاسم الطيب - المبادىء والقيم الصافية للإسلام، وكان يُذَكِّرُ الأبناءَ والأحفاد بأنهم يجب أن يكونوا على مستوى نسبهم إلى النبى الأعظم محمد ﷺ فى العمل والسلوك، وفى الآداب والأخلاق، وفى العلم والفضل، فَهُمْ ممَّنْ أبْعَدَ الله عنهم الرجس وطَهَّرَهم تطهيراً. كما يذكرهم أن جدهم لأُمِّه هو خليفة رسول الله ﷺ، أبو بكر رضى الله عنه، وأن جدهم لأبيهم هو الإمام على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه. وهو نسب لايجتمع لغيرهم. ويذكرهم كذلك بنصيحة أبيه الإمام الشهيد محمد الباقر، وهى: «ما دَخَلَ فى قلب امرئ شىء من الإثم إلا نقص من عقله مثل ما دخله الكبر. . » ويذكرهم بنفسه حين زَهِدَ فى كل متاع للدنيا حتى عزف عن الخلافة، قائلاً: «مَنْ طلب الرياسة هَلَكَ». وبرغم هذا ظلت الرياسة تطلبه وهو على رأيه رافضٌ.

فى هذا المناخ الطاهر النقى الصالح وُلد القاسم الطيب وتنسم منه حياته الأولى، حتى إذا أصبح فتىً صغيراً نشأ فى ظل هذه الأفكار العظيمة وعاش، فكان مثالاً للطهر، والنقاء، والتواضع، مع الإيمان والتقوى. وهى خصال ليست غريبة على المنتسبين للبيت النبوى الشريف.

مات أبوه محمد بعد أن بايعوه بالخلافة، فهى حق له. استمده من جَدَّيْه الحسين والحسن. هذه الخلافة التى رفضها من قبل جده جعفر الصادق. ليتجدد الأمر بعد ذلك مع ابنه محمد أبى القاسم الطيب، بحيث نُودِىَ به أميراً للمؤمنين ولكن العباسيين - وقد أخذتهم أُبَّهة الحكم وزينة الحياة - أنكروا على أبناء عمومتهم ذلك، حتى مات محمد، ولكن لم تمت مبايعة أولاد جعفر وأحفاده بالإمامة والخلافة، فهناك فى مصر كان قاسم الطيب، الذى جَاءَهَا مع مَنْ جاءَ فراراً من ظلم وعسف وطغيان العباسيين. ومن قبلهم الأمويين.

وطبيعى أن تلاقى فكرة إمامة القاسم الطيب وخلافته قبولاً وارتياحاً عند جموع المسلمين المتشيعين لآل البيت الشريف، فبايعه أهل مكة، والمدينة، والكوفة، وقزوين، وطبرستان، وبلاد الديلم، وكَاتَبَهُ أهل البصره والأهواز بأنهم موافقون على خلافته، بل إنهم حثوه على الظهور، حيث كان قد اختفى سنوات، ولذلك طالبوه أن يضع حداً لهذا الاختفاء المتعمد.

وتناقل الناس الخبر، وما كان مختفياً أصبح واضحاً، ووصل الخبر إلى أسماع العباسيين، فأغضبهم ذلك، إلى درجة أن أمر الخليفة العباسى بالتشدد فى طلب الإمام القاسم الطيب، والبحث عنه فى كل أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وتسليمه حياً أو ميتاً، فقد أصبح خطراً يهدد استمرار دولة بنى العباس، وهذا الخطر ينبغى القضاء عليه، خاصة أنه قد وضح للجميع أن الأتباع والأشياع يتزايدون يوماً بعد يوم.

ويروى لنا يحيى بن الحسين في كتابه «تاريخ الأئمة» عن أتباع الإمام القاسم الطيب هذه القصة: «ضاقت بالإمام القاسم الطيب المسالك فى مصر، واشتد الطلب عليه من العباسيين، وبحثوا فى كل مكان، وفى كل بيت، وفتشوا حجرات كل بيت، مع أننا كنا مختفين معه خلف حانوت إسكافى يقع قرب مشهد السيدة نفيسة. ووصل الأمر إلى أنه نُودِى نداء كان يبلغنا، هو: بَرِئتَ الذِّمَّةُ مَمّن آوَى القاسم، وممن لا يدل عليه.. ومَنْ دلَّ عليه فله ألف دينار..»

والغريب أن الاسكافى كان يسمع ذلك ولا يَعْرهُ أَدْنَى اهتمام، بل كان يعمل مستغرقاً وكأنه لايسمع شيئاً، وهو فى واقع الأمر يسمع كل شىء، حتى المكافأة التى مقدارها ألف دينار. ولكنه لايريد أن يفشى سر القاسم الطيب الذى أحبه وأخلص له، حتى إذا دخل على الإمام وأتباعه هذا الإسكافى المخلص قالوا له: أمَا ارتعت؟ فيرد الإسكافى: «مَنْ لى؟ وما ارتياعى منهم؟ حتى لو قُرِضْتُ بالمقاريض.. وهل هناك أغلى من إرضاء رسول الله ﷺ فى وقايتى لولده بنفسى..». ولعله خيرٌ مثال لتفانى المصريين فى حب الرسول الكريم وآل بيته ومنهم ذلك الإمام القاسم الطيب.. ولكن برغم ذلك كله، فقد مات هذا الرجل الصالح ولم يتول الخلافة، شأنه شأن أجداده.

* * *

٢٢ الإمام يحيى الشبيهى
شبيه رسول الله

الإمام يحيى الشبيهى هو ابن الإمام أبى القاسم الطيب، وينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب، والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم أجمعين.. وهو إلي جانب ذلك من آل بيت النبى عليه الصلاة والسلام. وقد جاء مصر مع مَنْ جاء فراراً من الظلم، وطلباً للآمان، وقد وجد هذا الأمان بالفعل فى مصر، ولذلك اختارها مكاناً يدفن فيه.

لقد سمع الكثير عن ذلك العصر المدوى بطبول الانتصارات، ورنين الأبواق العازفة، وصهيل الخيول الراجعة، وصليل السيوف البتارة.. باختصار سمع بعصر اتسم بأوج الفتوحات الإسلامية التى رفعت راية الإسلام من أسوار الصين شرقاً إلى تخوم الأندلس غرباً، كما اتسم بأريج الانتصارات العلمية أيضاً، هذه الانتصارات التى كان لها أكبر الأثر فى النهضة الأوربية فيما بعد، وهو تأثير واسع المدى، عميق الأثر، شمل العلوم كما شمل الصناعات، ولم يقتصر على الفلسفة، ولكنه امتد كذلك إلى الأدب بشتى فروعه، وإلى الفن، المعمار منه والموسيقى.

ومع هذه الصورة العظمية لدولة الإسلام هناك صورة أخرى مقابلة لها. لقد سمع أيضاً فيما سمع أن المنصور كان يتربص بجده الأكبر الإمام جعفر الصادق، ومن قبلهم بنى أمية. حيث كانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم صراحة وليس ضمناً إلى العزوف عن طيبات الدنيا بل والأكثر تدعوهم إلى عدم التفكير فى أحوالهم.. وقد شجع حكام بنى أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير فى استبدادهم وطغيانهم ويصرفوهم حتى عن محاولة المقارنة بين غِنَى هؤلاء الحكام وفقر المحكومين... وشجع بنو العباس هذا الاتجاه وعاضدوه.

وهنا رأى الإمام جعفر الصادق الجد الأكبر للإمام يحيى الشبيهى أن ما يفعله العباسيون ومن قبلهم الأمويون يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وأنه ليست من الإسلام فى شىء، حيث يبدأ بإهمال الإنسان لنفسه، وينتهى بعدم اهتمامه بمصلحة الأمة، فلا يحاسب حاكماً، ولا يستوقفه أمرٌ فى الدولة معوج. . وبدأ فى مناقشة الداعين إلى الزهد قائلا: «الزهد كما أفهمه هو الاكتفاء بالحلال، لا التجرد من الحلال».

وهكذا كان العصر الذى لم يدركه الإمام الشبيهى، وإنْ كان قد سمع عَنه. . كان عصراً مفعماً بالغنى والمتاع، إلاَّ أنه مع ذلك كان مشوباً بالحنين إلى عدالة المسلمين الأوائل وصدقهم وورعهم.

رأى عدالة وصدق وورع كانت مطالبَ ضرورية لهذا العصر فى وجود آل بيت النبى ﷺ المطاردين فى الجزيرة العربية والعراق ومصر، وغيرها من أمصار الدولة الإسلامية وبلدنها، لا لسبب، ولا لجريرة ارتكبوها، ولكن لخوفٍ وَقرَّ فى قلوب بنى العباس، ومن قبلهم بنى أمية. . من التفاف المسلمين حول آل البيت ومحبتهم لهؤلاء الأشراف، وتقديرهم لمكانتهم منذ بعث محمد ﷺ.

إن هذا الالتفاف حول آل البيت، ومحبة وتقدير المسلمين لهم كان يمثل الخطر الأكبر لدى الأمويين والعباسيين مع أن آل البيت كانوا لا يطمعون فى جاه أو سلطان كما رأينا عند الكثيرين من أئمتهم، لكن ما العمل وقد مَثَّلَ إقبال المسلمين على آل بيت النبى وسواساً أو هاجساً لدى حُكام بنى العباسى، ومن قبلهم بنى أمية؟

وعاش الإمام يحيى الشبيهى هكذا كغيره. من فتية وشباب وكهول آل البيت مفعماً بالأسى، وجلال الذكريات، مع عظيم الشوق إلى العدل والحرية، فقد ينالون فى ظلهما حقاً صار مسلوباً. ولكن كيف الوصول إلى هذا الحق وقد أصر البعض أن يحتال على إخفائه بالحيلة والمكر حيناً، وبالقوة والقتل حيناً آخر؟.

لم يبق له إذن من حقائق الأشياء إلا حقيقة واحدة، هى أنه ينتسب إلى أشرف خلق الله، محمد ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها، والإمام على بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه، وأنه حقاً وصدقاً الإمام يحيى بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وأن أباه الإمام القاسم الطيب، العالمُ والفقيه المشهود له بالعلم والفضل. . وأن من بين أشقائه

السيدة كلثوم - أو كلثم - إحدى المسلمات المؤمنات اللاتى يعتبرن فخراً للدعوة الإسلامية التى كرمت المرأة واعترفت بحقها فى الحياة.

وحقيقة أخرى خصه الله عز وجل بها دون غيره من آل البيت، تنطق بها خِلْقَتُه، حيث تجمع كل المصادر التاريخية من سير وتراجم وأخبار قديمها وحديثها عليها، وهى شدةُ الشَّبَه بجده الأعظم النبى ﷺ، حتى أُطلَق عليه «الشبيهى» مقروناً باسمه، وفى ذلك يذكر الأسعد بن النحوى النسّابة، والرازى ما خلاصته: «أنه كان شديد الشبه بالرسول ﷺ».

ويضيف ابن النحوى ما يزيد التأكيد على هذا الشبه الشريف قائلا: «كان بين كتفى الإمام يحيى شامة بها شبه بخاتم النبوة، وكان إذا دخل الحمَّام فنظر الناس إلى هذه الشامة التى بين كتفيه كانوا يكبرون، ويكثرون من الصلاة على النبى ﷺ..».

وتستطرد هذه المصادر التاريخية فى روايتها حول موضوع هذا الشبه الشريف، حيث تسجل بأنه قد سمع الناس بذلك، بعد أن تناقل البعض الخبر، ومن هؤلاء الناس أهل مصر وأميرهم الذى أراد من جانبه أن يكون لمصر شرف التقرب إلى هذا الرجل الشريف، والتطلع إليه، فبادر بإرسال وفد من مصر مُحَمَّلاً بالهدايا والتحف إلى الحجار، حيث كان يقيم يحيى الشبيهى وأسرته، راجياً تشريفه مصر بالزيارة، أو حتى الإستقرار فيها كغيره ممن سبقه من آل البيت.

وقد قبل الإمام يحيى الشبيهى الهدية، ولبى الرجاء بالزيارة وفى ذلك يصف ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» قدوم هذا الإمام مصر قائلا: «ولما سمع أهل مصر بقدوم الإمام يحيى الشبيهى خرجوا إلى ظاهرها ليستقبلوه وكان يوم قدومه إلى مصر مع أسرته يوماً مشهوداً عند المصريين».

كذلك تذكر المصادر التاريخية الكثير عن كرامات هذا الإمام ومنها ماذكره ابن الزيات والسخاوى وغيرهما على لسان أحد الرواة، ويدعى أبا الذكر، بأنه كان يرى على قبر الإمام يحيى الشبيهى نوراً». إلى أن يقول: «دخلت قبر هذا الإمام فلم أحسن الأدب فسمعت صوتاً يردد من ورائى: « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

لذلك ينبه ابن الزيات فى كتابه إلى أنه ينبغى على الزائر لأى فرد من آل البيت أن يقرأ هذه الآية الكريمة التى سمعها زائر« قبر الإمام يحيى الشبيهى ».

بقى أن تعرف أن هذا الإمام مدفون بمصر كما تقرر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابتها عن المساجد.

* * *

٢٣ ابن طباطبا وحكايته مع الرشيد

نحن الآن فى رحاب أحد الصالحين الذين عملوا فى دنياهم لآخرتهم. إنه واحد من نسل أحد الذين فروا من اضطهاد أبناء العمومة من ذوى النفوذ والسلطان، ومع ذلك كان من الذين لم يعرف الشك فى رحمة الله وفضله إلى قلوبهم سبيلا.. بل ظلوا على حالهم، يقابلون السيئة بالحسنة، ولا يطلبون من مخلوق على الأرض شيئاً ما دام رب الأرض والسماء يلبى دعوة المظلوم بغير حجاب.

هذا الرجل الصالح كما تقدمه المصادر قديمها وحديثها هو عبد الله بن أحمد ابن إبراهيم «طباطبا» بن إسماعيل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط رسول الله ﷺ.. وهكذا ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب، والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

فى هذا النسب الشريف قد يستوقفنا اسم «طباطبا» بين الأسماء، والغريب أن هذا الرجل الصالح قد اشتهر به، لدرجة أن الكتب حين تذكره تذكره بابن طباطبا، نسبة إلى جده إبراهيم الذى لصقت باسمه هذه الصفة ولهذه التسمية قصة يرويها ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» ومجمل هذه القصة أن هذا الجد إبراهيم سُمى كذلك لِلدَّثَّة كانت فى لسانه، تجعل نطق الكلمات لايكون واضحاً، حيث يتعثر ذلك عليه، إلى درجة أن بعض الحروف تتغير على لسانه بعد نطقها.

وحين قدم هذا الجد «إبراهيم» من المدينة إلى بغداد، وكان ذلك فى عصر بنى العباس، وبالتحديد أيام خلافة هارون الرشيد، وكان من الطبيعى أن يتكلم القوم حول انتقاله إلى بغداد، وتجادلوا، والسبب لأنه من العلويين، أولئك الذين كان

بنو العباس يحسبون لهم ألف حساب، على الرغم من أن الطرفين أبناء عمومة، خوفاً على سلطانهم الذى انتزعوه من أبناء على بن أبى طالب، شأنهم شأن الأمويين من قبلهم.

ولما سمع أمير المؤمنين هارون الرشيد بما يُقال حول هذا الرجل بعث إليه مَنْ يُحضره ليكون بين يديه، وفى الطريق حاول هذا الرجل الصالح أن يعرف من عامل الرشيد سبب هذا اللقاء، إلا أن هذا العامل المكلف بإحضاره ازداد صمتاً، وهنا تضاعفت ظنون هذا الرجل، إلى درجة أنه ظن بأن أحداً قد وشَىَ به عند أمير المؤمنين، ولم تنته وساوسه ومخاوفه، حتى أصبح بين يدى الرشيد، وهنا تحدث المفاجأة، حيث قام الرشيد وأجلسه إلى جواره وهو يقول: «ماجاءَ بك يا أبا إسحاق؟!». وبغير تفكير. حيث كانت الدهشه لا تزال تأخذ بكل أقطار نفسه ـ أجاب: «لقد رَوَّعَنِى صاحب الطَّبَاَ» ولم يفهم الرشيد ما يقصد بكلمة «الطَّبا» فطلب منه أن يعيدها على مسامعه فأعادها ناطقاً إياها مرتين: «ظلمنى صاحب الطَّباطَبا». . وهنا تطوع أحد الحاضرين بالتوضيح، موجهاً كلامه إلى الرشيد: إنه يقصد صاحب «القَبا» لأنه يقلب القاف طاء. . ومن يومها عُرف بإبراهيم طباطبا، وانسحب هذا الاسم بالطبع على ذريته، ومنهم حفيدان مشهوران: أحدهما: ناقد وأديب عربى كبير، اسمه محمد بن أحمد بن إبراهيم، الذى ولد وعاش ومات فى أصبهان. وثانيهما: الرجل الصالح عبد الله بن أحمد بن إبراهيم، الذى فر أجداده من ظلم وعسف الأمويين ثم العباسيين ليستقر أحدهم بمصر، ومن نسله هذا الرجل الصالح المدفون بقرافة الإمام الشافعى، وقد كتب على المشهد الذى دُفن فيه «مشهد آل طباطبا». كما تذكر الدكتوره سعاد ماهر فى كتابها عن المساجد.

ومن عجيب الأمور أن تكون طبيعة الحفيد الذى عاش بمصر تختلف عن طبيعة الجد، ولا يلتقيان إلا فى التقوى والنسب الشريف. حيث كان الحفيد ـ كما ترجم له ابن النحوى ـ رجلاً لَسِناً، فصيحاً، حَسَن المحيا، جميل الطلعة، وكانت له رياع وضياع، وكان ذا سعة ومال.

لكن مع غناه واتساع رزقه كان لا ينام قرير العين إلا إذا اطمأن أنه ليس بالمدينة

جائع أو محتاج، فكان يخرج من بيته فى ظلام الليل حاملاً بنفسه الطعام والشراب والمال، ويجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن جائع أو صاحب حاجه، هذا إلى جانب أنه كان دائم التردد على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، يصلهم بما رزقه الله، متأسياً فى ذلك بأسلوب أجداده من آل البيت، حتى إذا اطمأنّ قدر استطاعته أنه قام بما يوجبه عليه ضميره عاد إلى بيته وأولاده.

وكان عبد الله بن «طباطبا» إلى جانب بره وإحسانه ـ كان دائم القيام والصيام. ولعلها سُنة استنها من سيرة جده النبى الأعظم ﷺ، التى كان أهل مصر يتبركون بها، وبأى واحد ينتسب إليها، كهذا الرجل الصالح.

وبرغم أن عبد الله بن طباطبا كان صاحب ضياع ورياع، أى أن لديه ما يشغله، فإن ذلك لم يكن لِيَشْغله عن عبادة الله وتبصير خلقه بما فتح الله عليه من علم وفضل، فكان يروى الحديث ويفسره، ويجد جمعاً كبيراً يستمع إليه، ويأخذ بأحكامه، حتى صار بين الناس إماماً، ليس لنَسَبِه الشريف للعلويين فحسب، وإنما لعلمه وفضله أيضاً.

وإلى جانب اهتمام كتب السيرة بنقل ما تيسر من علمه وفضله فقد اهتمت أيضاً بروايات تتصل بحياته وسيرته الذاتية، من هذه الروايات التى سجلها ابن زولاق أن هذا الرجل الصالح عبد الله بن طباطبا رأى فيما يرى النائم أن طاقة فى السماء قد فتحت أمامه فصعد إليها ونفذ منها، ليجد طريقاً طويلا يمشى فيه، حتى ينتهى هذا الطريق إلى مكان يتوسطه سرير، تجلس عليه أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها، فأقرأها السلام. فقالت له: من تكون؟ فقال: عبد الله بن أحمد بن إبراهيم. فصاحت أم المؤمنين مستدعية السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما: يا فاطمة، قد جاءَك واحدٌ من أبنائك. فخرجت فاطمة الزهراء رضى الله عنها وقالت: مرحباً بالابن الصالح.. يقول: ثم أقبلَ بعد ذلك اثنان أعلم أنهما الحسن والحسين رضى الله عنهما، وعلى الفور تقدمتُ لأُقبِّلَ يد أحدهما، وكان جدى الحسن. فقال تقدم إلى عمك، وأشار بيده إلى الإمام الحسين. ولم تمضِ إلا لحظات، من بعدها خرج رجل عليه سكينة ووقار، فقال أحدهما: جدك على بن أبى طالب.. من بعد ذلك رأيت رجلاً جليلاً جميلاً يشع نوراً، ومن حوله نور،

فانكببت على الأرض حتي أقبِّل رجليه. فمنعنى فى رفق قائلا: قم.. ثم أخذ بيدى، وأنزلنى من الطاقة وهو يقول: «هل بلغت الأرض؟ فأقول: لا وظل على سؤاله وأنا على جوابى إلى أن بلغت الأرض. فقمت كالمصروع لا أعقل ولا أعى شيئا».

كذلك يحدثنا ابن النحوى فى كتابه «الرد على أولى الرفض والمكر» عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربط الإمام عبد الله بن طباطبا بكافور الإخشيدى حاكم مصر وقتئذ، فيقول: كان عبد الله بن أحمد يرسل إلى كافور فى كل يوم رغيفين وجامتين من الحلوى، فأنكر ذلك عليه بعض المقربين إلى كافور قائلين كذباً ونفاقاً ورياءً: إن هذا يُنزل من قَدْرِكَ. وهنا طلب كافور من ابن طباطبا أن يكف عن ذلك قائلا: «يا شريف، لا ترسل إلىّ شيئاً بعد اليوم» وامتنع ابن طباطبا بالطبع عن مودة كافور تنفيذاً لطلبه. ولم يكد تمضى بضعة أيام حتى أحس كافور بالضعف والوهن، فأرسل إلى ابن طباطبا يطلب منه أن يمده بما كان يرسله إليه. ففعل قائلا له: إنى ما كنتُ أرسل إليك ما أرسل استخفافاً بك، وإنما لى والدة صالحة تصنع بيدها ما أرسله وتقرأ عليه القرآن. وقال كافور: صدقت يا شريف.

وقصص أخرى وروايات يسجلها المؤرخون والرواة حول هذا الرجل الصالح.. وكلها تؤكد طهارته وشرفه وإيمانه وتقواه.

* * *

٢٤ السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب والكلثميون فى مصر

تميز الإسلام عن غيره من الأديان السماوية بتقديره للمرأة، فقد رفع هذا الدين الحنيف من مكانتها ووضعها الإجتماعى، حيث كرمها وقدرها. والتاريخ الإسلامى تشهد صفحاته بأن هذا الدين أفرز نماذج للمرأة الصالحة المؤمنة التى لا تقل إيماناً وصلاحاً عن الرجل، ولم يكتف بذلك، وإنما أفرد صفحات أخرى لهذه المرأة التى تجمع بين الإيمان والثقافة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولعل فى مقدمتها أمهات المؤمنين، زوجات النبى ﷺ، وفى مقدمتهم السيدة عائشة رضى الله عنها، التى روت الحديث الشريف وقامت بتفسيره، وعنها أخذ أئمة الإسلام وفقهاؤه وأصحاب المذاهب، وغيرهم.. وغير زوجات النبى على الصلاة والسلام كانت السيدة زينب، والسيدة سكينة بنت الإمام الحسين، وشقيقتها السيدة فاطمة النبوية، ثم السيدة نفيسه بنت الإمام حسن الأنور رضى الله عنهما - التى كانت تعرف بنفيسة العلم والعلماء.. وغيرهن من هذه السلسلة الذهبية التى كانت خير مثال للمرأة المسلمة التى جمعت إلى إيمانها وتقواها، معرفتها وثقافتها، وكانت فى كل من الأمرين مصدراً يُرْجَعُ إليه، وهو ما يؤكد بصورة لا تدعو إلى الشك أن هذا الدين قد تميز بتقديره وتكريمه للمرأة وحقها فى المجتمع الإسلامى منذ بداياته.

ومن هذه النماذج المشرفة لهذا المجتمع الإسلامى على امتداده السيدة كلثوم التى عَرَّفَتْهَا كُتب السِّير والتراجم بأنها من الزاهدات العابدات القانتات، الحافظات للقرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن المتفهمات لتعاليم دينها، الواعيات بما فرضه عليها هذا الدين من واجبات، وما منحها من حقوق. حتى كانت قِبْلَة ليس لبنات جنسها من النساء فحسب، بل ملتقى لمن يريد معرفة أمر دينه من الرجال، يأخذ عنها ويستفيد.

وكانت هذه السيدة الفضلى إلى جانب تقواها وإيمانها، ثقافتها ومعرفتها، تتمتع بميزة أخرى لها جاذبيتها بالنسبة للمسلمين، وذلك لكونها من العترة الشريفة. . عترة رسول الله ﷺ، فهى بنت الإمام القاسم الطيب بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم أجمعين.

وكانت على جلال هذا الحسب والنسب، الثقافة والمعرفة. . متواضعة لله. يلتقى فى أعماقها علم الصالحين، وحُسن بلائهم. وصلاح وتقوى الأولين من آل البيت، وحسن شمائلهم. . الأمر الذى جعل الناس يلتفون حولها إمًّا طلباً للبركة كواحدة من آل البيت أو التماساً للعلم. وهما أمران يكفى المرء أن يحقق أحدهما، طهارة النسب، أو شرف العلم. ليكون موضع كل تقدير وإجلال.

ولعل شهرة هذه السيدة الفضلى بانتسابها إلى آل البيت جعل المؤرخين والرواة يقولون عنها ما نقلته الدكتورة سعاد ماهر بكتابها مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ما نصه: «وشهرتها تغنى عن الإطناب فى مناقبها، هذه الشهرة التى استمدتها من وضعها كواحدة من آل البيت وما يحاطون به من التوقير والتقدير. . ».

وإذا كان للوراثة، وظروف النشأة الأولى دخل كبير فى تكوين شخصية الإنسان وتوجهها بسمات وملامح معينة مستمدة ولا شك من هذه الوراثة والنشأة كما استقر عليه العلم. فقد كان للوراثة والنشأة الأولى دخل فى تكوين شخصية هذه السيدة الفضلى. فقد عاشت فى رحاب أسرة ذات علم وفضل. يتقدمها والدها الإمام العالم القاسم الطيب وشقيقها الإمام يحيى الشبيهى، اللذان سبق الحديث عنهما فى هذا الكتاب. هذه النشأة والوراثة أشار إليها ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» نقلا عن ابن النحوى حيث تحدث عن والدها فقال: «كان الإمام القاسم الطيب رضى الله عنه من أحفظ الناس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كتب أو نقل عن هذا الرجل الصالح أربعمائة محبَرة وكان من الأشراف الأجواد».

وإلى جانب حفظه للحديث الشريف، ونقله عنه كان مفسراً للقرآن الكريم والأحاديث النبوية. راويه لمآثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين.

وكذلك يصف ابن الزيات فى «الكواكب السيارة» نقلا عن أبى عمر قائلاً: «قال أبو عمر: رأيت القاسم الطيب بمكة يدعو الله تعالى وقد اقشعر جسده، فقلتُ له: ما هذا يا ابن بنت رسول الله؟ فقال: إنِّى لأستحي من الله أن أدعوه - عز وجل - بلسان ما أديت به حق شكره» ومناقبه كثيرة، غير محصورة.

وطبيعى والأمر كذلك أن يكون هذا حال السيدة كلثوم، وقد كان أبوها الإمام القاسم الطيب، وشقيقها يحيى الشبيهى. طبيعى أن تكون ذات علم وفضل، وأخلاق وإيمان، وأن تكون هى مقصد كل من أحب الإسلام ديناً، ومحمداً رسولا وقبل ذلك القرآن كتاباً، فيتجمع حولها الناس طلباً للعلم ومحبة لآل البيت رضوان الله عليهم.

يحدث هذا على الرغم من العسف والتنكيل الذي استُهدف به العلويين من أهل البيت بعد مأساة كربلاء، سواء من بنى أمية أو من بنى العباسى. فكل هذا لا يقلل من تعاطف الكثيرين مع آل البيت.

لقد بلغ تقدير الناس لهذه السيدة الفضلى أنه كان ينتسب إليها بعد ذلك عدد من أفراد أسرتها فى مصر والحجاز فيعرفون - كما يقول الأسعد النسابه بالكلثميين نسبة إلى اسم هذه السيدة الطاهرة.

ويقال: إن هذه السيدة تزوجت من مصر. وأنجبت عدداً من الأولاد لم يذكر الرواة والمؤرخون عددهم، أو أسماءهم، وإنما يكتفى بأن يقول هؤلاء الرواة والمؤرخون ما ذكره مؤرخ الكواكب السيارة: «أنها تزوجت وحصل لها أولاد دفنوا معها فى قبرها بمصر».

وتنبه الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن المساجد إلى أمر يبدو أنه اختلط على بعض كتاب التراجم والسير، مؤداه أن السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب ليست هى السيدة أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق. ذلك لأن الأخيرة مدفونه فى مشهد آخر. مؤكدة بأن هذا الخلط حدث نتيجة لأن كلا المشهدين موجود بمصر، وبالتحديد فى طريق الإمام الليث بن سعد.

وقد توفيت السيدة كلثوم بعد والدها الإمام القاسم الطيب فى نهاية القرن الثالث الهجرى، ويحدد المقريزى فى خططه ومكان مدفنها قائلا: موضع دفن السيدة كلثوم بمقابر قريش بمصر..».

* * *

٢٥ عبد الرحمٰـن بن هرمز
دائرة معارف متنقلة

المعرفة الموسوعية تتطلب من الراغب فى جمعها إمكانية خاصة، لعلها تعنى القدرة على جمع شتات العلوم المختلفة وتدوينها، ثم تبويبها وتقديمها للمتلقِّى فى شكل ميسر يستطيع أن يتعامل معه، ويستفيد منه بدون مشقة أو عناء.

ولهذا يفترض فى الإنسان صاحب المعرفة الموسوعية أن يكون ملماً قدر الإمكان بأطراف المعارف، حتى يستطيع أن يُفاضل ويختار بينها، ليصل فى النهاية إلي الإفادة الصحيحة التى تفيد وتغنى طالب العلم.. كما يفترض فيه أيضاً التمتع بعقلية تحليلية تركيبية فى الوقت نفسه.. تستطيع أن تحلل الأشياء للخروج منها بنتائج يمكن ضمها إلى بعض للوصول إلى معنى مطلوب، وقبل كل شىء يفترض فيه أن يكون واسع الأفق، متعدد الثقافة.

وتاريخ الثقافة العربية الإسلامية غنى بأصحاب هذه المعارف الموسوعية الذين يمكن أن يقال عن الواحد منهم بأنه جامعة، أو دائرة معارف، أو موسوعة متحركة.. ومن هؤلاء الذين يتمتعون بالمعارف الموسوعية عبد الرحمٰن بن هرمز.

فلا يُذكر شيء عن علم النحو إلا ويذكر عبد الرحمٰن بن هرمز، على اعتبار أنه كان من الأوائل الذين يرجع الفضل إليهم فى وضع هذا العلم، الذى لا تزال العربية لغة وأدبا تعمل به.

ولا يُذكر ذكر «الفقه» إلا ويذكر عبد الرحمٰن بن هرمز أيضاً، على اعتبار أنه كان من المتفقهين فى هذا العلم، حيث صاحَبَ أبا هريرة، وأخذ عن ابن عباس، وسمع الحديث عن أبى سعيد الخدرى، كما تتلمذ عليه الإمام مالك إمام المدينة، وغيره من التابعين الذين كانوا فيما بعد أساساً لهذا العلم.

ولا يُذكر علم الأنساب إلا ويذكر اسم عبد الرحمٰن بن هرمز، على اعتبار أنه

كان من العلماء الثقات فى هذا العلم، وإليه ترجع كثير من المصادر لمعرفة أنساب العرب، كأساس للتاريخ لاغنى عنه.

هذا العالم الفقيه المؤرخ عبد الرحمن بن هرمز الذى كُنِّىَ بأبى داود واشتهر بالأعرج القرشى، كان يرتبط بأسرة بنى هاشم فى قريش برابطة الولاء، حيث كان ولاؤه لربيعة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وكان من التابعين الأجلاء فى هذه السلسلةِ الذهبية التى بدأت بالنبى الكريم.

هذا التابعى الجليل وُلد بالمدينة المنورة، وعاش فيها وقتاً كانت المدينة فيه مجتمعاً الخاصة من علماء المسلمين.. من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، فكانت فرصة له أن يتتلمذ كما يذكر ابن سعد فى طبقاته ـ على عدد كبير من الصحابه الذين أدركهم، فَسَمِعَ الحديثَ ورواه عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخُدرى، وابن عباس، ومعاوية بن أبى سفيان، وغيرهم.

على أن السيوطى يذكر فى كتابه «حُسن المحاضرة» أن عبدِ الرحمن بن هرمز صَاحَبَ أبا هريرة، وحفظ على يديه، وأخذ القراءة عنه زمناً طويلا، فكانت نتيجة هذه الشخصية المتعددة الجوانب فى العلوم.

ولهذا توسع في التفسير، وعرف الكثير من أحكام علم الحديث، إلي درجة أن الذهبي يقول في تاريخ الإسلام عن عبد الرحمن بن هرمز بأنه: «كان ثقة ثبتًا.. عالمًا». وهذا حكم للذهبى لا يمكن إغفاله أو تجاهله لدقة هذا المؤرخ وموضوعيته.

وكذلك توفر ابن هرمز علي دراسة القرآن وقراءته، فكان من الثقات المثبتين يلجأ إلى الناس للقراءة عليه لاطمئنانهم إلي حفظه وقراءته، وعلمه ومعرفته، ولهذا تكاد جميع المراجع التاريخية تُجمع في حديثها على وصف عبد الرحمن بن هرمز بالمقرئ المحدث، تقديراً له ولعلمه المتعدد الذي تفردَ به دون غيره فى زمانه.

وليس مصادفة أن يذكر بأنه من العلماء بالأنساب.. وكل المراجع تؤكد هذه الصفة ومنها مايقوله عنه الذهبى فى تاريخه: «وله خبرة بأنساب قريش» وأن يقول السيرافى عنه: «كان أعلم الناس بأنساب قريش» ما جعله المرجع الموثوق به فى هذا الجانب من العلوم.

وليست مصادفة أيضاً أن يُذكر اسمه حين يذكر علم النحو، فقد كان أول من وضع علوم اللغة العربية والنحو، وإن كانت بعض المراجع والروايات تنسب هذا

إلى أبى الأسود الدؤلى.. صحيح أن الأخير له الفضل فى منهجة هذا العلم، ولكن لا يمكن أن يُنسينا هذا فضل من بدأ، فحق الريادة محفوظ.

من هذه المراجع التى تنسب أسبقية وضع علم النحو لابن هرمز.. مارواه أبو لهب قائلا: «كان ابن هرمز هو أول من وضع للعربية قواعد» وفى كتاب أنباء الرواة: «ذكر أهل العلم أن ابن هرمز أول من وضع علم العربية». وذكر الزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين قائلا عن أبى هرمز: «كان أول من وضعوا أبواباً، وأصَّلُوا أصولا للنحو واللغة، على ضوئها سار مَنْ جاء بعده».

وكان ابن هرمز الأب الأول للإمام مالك، كما يقول الإمام ذلك عن نفسه. ومما يذكر عن ابن هرمز أنه كان بين تلاميذه: جَمَّ التواضع، لا يغضب إذا نقده أحدهم، معللا ذلك بقوله لتلاميذه: «دخل فى بدنى ضعف، ولا آمَنُ أن يكون قد دخل فى عقلى قبل ذلك». وهذه أعظم رسالة للأستاذ، أن يُعد تلميذه، لاليواصل الطريق من بعده، ولكن لكى يعده ويطوره حتى يكون أفضل من الأستاذ.

وأما عن مجيئه إلى مصر واستقراره بالإسكندرية، فيذكر البلاذرى فى كتابه «فتوح البلدان»: أن عبد الرحمٰن بن هرمز الأعرج القارىء خرج إلى الإسكندرية من المدينة المنورة مرابطاً، ومات بهذه المدينة - الإسكندرية - عام ١١٧ للهجرة».

وعن ذلك يقول أيضاً شمس الدين الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام: «انتقل ابن هرمز فى آخر أيام حياته إلى مصر، وتوفى غريباً بالإسكندرية سنة سبع عشر ومائة على الصحيح».

وإذا كانت هذه المراجع القديمة تؤكد وصول ابن هرمز إلى الإسكندرية ووفاته بها، فإن المراجع الحديثة - وفى مقدمتها كتاب الدكتور جمال الشيال «أعلام الإسكندرية»، وكتاب الدكتورة سعاد ماهر «مساجد مصر»، وهما من المصادر الحديثة الموثوق بها. يؤكدان أن ابن هرمز جاء الإسكندرية ومات فى المكان الذى يقام عليه مسجده برأس التين فى الإسكندرية.

ومن نافلة القول أن نذكر أن الكثيرين فى مصر قد استفادوا من علم ابن هرمز، حتى ولو كانت الفترة التى قضاها فيها قبل وفاته قصيرة، فمع قصرها كان علمه الواسع زاداً كافياً لكل طالب علم، سواء فى اللغة، أو الفقه، أو التاريخ.

* * *

٢٦ إبراهيم الجواد أو أمير - المؤمنين - المنتظر

الإمام الشهيد إبراهيم الجواد ينتهى نسبه لأبيه إلى الإمام الحسن ابن الإمام على رضى الله عنهما، كما ينتهى نسبه لأمه إلى السيدة فاطمة النبوية بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما ابن الإمام على كرّم الله وجهه. وهكذا نجد أن نسبه ينتهى من ناحية الأب والأم إلى الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

كان من الكبار فى العلم والفقه، وكان فارساً لايُشق له غُبار، وكان يماثل جده لأمه الإمام الشهيد الحسين رضى الله عنه فى الشجاعة والإقدام، وكان طيب المعشر، حسن السيرة بين الناس، وكان يماثل فى ذلك جده لأبيه الإمام الحسن رضى الله عنه.

كان من قَدَر هذا الإمام أن يُطالب بالخلافة التى اغتصبها بنو أمية من العلويين.. ليستولى عليها من بعدهم بنو العباس.

وكان عليه أن يدعو إلى عودة الخلافة إلى العلويين بعد أن راح بسببها جده الحسين وخيرة أبناء آل البيت فى مأساة كربلاء.

وقد وجدت دعوة الإمام إبراهيم الجواد رضاً وارتياحاً من الكثيرين، إمَّا تكفيراً عن ذنب اقترفوه يوم أن انفضّ الجمع من حول الإمام الحسين رضى الله عنه لتتكالب عليه السيوف الحراب حتى يسقط شهيداً، أو تخلصاً من ظلم واستبداد من جاء بعد الخلفاء الراشدين الأربعة من مُلوكِ وأمراءِ بنى أمية (باستثناء عمر بن عبد العزيز). ومن جاء بعدهم من بنى العباس.

لذلك وجدت دعوة هذا الإمام تأييداً.. حتى قيل إن الناس وقتئذ مالوا إلى مبايعته، وخاصة أن الإمام أبا حنيفة أفتى الناس بالخروج معه ومع أخيه محمد فى الجهاد من أجل استرداد الخلافة المغتصبة من العلويين.

ويسجل الذهبى ذلك فى تاريخه قائلاً: «سار إبراهيم الجواد الذى ينتهى نسبه إلى الإمام على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما من الحجاز، تاركاً أخاه محمداً فيها.. قاصداً البصرة، فدخلها سراً فى عشرة أنفس».

ولما بلغ المنصور ـ الخليفة العباسى وقتئذ ـ نبأ خروج الإمام إبراهيم الجواد.. تحوَّل فنزل الكوفة حتى يأمن غائلة أهلها، وألزمَ الناسَ بلبس السواد، وجعل يقتل ويحبس كل من اتهمه.

ومن ناحية أخرى يتهاون أمير البصرة فى أمر الإمام إبراهيم الجواد، مما تسبب عنه التفاف الكثيرين من أهلها حوله مؤيدين له.

وهنا قام المنصور بتجهز قوة قوامها خمسة آلاف مقاتل لحرب الإمام إبراهيم الجواد. وقامت بين الفريقين معارك دامية، قُتل فيها خلق كثيرٌ من أهل البصرة بالعراق، ونفى الإمام إبراهيم الجواد وعدد قليل من قواته وأتباعه مستبسلين، حتى أتاه نبأ مصرع أخيه محمد بالمدينة على أيدى العباسيين.

زادته محنة مقتل أخيه نوراً وناراً.. نور اليقين بعدالة قضيته، ونار العزيمة فى الذود عنها.

وفى الجانب الآخر جعل المنصور يكثف هجومه، معززاً قواته بقوات أخرى مشهود لها بالكفاءة القتالية، تولى قيادتها جميعاً داهية الحرب وقتئذ «عيسى بن موسى» للقضاء على الإمام إبراهيم الجواد وأتباعه ودعوته.

وهكذا أيقن المنصور أنه لا يقر له قرار، أو يهدأ له بال مادام هذا الإمام على وجه الحياة، حتى أنه لم يأو إلى فراشه خمسين ليلة، وكل ليلة يأتيه جديد يكدر حياته عن تأييد الناس للإمام إبراهيم الجواد ومبايعتهم له. خاصة بعد مقتل أخيه محمد بالمدينة على أيدى بنى العباس.

لدرجة أنه كان متوقعاً بين لحظة وأخرى أن يملك الإمام إبراهيم الجواد زمام الأمر، وتعود الخلافة إلى العلويين، لولا ما كان عليه إبراهيم الجواد من دين وخُلُق، فلو أنه هاجم الكوفة لظفر بها، وفى الوقت نفسه ظفر بالمنصور وخلافته، ولكنه تردد فى اتخاذ هذا القرار بوازع دينى حيث قال: «أخاف إن هاجمتها ـ يقصد الكوفة ـ أن يُستباح الصغير الكبير».

وهنا نرى هذا الإمام الجليل يغلب أوامر الإسلام وتعاليمه فى عدم قتل الأبرياء.. على كل مكسب حتى ولو كان الظفر بالخلافة الإسلامية.

فى هذه الأثناء استطاع جيش «عيسى بن موسى» الذى جهزه المنصور لمحاربة الإمام إبراهيم وأتباعه أن يحيط بجيش هذا الإمام على قِلَّته ويهاجمه هجمة رجل واحد، فتقع الهزيمة بأصحاب إبراهيم الجواد، حتى لايبقى معه إلا قلة من الرجال. ويشتد القتال، ويسقط الجنود واحداً إثْرَ الآخر تحت السيوف والحراب.. حتى إذا استقر سهم طائش فى حلق الإمام إبراهيم الجواد وهو على صهوة جواده، جاء أحد أتباعه ليعاونه على النزول من فوق ظهر الجواد وظَلَّ يردد وهو فى أنفاسه الأخيرة: وكان أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً.. أَرَدْنَا أمراً وأراد الله غيره».. وينتهى الأمر لصالح العباسيين.

ويتجمع أصحاب الإمام إبراهيم الجواد فى قلتهم يريدون حمله بعيداً عن حومه الوغى، حتى لا يمثلوا بجثته، كما فعلوا من قبل مع جده الإمام الحسين، يمنعهم «عيسى بن موسى» ومَنْ معه من العباسيين، حاملين عليهم حملة أخرى، من بعدها تفرق الجمع من حول الإمام الجريح.. ليبقى فى الميدان وحيداً، فتنزل جماعة من جيش عيسى بن موسى ويحتزون رأسه، ويبعثون به إلى المنصور.

وفى ذلك يذكر «المبرِّد» فى كتابه الكامل: أنه لما دخل الرأس على المنصور ورآه.. بكى حتى تساقطت دموعه على رأس الإمام الشهيد. وقال منتحباً، وكأنه يخاطب هذا الرأس: «أمَا والله إن كنت لهذا كارهاً، ولكنك ابتُليت بى، وابتُليت بك».

وهكذا يحدث لأحد العلويين من بنى عمومة بنى العباس نفس ما حدث لهم - من قبل - من بنى أمية حين قتلوا الحسين.. فالصراع واحد وإن تغيرات أسبابه وأطرافه.

أما كيف وصلت رأس الإمام إبراهيم الجواد لتستقر على النحو الذى هى عليه فى ضريحه المقام بمسجده فى المطرية بالقاهرة. ففى ذلك تتفق الكتابات الحديثة مع ما يحدثنا به «ابن طهيرة»، حيث يذكر ما خلاصته أنه فى عهد يزيد بن حاتم والى مصر من قِبَلِ الخليفة المنصور. ظهرت فى مصر دعوة لمبايعة العلويين بالخلافة الإسلامية فى الباطن. وكاد أمر العلويين يتم على هذا النحو، خصوصاً بعد أن بدأ الناس يتكلمون فى الظاهر بما كانوا يخفونه فى الباطن، رأى المنصور وواليه يزيد بن حاتم أن يضع حداً لهذا التأييد، فبعث برأس الإمام إبراهيم الجواد الذى كانوا يرشحونه للخلافة إلي مصر سنة خمس وأربعين ومائة. ونَصَبَهُ الوالى يزيد أمام الناس فى مسجد عمرو بن العاص أياماً، من بعدها أخذه أهالى القاهرة ودفنوه فى المكان المقام على مسجده وضريحه بالمطرية.

* * *

٢٧ السيدة عائشة
امرأة ضد الطغيان

الإسلام لايمنع وجود أولياء الله من النساء، فشروط الولاية فى الإسلام معروفة، حيث ذكرها القرآن الكريم:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾(1).

والإيمان والتقوى مطلوبان من الرجال والنساء على السواء، وباب الاجتهاد مفتوح للرجال والنساء بنص الآية الكريمة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾(2).

ولقد جاء القرآن بولاية كثير من النساء، وظهور الكرامات لهن تأييداً لموقفهن الإيمانى، ودليلاً على مدى ما وَصَلْنَ إليه فى طريق الولاية، ومن أبرز هؤلاء مريم ابنة عمران التى أحصنتْ فرجها فخاطبتها الملائكة:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾(3).

وكذلك آسية امرأة فرعون، وقد ذكرها الله فى القرآن الكريم، وضرب بها المثل

(1) سورة يونس ـ من الآية٦٢.
(2) سورة آل عمران ـ من الآية ١٩٥
(3) سورة آل عمران ـ من الآية ٤٥.

حيث قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(1).

وفى تاريخنا الإسلامى كثير من النساء اللاتى بلغن مرتبة الولاية ومنهن السيدة زينب، والسيده نفيسة، ورابعة العدوية، والسيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق، موضوع هذه السطور.

بعد أن استشهد الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أصبح ابن شقيقه الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر عميداً لآل بيت رسول الله ﷺ.

لقد كان الإمام جعفر الصادق يحذر عمه زين العابدين من نفاق وكذب مَنْ طلبوا مبايعته بالكوفة، ويذكِّره دائماً بما حدث لجدهما الحسين رضى الله عنه، فكان العم يقتنع، ولكنه فى الوقت نفسه لم يستطع السكوت طويلا على استبداد وطغيان بنى أمية، إلى درجة أن ابن الشقيق بدأ هو الآخر يدعو الناس إلى ضرورة اتباع العم، خصوصاً لأنه يطالب بمبادىء جدهما الحسين، برغم أن أسلوب الإمام جعفر الصادق فى الحياة كان امتداداً لأسلوب أبيه الإمام محمد الباقر، وجده الإمام على زين العابدين بن الحسين وهو بعينه أسلوب إحياء السنن ورفض البدع.. ولذلك لم يجمع الناس على حب أحد فى ذلك العصر المضطرب بأحواله وأحداثه كما أجمعوا على حب الإمام جعفر الصادق، ذلك لأنه كان صافى النفس، واسع الأفق، مرهف الحس، ومتوقد الذهن، كبير القلب، يلتمس فى غضبه الأعذار للآخرين سبَّاقاً إلى الخير.

وكان بيته فى المدينة ملتقىً لكل طالب علم أو فقه أو حاجة، وملاذاً للذين يكابدون استبداد حُكَّام بنى أمية، على امتداد الأقطار الإسلامية المختلفة، خاصة بعد أن زاد هذا الاستبداد وتضاعف.

فى هذا البيت النقى الطاهر الذى يستمد نقاءَهُ وطهارته من عترة رسول الله ﷺ، ولدت للإمام جعفر مولودة سمَّها عائشة، تيمناً باسم أم المؤمنين عائشة

(1) سورة التحريم ـ من الآية 11.

رضى الله عنها، فقد كان جد هذا الإمام لأمه هو أبا بكر الصديق، كما كان جده لأبيه هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفى هذا المناخ السياسى المضطرب عاشت طفلة ثم صبية.. صحيح لقد سقطت دولة بنى أمية وبعث الثوار برسالة إلى والدها الإمام جعفر الصادق يطالبونه فيها بأن يقبل البيعة ليصبح أميراً للمؤمنين، فرفض وأحرق الرسالة، لأنه كان يرى أن له دوراً فى الحياة يفوق الإمارة والملك، هو الدور العلمى، حتى أنه كان يقول دائماً: «مَنْ طَلَبَ الرياسة هَلَكَ».

كانت السيدة عائشة تعيش هذه الأحداث، وترى أن والدها الإمام جعفر الصادق إذْ رفض الخلافة فلن يبايعه أحد، حتى إذا بايعوا أبا العباس السفاح حفيد الصحابى الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب - وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين - اطمأنت واستبشرت خيراً، فقد شاء لها القَدَرَ كغيرها - أن تشهد انتهاء عصر بنى أمية بكل شره وخيره، ليجئ عصر جديد، فيه يتطلع الناس إلى الحرية والطهارة والعدل، وهذا ما كان الناس يتطلعون إليه، فماذا حدث؟

حدث مالم يكن فى حسبانها أو حسبان أحد فى ذلك الزمان، لقد رأت المنافقين والانتهازيين الذين زينوا الظلم والاستبداد للأمويين من قبل، وشرعوا وقننوا لهم العداون والطغيان، رأتهم يحتفون من جديد بالخليفة الجديد أبى العباس ويزينون له ما كانوا يزينون لغيره من الأمويين.

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تسمع وترى وتشارك فى الرأى، وتناقش الذين يحضرون إلى بيت أبيها الإمام جعفر الصادق يشكون إليه ما آلت إليه أمور الدولة بفعل هذه الطغمة الفاسدة التى تحيط بالخليفة.

وربما لاحت فى الأفق بارقة أمل عندما توفى أبو العباس وتولى الخلافة من بعده المنصور، لكن هذا الأمل أصبح مجرد سراب، فقد أحاط إخوان السوء من المنافقين بالخليفة الجديد مرة ثانية. وإذا بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، بل يوهمونه أنه فوق الحساب، حتى لقد جعلوا المنصور يوماً يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه، وهكذا وجهوا كل نشاطهم العقلى للنفاق والتملق والاستغلال.

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تسأل أباها: أى أمل للناس فى الخليفة وقد أصبحت الشورى لذوى الضمائر الخربة والألسنة المستهلكة؟ ولعلها وهى تسأل كانت تلوم أباها الإمام جعفراً الصادق لأنه رفض الخلافة، فلو كان قد وافق الناس على ما أرادوا فربما لم تصر الأمور إلى ما صارت عليه من سوء. وأى سوء بعد أن مضى المحيطون بالخليفة المنصور.. يدعون إلى التقشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين لينصرفوا هُم إلى جمع المال، ويعيشوا فى حياة الترف والبذخ!؟

لقد رأت السيدة عائشة رضى الله عنها كيف استطاع هؤلاء المنافقون أن يواجهوا إسراف وبذخ الطبقة الحاكمة بالزهد فى كل شئ، والانصراف عن كل حق، وليس باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله وأقره نبيه الكريم، وكثيراً ما كانت تطلب تفسيراً لكل ذلك من أبيها وإمامها.. فكان ينصحها بالتقية قائلا: «التقية دينى ودين آبائى» ألاَّ يجهر المرء بما ينتقد اتقاء الأذى حتى تتحسن الأحوال.. وكان ينصحها أن تنصرف إلى العبادة، حتى أصبحت من العابدات القانتات المجاهدات، حتى يؤثر عنها أنها كانت تقول مخاطبة الله عز وجل: «وعزتك وجلالك لئن أدخلتنى النار لآخُذَنَّ من توحيدى بيدى فأطوف به على أهل النار وأقول وحَّدتُه فَعَذَّبَنى!!».

وظلت على هذا الحال بجوار والدها الذى كان يؤدى دوره فى تنوير العقل، إلى أن جاءت إلى مصر فى عام ١٤٥هـ لتعيش آمنة مطمئنة، ولكن القدر لم يمهلها، فقد توفيت فى العام نفسه، كما هو ثابت على ضريحها من نص العبارة: «هذا قبر السيدة الشريفة عائشة، من أولاد الإمام جعفر الصادق.. توفيت سنة خمس وأربعين ومائة هجرية».. وهو الضريح الموجود فى مسجدها الكائن فى أول الطريق إلى المقطم بجوار القلعة، فنادى على رؤوس الأشهاد بقوله: « إن المشهد القائم جنوب القاهرة باسم السيدة عائشة هو الذى يضم جسمانها الطاهر».

على أن السيدة عائشة رضى الله عنها تعلمت الكثير من والدها الإمام الفقيه جعفر الصادق، سوآء ما كانت تسمعه منه رضى الله عنه مباشرة، أو ما كانت تسمعه مع من يسمع فى مجالسه، ولقاءاته بأتباعه ومريديه قبل أن تتوجه إلى القاهرة وتعيش فيها حتى يدركها الموت. مثلا كانت تدرك منه ذلك التسامح الذى

يرفض الخصومة فى الدين، والتعصب المكروه بكل صوره، والاعتماد على الأدلة العلمية فى الحكم والاستقراء والاستنباط، وليس على المسلمات أو السماعيات.

كذلك كانت تستمع إليه حيث يُعلى من شأن حكم العقل فى القضايا التى لايوجد لها حكم فى الكتاب أو السنة، حيث كان يقرر فى هذا الصدد أنه إذا كان هدف الشريعة تحقيق المصلحة للبشر، وأن العقل قادر على التمييز بين الخير والشر، بين المصلحة العامة أو ما يقابلها، فإن العقل يهدى إلى ما فيه خير البشر، فيأخذونه، أو عَمَّا فيه ضررهم فيتركونه.

وسمعت منه أيضاً أن الاعتماد على العقل وأحكامه هو الطريق الصحيح إلى الله عز وجل. لقد أمر الله بالعدل والإحسان، ونهى عن المنكر والفحشاء. والعقل وحده هو الذى يحدد للإنسان كيف يتبع العدل والإحسان، وكيف يقاوم المنكر والفحشاء. وكيف ينفذ ما أمرنا الله به من التكاليف الشرعية.

بل كان رضى الله عنه يتجاوز ذلك فى أحاديثه إلى القول بحرية الإرادة الإنسانية، وإلى الدفاع عن حرية الرأى والاعتقاد، التى هى أساس قدرة الإنسان على تنفيذ أمر الله بالمعروف، ونهيه عن المنكر وإن حرية الإنسان هى أساس مسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى، فالله عز وجل يحاسب المرء على ما يفعله، لاعلى ما قضى وقدَّر، فيحاسبه عن ذنبه، ولكن لا يحاسبه عن مرضه، فالمرض الله هو وحده الذى يقدره للإنسان.

هذه القيم والمبادىء.. كانت تسمعها السيدة عائشة من والدها إما مباشرة أو حين يتحدث بها فى مجالسه. ولم يكن عجيباً بعد ذلك أن تتسلح بها حتى أصبحت جزءاً منها. وكثيراً ما كانت أحاديثها فى مجالسها بعد أن وفدت مصر تتضمن ذلك. حتى أصبحت ملتقى الذين يريدون أن ينهلوا من تعاليم الإسلام فى صورته النقية الخالية من كل الشوائب.

* * *

٢٨ الإمام الليث بن سعد مبتدع أدب الحوار

فى قرية متواضعة من قرى دلتا النيل تسمى «قَلْقَشَنْدَة»، من أعمال محافظة القليوبية الآن، وتبعد عن القاهرة بما لايزيد على العشرين كيلو متراً. . ولد الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. حيث قُدرٍّ لهذا الوليد أن يفتح عينيه على غنى وثراء غير عادى لأبيه، الذى كان يملك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية التى تدر عليه الكثير من المحاصيل والفواكه. ولهذا نشأ هذا الطفل فى بحبوحة من الرزق، وسعة من المال، إلى جانب هذا التزام الأسرة بالمحافظة على تعاليم الإسلام، ومنها أن يعم خيرها ورزقها على الناس، بحيث يكون هذا الخير وذاك الرزق فيه النفع للجميع.

ولعل ذلك جميعه جعل والده لايضن على الفتى بالتعليم، فلا يقتصر تعليمه على ما يتلقاه من قراءات بسيطة فى إقليمه، وإنما يرسله إلى أكبر دور العلم فى زمانه، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، حيث كان يعج وقتئذ بالعلماء والفقهاء، ومن بينهم التابعون، وتابعو التابعين. حتى يتلقى الفَتَى علماً وفقهاً على أيدى أعلم أهل زمانه.

كان العلم وقتئذ ينقسم فى جملته وتفصيله بين رجلين: رجل يتمسك بنصوص القرآن والسنة، ويفتى فى أمور الدنيا بما يجد فى هذين المصدرين من نصوص تنطبق تماماً على ما يريد، فإن لم يجد آثَرَ السلامة بعدم الافتاء فى شىء. ورجل آخر كان يقرأ الكتاب والسنة ويتدبرهما تماماً، وبعد ذلك يجتهد حين كانت تواجهه أمور مستحدثة فى بيئة جديدة غير البيئة التى ظهر فيها الإسلام ونشأ، وحالات طارئة لم

تكن من قبل، هنا كان على هذا الرجل أن يجتهد قياساً على ما جاء فى القرآن والسنة.

طبيعى أن يلحظ الفتى ذلك ويتأمله. ليخرج بنتيجة على قدر كبير من الأهمية، مؤداها أن المتمسكين بالنصوص لا يخرجون عنها، حيث يتشددون تشدداً قد يستحيل معه مواجهة مطالب الحياة المستحدثه التى لم يرد فى حكمها نص قطعىّ. وأصحاب الرأى والاجتهاد يتساهلون تساهلاً قد يدعو أحياناً إلى الخطأ فى الحكم، أو إحداث الاضطراب فى الفتيا.

وهنا رأى طالب العلم الليث بن سعد أن يستقل بالنظر الخاص به، انطلاقاً من واقع الحال الذى يعلن عن أن المتشددين بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة:

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[1] وهذا أمر حق.

وأن أصحاب الرأى والاجتهاد يقولون: إن الرسول ﷺ قد اجتهد، وصحابته اجتهدوا فى حياته، وهذا حق أيضاً.

هنا سأل طالب العلم الليث بن سعد نفسه: إذَنْ لماذا الغُلُوُّ فى الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأى؟ خصوصاً وقد تبين أن النصوص ليست ظاهراً فحسب، أو كلمات فقط، بل هى روح، ولها دلالات وعلل ومعان. والإنسان قد شرفه الله عز وجل بنعمه التفكير، فعليه أن يفكر ويتدبر، ويتأمل أسرارالكلمات، ظاهرها وباطنها. ولن يتأتى ذلك إلا للذين يتقنون اللغة العربية، ويقفون على أسرار بلاغتها. وهنا يستطيع الواحد منهم أن يدرك ويفهم ما تهدف إليه النصوص من ناحية، وتعنى به فى ظاهرها وباطنها من ناحية أخرى، ثم إن للأحاديث تفسيرات كثيرةً لما جاء به القرآن الكريم، وتفصيلاً لما أجمله هذا الكتاب، وتبياناً لما خفى منه على المدارك والعقول من ناحية أخرى.

لذلك كله رأى الليث بن سعد أن يتخذ له مذهباً وسطاً بين أهل النصوص،

(١) سورة النساء ـ من الآية الثالثة والثمانين.

وأهل الرأى والاجتهاد، وأخذ يذيع عنه هذا المذهب بين زملائه من طلاب العلم فى جامع عمرو بن العاص، فى مواجهة الشيوخ الذين يمثلون الاتجاهين معاً.

والتفت الطلاب حوله، وكان من العجيب أن يُحَدِّثَ هذا الشاب وهو فى مقتبل العمر، حيث لم يصل بعد إلى سن العشرين. والأكثر أن يحدث أكثر من هذا، حيث بدأ الناس يستفتونه - ثقة فيه - فيفتيهم، ويرضون عن فتياه.

حتى إذا خرج للحج والعمرة، وزار المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والتقى هناك بعلماء الإسلام وفقهائه الوافدين للحج من كل حدب وصوب فى الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وتبادل معهم الرأى والمشورة، عندئذٍ تبين له أنه على صواب فيما هو يفكر فيه، فالإسلام يجل العقل، ويقدر منجزاته.

وفى الحجاز يلتقى بالإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وتبدأ بينهما علاقة فكرية لم تنته إلى آخر أيام حياتهما، فقد كانا فى عمرين متقاربين، إلى جانب أنهما كان يتلمسان حثيثاً الطريق إلى العلم والتفقه فى الدين، الليث بن سعد فى مصر، ومالك بن أنس فى الحجاز.

ويعود «الليث» إلى مصر، ويبنى داراً كبيرة بالفسطاط بجوار مسجد عمرو بن العاص، وكان لهذه الدار نحو عشرين باباً، ملأ غرفها الكثيرة بكل ما استطاع أن يصل إليه من خيرات الدنيا، إلى جانب الكتب، وفتح هذه الدار لطلاب العلم وأصحاب الحاجات والفقراء والمساكين. وكان يقوم الليل إلا قليلا، حتى إذا أقبل الفجر خرج على فرسه إلى مسجد عمرو بن العاص لحضور الحلقات وحفظ الدروس. وبعد أن يفرغ من درسه وبحثه، وصلاته وعبادته كان يرجع إلى عمله ليظل مستغرقا فيه حتى إذا أقبل العصر ارتدى أجمل ثيابه وتعطر وتطيب، ومشى فى الحدائق والأسواق مستمتعاً ما شاء له الاستمتاع حتي يرجع إلى داره ليجد مَنْ يستفتيه فى أمر دينه فيفتيه. وهكذا كانت حياته موزعة بين العمل والعبادة، والدرس والفتيا.

وسمع إمام المدينة مالك بن أنس بما يصنعه صديقه إمام أهل مصر الليث بن سعد، فكتب إليه رسالة يعاتبه فيها ويرد عليه فى رسالة مماثلة. والرسالتان تشتملان على آراء ومواقف مختلفة فى أمور عديدة بين هذين العالمين الجليلين،

لكن على الرغم من ذلك فقد جاءتنا آية مشرقة من آيات الحوار العف، الذى يحتاج إليه فكرنا الدينى فى - كل زمان ومكان.

وحسبنا أن نجتزئ من الرسالتين اللتين سجلهما ابن القيم الجوزية فى كتابه «أعلام الموقعين» بعض العبارات القصيرة، التى تكشف لنا عن هذا الأدب الرفيع بين العلماء، والذى نعرفه اليوم بأدب الحوار.

من جملة ما كتب الإمام مالك للإمام الليث بن سعد: «بلغنى أنك تأكل الرُّقاق وتلبس الرِّقاق، وتمشى فى الأسواق».. فرد عليه الإمام الليث بقوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1].

ثم يرد إمام مصر الليث بن سعد على إمام دار الهجرة مالك بن أنس على بعض ما أثاره من مسائل فقهية كان قد أفتى بها فى مصر، فيقول الإمام الليث: وإنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإنى يحق علىَّ الخوف على نفسي، لاعتماد مَنْ قِبَلي على ما أفتيتهم به. وإن الناس تبعٌ لأهل المدينة، التى إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع منى الموقع الذى تحب. وما أجد أحداً ينسب إليه. العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى، والحمد لله رب العالمين لا شريك له».

ثم يذكر الإمام الليث الإمام مالك باجتهاد الصحابة، حيث تفرقوا فى الأمصار، فيقول: «وأمَّا ما ذكرت من قول الله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[2] فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى

(١) سورة الأعراف - من الآية الثانية والثلاثين.
(٢) سورة التوبة - من الآية المائة.

الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئاً علموه. وكان فى كل جند منهم طائفة، يعلمون لله كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة».

كذلك يذكِّره باختلاف التابعين وأتْبَاعِهم، فيقول: «ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف. ثم اختلف الذين كانوا بعدهم، فحضرتهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ ابن شهاب، وربيعة بن أبى عبد الرحمن».

كما يذكره باختلاف هذين التابعين لأستاذهما: «وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوى الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغير كثير ممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه. وذاكرتك أنت، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة بن أبى عبد الرحمن من ذلك، فكنتما من الموافقين تكرهان منه ما أكره...».

إلى آخر هذه الرسالة المهذبة التى اشتملت فى الوقت نفسه على رد مقنع للإمام الليث على ما جاءت به رسالة الإمام مالك من مسائل ناقشها ورد عليها.

وفى رسالة الإمام مالك ما يشير إلى أن الإمام الليث يستمتع بطيبات الحياة: «بلغنى أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرقاق...» وإذا كان الأمر كذلك فهو لم يستمتع وحده بهذه الطيبات، فقد كان يوزع المال والطعام والثياب على أهل العلم، وكل مَنْ يعرف أنه صاحب حاجة، فكان يطعم فى اليوم ثلثمائة من الفقراء والمساكين، غير الأهل والأصدقاء. وإذا جاءه خراج مزارعه كان يجلس أمام داره. وقد جعل المال فى صرر حتى يوزعها جميعاً.

ومن أجل ذلك نادَى بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا ابلغ الناس حد الكفاية. إذ لايستحب وقد لا يجوز أن يكون هناك أغنياء مُتْرَفُونَ فى الإسلام يجاورهم فقراء مُعْدَمُون لا يجدون حتى ما يسد أقواتهم.

وسمع الخليفة العباسى المنصور عن الإمام الليث، فاستدعاه إلى العراق. وكان لهذا الخليفة ولع كبير بالعلم والأدب، برغم ما كان يحيط به من من بطانة السوء، فناظره المنصور، وأعجب به، وعرض عليه ولاية مصر، ولكن الإمام الليث ـ وقد نذر نفسه للتفرغ للعلم ـ اعتذر بلباقة جعلت المنصور يقول له: «لقد أعجبتنى. . أكثر الله فى الرعية من أمثالك». ونصح علماء العراق أن يذهبوا إليه ويأخذوا عنه.

وحين قام أحد الولاة فى مصر بهدم الكنائس إعترض عليه الإمام الليث بأن هذا ليس من تعاليم ديننا الإسلامى. وطلب منه أن يكف فوراً عن ذلك. ولما رفض الوالى كتب الإمام الليث لأمير المؤمنين بالعراق طالباً عزل هذا الوالى، لأنه فى حكم الإسلام متبرع لأمر يخالف به الإسلام، فعزله أمير المؤمنين.

وفيما يروى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته زبيدة حديثاً قال فيه: «أنت طالق إنْ لم أدخل الجنة»، وندم على ما فعل، وجمع فقهاء ـ العراق والحجاز لحل هذه المشكلة فعجزوا، فاستدعى من مصر الإمام الليث، وطلب منه الإمام أن يحضر مصحفاً ففعل الرشيد. وقال له الإمام: «تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمـٰن فاقرأها» ففعل الرشيد، حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال الإمام الليث: «امسك يا أمير المؤمنين وقل: إنى أخاف مقام ربى» فقال الرشيد ذلك. وهنا قال الإمام الليث: «هما جنتان يا أمير المؤمنين وليست بجنة واحدة» فقال الرشيد: «أحسنت والله» هكذا عاش الإمام الليث بن سعد حياة عريضة فيها تعلم وعلمَ، أخذ وأعطى، قرأ وكتب. . ولم ينقطع يوماً واحداً عن حلقته بمسجد عمرو بن العاص. . حتى بلغ الثانية والثمانين. . عندها فارق الحياة. بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس.

ودفن فى المكان المقام عليه مسجده فى شارع الإمام الليث بالقاهرة. وكان قبره كالمصطبة .وفيما يذكر المقريزي بخططه: أن قبر الليث كان مصطبةكتب عليها ما نصه: «هنا الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد، رضى الله عنه، مفتى أهل مصر»

* * *

٢٩ الإمام الشافعى صاحب المذهب المجدد

فى عصر ازدهرت فيه البيئة الإسلامية بكل مظاهر الحضارة التى نضجت ثمارها بعد أن تمكن خلفاء بنى العباس من تدعيم أركان دولتهم. . وكان من مقومات ذلك تشجيع الزراعة، فوفروا وسائل الرى بشق الجداول، وحفر الترع، وتشجيع الصناعة، فارتقت فناً، وتنوعت شكلاً، وازدهار الثقافة، فتنافس ذوو التخصصات والكفاءات فى تدوين العلوم المختلفة وضبطها وتمييزها. . فدُونت كتب الفقه، وحررت مسائله، ووضحت مناهجه، واتسع نطاق المناظرات العلمية. . فتركزت القواعد العلمية، وتفرعت المسائل، وتحددت المناهج، كما اتسعت جوانب المعرفة وتعددت ضروبها، فلم تقتصر على علوم الدين من فقه وتفسير وغيرهما، أو اللغة من نحو وصرف، ولكنها امتدَّت إلى الفلسفة والرياضيات والفنون والصناعات وغيرها مما نقلته الترجمة العربية من التراث اليونانى والرومانى، ولولا هذه الترجمة لاندثرت هذه المعارف اليونانية وضاعت إلى الأبد ولَمَا أصبح للحضارة العربية فى هذا العصر بالذات فضلين على أوروبا فضل الحفاظ على منجزات العقل اليونانى، وفضل إنجازات العقل العربى وإضافاته الكثيرة والمهمة. . ومن رجال هذا العصر الذهبى للحضارة العربية الإمام الشافعى.

والإمام الشافعى هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وينتهى نسبه إلى عبد مناف، فيلتقى نسبه مع النبى ﷺ عند الجد عبد مناف. . هذا الإمام والمجدد الإسلامى وُلِدَ بغزة عام ١٥٠ هجرية، وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة. . وطلب العلم بمكةوالمدينة فبلغ فيه شأناً سمح له بالفتيا، وعلم باليمن، فدس له واليها عند الخليفة هارون الرشيد حتى يخلص من رقابته، ويُبرئه

فى بغداد قاضي الرشيد قائلا عنه: له من العلم حظ كبير، وليس الذى وُجه إليه من شأنه.. ويعود إلى العلم والتحصيل، فما خُلق إلا لهما. ويكتب رسالة أخذ الفقه منها عِلْماً له أُصوله، ويؤسس مذهباً دينياً له أتباع ومريدون كواحد من المذاهب الإسلامية الأربعة.

كان الناس قبل الشافعى إمّا أصحاب حديث يحفظونه ويعجزون عن النظر والجدل، وأما أصحاب رأي يجيدون النظر والجدل ويعجزون عن الآثار والسنن.. فجمع بين الأمرين معاً.. نصر الحديث بالرأى، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأى على أهل الحديث.. وقد بلغ من انتصاره أنه كان يقول: «ما من أحد إلا وتذهب عنه سُنة لرسول الله ﷺ وتغرب، فمهما قلت من قول أو أصَّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ».

لكن الإمام الشافعى لم يجد مجالا لعلمه الجديد فى بغداد لأنه كان يغلب على بغداد طريقة أهل الرأى، ولاسيما فى عصر المأمون، الذى ظهر فيه الفلاسفة والمعتزلة، وهم أكثر غلواً فى الاعتماد على الرأى من أبى حنيفه وأصحابه.. فتوجه إلى مصر عام ١٩٩هـ، وفيها وجد المجال متسعاً، والمناخ يسمح بالتجديد فى العلم، فقد سبقه إلى هذا المجال فقيه مصر الليث بن سعد منذ سنوات قليلة.

وقد جَارَى الإمام الشافعى غيره من أهل الحديث فى الاعتماد على ظواهر النصوص فى الأصول والفروع، فكان يذم التأويل فيها، كما يذم الاعتماد على الرأى وحده الصادر من العقل، كما جرى عليه علماء الكلام فى عصره من المعتزلة، فلم تتجه نفسه إلى ذلك التفرق الدينى الذى أشاع بين المسلمين الكثير من التباعد، ولم يعمل لنشر التسامح بين الفرق الدينية بقدر المخالفة فى الرأى. بل كان فى الجانب المتزمت الذى لا يقبل تأويلا فى النصوص، ولا يرى أن يستفيد المسلمون فى الدفاع عن دينهم بالمنطق أو نحوه من الوسائل التى توجد عند غيرهم.

وقد امتاز الإمام الشافعى بين الأئمة الأربعة بأنه ضبط بنفسه الأصول التى جرى عليها فى اجتهاده، واعتمدها فى استنباطه ودُوِّنَت فى كتابيه «الرسالة» و «الأم».. وفيهما نلمح الكثير من آرائه التجديدية.

يقول فى كتابه الأم: «العلم طبقات شتى، الأولى: الكتاب والسُّنة إذا أثبتت.. والثانية: الإجتماع فيما ليس فيه كتاب ولاسُنة.. والثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبى ﷺ قولا ولا نعلم مخالفاً منهم.. والرابعة: اختلاف أصحاب النبى ﷺ فى ذلك.. والخامسة: القياس، ولا يسعيان إلى شئ غير الكتاب والسنة، وهما موجودان وإنما يؤخذ العلم من أعلى».

وامتاز أيضاً الإمام الشافعى بشاعريته التى كان لها كبير الأثر فى حل قضية الشعر والدين حلاً علمياً، والتى محورها نفى شاعرية الرسول عليه الصلاة والسلام فى القرآن. وقد فصل الإمام الشافعى فى هذا القضية بقوله: «الشعر كلامه حَسَن كحسن الكلام، وقبيحة كقبيح الكلام.. غير أنه كلام باق سائر. فذلك فضله على الكلام». ولا يطمح شاعر أن يسمع من إمام كالشافعى أكثر من هذا القول الواضح الفاصل.

ومن مظاهر تجديد الإمام الشافعى فى التمسك بالحق أنه كان يقول رأيين أو أكثر في المسألة الواحدة بدون أن يرجح رأياً منها، لعدم ظهور المرجح عنده.. وكان يقول بالرأى ثم يتبين له أن الحق فى غيره، فيتحول عن رأيه الأول، وقد برز ذلك فيما اشتهر من مذهبه القديم والجديد.

ففى العراق استنبط الشافعى أحكاماً، وأصدر فتاوى وفق المنحى الذى اختاره للاجتهاد، فكان من مجموع أحكامه وفتاواه ما عُرف بفقه الشافعى «القديم» الذى تضمنته كتبه المؤلفه بالعراق، ومن بينها كتاب «الرسالة»، وكتاب «المبسوط»، ولكن الشافعىَ بعد أن استقر بمصر رجع إلى كتبه وأقواله القديمة بالدرس والتمحيص - كما يرى الأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد فى كتابه قادة الفكر الإسلامى - فأقر بعضها وتحول عن بعضها الآخر نتيجة لمخالطته علماء مصر، وسماعه ما صح عندهم من الأحاديث، وما نقلوه من آراء الليث بن سعد، ولما شاهده من حالات اجتماعية غير التى عرفها فى الحجاز والعراق، ولذلك عُرفت أقواله التى أملاها على تلاميذه فى مصر بفقه الشافعى «الجديد» وتضمنه كتاب «الأم» الذى هو تنقيح لكتابه «المبسوط».

ومن أمثلة ما تحوَّل عنه الشافعى من الأقوال أمرين: **أولهما**: أنه فى فقهه القديم اعتبر العله فى تحريم ربا الفضل فى غير النقدين - أى فى المشروبات

والمأكولات ـ كونها ما يكال ويوزن. ثم اعتبر فى قوله الجديد أن العله هى كونها مما يطعم.

وثانيهما: أنه قال فى فقهه القديم: يجب على المطلقة قبل الدخول متعة، إنْ أخذت نصف الصداق. وقال فى الفقه الجديد لكل مطلقه متعة لعموم قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وهذا التطور الذى انتاب الإمام الشافعى فى فتاواه أمر طبيعى نتيجة تطوره فى الأخذ عن السابقين والتفكير فيه، ثم مواكبة اللاحقين، فقد أخذ فى المدينة المنورة عن الإمام مالك، وتخرج عليه، كما أخذ ـ بعد ذلك ـ عن أصحاب الإمام أبى حنيفه عِلْم أهل الرأى وتفقه فيه.

وبتمكنه من المذهبين لاحظ ما فيهما من كمال وقصور فعمل على إيجاد مذهب وسط بينهما يتفق مع ماحصل من معارف جديدة بعد استقراره بمصر، وتعرفه على آراء علمائها وفقهائها.

وللإمام الشافعى الحق فى ذلك.. له الحق أن يطور فيما أخذ عن الإمام مالك والإمام أبى حنيفة اللذين قال عنهما الجوينى إمام الحرمين: «فمالكٌ أفرط فى مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل..».

وإذا كنا فى صدد الحديث عن فتاوى الإمام الشافعى. فقد يكون من المفيد أن نتعرض لاجتهاده، كما جاء فى بعض كتابات المؤرخين، وفى مقدمتهم الأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد وخلاصة اجتهاد الشافعى أنه وقد اجتمع له علم الرأى من العراقيين، وعلم أهل الحديث من الحجازيين، تعرف فى ذلك بما أُوتى من علم ومواهب، وخرج من المناقشة فى المسائل إلى تأصيل الأصول، وتقعيد القواعد، ووضع لأول مرة رسالته فى علم الأصول، حيث شرح طريقته وأقام قواعدها، وسُمى بحق مؤسس علم الأصول.

(1) سورة البقرة ـ الآية ٢٤١.

وقد كان لرسالة الشافعي في الأصول أثر عظيم في تاريخ الحقوق والاجتهاد، إذ أنها حملت العلماء بعد ذلك على أن ينصرفوا للإهتمام بتدوين قواعد طرائقهم، والنقاش فيها، إلى جانب اهتمامهم بإيجاد حلول للمسائل، والمناقشة فيها، وأقاموا بذلك علماً عظيماً مستقلاً عن العلم بالمسائل، وكَوَّنوا فيه مكتبة عربية ضخمة، كانت ولا تزال فخراً للأجيال، وشرفاً ممتازاً لعلم الحقوق الإسلامية.

غير أن الإمام الشافعي - أثناء تدوين قواعد طريقته، وتكلمه عن أصول الشريعة ومصادرها - قد ضيق نطاق الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة، وجعله مقصوراً على القياس، وأخرج منه الاستحسان ونحوه، وقال فيه: من استحسن فقد شَرَّع، ولم يقيد من أصول الشريعة ومصادرها إلا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. فإن لم يكن نص فيهما فبالحَمْل على النص بطريقة القياس، ولا شيء غير النص عند الشافعي في كل مسألة يفتى فيها. ولقد أثبت الشافعي انحصار الأصل الإسلامي في الكتاب والسنة.

وفي هذا يقول الشافعي: «الكتاب والسنة هما الأصلان اللذان افترض الله.. وهما عينان». ثم قال: «إذا اجتهد المجتهد فالاجتهاد ليس بعين قائمة، إنما هو شيء يحدثه من قبل نفسه، ولم يؤمر باتباع نفسه، إنما أمر باتباعه غيره.. فإحداثه على الأصلين اللذين افترض الله عليه أولي به من إحداثه علي غير أصل أمر باتباعه، وهو رأى نفسه، ولم يؤمر باتباعه. فإذن كان الأصل أن لايجوز أن يتبع نفسه، وعليه أن يتبع غيره والاجتهاد شيء يحدثه من عند نفسه».

ثم قال الإمام الشافعي: «الاستحسان يدخل على قائله، كما يدخل على من اجتهد على غير كتاب ولا سنة، ومن قال هذين القولين قال قولا عظيماً، لأنه وضع نفسه، في رأيه واجتهاده واستحسانه، على غير كتاب ولا سنة موضعهما.. وهذا خلاف كتاب الله عز وجل، لأن الله تبارك وتعالى إنما أمر بطاعته وطاعة رسوله..».

ويتضح لنا من هذا أن طريقة الإمام الشافعي في الاجتهاد هي نفس الطريقة التقليدية التي كانت منتشرة في أوربا حتى مطلع القرن العشرين، والتي لا تزال مسيطرة حتى الآن فيها. وهي لاترمي إلى الاعتراف بالاجتهاد كمصدر من مصادر الحقوق، ولا تقبل منه إلا ما كان محمولا على نصوص القانون معتبراً صادراً

عنه، وتعتبر الاجتهاد واسطة للكشف عن إرادة الشارع القديم فى الحادثة الجديدة. لا للكشف عن إرادة غيره، وذلك بواسطة القياس المنطقى.

وخلاصة القول: إنه إذا أرادنا أن نُحدد الطابع الذى طبع به المذهب الشافعى فنقول: إنه يتحدد فى هذه النقاط.

١ ـ حصر المصادر الحقيقية للشريعة فى نصوص الكتاب والسنة.

٢ ـ الأخذ بالاجتهاد ضمن نطاق القياس فقط، وإخراج ماعدا ذلك من طرق الاجتهاد، كالاستحسان والاستصلاح.

٣ ـ اعتبار الاجتهاد بهذا المعنى حملاً على النص، ولا شيء فيه غير النص كتاباً كان أو سُنة.

وإننا لنجد فى الطابع الخاص للمذهب الشافعى ـ أى تضييق نطاق الاجتهاد وحصره فى نطاق القياس فقط ـ فارقاً أساسياً ما بين طرائق الاجتهاد لدى المذهب الشافعى من جهة، ولَدَى المذهبين: الحنفى والمالكى من جهة أخرى. حيث اعتَبَر هَذَان المذهبان ـ كما تقدم ـ الاجتهاد مصدراً من مصادر الشريعة، وذلك بأوسع معانى الاجتهاد من قياس واستحسان واستصلاح.. مع تقدير تطورات الأزمان، والأعراف، وما يكون لها من تأثير فى الأحكام.

ومن هذا ذهب بعض المفكرين ـ وفى مقدمتهم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ـ إلى الحكم بأن الشافعى لم يكن مجدداً فيما يتعلق بالرجعية التى وقعت فيها الفرق الإسلامية، وكذلك لم يكن مجددا فيما يتعلق بالرجعية التى وقعت فى الحكم الإسلامى، لأنه كان يرى مثل أهل السنة أن الإمامة فى قريش، وأنها قد تكون من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة. بل قد روى عنه ـ أى الشافعى ـ أنه قال: «كل قرشى غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة». فهذا منه إقرار لتلك الرجعية، وقد جعل الإسلام الأمة صاحبة الحق فى توليه من يُوَلَّى عليها، فمن يأخذه بالسيف يكون غاصباً، لأنه يكون فى الغالب ناشئاً عن عجزهم، ولأن المعصية لايسوغها اجتماع الناس عليها، وإنما يسوغها التوبة منها. ولعل الشافعى يقصد من ذلك تحريم الخروج عليه إذا كان فيه ضرر أكثر من بقائه.

كذلك لم يكن الشافعى مجدداً فيما يتعلق بالرجعية الاجتماعية التى قامت على التفرقة بين الشعوب الإسلامية. ورفع بعضها فوق بعض. فقد انقسم الفقهاء فى

مقياس الكفاءة فى النكاح بين تلك الشعوب، فذهب الجمهور إلى اعتبار النسب فى الكفاءة، وكان أبو حنيفة من أشدهم مغالاة فى ذلك، وقد روى عنه أنه قال: «قريش أكفاء بعضهم بعضاً. والعرب كذلك» وقال الثورى: «إذا نكح المولى المرأة العربية يفسخ النكاح».

وذهب بعض الفقهاء ـ كالإمام مالك ـ إلى اعتبار الدين فى الكفاءة، فلا اعتبار عنده للنسب فيها. وهذا مانطق به القرآن الكريم، حيث قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(1)

ولاشك أن هذا الرأى كان فيه قضاء على تلك الرجعية الاجتماعية التى أصيب الإسلام بها قبل أن يتمكن من إزالة الفوارق بين شعوبه، ليجعل منها شعباً واحداً لا يعلو فيه جنس على جنس، ولاتوجد فى جنس منه نزعة إلى الاستئثار بشىء فى الدولة دون غيره. وقد توسط الشافعى بين الرأيين، فقال: «ليس نكاح غير الأكفاء حراماً فأردّ به النكاح، وإنما هو تقصير بالمرأة والأولياء. فإذا رضوا صح، ويكون حقاً لهم تركوه، فلو رضوا إلاَّ واحداً فله فسخه» فلم يقض الشافعى على تلك الرجعية الإجتماعية التى قامت فى الإسلام، ولم يكن مجدداً من هذه الناحية أيضاً، وإن كان مذهبه فى ذلك بينْ بين.

ومع ذلك فقد اجتهد الإمام الشافعى وأضاف إلى تفكيرنا الإسلامى الكثير، حتى توفى فى شهر رجب عام ٢٥٤هـ، ودُفن فى مقابر بنى عبد الحكم بمصر. وجدد مقبرته السلطان صلاح الدين الأيوبى، فأقام له ضريحاً كتب عليه: «عُملَ هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن عبيد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الشهير بالشافعى».

* * *

(١) سورةالحجرات ـ الآية ١٣.

٣٠ ذو النون المصرى
الفيلسوف المتصوف

بعد دخول الإسلام مصر . . كان يغلب على الفكر المصرى ـ فى بدايات القرن الثامن الميلادى ـ الطابع الدينى الذى ينحصر فى الشريعة والفقه والحديث، فمن أراد أن يكسب الدنيا والآخرة. فليؤمن بالله وملائكته ورسله، ومن شاء كل الخير فليتفقه فى الدين الجديد، وكان الفقهاء وقتئذ هو المرجع الوحيد. وما أن جاء النصف الثانى من هذا القرن. حتى ظهر شكل جديد من أشكال الفكر يمجد العقل، ويردد دائما: «ما خلع الله على عباده خلعة أفضل من العقل، ولا قلده قلادة أجمل من العلم، ولا زيَّنه بزينة أعظم من الحكم وكمال الخلق. . فمن أدرك الآخرة فليكثر من استخدام العقل، وليكن أول شىء يسأل عنه هو العقل، لأن جميع الأشياء ـ بعد ذلك ـ لا تُدْرَك إلا بالعقل. .».

كان رائد هذه الحركة الفكرية الجديدة وموجهها هو «ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض» المعروف بذى النون المصرى. العالم والفيلسوف المتصوف، الذى استطاع أن يؤسس أول مدرسة تعنى بالتصوف فى مصر.

وذو النون ـ كما تقول عنه كتابات السلف من العرب وغيرهم متفقة مع ماجاء بالموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفنى ـ من إخميم بصعيد مصر. كتب عنه أبو عمر الكندى فى كتابه «أعيان الموالى» فذكر أنه كان مولى لقريش، وكان أبوه نوبياً مصرياً. وقال فيه المستشرق نيكلسون: «هو أحق رجال الصوفية على الإطلاق أن ينسب إليه أنه واضع أسس التصوف» وفيه يقول جامى بكتابه نفحات الأنس: «هو رأس هذه الفرقه. فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، ولقد سبقه فى التصوف مشايخ ولكنه كان أول مَنْ فسَّرَ إشارات الصوفيه وتكلم فى هذا الطريق.

وكان أول مَنْ تكلم فى مصر فى أحوال ومقامات أهل الولاية، وأول مَنْ عرَّف التوحد عند الصوفى وكان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية».

ويروى ابن خلكان أنه كان عبدا أعتقته قبيلة قريش، وأدخلته فى ولائها. وأنه تتلمذ على الإمام مالك، وروى ذلك كتاب الموطأ نقلا عنه. ويذكره صاحب الفهرست بين الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الكيمياء، وينسب إليه كتابان فى هذه الصنعة، ويعده ابن القفطى بكتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» من طبقة جابر بن حيان. فى صناعة الكيمياء، وعلم الباطن وعلوم الفلسفة.

كان ذو النون كثير الملازمة لبلده إخميم التى تحظى فى التاريخ بالتصاوير العجيبه، ويقال إنه فتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية. وكانت له كرامات.

وقيل فى اسمه ذى النون لأنه أمتحن فى ذينه مثل النبى يونس عليه السلام. وأوذى كثيرا، لكونه أتى بعلم جديد هو علم التصوف.

أما نسبته المصرى عند غير المصريين من الصوفيه، فلأنه كان كثير الأسفار. ويحكى هو نفسه حكايات كثيرة فيها أنه كان فى مكة وفى البصرة وفى الشام وساحل البحر وجبال أنطاكيه، وجبال بيت المقدس.

كان ذو النون ـ كما يقرر دارسوه ـ يمتاز بتلك الرغبة المحمومة التى تدفع دائما إلى البحث عن المجهول، وكانت الآثار المصرية القديمة. تحيط بالمنطقة التى ولد ونشأ فيها.. تثير فى نفسه الإحساس بالتحدى. .تحدى الزمن قبل كل شىء.

فلم تكن له هواية وهو فى عمر الشباب إلا التجوال بين تلك الآثار متسائلاً فى ذهول عَمَّا تنطوى عليه من أسرار وأفكار، ولم يجد وسيلة يكشف بها النقاب عن ذلك اللغز إلا أن يتعلم لغة المصريين القدماء.. ويوم أن تم له ذلك أدرك أن مصر إنما هى أصل كل حضارة ومنبت نشوء الضمير، والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق.

وينتقل ذو النون المصرى نقله أخرى، فقد تحوَّل من كفاحه مع المادة وضرورة إخضاع عناصرها لإرادته إلى كفاح مع النفس، والتصدى لمجاهدتها، والعمل على أن يغوص فى جوفها، وبالتالى تحولت رؤيته من الخارج إلى الداخل مختاراً لنفسه طريق الزهد والتصوف.

فكان ذو النون أول من تكلم فى مصر عن الأحوال والمقامات التى يندرج فى ضوئها المتصوف، ويعلو فى مقامه حتى يبلغ درجة الفناء، فيقول: «إن المؤمن إذا آمن بالله، واستحكم إيمانه، خاف الله، وإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة، دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء، فإذا استقرت درجة الرجاء تولدت من قبل الرجاء المحبة، فإذا استحكمت المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشوق، فإذا اشتاق أدى شوقه إلى الأنس بالله فإذا أنس بالله، اطمأن إلى الله، فكان ليله نعيم، ونهاره نعيم، وسره نعيم، وعلانيته فى نعيم».

والمعرفه عند ذى النون تأخذ ثلاثة أشكال: معرفة عامة المؤمنين، ومعرفة المتكلمين والفلاسفة، ومعرفة الخاصة، وهم الأولياء المقربون الذين يعرفون الله بقلوبهم. وهذه المعرفة الأخيرة هى أرقى أنواع المعارف.

وكما كانت لدى ذى النون نظرية فى المعرفة فقد كانت لديه أيضاً نظرية فى المحبة، فهو يرى أن ثمة حباً متعادلاً بين العبد وربه، وأن هذا الحب من شأنه أن يقود الإنسان إلى الشعور الغامر بربه، واستغراق ذاته فى ذات الله وهذا هو الحب الإلـهى الذى كان يراه ينبغى أن يظل سراً.

وأحدثت هذه الأفكار الجديدة لذى النون المصرى ردود أفعال مضادة، فرأى والى مصر وقتئذ أن يرسله إلى الخليفة المتوكل فى بغداد، وفى هذا يقول: «لما حُملت من مصر فى الحديد إلى بغداد لقيتنى امرأة عجوز قالت لى: إذا دخلت على الخليفة المتوكل فلا تَهَبْهُ، لأنك إن هبته سلطه الله عليك.»

وعمل بنصيحة العجوز، فحين سأله الخليفة عمَّا يُنْسَب إليه، رد قائلا: «يا أمير المؤمنين، إنْ قلتُ لا.. كذَّبتُ المسلمين، وإن قلت نعم كذبت على نفس بشىء لا يعلمه الله تعالى منى، فافعل أنت ما ترى، فإنى غير منتصر لنفسي». فقال الخليفة: «هو رجل برىء مما قيل فيه. وأعاده إلى مصر بعد أن عفا عنه الخليفة وأكرمه ونَعَّمَه ـ وكما يذكر الأستاذ سعد عبد العزيز فى كتابه فلاسفة الإسلام ـ وكم كانت فرحة المصريين وبهجتهم عند لقائهم به، فقد رحبوا به ترحيباً كبيراً،

كما يذكر لنا عن هذا الفيلسوف المتصوف مشهدين، **أولهما**: أنه كان يحلو له أن يتجول على شاطئ النيل، وبين المزارع، وفوق جبل المقطم فيجرى معهم حواراً شائقاً عن مفهوم العبادة أو التقوى أو الخير أو الشر، وهو فى هذا الشأن يذكرنا بالفيلسوف اليونانى سقراط... فقد قصَدَ ذات يوم رجلاً يتعبد بجبل المقطم بالقاهرة، فمكث عنده أربعين يوماً راح يسأله خلالها: «فيمَ النجاة؟ فرد الرجل: فى التقوى فقال: زدنى. أجاب الرجل: فِرَّ من الخَلْق ولا تأنس بهم. قال: زدنى.. أجاب الرجل: إن لله عباداً أطاعوه، فسقاهم كأساً من محبته فهم فى شربهم عِطَاشٌ، وفى عطشهم أروياء».

أمَّا المشهد الثانى فيسرد علينا ذو النون أنه بينما هو يسير بمحاذاة النيل وسط زرع كثيف إذ به تعترضه امرأة قد تناولت سنبلة ففركتها وهى تقول: يا مَنْ جعلته حباً يابساً فى أرضه ولم يكن شيئاً، أنت الذى صيرته حشيشاً ثم أنبته عوداً قائماً، وجعلتَ فيه حباً متراكباً، ودوَّرته فكوَّنْتَه، وأنت على كل شىء قدير. ثم قالت: عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يُطاع؟.

ثم ينتقل ذو النون إلى صورة أخرى من صور العبادة، فيحكى عن فتاة رآها فى ثياب بالية، وقد جلست بقارب تتقاذفه الأمواج على سطح النهر، وكان قلبها قد تعلق بحب الله، فعزفت عن الناس وآثرت أن تتعبد له فوق المياه المضطربة، وبينما هى كذلك إذ بها تلاحظ مجموعة من الحيتان تنساب فى الماء متجهة نحوها. فما كان منها إلاَّ أن راحت ترنو إلى السماء وهى تقول: لك تفرَّدَ المتفردون فى الخلوات، ولعظيم رجاء ما عندك سبح الحيتان فى البحور، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج، ولمؤانستك استأنست بك الوحوش».

كل هذه المشاهد يسردها ذو النون ليطلعنا على مدى احتمال الإنسان وكيف كان يصبر على الحرمان والصيام فى عبادته، وكيف كان يقوم الليل متعبدا ومتأملاً في ملكوت الله. والحق أن ذا النون المصرى كان مؤمناً بالله ذلك الإيمان الصوفى الذى جعله يقول: إنه بمقدار ما يعرف الصوفى ربه يكون إنكاره لنفسه، وتمام المعرفه الله، تمام إنكار الذات. فكأن الصوفى يجد أمامه مجالاً مبسوطاً كلما طوى قدْراً من ذاته، ويكون فى ذلك إهدار لجزء من نفسه، وكسب لجزء من هذا المجال

الإلـهى. وهكذا حتى تتطهر الذات البشرية وتفنى فى محبة الذات الإلـهية. فغاية الصوفى أن تزداد معرفته بحقيقة الألوهية. وأن يقترب من هذه الألوهية حتى تحترق ذاته بها. ويستمر تقدمه فى دائرة المعرفة متبعا طرق التصفية حتى تتلاشى الذات العارفة وهو ما يعبر عنه فى التصوف بمقام الفناء.

وإذا كان ذو النون لم يقل صراحة بمقام «الفناء» كما يقرر الدكتور محمد على أبو ريان فى كتابه «الحركة الصوفية فى الإسلام» حيث أن رصد هذا المقام قد جاء فى وقت متأخر عن ذى النون، إلا أن طبيعة فكر ذى النون كانت من الضرورى أن تؤدى به إلى هذه المرحلة قبل الأخيرة فى المقامات الصوفية، أى مرحلة الفناء.

ومن أقوال ذى النون التى جمعها الدكتور أبو ريان، والتى تجسد فكرة الصوفية عنده قوله: أسألك ـ يقصد سؤال الحق سبحانه وتعالى ـ باسمك الذى ابتدعت به عجائب الخلق فى غوامض العلم بجود جلال جمال وجهك أن تجعلنا من الذين سرحت أرواحهم فى العُلاَ، وحطت هِمَمُ قلوبهم فى مغلبات الهوى، حتى أضحوا فى رياض النعيم، وجنوا من ثمار التسنيم، وشربوا بكأس العشق، وخاضوا لجج السرور، واستظلوا تحت فناء الكرامة، اللهم اجعلنا من الذين شربوا بكأس الصفاء فأورثهم الصبر على طول البلاء، حتى توليت قلوبهم فى الملكوت، وجالت بين سرائر حجب الجبروت، ومالت أرواحهم فى ظل برد نسيم المشتاقين الذين أناخوا فى رياض الراحة، ومعدن العز وعرضات المخلدين..»

ومن أقواله: «إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، ووهجّ أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوّق إليه أنفسهم، وأدنى منه هممهم، وصَفَتْ له صدورهم، سبحان موفقهم، ومؤنس وحشتهم، وطبيب أسقامهم. إلـهى، لك تواضعت أبدانهم، ومنك إلى الزيادة انبسطت أيديهم، بما طيبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك، ففتحت لهم الجواز فى ملكوتك، بل آنست محبة المحبيين، وعليك معول شوق المشتاقين، وإليك حنّت قلوب العارفين، وأَنِسَتْ قلوب الصادقين».

ومن أقواله: «الأنس بالله من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله، والانقطاع من كل شيء سوى الله».

ومن أقواله فى المحبة: «أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض كل مايشغل عن الله، وألاَّ تخاف فى الله لومة لائم، مع العطف علي المؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله ﷺ فى الدين».

وقال: «إياك أن تكون بالمعرفة مدعياً، أو تكون بالزهد محترفاً، أو تكون بالعبادة مرائياً. .».

وعن المعرفة يقول: «معرفة عامة المؤمنين، ثم معرفة المتكلمين والحكماء، وأخيراً معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم. . وهى أسمى المعارف، وأكثرهم يقيناً، وهى ضرب من الإلهام».

وسُئل عن كيفية معرفته بربه عز وجل فقال: «عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى».

وكان ينصح مريديه قائلا: «اعلموا أن العاقل يعترف بذنبه، ويحس بذنب غيره، ويجود بما لديه، ويزهد فيما عند غيره، ويكف أذاه، ويحتمل الأذى من غيره».

وقد كان مدار الكلام عند ذى النون على أربع: «حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل».

والتوبة عند ذى النون: «توبتان. . توبة العوام وتكون من الذنوب. وتوبة الخواص وتكون من الغفلة».

ولذى النون ـ كما يقرر الدكتور أبو ريان ـ نظرية فى الحب الإلـهى تأثر بها كل من جاء بعده، ومضمونها: «أن الحب المتبادل بين العبد والرب يؤدى إلى الوصول إلى الله. فيشعر العبد باستغراق ذاته فى حب الله».

إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال لهذا الصوفى المتقدم ذى النون المصرى، والتى جعلته من السابقين فى الحركة الصوفية بوجه عام.

وهكذا كانت حياته إلى أن لقى ربه عام ٢٤٥هـ، ودفن بقرافة سيدى عقبة بالقاهرة. ولكن أفكاره لا تزال باقية، حيث تؤكد أنه واحد من أعلام الصوفية الكبار.

* * *

٣١
ساعي البحر
ورسالة تحت الماء لعمر بن الخطاب

ارتبط اسمه بالقضاء على بدعة مكروهة.. كان المصريون يعملون بها ـ لاعتقاد معين ـ قبل الفتح الإسلامى، ودخول مصر تحت مظلة الإسلام. وهي قتل فتاة بكر غرقا في النيل حتي يفيض كما ارتبط بهذا الرجل الصالح أيضاً الكشف عن بطاقة مهمة. بعث بها ـ منذ أكثر من قرنين ـ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عامله فى مصر عمرو بن العاص ليلقيها فى النهر الخالد حتى يفيض بالخير والرخاء بعد القحط والجدب، عُرِفَ بين الناس بتقواه ونسبه، كما عُرف أيضاً بعلمه وفضله، ولذلك كان الناس يجتمعون حوله، إما تَبَرُّكاً به لتقواه ونسبه، أو استفادة منه لعلمه وفضله.

ذلك هو الإمام محمد بن الحسين بن حمزه بن عبد الله الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين بن على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم جميعاً، والذى اشتهر بين المصريين باسم «ساعى البحر أبى الشفقة» أو الشريف المكى، لصلته بآل بيت النبى ﷺ، ولمجيئه من مكة المكرمة إلى مصر.

ولقد اختلفت الروايات والكتابات فى شأن مجيئه إلى مصر وتاريخ وفاته بها. ففى شأن مجيئه كان الخلاف حول كيفية هذا المجىء، وفى تاريخه. قال البعض بأنه كان فى بداية ولاية أحمد بن طولون على مصر، غير أن هذه الكتابات تتفق على النسب الذى دعاه إلى هذا المجىء، وهو الفرار من عسف وظلم العباسيين، وتنكيلهم بكل مَنْ يمت بصلة للعلويين، فلم يجد غير مصر مستقراً له، كما فعل من قبل أجداده من آل البيت الذين جاءوا مع السيدة زينب بنت الإمام على رضى

الله عنهما فراراً من طغيان واستبداد بنى أمية، وتنكيلهم بأبناء وشيعة الإمام على كرم الله وجهه.

ونفس هذا الخلاف حدث أيضاً حول تاريخ وفاته، فهناك كتابات تقول إنه توفى فى سنة اثنتين وستين ومائتين هجرية والبعض الآخر يقول إنه توفى سنة ثلاثين وثلثمائة للهجرة والبعض الثالث يرى غير هذا وذاك، إلاَّ أن هذه الأطراف جميعها تتفق حول حقيقة واحدة، هى أنه جاء بالفعل إلى مصر، وعاش بها حتى كانت وفاته، وأنه دفن فى المكان الذى كان يعيش فيه بمصر القديمة، وفى شارع يُعرف باسمه الآن، وهو شارع ساعى البحر، وبه مسجد باسمه أيضاً فيه ضريح يضم رفاته الطاهر، ورفات شقيقه «جعفر» كما هو واضح من الكتابات الموجودة على لوحة الضريح.

أما عن السبب فى تسميته باسم «ساعى البحر أبى الشفقه» فلذلك قصة يسجلها السخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب» وينقلها عنه بخذافيرها على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية»، وخلاصة هذه القصة أن محمد بن الحسين بن حمزة عُرف بساعى البحر أبى الشفقة لأنه لما تَوَقَّفَ نهرُ النيل عن الفيضان فى بعض السنين شق عليه وعلى أهل مصر ذلك، خشية الجدب والقحط الذى كثيراً ما تعرضت له مصر بسبب انعدام الفيضان، أو انخفاض منسوبه، والذى من أجله كتب المقريزى بعد ذلك مؤلفه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» فصار الإمام محمد بن الحسين بن حمزة يسعى إلى شاطىء النيل ويدعو الله أن يفرج الكرب ويكشف الغمة، ويغيث الأمة بأن يشفق عليها بفيضان النيل.

ومع ذلك أخذ هذا الرجل الصالح يسأل ويتقصى ويبحث عن الكتاب المشهور الذى أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع رسوله «حاطب بن أبى بلتعة» إلى عمرو بن العاص حتى استدل عليه، فأخذه ووضعه إلى جانبه وهو مشغول به، حتى إذا راح فى سُبات عميق رأى فيما يرى النائم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له: يا أبا الشفقة، قم وأَلْق الكتاب فى النيل .حتى إذا استيقظ قام وألقى الكتاب فى ماء النيل، فكانت أخصب سنة على أهل مصر. . فلما مات دُفِنَ قريباً من البحر بمصر القديمة فى مواجهة حى الروضة الآن،

واشتهر عند أهل مصر بساعي البحر، أى الذى كان يسعى إلى البحر ويقف على شاطئه داعياً ربه أن يرحم عباده ويشفق عليهم بفيض من عنده فتمثل فى فيضان هذا البحر. ولذلك سُمى أيضا بأبى الشفقه.

يبقى موضوع هذا الكتاب الذى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أرسله من قبل إلى عامله بمصر، والذى ألقاه الإمام ساعى البحر أبو الشفقه فى النيل، فجلب له المياه التى فاضت بالخير والنماء... فيحدثنا المقريزى فى خططه، فيذكر أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر توجه إليه أهلها، وذلك حين دخلوا شهور القيظ، وهى الشهور التى يفيض فيها النيل وقالوا له: «أيها الأمير، إن لنيلنا سُنَّة لايجرى إلاَّ بها». فقال لهم عمرو بن العاص: «وماذا كم؟» قالوا: «إنه إذا كان للثانى عشرة ليلة تخلو من شهر بؤونه عمدنا إلى جارية بِكْرِ رشيد، فأرْضَيْنَا أبويها بالمال، ثم جعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما تكون عليه عروس ليله عرسها، ثم ألقينا بها فى وسط النيل..» وهنا بادرهم عمرو بن العاص قائلا باندهاش كبير: «إن هذا لايكون فى الإسلام.. وإن الإسلام يهدم ما قبله» يقصد ما كان قبله من البدع المكروهة، وأى كُرْه بعد أن تقتل نفس بريئة لمجرد اعتقاد! إن هذا الصنيع يشبه إلى حد كبير وأْدَ البنات فى الجاهلية، تلك التى حرمها الإسلام وهدَمَها وقضى عليها.

ولكن أهل مصر انتظروا على مضض، فأقاموا بؤونه وأبيب ومسرى والنيل أمامهم لايفيض، ولا يجرى بالماء قليلا ولا كثيراً، حتى هم البعض منهم بالرحيل عن مصر لجدبها، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فَرَدَّ عليه قائلا: «أصبت ياعمرو.. إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقه فَألْقِهَا فى داخل النيل إذا أتاك كتابى هذا».

وفتح عمرو بن العاص البطاقة فإذ مكتوب فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى نيل مصر.. أما بعد.. فإن كُنتَ تجرى من قِبَلَكَ فلا تجري. وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك».

وألقى عمرو بهذه البطاقة فى النيل تنفيذاً لأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه. قبل أن يتهيأ أهل مصر للرحيل والجلاء عنها والخروج منها، حيث لم يعد لهم فيها حياة ولا عمل بعد أن توقف النيل مصدر الحياة والعمل وفجأة أجرى الله النيل ففاض ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة. وقطع تلك السنة السوء عن مصر وأهلها.

هذه هى قصة الكتاب الذى جاءت معه البطاقة، والذى شغل الإمامَ ساعى البحر «أبا الشفقة» فى البحث عنه حتى وجده، فسَعى إلى البحر وألقاه فيه مرة ثانية ليفيض مرة ثانية، ويعم النماء والرخاء أرض مصر.

* * *

٣٢ القاضى بكار بن قتيبة
عادل فى زمن الظلم

كان من العلماء والمحدِّثين والقراء، وكان من أبناء الطبقة الرابعة فى الحديث، وكان يحكم بين الناس بمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها جميع ما كان يحكم به ويبكى ويقول منتحباً: «يا بكَّار قَدِمَ إليك رجلان، حكمت بينهما فما جوابك غداً إذا وقفت بين يدى الله سبحانه وتعالى؟».

ذلك هو القاضى بكَّار بن قتيبة، حفيد مولى رسول الله ﷺ الحارث بن مخلدة، رضى الله عنه.

ولد هذا الرجل الصالح وعاش بالبصرة فى العراق، ولم يغادرها حتى جاء إلى الفسطاط بمصر ليتولى منصب قاضى قضاة مصر فى سنة ست وأربعين ومائتين للهجرة. وليقضى فيها بقيه سنوات عمره حتى يتوفى فى سنة سبعين ومائتين للهجرة ٢٧٠ هـ.

لكن كيف جاء بكَّار بن قتيبة إلى مصر؟ وكيف تولى منصب قاضى قضاتها؟ إن لذلك قصة طريفة يحدثنا بها القضاعي فى كتابه «ترتيب الزيارة» حيث يذكر أن الخليفة العباسى المتوكل كان يفكر فيمَنْ يوليه منصب قاضى قضاة مصر، فاستشار عدداً من ثقات رجاله فى هذا الشأن.

فأجمعوا على أن يكون بكَّار بن قتيبة هو الرجل المناسب لهذا المنصب الحساس، ففى إمكانه أن يحكم بين الناس بالعدل، ولن تكون فى أحكامه أية شبهة.

والغريب أن يلاقى هذا الرأى من مستشارى المتوكل ارتياحاً عنده، لما بلغه عن هذا الرجل الصالح من الزهد والورع، والعفة والنزاهة، والتقوى والصلاح. وغير ذلك من المقومات التى تؤهله لكى يتولى هذا العمل.

ويبدو أن سمعة بكار بن قتيبة قد كانت فوق الشبهات فى كل الأعمال التى تولاها من قبل، وإلاً فما معنى أن يلتقى رأى الخليفة مع رأى مستشاريه لو لم يكن كُلُّ ما يُقال عن هذاالرجل يشهد له بالعفة والاستقامة والورَع.

ولنستكمل بقية القصة لنرى جانباً من أخلاق هذا الرجل الصالح وزهده فى الحياة، وتواضعه وبساطته، مع علمه وفضله وفقهه الذى يجعله مؤهلا لكى يشغل أكبر مناصب الخلافة الإسلامية وأخطرها، ألا وهو قاضى القضاة.

وتقول البقية: إن الخليفة المتوكل بعثَ رسولاً إلى أرض البصرة حيث كان يقيم بكار بن قتيبة، فلما وصل هذا الرسول إلى المكان الذى يعيش فيه بكّار، سأل عنه، فقيل له: إنه مَضَى إلى الفرن - واندهش مبعوث الخليفة لِمَا سمع، إذْ كيف يحدث أن يكون رجل كهذا بمثل هذه البساطة والتواضع؟.. وانتظر قليلاً حتى أقبل من بعيد رجل على رأسه طبق من الخبز. وكانت الدهشة أكبر حين علم أنه بكاَّر بن قتيبة الذى جاء من أجله، فدنا منه وهو لا يصدق ما يرى، وقال: أنا رسول الخليفة المتوكل.. جئتك بتولية قاضى القضاة على مصر. وهذا كتاب الخليفة. وقبل أن يتسلم بكّار رسالة الخليفة قال لرسوله: «انتظر حتى أعود إليك»، ثم تركه ودخل منزله بعد أن غاب لحظات، وأخذ منه الخطاب وفى الوقت نفسه دفع إليه رغيفين من الخبز، ولم يعلق أو ينطق بغير: «امضِ فى حفظ الله تعالى».

وتتضاعف دهشة رسول الخليفة، ويزداد حيرة من أمر هذا الرجل حتى أنه لم يرد إليه الرغيفين برغم عدم حاجته إليهما، وعاد إلى الخليفة المتوكل، وأخبره بكل ما رأى وكل ما حدث، وكيف لم ينطق أو يرد، وكيف أعطاه الرغيفين، وسأل الخليفة رسوله: «وما الذى صنعته بالرغيفين؟». فأجاب: «فرطت فى أحدهما وجئت بالآخر». فقال الخليفة: «ائتنى به». وأعطاه مائة دينار، وقال: «لو جئت بالآخر لأعطيتك مائة أخرى!».

وكما يذكر القضاعى: «وأخذ الخليفة هذا الرغيف وصنع منه أدوية وأكحالاً استخدمها فى شفاء بعض الأمراض!؟». ولم يقدم القضاعى تفسيراً لذلك. أو ما يجعل العقل يصدق هذا الجزء من القصة. إذ كيف يتحول رغيف إلى دواء، والأكثر أن يكون فيه الشفاء؟

ويصل القاضى بكَّار بن قتيبة إلى مصر، ويشتهر فيها بالتقوى والورع والزهد، حتى قيل إن مَنْ كان يمر على دار هذا القاضى يجده يصلى، وكلما فرغ من صلاته كان يبكى ويردد الآية الكريمة: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾[1].

ويشتهر أيضا بالتقشف فى ملبسه ومأكله، والبساطة والتواضع فى أسلوبه وتعاملاته، وبالعدل والحق فى أحكامه وقضائه. وقيل عنه إنه كان حريصاً ألاَّ تشوب أحكامه شائبة، حتى وصل الأمر به إلى حد التزمت فى قبول شهادة الشهود.

وكثيراً ما كان القاضى «بكّار» يقف من المتقاضين موقف الواعظ المرشد. ومن ذلك ما يقال أنه دخل إليه رجلان يختصمان، أحدهما والد الآخر، فنظر إليهما وقال شعراً:

تَعاطَيْتُما ثوبَ العقوق كلاكما　　　أبٌ غير برٍّ وابنه غيرُ واصِلِ

وإلى جانب دوره العظيم فى القضاء. فقد أسهم فى الأحداث السياسية التى وقعت بمصر في زمانه، خصوصا أن هذه الفترة التي تواجد فيها بمصر. مثلت مرحلة انتقالية بين الدولة العباسية والدولة الطولونية، فلم يقبل أن يوافق أحمد بن طولون على ما يريد، مما أودَى به ـ وهو قاضى القضاة ـ إلى السجن مدى الحياة.

ولأن القاضى بكَّار كان زاهداً متقشفا بسيطاً على مارأينا، فإنه لم يكن في حاجة إلي الراتب الذي يتقاضاه فكان يوزعه عن آخره. ولا يحتفظ منه إلا بالقدر اليسير الذى يكفى سد رمقه، وأما الجوائز والمبالغ التى كان يرسلها إليه أحمد بن ابن طولون فقد احتفظ بها كما هى سالمة غير منقوصة. حتى إذا جرت بينهما

(١) سورة المعارج ـ الآيتان: ١٥، ١٦.

الخصومة، قاله له طولون: «وأين جوائزى التى كنت أرسلها إليك؟» فقال القاضى بكار: «فى المكان الذى كان يضعها فيه رسولك فابعثه ليأخذها!!». ثم قرأ القاضى بكاّر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

ومن عجيب الأمر أن يذهب رسول ابن طولون إلى دار القاضى بكار ويعود بهذه الجوائز. التى لم يمسسها أحد. ويردها لصاحبها ابن طولون.

كان هدف القاضى بكار من كل ذلك أن يجعل النزاهة والزهد والترفع حتى عن أعطيات وجوائز من بيت السلطان. . مبادئ وسلوكيات يجب أن يتبعها القاضى فى حياته، حتى لا يكون فى حكمه تأثير من ولىّ الأمر.

وهكذا استمر القاضى بكار بن قتيبة طوال حياته، مبعداً نفسه عن كل ما يشين أحكامه حتى توفى بمصر، ودُفن فى الحومة التى دفن فيها جده الحارث بن مخلدة مولى رسول الله ﷺ حيث يقع ضريحه قريبا من مسجد عقبة بن عامر الجهنى بقرافة الإمام الليث بالقاهرة.

* * *

(١) سورة آل عمران - الآية ٧٧.

٣٣ أبو جعفر الطحاوى ومواجهة حادة لحاكم ظالم

يخطئ من يظن أن الإسلام ـ وهو دين العقل ـ معاد للعلم، فمنذ جاء هذا الدين وهو يحث على العلم ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، وليس هناك أى دين آخر ـ سماوى أو غير سماوى ـ عرف قدر العلم والعلماء مثلما عرف الإسلام قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) ولم يتخذ موقفاً من أى نوع من العلوم إذا كانت فى الأصل موجهة لخيرى الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام واجبة على كل مسلم ومسلمة، بالقول أو العمل فإن الدعوة إلى العلم والتفقه فى الإسلام واجبة أيضاً على المسلمين، وفى هذا يقول عز وجل: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٢) ولذلك يشترط الإسلام فيمن يتولى تفقيه المسلمين الأمانة والإخلاص القدوة الصالحة والثقافة الواسعة، والرواية المستنيرة، والاستعداد للفداء والجهاد، ومن هؤلاء المؤمنين الذين برزوا فى الفقه الإمام العالم أحمد بن محمد بن سلامة المعروف بأبى جعفر الطحاوى.

والإمام العالم، والفقيه الحنفى أبو جعفر الطحاوى الذى انتهت إليه إمامة المذهب الحنفى بمصر وُلد عام ٢٣٨ للهجرة بقرية «طحا» فى ولاية ابن إسحاق

---

(١) سورة الزمر ـ من الآية التاسعة.

(٢) سورة التوبة ـ من الآية ١٢٢.

عَلَى مصر، فكان من أنصار آراء أبى حنيفة النعمان ومتأثراً بها، ومتشيعاً لها، خاصة فى عهد هذا الوالى العادل.

فقد كان عهد ابن إسحاق يتسم بالعدل والإنصاف، وقد أظهر فيهما ما لم يُسمع بمثله فى زمانه، وفى ذلك يقول الذهبى فى تاريخه كان ابنُ إسحاق يتوجه ماشياً إلى المسجد العتيق من مسكنه وكان ينادى الناس فى شهر رمضان: «السحور. السحور» وهو أمر لم يكن معتاداً من الولاة والأمراء والملوك، خاصة بعد الأمويين».

ومن هنا تفتحت عينا الإمام الفقيه أبى جعفر الطحاوى على عهد اتصف بالعدل والإنصاف والورع الذى عم البلاد، فشمل المدن والقرى، ومنها «طحا» التى ينتسب إليها هذا الإمام الفقيه الذى برز فى الكثير من الموضوعات الفقهية التى يفرضها عصره.

لقد كانت البدايات الفقهية للإمام العالم أبى جعفر الطحاوى شافعية إلا أنه تَحوَّلَ عنها وإلى المذهب الحنفى.. وحين سُئِلَ فى ذلك قال: «كنت أرى خالاً لن يديم النظر فى كتب أبى حنيفة، فلذلك انتقلت إليه..» ولعل هذا التحول كان خيراً وبركة بالنسبة لزمانه الذى كان يتطلب توضيح الكثير من المسائل الخاصة بالفقه.

ولقد أقبل هذا الإمام الطحاوى على كتب الفقه قديمها وحديثها حتى تكونت لديه وجهة نظر فى العقيدة والدين تبدو فيما ترك من الكتب الفقهية المفيدة، ومنها «أحكام القرآن».. و«اختلاف العلماء» و«معانى الآثار والشروط»، وكانت له دعوة مجابة ـ وكان يقول: «مَنْ طَهَّرَ قلبه من الحرام فُتحت لدعواته أبواب السماء».

ولم يقتصر دور هذا الفقيه الإمام على تأليف الكتب فحسب، بل كان يقوم بالوعظ والإرشاد حيناً والتدريس فى المسجد العتيق حيناً آخر. بل شمل دوره تبصير المسلمين بتحوّل الولاة إلى التعسف والظلم فى أخريات حياته، خاصة والى الخليفة العباس المقتدر أبو منصور «تكين» الذى أقره الخليفة المقتدر على مصر وسوريا.. وكان «تكين» هذا يتصف بالجبروت والمهابة، وهو أمر يختلف عن مسلك ابن اسحاق كما رأينا ويتفق مع سلوك العباسيين عامة.

وقصة الطحاوى مع الوالى أبى منصور تكين يحدثنا بها السخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب» فيقول: «إن أمير مصر أبا منصور تكين الشهير بالجبَّار المهاب، سمع بعلم وفضل الإمام الطحاوى وإقبال الناس عليه، حتى أصبح له مريدون وأتباع، فطلبه وعندما تحدث معه أدرك سبب الإقبال عليه.. وهنا بادره الأمير قائلا: «أريد أن أزوجك ابنتى» فقال الفقيه الإمام: «لا أفعل ذلك». قال الأمير: «ألك حاجة إلى مال؟». قال الفقيه الإمام: لا. قال الأمير: هل أقطعك أرضاً؟ قال الإمام: لا. قال الأمير وقد أصر على استمالة هذا الإمام الذى يتبعه أبناء مصر: إذن فاسألنى ما شئت؟ «فرد عليه الطحاوى قائلا: «وتسمع؟!» قال الأمير: نعم. وهنا رد عليه الإمام الطحاوى قائلا: «احفظ دينك لئلا ينقلب، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت، وإياك ومظالم العباد». ونزلت هذه الكلمات غير المتوقعة على الوالى نزول الصاعقة.

وقبل أن يرد عليه هذا الأمير الجبار والمهاب بالنفى أو الإيجاب تركه الإمام الطحاوى ومضى.. فقد قال له ما يريد على اعتبار أن دور رجل الدين فى رأيه هو تبصير العباد - حتى ولو كانوا ملوكاً وولاة - بأخطائهم.. مهما تكن نتائج هذا التبصير.

ومن عجيب الأمور أن هذا الوالى المهاب قد سمع جيداً نصح هذا الفقيه الإمام، فرجع عن ظلمه وعسفه لأهل مصر، بل وتحوّل إلى منصف وعادل، والسبب هو إدراك صدق هذا الإمام فيما نصح، وتغليبه الصالح العام على المنفعة الشخصية، والأهم أنه وجد من يستطيع أن يقول له «لا» وهو ما لم يتعوده من قبل.

وهكذا استمر الإمام الطحاوى يبصر المسلمين فى أمر دينهم طوال حياته.. منفقاً كل وقته إمَّا فى الفتوى الوعظ والإرشاد أو فى التفكير والتأمل والتأليف، أو فى التدريس والمناقشة والمساجلة.

وقد نلمح فى كتابات هذا الإمام العالم الفقيه الكثير مما يدل على سعة عقله وتطوره بالنسبة إلى عصره، فهو يرى أنه لا يمكن المساواة بين العالم والجاهل فى

المنزلة والمكانة فى الدين، يقول الله فى كتابه الكريم: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] أو حين يقول الله سبحانه لنبيه الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

ولذلك فشيخنا الصالح أبو جعفر الطحاوى يرى أن مسئولية العالم فى الدين الإسلامى كبيرة، وخَطَؤه ليس خطأً عادياً، وقد صور النبى ﷺ موقف العالم الذى يأمر الناس بالخير، ولا يقوم بأدائه تصويراً معبراً حينما قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقطاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فيقول: بلى: كنتُ آمُر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

ومن هنا كان السلف الصالح - ومنهم الشيخ أبو جعفر الطحاوى الحنفى - يرون فى القرآن مرآة لأحوالهم، وميزاناً لتصرفاتهم، وكانوا يَسْتَحُونَ أن يخرج الواحد منهم من حدود هذا الدين ولو بزلة لسان.

واستمر هذا الشيخ الصالح أبو جعفر الطحاوى يقوم بواجبه على النحو الذى رسمه الإسلام ونبيه الكريم، حتى كانت وفاته فى سنة ٣٢١ هـ. فى نفس المكان الذى يتعبد فيه ويعلم ويفقه فى أمور الدين. هذا المكان أقيم عليه مسجدا ضم رفاته الطاهرة.

* * *

(١) سورة الزمر - من الآية التاسعة.

(٢) سورة طه - من الآية ١١٤.

٣٤ عفان بن سليمان البغدادى عالج الخلل الاجتماعى بأمواله

البر فى الإسلام يُعَدُّ رابطة بين الإنسان وربه، وهى رابطة رضوان من الله وأجر وثواب وخير وبركة. كما أنها رابطة شكر من الإنسان لله عز وجل على ما أنعم وتفضل وأحسن لعبده، وهى من ناحية أخرى رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه، قوامها المودة والتعاطف والرحمة. يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1]. ويقول: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]. ويقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[3]. ويقول: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[4]. ومن هذا يتضح أن للبر فى الإسلام مكانة، فنجد المؤمنين الأوائل يحرصون عليه، ومن هؤلاء المؤمنين الشيخ الصالح عفان بن سليمان المصرى البغدادى.

---

(١) سورة آل عمران - الآية ١٨٠.
(٢) سورة البقرة - الآية ٢٦١.
(٣) سورة الليل - الآيات من - ٥ - ٧.
(٤) سورة سبأ - - من الآية ٣٩.

والشيخ الصالح عفان بن سليمان البغدادى. ليس الذى تُعَرِّفُه المراجع العلمية والفلسفية بالفيلسوف الطبيب موفق الدين البغدادى الذى وُلد ببغداد ودرس الطب والفلسفة واشتغل بتدريسهما حينا بدمشق والقاهرة، حيث جاء إلى مصر والتقى بعلمائها كما التقى بالفيلسوف موسى بن ميمون إلى أن توفى فى بغداد عام ١٢٣١ ميلادية.

وكذلك شيخنا الصالح عفان البغدادى ليس الذى تعرفه كتب النقد والأدب بالأديب الناقد عبد القادر البغدادى الذى ولد أيضا فى بغداد وتوفى بالقاهرة عام ١٦٨٢ بعد أن ظل فترة من حياته يدرس العربية وآدابها وأخبارها تاركا أثراً خالداً يقع فى اثنى عشر مجلداً «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» الذى حققه الراحل محمد عبد السلام هارون وغيره من أمهات الكتب.

إن شيخنا الصالح عفان بن سليمان مصرى المولد والمنشأ والممات.. حيث ولد بالقاهرة وعاش فيها ودفن بحى مصر القديمة، ويوجد له ضريح الآن يزوره الناس للتبرك.

وُلد هذا الشيخ الصالح بالقاهرة فى القرن الثالث الهجرى فى عهد أحمد بن طولون.. وكما تقول الروايات والمصادر التاريخية إنه كان يعمل فى مهنة الخياطة، وهى من المهن التى كان ينتسب إليها العديد من أهل زمانه.. وكانت إلى جانب أهميتها من الناحية الاقتصادية تحظى بتوقير الناس واحترامهم.. إذ كان يتردد على أهلها الولاة والأمراء ووجهاء المجتمع القاهرى وقتئذ. وقد بلغ من إحترام المجتمع لهذه المهنة أن هناك من كان ينتسب إليها من الأسر والعائلات فيقال إبن الخياط أو عائلة الخياط. ومع أن الشيخ عفان البغدادى كان فى حرفة الخياطة بسيطاً متواضعاً فإنه كان فى الفقه والدين عظيماً وجليلاً.. فقد كان ينصرف عن عمله ليتوجه إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، أو مسجد أحمد بن طولون بالقطائع حيث يحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ويدرس معانيهما، ويتفقه فيهما على أيدى علماء عصره الذين كان يحضر دروسهم، حتى تكونت لديه وجهة نظر فى الدين والعقيدة.. وصار يقوم بالوعظ والتدريس، وأصبح له تلاميذ كثيرون ممن يتلقون عليه العلم والفقه، حتى اشتهر أمره بين الناس بالشيخ الفقيه الصالح. وذاع صيته فى الأوساط العلمية وقتئذ، فكان ملتقى لطلاب العلم والبحث.

ويستمر هذا الشيخ الصالح على هذا الحال راضياً قنوعاً برزقه البسيط حتى يسافر إلى بغداد مصاحباً ركب قطر الندى. . ويبقى هناك فترة ثم يعود إلى مصر فيصبح فيها موسراً غنياً. . مضافاً إلى اسمه لقب البغدادى وكان يوجه ثروته وغناه للصالح العام، معلناً أن هذه الثروة من رزق الله فلابد أن تقضى حاجة خلق الله.

وتحدثنا الروايات التاريخية فتقول كان الشيخ الصالح عفان بن سليمان تاجراً كثير المال. . ومع ذلك لم يترك شيئاً لذريته من بعده حيث جعل ماله وربحه صدقةلله. . فكان لا يبيت ليلة حتى يطعم أهل خمسمائة بيت فى القاهرة. . معلناً أن ماله ورزقه لله حتى قيل إنه لا يكون هناك جائع فى المكان الذى يوجد فيه الشيخ عفان.

وفى موسم الحج كان ينتظر الحجاج ذهاباً وإياباً بطعام من مصر عند العقبة وفى بره وكرمه يقول السخاوى: اشترى الشيخ الصالح عفان البغدادى ألف جمل من بر «القمح» حتى بلغ ثمنها إلى ثلاثة أمثال قيمتها، وخرج وجلس على باب داره وقال لأحد عماله «اجمع لى من يشترى هذا البر. . فجمع له الناس، فلما قدمُّوا له أضعاف ما دفع قال: لقد ادخرتها عند الله سبحانه وتعالى ولن أبيعها لكم حتى تستغلوا القراء والمساكين. . وقام وفرقها على الأيتام والأرامل من فقراء المسلمين فى المدينة حتى لم يبق دار من هذه الدور إلا وقد نال نصيبه من هذه الصدقة.

ولقد ذاع صيت هذا الشيخ الصالح بين العام والخاص، والغنى والفقير، حتى كان يسعى إلى مجلسه الملوك والأمراء والعلماء والفقهاء. . وكان قاضى مصر وقتئذ الفقيه الشافعى ابن خيران يخلو به ويسأله عن الناس لكثرة ترددهم عليه، فيرد الشيخ الصالح لا تسألنى إلا عن نفسى وعجزها عن تأدية فرائض الله.

لقد كان الشيخ عفان بن سليمان البغدادى يؤمن بالآية التى يرددها دائماً ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾[1]. أى تطهرهم من الذنوب وحب المال إلى درجة أن يصرفهم عن حب الله وعبادته، وتزكيهم عنده سبحانه وتعالى

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١٠٣.

وتنمى حسناتهم. وترفع بها درجاتهم إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وذلك لما فيها من ربط الصلات وتوثيق العلاقات بين المحسن بماله، وآخذ إحسانه، ولما فيها من ذهاب الأحقاد بينهما، ولما فيها أيضاً من سد الخلل والتخفيف من آلام الحياة وضيق الرزق. ولما فيها كذلك من التقريب بين طبقات المجتمع الإسلامى حتى لا تكسر قلوب الفقراء بتكبر الأغنياء عليهم.

وكان إذا سئل عن الإنفاق بهذه الصورة غير التقليدية كان يرد بأن ذلك يبارك ماله، ويكون سبباً فى دفع كثير من الأضرار. وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصَّدَقة، وَادْفَعُوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع».

وهكذا عاش هذا الرجل الصالح حياة حافلة بالعلم والفضل، وبالجود والكرم، وبالسلوك الطيب والعمل الصالح، وبالبر والتراحم.. حتى كانت وفاته عام ٣٢٦ للهجرة، ودُفن فى داره بمصر القديمة.

* * *

٣٥ الحافظ صدر الدين الأصفهانى
صاحب أول مدرسة سلفية

وما تدرى نَفْسٌ ماذا تكسب غداً، أو بأى أرض تموت. . لقد صدق هذا المعنى القرآنى الجليل على الشيخ الحافظ صدر الدين أبو الطاهر بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفى الأصفهانى الذى ولد وعاش صباه بأصفهان فى إيران. لينتقل فى أرض الله حيث يستقر به المقام فى الإسكندرية ليموت ويُدفن بها سنة ٥٧٥ هجرية.

وواضح من اسم الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهاني ـ وهو الاسم الذى عُرف به ـ شهرته وجنسيته وموطنه الأصلى. فشهرته التى عُرف بها فى أى مكان يوجد فيه من العالم الإسلامى هو «الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهانى يدل دلالة ظاهرة، وأخرى لغوية على جنسيته وموطنه الأصلى. فأما الدلالة الظاهرة فهى فى كلمة الأصفهانى، وأما الدلالة اللغوية فهى فى كلمة السلفى، ومعناها بالفارسية أنه صاحب ثلاث شفاه. لأن شفته العليا كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين، وأما جنسيته وموطنه فواضحان من كلمة الأصفهانى، حيث موطنه ومسقط رأسه بأصفهان، وجنسيته إيرانية.

وطبيعى أن يتلقى هذا الشيخ الصالح علومه الأولى فى مدينة أصفهان حيث ولد فيها عام ٤٧٥ هجرية، واتجه منذ نعومة أظفاره إلى العلوم الدينية، وخاصة علم الحديث، قراءة وحفظاً، تأملا، وتفسيراً. . على فقهاء زمانه، وفى مقدمتهم ابن الفضل الثقفى، وابن عبد الوهاب المدينى، وابن على الحنفى. . وكما يذكر السبكى فى طبقات الشافعية أن هذا الشيخ الصالح قد طلب الحديث وهو لم يزل شاباً يافعاً. فكتب الأجزاء الخاصة بروايات هذا الحديث وردها إلى أصولها لمعرفة

الأصيل من الدخيل سنة ٤٩٠ هجرية، أى لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره، واستمر على هذا النحو أربع سنوات كاملة.. بعدها بدأ فى قول الحديث وترديده وتفسيره، ونبغ فى ذلك نبوغاً ملحوظاً، الأمر الذى جعل الناس يتجمعون حوله للإستفادة من علمه شيئاً فشيئا.. وما هى إلاّ بضع سنوات حتى أصبح موضع ثقتهم، وملتقى تساؤلاتهم فيما أسبغ عليه الله من علمه وفضله. فاتخذ له مجلساً علمياً فى واحد من مساجد أصفهان.

ومن ناحية أخرى نجد هذا الشيخ الصالح لا يكتفى بما حقق من علم وفضل فى داخل حدود بلده أصفهان أو إيران كلها.. فلم تعد هذه أو تلك بعلمائها وفقائها تشبع نهم هذا العالم المتفتح الذهن. الأمر الذى جعله يرنو ببصره إلى خارج الحدود، حيث حواضر الإسلام، وأول ما التمع فى ذهنه بغداد، وقد كانت بعد المدينة المنورة من الحواضر الإسلامية التى تتجه إليها أنظار الباحثين والعلماء.. فيرحل إليها.. إلى بغداد.. التى كانت وقتئذ تموج بالأحداث الفكرية والعقلية، وتزخر بالتطورات السياسية والاجتماعية.. وتمتلئ بالفقهاء والعلماء.. حيث ما زالت الأمة الإسلامية فى مجدها وعظمتها التى لم تغرب بعد.

وفى ذلك يقول هو نفسه، أى الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى: «دخلتها ـ أى بغداد ـ ولم يكن لى همة ساعة دخولها إلاّ المضى إلى الشيخ نصر ابن البطر ـ وكان من علماء زمانه ببغداد ـ فدخلت عليه وقلت له: وصلت يا سيدى من أصفهان إليك طالباً علمك وفضلك. فرحب بى. ثم قرأت عليه سبعة عشر حديثاً، وخمسة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم، وخرجت من عنده باكياً.. إلى أن أصبحت من أقرب تلاميذه إليه..».

وأما معنى خروجه باكياً من عند هذا الشيخ الجليل فى بغداد، فقد فسره بعض المؤرخين إلى أنه اكتشف قصور علمه بالنسبة إلى هذا العالم، وأن هناك جوانب كثيرة من العلم لا تزال خافية عليه، وأنه ما حقق من العلم إلاّ قليلا، ولا يقاس بعلم واسع عند غيره.

ولم يكن الشيخ البطر هو أستاذ الشيخ صدر الدين الأصفهانى وحده فى

بغداد، وإنما كان هناك علماء آخرون فى الفقه واللغة والحديث والقرآن والتفسير. تردد وتتلمذ عليهم طوال أربعة أعوام كاملة. من بعدها توجه إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج. وهناك التقى بعلماء الفقه والحديث، وفى مقدمتهم ابن جرير الطبرى بمكة، والإمام القزوينى بالمدينة، وتلقى عنهم العلم، واستفاد منهم إفادة أضافت الكثير إلى معارفة فى هذين الميدانين من العلوم.

وعاد إلى بغداد ليستوفى أبحاثه ودراساته، وليؤلفَ معجماً لعلمائه وأساتذته، وفى هذه الفترة بالذات وصفه ابن نصر قائلا: «كان الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى ببغداد كأنه شعلة نار فى تحصيل الحديث». ليعود إلى المشرق مرة ثانية، بادئاً بزيارة مدينة همذان فى إيران، فيلتقى بحجة الإسلام أبى حامد الغزالى، وليقول عنه: «حضرت مجلس الغزالى بهمذان، وكنا فى رباط واحد، وبيننا أُلفَة وتودد، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام والمناقشة، وأفضلهم فى الفقه والحديث». وكان يقصد بالطبع العلماء الذين التقى بهم على الغزالى.

وترك الشيخ الحافظ السلفى الأصفهانى المشرق للمرة الثانية متوجهاً إلى دمشق، وأقام بها عامين. وكما يقول السبكى: «واتصف بعلم جَمّ، سمع منه الكثيرون واستفادوا» ومن دمشق ذهب إلى مدينة «صور» حيث ركب سفينة حملته إلى الإسكندرية. وكان وقتئذ فى السادسة والثلاثين من عمره.

وفى الإسكندرية كان كما وصفه الدكتور جمال الدين الشيال بكتابه أعلام الإسكندرية نقلا عن ابن السمعانى: «ثقةً ورعاً، متقناً، ثبتاً، حافظاً، فَهِماً، له حظ كبير من اللغة العربية، كثير الحديث والعلم، حسن الفهم والبصيرة».

وفى هذه المدينة تزوج واستوطن، واغتنى وتصدّق، وصارت له وجاهة علمية واجتماعية، وفيها اشتغل بالتدريس، فكان يعقد حلقاته فى مساجدها، ولم يلبث أن أقبل الطلبة عليه من كل فج عميق، حتى أُنشئت لعلمه ودرسه مدرسة عرفت فيما بعد - فى التاريخ الإسلامى - بالمدرسة السلفية. نسبة إلى صاحبها ومؤسسها ومنشئها الحافظ السلفى وهى ثانى مدرسة بعد المدرسة النظامية الأولى التى أنشأها أبو الطاهر بن عوف بالإسكندرية تنسب إلى عالم لعلمه بالإسكندرية ومصر عامة.

وبقى الشيخ الحافظ السلفى بالإسكندرية معتكفاً فى مدرسته مدة مقامه بها أربعة وستين عاماً، لم يغادرها قط طوال هذه السنين سوى مرة واحدة، حين ذهب إلى مدينة الفسطاط، ليتصل بمن فيها من العلماء ليأخذ عنهم العلم، ويعطيهم ـ كما يذكر ـ مما وهبه الله من علم وفضل.

والجدير بالذكر أن الشيخ الحافظ السلفى الأصفهانى كان من العلماء القليلين الذين قَدَّرُوا المرأة العالمة الورعة التقية حق قدرها. فأشار إلى من يعرفهن من راويات الحديث كالسيدة عائشة رضى الله عنها، والسيدة نفيسه، والسيدة فاطمة النبوية، والسيدة عاتكة بنت زيد، وغيرهن ممن برزن فى الحضارة الإسلامية، فذكرهن فى كتابه «معجم السفر» كما ذكر النساء المشتغلات بالأدب كالشاعرات.

وكانت للشيخ الحافظ السلفى فى المجتمع السكندرى مكانة ملحوظة، فكان يسعى إليه الملوك والولاة والأمراء وكبار رجال الدولة، وكانت له عند العامة كرامات وبركات حتى قيل: إنه إذا اشتد المرض بواحد منهم هرع إليه، فكان يكتب له ورقة تحوى ايات من القرآن، فيشفى المريض بإذن الله، وقد كشف القوم عن هذه الورقة وما تحويها فوجدوا أن ما كُتب فيها إلى جانب الآيات القرآنية دعاءٌ لطيف فيه استعانة بالله عز وجل، قال فيه: «اللهم إنهم ظنوا بى خيراً فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم بى.. أنت القادر على كل شئ سبحانك..».

وبقى الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى بالإسكندرية حتى ناهز المائة من العمر، ودُفن بها، وله فيها ضريح يزار حتى اليوم.

* * *

٣٦ عطية عز الدين العلوى حفيد مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب

المعروف أن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ينفرد دون غيره من الصحابة الأجلاء بعبارة «كرم الله وجهه» وأما غيره فيقال له: رضى الله عنه ولذلك معنى ودلالة، فالذين رضى الله عنهم ورضوا عنه هم المؤمنون المتقون الذين ذكروا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[1] وطبيعى أن يدخل فى هؤلاء الذين أنعم الله عليهم المؤمنون من الصديقين والشهداء والصحالين، وغيرهم ممن التزم بحدود الله فى أوامره ونواهيه. أما الإمام علىّ كرم الله وجهه وقد آمن صغيراً فلم يحدث أن وضع جبهته على الأرض سجوداً لصنم، حيث دخل الإسلام صبياً، ومن هنا كرّم الله وجهه، لأنه لم يسجد إلا لله عز وجل. وقد كان لهذا الصحابى الجليل أنصار وشيعة، كما كان لابنيه الحسن والحسين رضى الله عنهما أبناء وشيعة. . ومن هؤلاء الأبناء الشيخ عطية عز الدين العلوى الذى يمتد نسبه إلى الإمام الحسن رضى الله عنه.

وعنه تُحدثنا الروايات التاريخية القديمة والحديثة عن أن الشيخ عطية عز الدين العلوى الشهير فى دلتا مصر بالشيخ أبى الريش، والمدفون فى مدينة دمنهور، والذى يقام له مولد كل عام يتوجه إليه الناس. . فتذكر هذه الروايات بأن هذا الشيخ ينتهى نسبه إلى الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن العلوى، الذى فر إلى

(١) سورة البينة ـ الآيتان: ٧، ٨.

بلاد المغرب وأسس دولة الأدارسة هناك، حيث استقبلته القبائل وانتخبته زعيماً عليها لأسباب سياسية أكثر منها دينية.

كان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد فى حرب وقعت بين العباسيين والعلويين، انتصر فيها العباسيون فى موقعة «فخ»، التى استشهد فيها عدد كبير من العلويين وأتباعهم فى كثير من قبائل المغرب.

وحين دبَّ الضعف فى دولة الأدارسة بسبب مناوئة الفواطم رحل جد الشيخ أبى الريش إلى مكة المكرمة لينجب ابنه عز الدين الذى بقى بمكة لا يبرحها حتى بلغ الواحد والسبعين عاماً من عمره ولم يبرح حدود مكة المكرمة.

وفى هذا العمر المتأخر رحل إلى المدينة المنورة بدعوة من واليها الحسن بن طاهر الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه، لما سمع عن الشيخ عز الدين من التقوى والورع، والتفاف أقاربه من أبناء الحسن رضى الله عنه حوله كزعيم لهم، فرأى أن يستقطبه حتى لا يكون مناهضاً له، خاصة بعد أن التفَّ حوله أتباعٌ ومريدون.

وطبيعى أن يكون لوالد الشيخ أبى الريش دورٌ أساسى بعد لقائه مع ابن العم والى المدينة المنورة، وأن يكون هذا الدور فَعَّالاً فى شئون المدينة المنورة، وخاصة أن الأحوال كانت وقتئذ غير هادئة بفعل الصراع المحتدم بين العباسيين والأمويين وآل البيت.

وفى هذه الأثناء يولد بالمدينة المنورة شيخنا عطية عز الدين المشهور بأبى الريش، ليقضى كل وقته منصرفا إلى العلم على أيدى فقهائها وعلمائها، غير متقيد بمذهب أجداده من العلويين.. بل كان يقبل على الدرس والتفقه فى المذهب السنى المالكى. وفى مدرسة الإمام مالك تفوق الشيخ أبو الريش وتقدم وبرع فى المسائل الخاصة بمذهب مالك.. كما برع فى التفسير، سواء كان للقرآن الكريم، أو الحديث النبوى الشريف.

ولسعة علم الشيخ أبى الريش وتقواه ونسبه الطاهر للإمام الحسن انتقل إلى بغداد بدعوة من أهلها، ولكنه لم يستطع البقاء هناك طويلا، نظراً لاضطراب

الأحوال الناتجة عن الخلافات السياسية، فترك بغداد متوجهاً إلى مصر، فقد كانت هى الأمن والأمان لشيعة الإمام على كرم الله وجهه.

كان وصول الشيخ أبى الريش إلى مصر فى عهد الخليفة الظاهرالفاطمى.. هذا العهد الذى اتسم باللين والتسامح مع الذين يمثلون مذهب الشيخ أبى الريش حتى أصبحت تعاليم الإمام مالك والامام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل تدرس فى عهد هذا الخليفة إلى جانب اجتهادات الشيخ أبى الريش.

وفى مصر نزل الشيخ أبو الريش بمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، فتعلم وعلّم، وكان ورعاً تقياً، ولذا كثر أتباعه ومريدوه، حتى سمع به الخليفة الظاهر الفاطمى، فاستدعاه إلى مجلسه، وكان يقدمه على الأمراء والوزراء، بل كان يتردد عليه فى خلوته التى اتخذها الشيخ أبو الريش مقراً له بالقرب من أهرامات الجيزة، طالباً منه الدعاء أحياناً، والنصح أحياناً أخرى، وفى كلتا الحالتين كان هناك اقتناع بما يقول.

ولم يطل البقاء للشيخ أبو الريش فى هذه الخلوة القريبة من الأهرامات، حيث جاء إليه عرب الشرقية وطلبوا منه أن ينتقل إلى الشرقية، حيث ينتفع بعلمه وفضله ونسبه الشريف الكثير ممن يمثلون القبائل العربية، واستجاب لدعوتهم، وانتقل إلى بلبيس، وهناك أقام بخلوه لا تزال تعرف باسمه حتى الآن.. فيعرفها العامة والخاصة بخلوة الشيخ أبى الريش، مع أنه لم يُدفن فيها، وإنما دُفن فى مكان آخر كما ستعرف.

لكن المقام فى بلبيس بالشرقية لم يطل كثيراً للشيخ أبى الريش.. فحين عرف الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بذلك استدعاه ليكون تحت نظره فى القاهرة، خوفاً من التفاف الناس حوله، مما يحدث الانقسام فى دولته.

وعاد الشيخ أبو الريش إلى القاهرة، وبقى فيها حتى تقلد الوزير بدر الجمالى بعض شئون الحكم فى عهد الخليفة المستنصر، وكانت لهذا الوزير تصرفات يضيق لها الشيخ أبو الريشن ففر متخفياً إلى دمنهور وهناك عاش منقطعاً للعبادة والعلم والتعليم، وقد التف حوله الأتباع والمريدون لما لمسوا فيه من سعة فى العلم،

خاصة حين كان يفقههم فى أمر دينهم، ويوضح لهم ما اختلفت عليه المذاهب بأنه كان لصالح هذا الدين، سواء كان المذهب مالكياً، أو حنفياً، أو حنبلياً، فكل واحد من هؤلاء كان يلتزم حدود وتعاليم ومبادئ هذا الدين، وإن كانت هناك خلافات ففى المسائل الفقهية التى لا تنال من أساسيات هذا الدين الحنيف.

ولقد استفاد من علم وفضل هذا الرجل الصالح الكثيرون كما تقرر المصادر التاريخية حديثها وقديمها. وظل على هذا الحال حتى كانت وفاته عام ٤٨٤ هـ، وليقام له ضريح يُعرف باسمه فى دمنهور، كما يُحْتَفَلُ كل عام بمولده، فيتوجه إليه قوم كثيرون من كل أقاليم مصر تبُّركاً به كأحد الصالحين الذين ينتهى نسبهم إلى الإمام على كرم الله وجهه.

* * *

٣٧ أبو بكر الطرطوشى
فقيه أندلسى عرف قيمة العقل

حين دخل الإسلام الأندلس أثَّر تأثيراً عظيماً فى أهلها، فنقلهم من ظلام وجهالة العصور الوسطى إلى مشارف مدنية وحضارة العصر الحديث، ولم يقتصر تأثير الإسلام على المنطقة التى وجد بها وهى الأندلس، وإنما امتد كذلك إلى غيره من البلاد الأوربية، مثل إيطاليا، وفرنسا، فى أوربا وغيرها. كذلك لم يقتصر تأثيره فى الأندلس على علوم بعينها كالفلسفة والفيزياء والرياضيات والآداب والفنون وما يتفرع عن هذه العلوم. وإنما امتد إلى علوم أخرى دينية كالتصوف، حيث كان للعلماء المسلمين فى الأندلس أثر فى غيرهم من الأوربيين، وعلى سبيل المثال نجد ابن عباد الرندى أحد أتباع الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى له تأثير مباشر على الصوفى الأسبانى يوحنا الصليبى، وأنه للمتصوف العظيم محيى الدين بن عربى تأثيره المباشر فى تصورات الإيطالى دانتى التى تضمنتها رائعته الخالدة «الكوميديا الإلهية»، وغيرها من تأثيرات دينية، وهذا يعنى أن الإسلام كان فى تطور دائم فى كل جوانب المعرفة الإنسانية، مادية كانت أو روحية.. ومن العلماء الذين اشتهرت بهم الأندلس ابن حزم، وابن ماجه، وكالباجى وتبعهم علماء يتقدمهم إمامنا أبو بكر الطرطوشى المدفون بالإسكندرية».

إذن فإمامنا هذه المرة قادم من الأندلس، وبالتحديد من مدينة طرطوشة التى تقع على سفح الجبل قريباً من بلنسية وقرطبة ليدفن بالإسنكدرية بعد أن قضى حياة حافلة بالعلم والفضل والفقه، ناقلا إلى المشرق ما تلقاه من علم عن ابن حزم والباجى شيخ علماء الأندلس وغيرهم من العلماء الذين برزوا فى الأندلس الإسلامية.

لكن قبل وصول الإمام الطرطوشى إلى الإسكندرية واستقراره بها حتى آخر أيامه تخللت حياته أحداث مهمة، تبدأ منذ أن تلقى العلم فى المسجد الكبير بمدينة

طرطوشة بالأندلس على أيدى عدد من المعلمين هناك الذين اكتشفوا فيه استعداداً مغايراً لغيره فى تقبل العلوم.

ولم تشبع مدينة طرطوشة وشيوخها وعلمائها نهم إمامنا إلى المعرفة الدينية، فتركها راحلا إلى أكبر مدن الأندلس وقتئذ «سرقسطة»، حيث التقى بعالمها الكبير القاضى أبى الوليد الباجى، وعنه استطاع أن يجمع علمه الواسع كأكبر علماء الأندلس، كذلك علم ابن حزم الذى وضعه من قبل فى قلب الباجى ليكون خليفة من بعده فى مناقشة الموضوعات الدينية والعلمية التى تنشأ وتتجدد بين حين وآخر، فكان أبو بكر الطرطوشى خير تلميذ للباجى وأستاذه ابن حزم الأندلسى.

ولعل إقبال الإمام الطرطوشى على العلم والتفقه فيه نابع من أصالته العربية، حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن الإمام أبا بكر الطرطوشى المشهور فى أوربا بأبى رندقة، ينتهى نسبه إلى قريش فى عائلة فهد القرشى، المعروفة بأصالتها فى العلم والأدب والنسب بين القبائل.

وأما اسم أبى رندقة الذى اشتهر به خاصة فى المصادر الأوربية فقد خلعه عليه الأوربيون أنفسهم، وذلك بعد أن اتسع علمه حتى عمَّ أرجاء البلاد. فأراد الأوربيون أن ينسبوه إليهم، حتى يقل أتباعه من جرَّاء التشكيك فى نسبه، لكن هذا الاسم الذى خلعه عليه الأوربيون لا دخل له بهذا الإمام الجليل، كما يؤكد ذلك بعض الروايات والكتابات الحديثة، وفى مقدمتها كتابات الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر، والدكتور جمال الشيال فى كتابه أعلام الإسكندرية، الذى يؤكد فيه عروبة وعلمية أبى بكر الطرطوشى.

يقول الدكتور الشيال: «إن والد أبى بكر الطرطوشى كان عالماً متفقهاً فى الدين، ولذلك وجَّه ابنه أبا بكر هذه الوجهة العلمية الدينية التى أفادته فيما بعد». معنى هذا أن العلم فى الدين والفقه وكان متأصلا متوارثاً أصيلا فيه وليس دخيلا.

وحين نضج علمه واكتمل اتجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستقرار بمكة المكرمة، والوقوف على ما تركه السلف الصالح من آثار علمية وفقهية، وهناك التقى بجلة من العلماء، فى مقدمتهم الإمام أبو إسحاق الشيرازى وغيره من علماء

التصوف. وقد سمع كثيراً من الشعر من شيوخه، ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه «سراج الملوك» مما يؤكد أنه كان يتمتع بحاسة نقدية أدبية عالية المستوى.

وغادر بغداد إلى الشام بعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة به تقوم على الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقضى الفترة التى عاشها فى الشام يلقى على الناس علماً هو خلاصة ما وصل إليه علماء المغرب حيث الأندلس. وعلماء المشرق حيث العراق، وكان لعلمه مذاق خاص، الأمرالذى أكثر من حوله الأتباع والمريدين، أولئك الذين كانوا يفدون إليه رغبة فى معرفة أمور دينهم ودنياهم، وظل هكذا بينهم عالماً وفقيهاً متنوراً حتى توجه إلى الإسكندرية بمصر، التى كانت ملتقى المغاربة المتوجهين إلى الحج والعائدين منه. فهى فى الطريق إلى الشمال الإفريقى وبلاد الأندلس.

لكن فى طريقه من الشام إلى الإسكندرية توقف برشيد تحت إلحاح أهلها غير أن أهل الإسكندرية كوّنوا وفداً من علمائهم وأعيانهم وفقهائهم ليتوجه إلى رشيد.. ويلتقى الإمام الطرطوشى بهذا الوفد الذى يطلب منه التوجه إلى الإسكندرية، فيقبل، ويبدأ الدرس يدرس وينشر العلم على مذهب الإمام مالك، إلى جانب ما كان قد استفاده من علماء الأندلس وفقهائهم.

وقد أتاحت له حياة الاستقرار التى عاشها بالإسكندرية، وترحيب واستقبال أهلها له الفرصة للقراءة والتأليف، حتى قدم للمكتبة الإسلامية اثنين وعشرين مؤلفاً فى التفسير والفقه وعلم السياسة وفى الحكم وإدارة المجتمع والوقوف على مشاكله وأهمها كتاب «سراج الملوك».

وفى هذه الكتابات والأحاديث نلمح آراء أستاذه بالأندلس أبى الوليد الباجى.. تلك التى أودعها فى قلبه أستاذه العظيم ابن حزم.. كما كان يردد دائماً.. ومن هذه الآراء ما كان يردده فى مجالسه فى فضل العلم على حامله، حيث يرى أنه لو لم يكن للعلم فضيلة سوى أن أهل الجهل يهابون صاحبه ويحترمونه، وأن العلماء يقدرونه ويحترمونه. لكفى هذا سبباً إلى السعى وراء العلم وطلبه، فكيف إذن بباقى فضائله فى الدنيا والآخرة؟

ولو تدبر العالم فى كل ساعاته ماذا كفاه العلم من المذلة والغفلة، من الهم

بغيبة الحقيقة، ومن الفرح بكشفها ـ عن طريق العلم ـ لضاعف من حمد الله عز وجل وشكرانه على منحه فضل العلم، ولطلب أن يهبه المزيد منه.

وقال: إن الذى يبخل على الناس بعلمه أشد وأقسى من الذى يبخل عنهم بماله، فالمال يمكن تحقيقه بأى الوسائل، أما العلم فلابد لتحقيقه بوسيلة الفتح الربانى الذى يفتح به الله على عبده، وبالعلم وحده تقترب من الخالق سبحانه وتعالى، ومنه ما يعينك على الوصول إلى رضاه. ومن أراد سعادة الدنيا وخير الآخرة فليقتدى بهدى محمد ﷺ فى علمه واحترامه وتقديره لأهل العلم. وطلبه للعلم حتى وإن كان فى الصين.

وعن فضل العقل يحدثنا الإمام الطرطوشى فيقول: ليس هناك فضل يهبه المولى لعبده أعز وأجل وأكرم من فضل العقل، فصاحب العقل هو الذى يعيش فى نعيم دائم، لأنه يستطيع أن يعامل الناس على قدر عقولهم. كما أمرنا رسول الله ﷺ بتوجيه إلهى حيث قال: «أمرت أن أعامل الناس بقدر عقولهم». والعاقل هو الذى لا يغتبط بصفات تفوقه على الحيوانات والجمادات، وإنما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التى ميزه الله تعالى بها عن هذه الحيوانات والجمادات، وهى التمييز الذى به يمكن أن يقارب الملائكة.. فمن قوى تمييزه، واتسع علمه، وحسن عمله فليسعد ويغتبط. حيث لا يتقدمه إلا الملائكة، وخيار الناس. وقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1] لأن نهى النفس عن الهوى هو ردعها ومنعها عن كل ما يغضب الله. وقول رسول الله ﷺ: «أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه» جامعان لكل فضيلة. لأن فى نهيه عن الغضب ردع النفس عن هواها، وفى أمره عليه السلام أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ردع النفس عن أمور السوء، وأولها الأنانية وحب الذات.

وهكذا كان الإمام أبو بكر الطرطوشى فى كتاباته وأحاديثه.. حتى توفى بالإسكندرية عام ٥٢٠ ليدفن هناك فى مسجد بباب البحر كما يقول المقريزى فى خططه.

***

(١) النازعات ـ الآيتان: ٤٠، ٤١.

٣٨ سند بن عنان
شارح فقه مالك فى ثلاثين مجلدًا

التلمذة الفكرية فى ثقافتنا العربية الإسلامية لها تقدير لم يتوفر لأى من الثقافات الأخرى، فكلنا نعرف كيف تتلمذ الصحابة - رضوان الله عليهم - على الرسول ﷺ واتبعوه واهتدوا بهديه، وصدعوا لتعاليمه بشكل جعل التابعين لهؤلاء الصحابة يقتدون بالسنة الشريفة، ويصدقون بما قاله هؤلاء الصحابة. ونفس الأمر نجده عند تابعى التابعين. يحترمون ويتبعون من سبقهم من التابعين، ويقدرون مايصدر عنهم من أقوال وأفعال، على اعتبار أنهم تتلمذوا على الصحابة الأجلاء. وهكذا نجد اللاحقين يتبعون السابقين، مما يؤكد بصورة أو بأخرى كيف أن الثقافة العربية الإسلامية حلقه متصله تعنى أشد ما تعنى بالتلمذة الفكرية، على اعتبار أن نتاج هذه التلمذة هم حملة مشاعلها، ورواد تنويرها، والمسئولون عنها فى مستقبل السنين.

ولعل هذه السمة التى تميزت بها الثقافة الإسلامية فى عصرها الذهبى لم تند عن ذاكرة الأساتذة من جيل الرواد فى الثقافة العربية الحديثة، فنراهم يعتنون بمن لحقهم من الأجيال، ويسلكون فى ذلك مسلكاً علمياً متحضراً، فنجد أحدهم وهو الشيخ أمين الخولى يعتبر التلميذ ينبغى أن يكون أفضل من أستاذه. فلا خير فى أستاذ لا يعد تلميذه ليكون أفضل منه. وحجته فى ذلك أن التلميذ يساوى تجربة أستاذه وعلمه، مضافاً إليها ما يحققه بعد ذلك من علوم ومعارف جديدة بشكل ربما لا يتوفر لأستاذه بحكم التطور والزمن. ولعل الشيخ أمين الخولى أجمل ذلك فيما يشبه المعادلة الرياضية، حيث قال: إن (ت) أى التلميذ تساوى (أ) أى الأستاذ مضافا إليها (ز) أى الزمن، فتصبح المعادلة ت = أ + ز وهو دليل جديد على تقدير التلمذة الفكرية فى ثقافتنا العربية الإسلامية.

وعند تأمل ملامح شخصية الشيخ سند بن عنان يمكن التعرف على معنى هذه التلمذة الفكرية فى الثقافة الإسلامية فى عصرها الوسيط، فقد كان سند بن عنان أنبغ تلاميذ الشيخ أبى بكر الطرطوشى وأقربهم إلى نفسه، وكان كأستاذه مالكى المذهب، وقد سمع منه، ولازم حلقته سنين طويلة، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده، بل أخذ عنه قبساً من أخلاقه وفضله أيضاً، وخاصة فلسفة الزهد التى أخذ بها الطرطوشى نفسه، ولهذا وصفه ابن فرحون بقوله: «كان من زهاد العلماء، وكبار الصالحين، فقيهاً فاضلاً، تفقه على الشيخ أبى بكر الطرطوشى...».

وقد بلغ من صلاح وتقوى سند بن عنان أن هناك كثيراً من الروايات تحكى عن كراماته، ولعلنا ننقل واحدة منها كان قد سجلها - بعد تحقيق - الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه «أعلام الإسكندرية»، حيث يذكر: «قال تميم بن معين البادسى - وكان من الفقهاء: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله اكتب لى براءة من النار. فقال لى: امضِ إلى الفقيه «سند» يكتب لك براءة. فقلت: ما يفعل فقال: قل له بأمارة كذا وكذا». فانتبهت، ومضيت إلى الفقيه سند فقلت له: اكتب لى براءة من النار. فبكى وقال: ومن يكتب لى براءة من النار؟ فقلت له الأمارة. فكتب الرقعة».

هذه الرواية المحققة من المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال على ما فيها من مبالغة إلا أنها تحمل دلالات على تقوى وصلاح هذا الرجل الصالح، وإلاَّ فما معنى أن يسجل مؤرخنا الدكتور الشيال ما يؤكد هذه الرواية قال: وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة: «ولما أدركت تميماً الوفاةُ أوصى أن تجعل الرقعة فى حلقه وتدفن معه».

وروى الفقيه أبو القاسم بن مخلوف بن جاره: أخبرنى من أثق به أنه رأى الفقيه سند بن عنان فى نومه فى شكل مطمئن وعزيز.

ويبدو أن سند بن عنان كان قد بلغ من العلم والفضل حدًا جعل فقيه مصر فى القرن السابع الهجرى (وهو تقى الدين بن دقيق العيد) يصفه بقوله: «كان - أى سند بن عنان - فاضلا من أهل العلم والنظر..».

وإلى جانب علمه وفضله فى الفقه والتفسير والجوانب الدينية الأخرى، فقد تميز بصفة أخرى، هى محبته للأدب شعرًا ونثرًا، فقد كان كأستاذه الطرطوشى، يقول الشعر أحياناً، وقد روى ابن فرحون قصيدة له منها:

وزائرة للشيب حلت بمفرقى فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف

فقالت:

على ضعفى استطلت ووحدتى رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

ولهذا لم يكن غريباً أن يشتغل سند بن عنان بالتأليف وأن ينتج فى ذلك ما تذكره المراجع بالخير. وفى مقدمة ما ألف كتابه الضخم المعروف «بالمدونة»، وهو من أمهات الكتب فى شرح فقه الإمام مالك. وقد سمى هذا الشرح «الطراز» وكان فى ثلاثين مجلدًا.

وعاش سند بن عنان حياته بين التفقه فى الدين والتأليف فيه وكتابة الأدب.. حتى رشحته كل هذه المؤهلات كى يخلف أستاذه الطرطوشى فيجلس فى حلقته ومدرسته، ويلقى دروسه، وقد قال ابن فرحون فى ذلك: «وجلس ـ سند بن عنان ـ لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشى، وانتفع الناس به..».

وقد ظل سند بن عنان يدرس لطلابه واحداً وعشرين عاماً بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفى عام ٥٤١ هـ. ودُفن بالقرب من قبر أستاذه الطرطوشى بمسجد سُمى باسمه لا يزال موجودا حتى الآن فى شارع الباب الأخضر بالإسكندرية.

***

٣٩ أبو الطاهر بن عوف
معلم الفقهاء السبعة بأول مدرسة نظامية

نحن الآن فى رحاب علم وفكر أحد الصالحين الأتقياء.. ولد وعاش ومات بمصر، وأسس فيها أول مدرسة نظامية، مع أن نسبه ينتهى إلى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه.. الذى عاش ومات فى الأرض التى شرفها الرسول صلى الله عليه وسلم بنوره.

شيخنا الصالح هو أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عبد الرحمن بن عوف، الذى ولد بالإسكندرية سنة ٤٨٥ هـ، وتوفى بها ودفن سنة ٥٨١ هـ. وهو صاحب أول مدرسة سنية نظامية أنشئت فى مصر.

كان من العلماء الأتقياء الذين يتصفون بالعلم والورع، حتى قال عنه جلال الدين السيوطى فى تأريخه: «كان صدر الإسلام فى زمانه، تفقه على يديه الكثيرون. سمعوا منه، وملئوا الدنيا علماً أخذوه عنه». وقال عنه أبو الحسن بن الحميرى: «كان ابن عوف رحمة الله عليه إمام عصره، وفريد دهره، فى الفقه على مذهب الإمام مالك، وعليه كانت تدور الفتوى، وجمع - إلى ذلك - الورعَ والزهدَ، وكثرة العبادة، والتواضع، ونزاهه القول والفعل، وصِدْقَ القلب والعقل».

ترجم لهذا الشيخ الجليل أبو الطاهر بن عوف. واحد من المؤرخين، هو ابن سليم الهمذانى، فسجل الكثير من مراحل حياته، وجوانب علمه وفضله، وهو ما ينقله لنا الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه أعلام الإسكندرية فيقول: «كان ابن عوف من العلماء الأعلام، ومشايخ الإسلام. ظاهر الورع والتقوى، كما روى عنه الفقه والتفسير ابن المقدسى».

ويستطرد ابن سليم الهمذانى فى ترجمته للشيخ أبى الطاهر بن عوف ما ينقله الدكتور جمال الدين الشيال فيقول: «وكان بيت أو مقام ابن عوف بثغر الإسكندرية. بيتاً كبيراً. اشتهر بالعلم. وكان فيه جماعة من الفقهاء، اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد، كانوا إذا دخلوا مجتمعاً قيل لهم: مرحباً بالفقهاء السبعة، تشبيها لهم بالأئمة السبعة فى المدينة المنورة».

والتقدير هنا لا ينصرف إلى هؤلاء العلماء السبعة بقدر ما ينصرف إلى أستاذهم أبى الطاهر بن عوف، تقديراً لفضله وعلمه الذى لقنه لهؤلاء العلماء السبعة.

وإلى جانب التدريس اشتغل ابن عوف بالتأليف، فوضع شرحاً عظيماً فى الفقه عُرف بالشروح الصوفية، ويعد من أمهات المصادر التى يرجع إليها الدارسون والباحثون فى الفقه الإسلامى، إذ يقع فى ستة وثلاثين مجلداً.

ولا يقل الجانب السياسى فى حياة أبى الطاهر بن عوف عن الجانب العلمى، فقد كانت له مواقف مشهودة له سجلتها كثير من الكتابات، خاصة تلك التى كانت تعلى من شأن العلماء أمام السلاطين والأمراء. ومن هذه الكتابات الموثوق بها كتاب أعلام الإسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال، الذى يحدثنا عن جانب من تاريخ ابن عوف السياسى فى عهد كل من الدولتين: الفاطمية والأيوبية، فيقول: «وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية، وقيام الدولة الأيوبية.. دولة صلاح الدين الأيوبى بمصر سنة ٥٦٧ هـ وقد زار صلاح الدين الأيوبى الإسكندرية، وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس ابن عوف، وسمعوا عليه موطأ الإمام مالك بروايته وشروحه وتفسيره».

وتذكر بعض الكتابات الأخرى أنه كان لابن عوف مكانة خاصة عند السلطان صلاح الدين الأيوبى، فيشير إلى ذلك «الصفدى» مؤكداً مكانة هذا العالم الجليل عند السلطان، ذاكراً واقعة استفتاء صلاح الدين الأيوبى لابن عوف عن جواز أن يكون القاضى أعمى، وتقديراً له ولفتواه كتب صلاح الدين إليه يسأله بخط يده. وليس بخط يد أحد من وزرائه أو عماله. وحين وصلته الفتوى عمل بها على الفور ثقة منه بعلم وفضل هذا الرجل الجليل.

ولابن عوف ـ عدا ذلك ـ أفضال أخرى. فإليه يرجع الفضل فى تحديد الصادر بثغر الإسكندرية، وهو ضريبة تجارية تدفع على كل ما يخزّن من بضائع فى الميناء، رتبه لفقهاء وعلماء الإسكندرية كرواتب تصرف كل شهر، وجعل لها ناظراً وشهوداً، وأوقفها عليهم، وعلى ذريتهم من بعدهم.

غير أن الفضل الأكبر الذى يرجع إلى الشيخ ابن عوف هو فى إنشائه لأول مدرسة نظامية سُنية فى مصر. أقامها خصيصاً ليكون هو صاحبها ومعلمها فى آن واحد.

وعن هذه المدرسة وأثرها وصاحبها تسجل الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر قائلة: «ونستطيع القول فى ثقة واطمئنان بأن مدينة الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس، وأن أول أستاذ نظامى متفرغ لممارسة هذه المهنة هو الشيخ أبو الطاهر بن عوف».

وقد حدد القلقشندى موقع هذه المدرسة فى مدينة الإسكندرية فقال: «وخرجت أوامر الوزير رضوان بإنشاء المدرسة الحافظية العوفية بهذا الثغر المحروس (أى الإسكندرية) بشارع المحجة».

وقد حقق الدكتور الشيال موقع هذا الشارع اعتماداً على النصوص التاريخية، وفى مقدمتها النص الأخير للقلقشندى، فتوصل إلى أنه هو شارع أبو قير الحالى.

وقد أورد القلقشندى فى تاريخ المرسوم الصادر بتعيين ابن عوف شيخاً لهذه المدرسة، التى عُرفت فيما بعد بالمدرسة الحافظية العوفية، نسبة إلى أبى الطاهر بن عوف.. وتخليداً لذكره.

* * *

٤٠ أبو البركات الخيوشانى
فقيه من فارس احترمه السلطان

من بلاد إيران يجئ هذا الإمام الزاهد أبو البركات الخيوشانى.

ومن بلاد إيران التى هى فى الأصل بلاد فارس.. اعتنق الإسلام مؤمنون كثيرون فيما بعد، فجعل منهم أفذاذاً لا يُلحَقُون فى الإيمان أو فى العلم أو فى الدين أو حتى فى الدنيا. وإنها لإحدى سمات الإسلام وروائعه ألا يدخل بلداً من بلاد الله إلا ويثير كل نبوغها، ويحرك كل طاقاتها، ويخرج خبء عبقريتها.

ومن هؤلاء الإيرانيين الذين أنار الله بصيرتهم أبو البركات محمد بن موفق بن الحسن بن عبد الله المعروف بالخيوشانى. نسبة إلى موطنه الأصلى خيوشان، من قرى نيسابور بإيران.

كان هذا الرجل الصالح. إماماً جليلا، ورِعًا تقيًّا. لم تر العيون فى زمانه أكثر منه علماً وزهداً، وإصراراً على الحق. هذه السمات جميعها هى التى جعلته يصمم على القضاء على المذهب الشيعى بمصر، وبالتالى إسقاط الخلافة الفاطمية لأسباب كثيرة، أهمها إحساسه ـ وهو المسلم السنى ـ أن هذا المذهب الشيعى بدأ يحيد عن جادة الحق.

وأول ما يستوقفنا فى سيرة هذا الإمام الورع تاريخ ميلاده، حيث تتفق معظم المصادر التى ذكرت هذا التاريخ على أنه فى سنة ٥١٦ هـ. فى قرية خيوشان، ويتعلم الفقه على المذهب الشافعى على يدى محمد بن يحيى، أكبر تلاميذ حجة الإسلام أبى حامد الغزالى، وحضر مصر عام ٥٦٥ هـ. وتوفى ودفن فيها عام ٥٨٧ هـ.

لكن الغريب فى سيرة هذا الإمام الصالح، أنه نشأ فى مجتمع تعتنق الأغلبية منه المذهب الشيعى، فى الوقت الذى يعتنق (هو) المذهب السنى ويتعصب له تعصباً ملك عليه كل أقطار نفسه. حتى أنه عزم وهو فى التاسعة والأربعين من عمره. أن يحارب بكل ما أوتى من علم ومحجة المذهب الشيعى الذى تفرضه الدولة الفاطمية. التى كانت وقتئذ مهيمنة على الحواضر الإسلامية بما فيها بلاده إيران.

وفى ذلك يقول المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية» على لسان هذا الإمام الجليل الخبوشانى: «لابد أن أصعد إلى مصر وأزيل دولة الفاطميين» وبالفعل صعدها قبل سقوط الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين الأيوبى بسنتين، وأخذ منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر فى محاربة الفاطميين، وكان من قوة الحجة والبيان، وعظم الشخصية وقوتها، والتفاف الناس من حوله وتجمعهم.. أن أخذت حاشية الخليفة الفاطمى تهادنه وتسترضيه.

ويسجل المناوى هذه الواقعة التاريخية فى كتابه «الكواكب الدرية» قائلا: «إنه لما جاء الإمام الخيوشانى، وصرَّح بسب الفاطميين أرسلوا إليه مالاً فرَدَّهُ إليهم، وضرب رسولهم على صدره ورأسه بقوه، حتى صارت عمامته حلقاً فى رقبته، وسب أميرهم سباً علنياً..».

وهذا يؤكد صدق ما وعد به قبل أن يغادر بلاده إيران متوجهاً إلى مصر من أنه سوف يعمل ما فى وسعه على زعزعة حكم الفاطميين الشيعة بها، حيث كان قلبه مغلقاً أمام كل تفاهم مع الشيعة. مما زعزع مكانتهم فى مصر.

وكما تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر» قائلة: «لقد وجد صلاح الدين الأيوبى بغيته فى الإمام الخبوشانى عندما أراد تحويل الخطبة من خلفاء الفاطميين إلى خلفاء العباسيين أى من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى، حيث تهيب صلاح الدين من هذا الإجراء فى بادئ الأمر، حتى وقف الإمام الخبوشانى أمام المنبر بعصاه وأمر الخطيب بذكر بنى العباس، ففعل. وهكذا نرى أن الإمام الخبوشانى وتكرر هذا الموقف حتى كان العامل الأول فى القضاء على المذهب الشيعى الإسماعيلى فى مصر، وبالتالى فى إسقاط الخلافة الفاطمية..»

صحيح أن دعوة الإمام الخيوشانى قد تحولت من الصبغة العقائدية ـ مناهضة مذهب دينى لمذهب دينى آخر ـ إلى صبغة سياسية. وصحيح أيضاً أن المستفيد فى هذا الصراع هو النظام السياسى فى المقام الأول، المتمثل فى حكم صلاح الدين الأيوبى، غير أن ذلك كان فى مصلحة مصر. بشهادة الكثيرين من المؤرخين، وذلك لجنوح الشيعة من ناحية، وعدم قبول كل المصريين لها من ناحية أخرى.

وطبيعى والأمر كذلك أن يحترم صلاح الدين الأيوبى هذا الإمام الجليل ويقدره، وربما كان يخشاه، حيث وقر فى نفسه، واستقر فى اعتقاده أنه إذا غضب عليه هذا الإمام الصالح ودَعا عليه فسوف يُصاب بمكروه. ولعله نوع من الاعتقاد كان يساور هذا السلطان العظيم الذى دانت له الممالك والأمم، قد يكون جانباً من شخصيته التى كانت تخشى الله وأولياءَهُ من الصالحين ومنهم هذا الرجل الصالح.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه لما خرج صلاح الدين الأيوبى لقتال الفرنجة عند بلدة الرملة بالشام، توجه إلى بيت الإمام الخيوشانى قاصداً وداعه، كما تعود أن يفعل فى كل أمر جعل يستعد القيام به. وفى هذا اللقاء. التمس الإمام الخيوشانى من صلاح الدين الأيوبى أن يبطل بعض المكوس التى كانت تحصل من الحجاج، فرفض صلاح الدين هذا الالتماس، فقال له الإمام الخيوشانى محتداً: «قُمْ لانَصرَك الله»، ووكزه بعصاه بشدة، فوقعت قلنسوة السلطان صلاح الدين عن رأسه. والغريب أن هذا السلطان العظيم لم يتخذ منه موقفاً مشدداً، والأغرب أن المسلمين هُزِمُوا فى هذه المعركة، كنوع من الفأل غير الطيب.

كان الإمام الخيوشانى لا يخشى فى الله لومة لائم، لقد علم أن تقى الدين ابن شقيق صلاح الدين يبيع «المزر» وهو شراب من الذرة مسكر، شأنه شأن البيرة فى أيامنا، فكتب إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه أن ينهى ابن أخيه عن بيع هذا الشراب. وهنا واجه السلطان صلاح الدين ابن أخيه قائلا: «يا بنى لا طاقة لنا بالشيخ الخيوشانى اذهب إليه وترضاه». وتنفيذاً لرغبة العم ذهب ابن الشقيق إلى الإمام الخيوشانى. وعند بابه أرسل إليه مَنْ يعلن عن حضوره واعتذاره قائلا: «تقى الدين ابن شقيق السلطان صلاح الدين يسلم عليكم» فرد الإمام الخيوشانى: «بل قل شقى الدين لا سَلَّم الله عليه» فقال الرسول: «انه يعتذر» فرد الخيوشانى

قائلا: «إنه يكذب» وامتنع عن مقابلته. فما كان من تقى الدين إلا أن امتنع عن بيع هذا الشراب خوفاً من غضب الخيوشانى.

ويذكر المناوى أن الخيوشانى عاش عمره لم يأكل لقمة واحدة من وقف الدولة. ولم يأخذ من مال الملوك درهماً واحداً، وعندما توفى كُفِّن فى كسائه الذى جاء به من خيوشان، موصياً أن يضم جثمانه إلى جثمان الإمام الشافعى تحت قبة واحدة بالقاهرة.

* * *

٤١ القاسم الشاطبى
ابن شاطبة الأندلسية المتوفى بالإسكندرية

إذا أردنا أن نحصى أسماء الصالحين الذين تركوا بلادهم، واختاروا مصر ليتخذوا منها مقراً لحياتهم، ومثوى لرفاتهم، فلن نتتهى، فالسلسلة طويلة، وأعداد هؤلاء الصالحين الذين شَرُفَت مصر باستقبالهم أعداد ضخمة، ومصر دائماً تفتح ذراعيها لكل من قصدها، خاصة إذا كان من أولياء الله الصالحين، فلن يجد غيرها مكاناً أكثر أمناً وأماناً، ولن يجد أفضل من ناسها ترحيباً وتقديراً.

والشيخ القاسم الشاطبى أحد هؤلاء الصالحين الذين تركوا مواطنهم الأصلية وجاءوا إلى مصر، فاختاروها مكاناً لنشاطهم فى الحياة، ومستقراً ومقاماً لرفاتهم بعد الموت، حيث وفَدَ من بلاد الأندلس نازحاً إلى مصر. وتكون الإسكندرية هى المدينة التى تستقبله، فلا يتركها ويستقر فيها حتى الوفاة. ولم تكن الإسكندرية بأقل وفاءً لمن زارها وفضلها عن مدن الدنيا، فقد خصصت لهذا الشيخ الصالح واحداً من أحيائها الكبيرة، وهو حى الشاطبى لينسب إليه، يتوسطه مسجد باسمه. يضم ضريح لرفاته الطاهر.

ولقد اجتمعت فى اسم الشيخ الشاطبى بعض سمات الثقافة العربية، وقدرتها على الأخذ والعطاء، التأثير والتأثر. فإذا كان اسمه هو «القاسم بن فِيرُّه بن خلف الرعينى الشاطبى. فإن ذلك يعى دلالة اللغة العربية على الاستيعاب من ناحية، وقدرتها على الامتداد بين الأمم والشعوب من ناحية أخرى. فكلمة «فِيرُّه» ـ بكسر الفاء وسكون الياء، وتشديد الراء مع ضمها ـ معناها الجديد، والرعينى نسبة إلى رعين باليمن، والشاطبى نسبة إلى مدينة شاطبة فى بلاد الأندلس، والقاسم على اسم ابن النبى صلى الله عليه وسلم فأنظر كم من الدلالات والمعانى يحملها هذا الاسم فى لغتنا العربية وهو أمر قد لا يتوافر كثيراً فى أى لغة من اللغات الأخرى.

ولد الشاطبى كغيره من آلاف المواليد فى سنة ٥٣٨ بمدينة شاطبة بالأندلس. صحيحا سليما. إلا أنه لسبب أو لآخر فقد بصره وهو لم يزل طفلا صغير. فلما شب لم يكن أمامه غير تعلم علوم الدين. بادئاً بحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف. متقنا للقراءات فى فترة وجيزة، أذهلت كل من عرفه من معلميه وأقاربه الذين نصحوه بالسفر إلى مدينة بلنسية القريبة من شاطبة. وهى مدينة تموج بالأحداث الوطنية، وبالتيارات الفكرية، وتمتلئ بالعلماء والفقهاء. خاصة وأن الثقافة العربية لم تكن قد غربت بعد عن الأندلس بل كانت لا تزال عزيزة قوية.

فى هذه المدينة الأندلسية «بلنسية» ذات التاريخ العربى المجيد درس الشاطبى الحديث على أصوله، والنحو والأدب والفقه والتفسير فى أمهات كتبه. يعاونه فى سرعة التحصيل واتساعة استعدادا خاصا لتقبل العلوم، وذكاء خارقا لإلتقاط ما يفيده، وملاحظة حادة لتمييز الأصيل من الدخيل. وغيرها من سمات هيئته للتميز والنبوغ والتفرد بين طلاب العلم. . وما هى إلا فترة غير طويلة إلا وأصبح الشاطبى إماما فى النحو واللغة، وراوية للشعر، إلى جانب كونه فقيها محدثا له وجهات نظر يحترمها غيره من العلماء.

وطبيعى وقد أصبح هذا الشيخ الصالح على هذا النحو من العلم والمعرفة والتفقه. أن يقوم بمسئولية الخطابة فى مساجد مدينة بلنسية. ويتجمع حوله الناس لما لمسوه منه من محجة وقوة بيان، ويقتنع هو بما يؤدى من رسالة. لكنه سرعان ما فر من هذه المسئولية محتجا على ما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها الشاطبى سائغه ولا مشروعة. وإنما هى تدخل فى باب النفاق من المادح، والرهبة والخوف من الممدوح. ولهذه الأسباب وغيرها رحل الشاطبى عن بلاده وهو فى الرابعة والثلاثين قاصدا مصر . مع أنه ظاهريا أعلن أنه يغادرها طلبا للحج.

وفى ذلك يقول السبكى: «ولست أدرى. إن كان الشاطبى قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها. . لكنه على أية حال القى عصا التسيار فى مصر مستوفيا فيها حظه من الثقافة التى تتصل بالقرآن».

وبديهى أن تكون الإسكندرية هى أول المدن الثقافية المصرية التى يدخلها بعد رحلته من الشمال الغربى. وكانت وقتئذ هذه المدينة زاخرة بالعلماء والفقهاء

وطلاب العلم. وكان أكبر علمائها في ذلك الوقت الإمام الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى. فطلب اللقاء به أملا فى أن يستوفى حظه من علم الحديث وتفسيره. وما هى إلا فترة قصيرة حتى ذاع اسمه، وعلا صيته، بين تلاميذ الإمام السلفى ومدرسته. إلى درجة أنه كان يعيد الدرس على زملائه فى غياب أستاذه. ولم تكد تمر بضع سنوات حتى أصبح الشاطبى شيخا لمدرسة أسسها له القاضى الفاضل تحت إسم المدرسة الفاضلية. تقديرا لعلم الشاطبى من ناحية وتخليدا لإسم مؤسسها من ناحية أخرى. ولكنها على أى حال كانت من الجوانب الإيجابية فى ذلك الزمن.

والجدير بالذكر أن كل مَنْ تناول شخصية الإمام الشاطبى بالترجمة أطنبوا فى وصف مواهبه. فقد قالوا عنه بأنه أعجوبة أهل زمانه فى الذكاء وسرعة البديهة. فلا يرتاب أحد أنه مبصر لذكائه. فلا يبدو منه ما يدل على العمى. وقالوا أيضا عن زهده وورعه بأنه كان عابدا مخلصا فيما يقول ويعمل، منقطعا للعلم والعمل، يتجنب فضول الكلام، غير ناطق إلا بما تدل إليه الضرورة، وقالوا فى طهره ونظافته وحسن مظهره بأنه كان لا يجلس للقراءة إلا على طهارة، وفى هيئته جلال، وفى أحاديثه خشوع واستكانة، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولايتأوه.

وأما عن خلقه وعزة نفسه، وترفعه عن الصغائر فيحدثنا ابن شامة قائلا: «حكى أن الأمير عز الدين بعث إلى الشاطبى يدعوه للحضور عنده. فغضب من هذه المعاملة وشعر بأنها إهانة. إذ كيف يعامل الأمراء.. علماء الدين بهذا الاستهتار فبعث إليه بشعر مع تلميذه عثمان بن عمر قال فيها:

قل للأمير نصيحه لا تركنن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

وقد تتلمذ على يدى الشاطبى تلاميذ كثيرين يتقدمهم الشحادى وابن الحاجب وابن شامه. وقد ظل خادما للقرآن ناشرا للعلم حتى توفى سنة ٥٩٤ هـ ودفن بالإسكندرية فى الحى المعروف باسمه حتى الآن(١).

* * *

(١) الدكتورة سعاد ماهر ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحين.

٤٢ عبد الرحيم القنائى
قطب الصعيد الوافد من المغرب

فى فترة اتسمت بالصراع الحاد فى المغرب بين المرابطين الذين يحاولون فى بأس شديد استرجاع ماضيهم السليب، وبين الموحدين الذين يتفانون فى تثبيت دعائم ملكهم. . ولد السيد عبد الرحيم القنائى فى سنة ٥٢١ هجرية. من أخريات أيام مؤسس دولة الموحدين ابن تومرت.

وكانت مدينة ترغاى بإقليم «سبتة» بالمغرب هى مسقط رأس هذا الرجل الصالح. وفيها نشأ وترعرع، وفى دور العلم بها حصَّل الكثير من المعارف الدينية. خاصة فى مسجد ترغاى الكبير، متتلمذاً على أيدى كبار علمائها. وفى مقدمتهم والده أحمد بن حجون. وكان عالماً تقياً ورعاً. . يتمتع بمكانة عظيمة من الاحترام والتقدير. كما كان له فى نفوس أهل إقليمه «ترغاى» كل محبة وولاء، فهو بينهم الإمام، والواعظ، والمعلم، والمصلح الدينى والاجتماعى الذى يلجأ إليه كل صاحب مشكلة فقهية أو علمية أو اجتماعية.

وقد يلحظ القارئ أن اسم الوالد هو أحمد بن حجون يختلف تماماً عن اسم الابن الذى هو عبد الرحيم القنائى فما معنى هذا الإختلاف؟

إن لذلك قصة تبدأ منذ أن رُزق هذا الوالد الصالح أحمد بن حجون بغلام سماه «أسد»، على ما كان شائعاً فى القبائل بالمغرب، واستمر هذا الاسم بدون تغيير حتى كبر الغلام وشبَّ ولم يتغير، غير أن الابن نفسه رأى ضرورة تغيير الاسم، لشعور داخلى بأن أسداً لا يستقيم مع ما يتسم به من تقوى ودعة ورحمة، ووجد أن أقرب الأسماء إلى صفاته هى اسم «عبد الرحيم»، وفى ذلك

يقول هو نفسه: «كان اسمى الذى سُميت به أسداً بلغة أهل قبيلتنا، فلما فتح الله لى، وعاينت وصف الرحمة، سميتُ نفسى عبد الرحيم طمعاً فيما عاينت..». ثم أُضيف إلى «عبد الرحيم» صفة «القنائى» نسبة إلى تواجده بمدينة قنا بصعيد مصر فاشتهر بين الناس ـ وخاصة أنه كان صالحاً، له مريدوه فى كل مكان ـ بعبد الرحيم القنائى، كما سيأتى فيما بعد. وعُرف بهذا الاسم حتى وفاته.

ونعود إلى تأمل سيرة حياة هذا الرجل الصالح فنجده طفلاً نشأ نشأة دينية خالصة، تبدأ من البيت، حيث تتفتح كرامته على والده متعبداً تقياً، وتنتهى إلى المسجد وغيره من أماكن العبادة وتلقى علوم الدين، حتى لم يكد يصل إلى العاشرة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن وجَوَّده تلاوة وفهماً.

ويستمر على هذه الحالة، حتى إذا بلغ الثامنة عشر من عمره يتوفى والده، فيترك هذا الحادث الجلل أثراً كبيراً فى نفسه، فلم يكن هذا الوالد مجرد أب له، بل كان معلماً له أيضاً. حتى إن وفاته تركت بصماتها على صفحة حياته من الناحية النفسية، والناحية الجسدية أيضاً. أمرا لاحظته والدته العربية الأصل، فرأت أن ترسله إلى أشقائها بدمشق فى الشام، فربما يكون فى الإقامة بين أخواله فى المشرق العربى ـ إلى جانب تغير المكان ـ ما يشفيه نفسياً، وما يعينه على النمو جسدياً، أو ربما يتحقق من هذه السفرة بعض الفوائد التى أولها تحصيل معارف جديدة تشغله عمًّا يفكر فيه من رحيل الأب والمعلم.

وبالفعل رحل الابن عبد الرحيم إلى المشرق حيث دمشق، وكما توقعت والدته لم تقتصر الفائدة على الشفاء فحسب، بل تجاوزتها إلى تحصيل أكبر قدر من العلم، بما يوافق استعداده الطبيعى.

فمن دمشق استطاع الاتصال بكبار علماء وفقهاء المشرق العربى، وأن يقترب من عالمهم.. ويظل على هذ الحال فترة من الزمن جاوزت العامين، نهل فيهما من علوم المشارقه، كما تفقه فى علوم المغاربة، إلاَّ أن شدة الحنين إلى مسقط رأسه «ترغاى» بالمغرب التى تناديه إلى العودة، فعاد إليها، وقد أصبح فى العشرين من العمر، هذا إلى جانب أنه أضاف إلى معارفه وتجاربه معارف وتجارب جديدة اكتسبها من تواجده عامين فى المشرق، كما أكسبه نضجاً وعلماً جديدين.

لقد كان الامتزاج بين الثقافة المشرقية والأخرى المغربية أثرهما البالغ فى نفس ذلك الشاب المتفتح الواعى، لقد صقل هذا الامتزاج شخصيته بشكل ملحوظ، حتى أصبح من العلماء الذين يمكن أن يرجع إليهم فى القضايا الدينية.

ومما ذكره المؤرخون أن هذا الرجل الصالح كان حينْ يدخل المسجد لا يدخله كطالب علم، بل على أنه عالم يملأ المكان الذى أصبح شاغراً لرحيل والده، حتى إن المسجد الكبير فى «ترغاى» بالمغرب. كان يمتلئ حتى لم يعد فيه مكان لقادم. فالناس يأتون إليه من كل صوب وحدب ليروا ابن العشرين عاماً عالماً يجمع بين ثقافة المشرق وثقافة المغرب. أو بين ما حققه فى طفولته وصباه. وبين ما اكتسبه من شبابه وسفره.

وهكذا قضى السيد عبد الرحيم القنائى خمس سنوات جديدة من عمره على هذا النحو إماماً وفقيهاً فى موطنه «ترغاى» بالمغرب، إلى أن سمع فيما سمع عن تكتل لقوى العدوان الصليبى تتجه بأنظارها إلى المشرق العربى لتفتك به تحت راية الصليب. وهنا رأى وجوب تكتل القوى لحماية حواضر الإسلام. وفى هذه الأثناء توفيت والدته، تلك التى كانت تجعله يتمسك بالبقاء فى «ترغاى».

وهنا عزم على الرحيل متوجها إلى المشرق مرة ثانية ولكن إلى الحجاز فى هذه المرة لتأدية فريضة الحج.. وبين الأماكن المقدسة يظل تسع سنوات متنقلاً وحاجاً فى كل سنة. حتى إذا كان موسم الحج العاشر. التقى بأحد الرجال الصالحين، وهو الشيخ مجد الدين القشيرى، القادم من صعيد مصر، ويتم بينهما حديثٌ ودّىٌّ ـ فقد كان كل منهما قد سمع بأخبار أخيه ـ خلاصته لمَ لا يفكر فى السفر إلى مصر؟! ودعاه لزيارة «قنا» لما لها من مقومات ربما لا تتوفر فى أى مدينة مصرية أخرى، ولرفع راية الإسلام، وتعليم المسلمين أصول دينهم، لما لمسه القشيرى فى هذا الشاب الورع من علم وفضل، وتقوى وورع.

ولم يتردد فى السفر إلى قنا بصحبة الشيخ القشيرى إلى قنا. وفى هذه المدينة الهادئة بدأ صفحة جديدة من حياته. فأمضى فى بادئ الأمر عامين يتعبد ويختلى بنفسه ليعرف خباياها وجوهرها، وفى الوقت نفسه كان يعمل ليضمن قوت يومه.

فهو يرى أن الدين الإسلامى دين علم وعمل، ومن ترك واحدة منهما ضل الطريق. . وبدأ بعد ذلك فى القيام بمهمة الوعظ والدعوة. وتقديم الدين الإسلامى على نحو ما عَرَفَ وما اكتسب، سواء فى المغرب أو المشرق. وأفاض فى ذلك، وفُتِحَ عليه، فكانت له مؤلفات، فى مقدمتها «تفسير القرآن الكريم» و«الأصفياء» وغيرهما.

وامتدت شهرته إلى أبعد من المكان الذى اختاره للقيام بمهمته. حتى وصلت إلى السلطان العزيز بن صلاح الدين الأيوبى. فأصدر قراراً بتعيينه شيخاً لمدينة قنا، ومن يومها أصبح يعرف بالقنائى. واستقر فى هذه المدينة من صعيد مصر، وتزوج ابنة الشيخ القشيرى، وأنجب أولاداً كثيرين، وأنشأ زاوية يتعبد فيها، حتى كانت وفاته سنة ٥٩٢، فدُفِنَ فى المكان المُقام عليه مسجده الآن بمدينة قنا.

والحق أن للسيد عبد الرحيم القنائى الكثير من الإضافات فى مجالات عدة، لعل أبرزها التصوف، والعلم، والاجتماع والأخلاق. وقد سجل الأستاذ محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» الكثير من هذه الإنجازات مستنداً إلى عدد من كتب الطبقات والسير والمؤرخين الذين أفاضوا فى الحديث عن السيد عبد الرحيم القنائى. وعددوا آراءه فى التصوف والأخلاق والعلوم الإسلامية، ومنهم ابن نوح الأقصرى فى كتابه «الوحيد فى سلوك أهل التوحيد» والأُدفوى فى كتابه « الطالع السعيد» والإمام الشطنوفى فى كتابه «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار». والإمام الشعرانى فى كتابه «لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار» المعروف بالطبقات الكبرى، والإمام المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية فى طبقات السادة الصوفية» وغيرهم. وكلهم يجمعون فيما كتبوا على أنه القطب الصوفى الكبير، والعالم الفقيه الذى بلغت شخصيته المثل الأعلى فى صعيد مصر فى القرن السادس الهجرى فى جانبين من العلوم هما «الحقيقة» و«الشريعة» ـ رضى الله عنه وأرضاه.

* * *

٤٣ ابن الصباغ القوصى
شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى

شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى أبو الحسن بن الصباغ القوصى.. من اسمه نستدل على بعض جوانب شخصيته فى المجالين العلمى والاجتماعى.

ففى المجال العلمى نجد أنه ينتسب إلى مدينة قوص بصعيد مصر وهى - كما يقرر المؤرخون والجغرافيون، وفى مقدمتهم الشريف الإدريسى - أنها كانت عاصمة فعليه للصعيد منذ عصر الدولة الفاطمية إلى أواخر حكم المماليك لمصر. وقد كانت لهذه المدينة مكانة عظيمة على امتداد هذين العصرين - الفاطمى والمملوكى - فى نواحٍ كثيرة، منها الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، إلى درجة أنها كانت تقف على قدم المساواة مع حواضر الدولة الإسلامية وعواصمها، مثل القاهرة، ودمشق، والإسكندرية، وحلب، وغيرها.

وكما يذكر الباحث محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العصر الإسلامى»: أن الرَّحَّالة والجغرافيين العرب قد صوروا عظمة مدينة قوص فأفاضوا فى وصف جوامعها، ومدارسها المختلفة التى كانت إبان تلك الفترة مناراً للثقافة، ومشعلا للعلم، وملتقى للمعارف التى يقصدها الباحثون والدارسون وطلاب العلم من كل صوب وحدب.

ومثل هذا التقدم الذى حققته هذه المدينة فى ميدان العلم، حققت تقدماً فى ميدان الاقتصاد، فحفلت بالأسواق العديدة، والمتاجر الكبيرة، وامتهن أهلها الحِرَفَ والصناعات، كالنسيج، والحياكة، والصباغة.

وطبيعى أن يكون نتيجة هذا التقدم والازدهار الذى عاشته هذه المدينة أن تكون ملتقى للعديد من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية، ووجهة نظر لأهل التجارة والصناعات الخفيفة من مختلف البلاد.

وطبيعى أيضاً أن يتأثر أهلها بهذا التقدم العلمى والاقتصادى الذى يترك أثره ـ ولا شك ـ على الناحية الاجتماعية. ويكون من بين هؤلاء. شيخنا أبوالحسن بن الصباغ القوصى. فنراه يستفيد من هذا المناخ العلمى ـ سواء من أهله فى المدينة نفسها، أو من الوافدين عليها من الحواضر الإسلامية المختلفة ـ استفادة مباشرة، أو غير مباشرة.

وأما عن بقية اسمه «الصباغ» فنسبة إلى صباغة المنسوجات التى اشتهر بها والده بين بلدان الصعيد.. ومن العجيب أن أبا الحسن ـ وهو الابن الأكبر، الذى كان يفترض أن يرث هذه الصنعة عن والده ـ كان لا يقبل عليها، وإذا كان يُصاحب والده فى الذهاب إلى المصبغة فإنما ذلك إمتثالاً لطاعة والده، أما عنه فقد كان لا يحب أن يستمر فيها. فكان يتحين الفرص للهروب منها إلى حلقات الوعظ والدرس التى كان يقيمها رجال التصوف وعلماء الدين بمدينة «قوص». ولعل والده قد لاحظ ذلك كثيراً، فكان يحزن لانصراف ابنه عن هذه الصنعة التى يود أن يورثها له. إلى أن كانت هذه الحادثة التى يرويها محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» فيذكر: «أنه بينما كان جميع العاملين فى حانوت الصباغة غارقين فى عملهم إذْ بأبى الحسن يأخذ جميع المنسوجات والملابس المطلوب صباغتها، ويطرحها فى وعاء واحد مُعَدٍّ للَوْن واحد من الصباغة، ويلمحه والده، فيصيح فيه ناهراً إياه وقائلا: لقد أتلفت ثيابَ الناس! قاصداً هذه الثياب المراد صباغتها، فيُخرج المنسوجات والأثواب من الوعاء ليظهر أن كل ثوب قد أخذ اللون الذى أراده صاحبه. ويقف الوالد وأبناؤه والعمال مأخوذين أمام ما رأوا، وهنا يتركونه لحاله بعد أن تأكد لهم ما هو مائل إليه من سلوك الطرق الصوفية. لتبدأ شهرته من هذه الوقعة الصبَّاغ، وتنتقل هذه الوقعة من مكان لآخر ويذيع حديث الصباغ على أنه من الصالحين..».

ويشب الصبَّاغ فى هذه البيئة المتميزة عمَّا حولها فى صعيد مصر، يُضاف إلى ذلك أنه ترقى فى أسرة على بسطة من الرزق، حتى إذا مر قطب الصعيد

عبد الرحيم القنائى بالمدينة كان الصبّاغ أول من رَحَّبَ به، وتحمس له، وأخذ عنه. ولعل القنائى قد أدرك فيه هذا الولع بالمعرفة، والحب للطريق الصوفى الذى ألهمه الله إياه، فقرَّبَهُ إليه، وأفاض عليه من عمله وفتوحاته حتى نضج فيما بدأ وأحب، إلى درجة أن أستاذه القنائى قال عنه ذات يوم: «لقد دخل أبو الحسن الصباغ من باب ما دخلنا»، قاصداً أنه اتبع الطريق الصحيح للصوفية.

ولعل عبد الرحيم القنائى كان ينزله منزله خاصة بين تلاميذه وأتباعه، وإلا فما معنى أن يقول عنه: «لو لم يكن من أصحابى إلا الشيخ أبو الحسن الصباغ لكفَى من سائر الأمم. ولئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خَيْرٌ لك من حُمُر النعم». ومعنى هذه العبارة التى سجلها الأُدْفوى فى كتابه «الطالع السعيد»: أنه لو اقتصر كل أصحابه وتلاميذه ومريديه على الصباغ وحده لكان ذلك يكفيه، فهو كرجل واحد أعز من كل النفائس الممكنة» وهذا تقدير من شيخه ليس بعده تقدير.

وطبيعى أن يكون لهذا التقدير من القنائى صداه عند الصباغ، فنراه - كما يسجل المؤرخون - يهجر رباطه. بمدينة «قوص» ليقيم فى رباط أستاذه القنائى بمدينة «قنا» بعد وفاته. ويبقى فيه بقية حياته مضطلعاً بنشر تعاليم الصوفية فى صعيد مصر، فيلتف حوله الناس، يأخذون على يديه المعارف، ويغترفون من فيض علمه، وانتقلت إليه رئاسة تربية المريدين بعد القنائى، فكان فى ذلك خيرَ خَلَفٍ لأعظم سَلَفٍ.

وكان فى تربيته وتعليمه لتلاميذه ومريديه مثلاً طيباً للغيرة على الدين، ورَفْض البدع والأباطيل، ولعل التاريخ يذكر له أنه قد حارب الشيعة الذين يتغلغلون فى مختلف مدن صعيد مصر فراراً من اضطهاد الأيوبيين، وحارب فى عنف معتقداتهم الباطنية، وكان له دور فعال فى إخماد نار الفتنة التى اشتد أوارها بين المسلمين والنصارى فى إقليم قوص، إلى جانب ذلك كله أنه كان داعياً للخير قيما علي الأخلاق، ناهياً عن الفحشاء والمنكر، وغير ذلك من الفضائل.

وهكذا وعاش حياة حافلة بالعلم والتصوف إلى أن مرض فى أخريات أيامه، فكان يعوده التلاميذ والمريدون والأصحاب المقربون فكانوا يلقونه على حالة من التصوف والرضا بقضاء الله، والتشّوق إلى ملاقاته عز وجل. حتى أن أحدهم

سمعه، كما يذكر الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» يهمس وكأنه يحدث نفسه قائلا: «سألت ما الذى بى فقيل لى: ابتليناك بالفقر فلم تشكُ، وأفَضْنا عليك النعم فلم تشغلك عنَّا، وما بقى إلا مقام أهل الابتلاء لتكون حجة على أهل البلاء..». وكان هذا هو حاله حتى فاضت روحه. فى عام ٦١٢ هـ.

مات هذا الشيخ الطيب تاركاً مذهباً يقوم فى جانبه النظرى على الحب الإلهى ووحدة الوجود، وقد روى عنه من الأشعار فى الحب الإلهى:

بقائى فناء فى بقائى من الهوى ... فيا ويح قلبى فى فناء بقاؤه
وجودى فناء فى فناء فإننى ... مع الأنس يأتينى هنيئاً بلاؤه
فيا مَنْ دعا المحبوب سراً بسره ... أتاك المنى يوماً أتاك فناؤه

ومما روى عنه أشعار فى وحدة الوجود حيث يقول:

تَسَرْمَدَ وقتى فيكَ فهو مُسَرْمَدٌ ... وأَفْنَيْتَنِي عَنِّى فَعُدْتُ مُجَرَّدَا
وكُلِّى بكُلٍّ وَصْلٌ محققٌ ... حقائقُ حَقّ فى دَوَامٍ تخلَّدَا
تَفَرَّدَ أَمْرِى فانْفَرَدْت بِغُرْبَتِى ... فصرتُ غريباً فى البريَّةِ أوْحَدَا

وكما يذكر الدكتور عبد المنعم الحفنى فى موسوعته الصوفية أن هذا الشيخ لم يجد اضطهاداً له بسبب مذهبه فى وحدة الوجود كالذى تعرض له من قبل الشيخ ابن عربى، لأنه كان بالصعيد، فلم يدر به أحد، وطريقته عن التصوف يقول فيها ليس لأحد عَلَّى فى هذا الطريق منّة إلا الله ورسوله.. وفى تعليمه للمريد يقول: لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية من الله عز وجل، ولن يصفو بذلك إلا بخدمة الأولياء ، ولن تكون لك حالة شريفة، إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض وصحبة الصالحين، وخدمة الصادقين. والذاكر لله تعالى لايقوم له فى ذكره عوض، والعارف من توافقه معرفته فى الأوامر ولا تخالفه فى شئ من أحواله، والسنة التى لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هى الزهد فى الدنيا، وسخاوة النفس، ونصيحة الخلق ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه. وعلامة محبة العبد لله أن لا يُؤْثِرَ عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار، والسعيد من أعطاه الله قلباً وفكراً وبصراً معبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً تنشط فى خدمة الله...».

* * *

٤٤ عمر بن الفارض
سلطان العاشقين

فى هذه الصفحات القليلة ربما نستشعر معنى الزهد فى متاع الدنيا بما فيها من جاه وسلطان، فما الدنيا إلا متاع الغرور، ونستشعر أيضاً معنى قوة النفس عندما تقوى على النفس ذاتها فتترفع عمّا يشينها ويخجلها، فلا فائدة لإنسان يخسر نفسه حتى ولو كسب العالم، ونستشعر فيها كذلك معنى الولاء للإنسان. . أى إنسان من أى عقيدة أو جنس أو لون. . فالكل أبناء آدم، وآدم من تراب. .

هذه المعانى جميعها يمكن أن نلتقى بها عند الحديث عن هذا الرجل الصالح. . عمر بن الفارض.

وعمر بن الفارض أو سلطان العاشقين كما يحلو أن يلقبه دارسوه ومؤرخوه. . كان شاعراً صادق الحس، رقيق النفس، مرهف الشعور. وكان إلى جانب هذه الصفات التى اجتمعت لديه صوفياً من أصحاب الرياضات والمجاهدات الروحية، وكان مع هذا كله محباً، امتلأ قلبه بأعمق معانى الحب، وتعلقت جوانحه بأروع آيات الجمال، وكانت حياته الروحية مرآة صادقة انعكس على صفحاتها ما كان يحتدم فى باطنه من انفعالات عميقة، وما فاض به قلبه من عواطف شريفة، وما امتلأت به نفسه من أحاسيس صادقة.

ولم يكن محبوب الشاعر الصوفى عمر بن الفارض الذى تغنى بحبه، ورتل أنشودته ترتيلا طويلا، وسبح بجمال ذاته وصفاته تسبيحاً جميلا، لم يكن مخلوقاً من هذه المخلوقات، أو بشراً إنسياً أفاضت فى وصفه كتب الأدب والأطباء، وفاضت بتصوير صفاته القصائد الطوال أو القصار، وإنما كان حبه منصرفاً جملة وتفصيلا إلى الذات الإلهية.

لقد انتهى سلطان العاشقين عمر بن الفارض إلى أقصى ما ينتهى إليه محب إلهى فى حبه للذات الإلهية، فأعانه شعره على التعبير عن هذا الحب تعبيراً صادقاً رائعاً، هو أول ما يكون على شوقه ورقة مشاعره، وما لهذا الحب الإلهى من دوافع، وماله من منازع، وما عليه من معانٍ.. وما ينتهى إليه من نتائج روحية سامية.

هذا الشاعر الصوفى الذى اتخذ من هذا الحب الإلهى مصدر إلهام لأحاسيسه وأفكاره وتصوراته، حتى لقب بسلطان العاشقين. ولد بالقاهرة فى مصر سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة. وعاش فى رعاية أبيه الذى كان يشغل منصباً كبيراً عند الملك العزيز. وما زال يرعى ابنه بالعلم والدرس صغيراً، وينشئه على التقوى والصلاح غلاماً يافعاً، حتى إذا صار فى عمر الشباب دفعه إلى الاشتغال بالفقه ثم حبب إليه أن يسلك طريق الصوفية، وأن يتزهد ويتجرد، وأن ينظر إلى الدنيا على أنها متاع الغرور.

حتى إن أغلب الدراسات التى عنيت بترجمة حياة هذا الشاعر الصوفى - وفى مقدمتها دراسة كل من الدكتور محمد مصطفى حلمى، والدكتور سعد عبد العزيز - ترجعان هذه الشفافية، والعلم الواسع، والورع المنقطع النظير، وغيرها من سمات تميز بها عمر بن الفارض إلى هذه النشأة الأولى التى وجهها هذا الوالد المثقف.

بل إن هناك من الدراسات التى تربط بين هذه النشأة وبين ما أخذ ابن الفارض به نفسه من شدة، حيث كان يمارس حياته الجديدة بالتوجه إلى جبل المقطم بالقاهرة والاستقرار فيه بوادى المستضعفين، حيث كان يخلو بنفسه خلوة تامة ويصوم فيها عن الطعام والشراب والكلام عدة أيام قد تبلغ العشرة، ثم يعود بعدها ليستأنف حياته العملية من جديد.

وعلى هذا النحو كانت رياضة ابن الفارض الروحية التى ظل يقوم بها بانتظام وعلى الدوام منذ الشباب.

وإذا كان لموطنه الصغير المتمثل فى بيته وأسرته دخل كبير فى نشأته، فإن لموطنه الكبير المتمثل فى مصر وعلمائها وفقهائها وما كان يجرى فيها وقتئذ من أحداث دخل أكبر وأهم.

لقد عاش هذا الشاعر الصوفى فى عصر كله قلق واضطراب، بسبب ما كان ينشب من حروب صليبية تسببت فى إجهاد مصر اقتصادياً على مدى سنوات طال، وقد كان لهذا أثره أيضاً على الحياة الفكرية فى ذلك الوقت، حيث اتخذت طابعاً دينياً يمتاز بنزعته الروحية الصوفية، وبالتالى صار التصوف نوعاً من السمو الروحى والطريق الذى يدفع الإنسان إلى التجرد من آثار العصبيات الدينية والطائفية، حيث أصبح لا مكان لهذه العصبيات بين أبناء الوطن الواحد الذى ينبغى أن تتضافر جهودهم فى مواجهة خطر يتهددهم جميعاً.

هذا إلى جانب أن روح هذا العصر بوجه عام قد انعكست على مذاهب الصوفية التى كانت سائدة وقتئذ فى غير مصر، ومنها مذهب وحدة الوجود الذى نادى به المفكر العربى المسلم محيى الدين بن عربى، ومنها أيضاً الحكمة الإشراقية التى نادى بها أيضاً السهروردى. . وكانت نظرة هذين المذهبين تفصح عن احترام الأديان الأخرى غير الإسلام، لأن الدين لله، وأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الجميع. وأن الغاية التى يسعى إلى تحقيقها. أى دين سماوى تتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وفى ضوء ذلك التفسير استطاع المصريون أن يتفوقوا على ظروفهم، وأن يتخذوا من التصوف وسيلة لرياضة النفوس على التسامى، والتسامح والترفع عن الصغائر. والالتزام بالنظرة الواحدية للأديان. . ذلك أن الأديان إن اختلفت فى شعائرها وطقوسها وأشكالها. إلا أنها تتفق جميعا وأهدافها وغاياتها.

ويقرر الدكتور سعد عبد العزيز اتصال ابن الفارض بمحيى الدين بن عربى وتأثره بفلسفته التى تنادى بوحدة الوجود كما أخذ عن السهروردى حكمته فى الإشراق التى تقوم على نظرية الفيض الإلهى حيث يقول: «فعند ابن الفارض أن المتصوف يتحرق شوقاً إلى معرفة الحقيقة العليا، والنور الأسمى، وما يصدر عنه، فالشوق هنا إنما هو الدافع الذى يدفع المرء إلى الاتصال بخالقه. حتى يرى فى حواره مالاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من مشاهدة النور الحق، والانغماس فى أمواجه، فإذا خلصت النفوس من كل ما يعلق بها من أدران وشوائب فإنه فى مقدورها أن تكشف كل ما يجرى وراء الحجب من خفايا وأسرار. . »

وبهذا التفكير ذاع صيت سلطان العاشقين عمر بن الفارض فى العالم الإسلامى، وطبقت شهرته الآفاق كشاعر متصوف له نظر فلسفى، إلى درجة أن الملك الكامل كان ذات يوم يتجاذب أطراف الحديث مع نخبة من علماء وفقهاء وأدباء زمانه، فجرى بينهم على غير قصد ذكر عمر بن الفارض بهذه الكيفية التى شدت إليه انتباه العالم الإسلامى، وقد أخذ الحاضرون فى مجلس الملك يذكرون مآثره أمام الملك، سواء فى الشعر أو التصوف أو الفلسفة، ويذكرون أيضاً زهده فى الدنيا، وعزوفه عن مغرياتها، واختياره الاختلاء بنفسه بعيداً عن البشر، حتى يتمكن من مضاعفة التعبد صياماً وقياماً، وتطهيراً لنفسه من كل الأدران والشوائب حتى يتقرب إلى الله.

وينصت الملك الكامل مهتماً إلى كل هذا ليصيح قائلا: «مثل هذا الصالح العظيم يكون فى زمانى ولا أزوره. لابد لى من رؤيته وزيارته» وينهض متجهاً إلى الأزهر الشريف فى جماعة من أمرائه لهذا القصد.

ولم يكد ابن الفارض يحس بقدوم هذا الركب الملكى قاصداً زيارته، ويتأكد له هذا الأمر، بدخولهم من الباب الرئيسى للأزهر... حتى يتحاشى لقاءهم، ويخرج من باب آخر، ولا يبيت ليلته بالقاهرة، حيث يغادرها إلى الإسكندرية، رغبة منه فى عدم إتمام هذا اللقاء زاهداً فى كل ما ينتج عنه من مكاسب أو فوائد.

وفى الإسكندرية يعيش هذا الصوفى الجليل بجوار منارها عيشة الكفاف، حتى يستقر به المقام فى مسجد أقيم هناك عاكفاً على قراءاته وكتاباته وتعبده. ويقال إنه فى هذا المسجد الصغير كتب قصيدته المشهورة التى سماها «التائية الكبرى» وهى المتضمنة لطبيعة تصوفه وفلسفته ونظريته فى الحب الإلهى.

غير أن هذا الشاعر الصوفى لا يطيب له المقام طويلا بالإسكندرية بعد أن أصابته العلة وهو بعيد عن مسقط رأسه القاهرة، هذه العلة دفعته دفعاً إلى العودة إلى القاهرة التى لا يستطيع فراقها أكثر من ذلك، وفى ظروف حالته الصحية الأخيرة.

وبالفعل عاد إلى القاهرة، ولكن كان مريضاً، ويبدو أن العلة قد تمكنت منه إلى

درجة أنه ظل ملازماً للفراش، حتى إذا بلغ الملك الكامل نبأ مرضه، راح يستأذنه فى زيارته مع طبيبه الخاص، فلم يجد من ابن الفارض إلا الاعتذار والشكر.

لكن المرض يشتد وطأة، والملك يعود مرة ثانية طالباً الاستئذان له بالزيارة، فيشكره معتذراً، وهنا يجعل الملك مبعوثه يستأذن عمر بن الفارض فى إقامة ضريح له يلائم مقامه الجليل، فيشكر له هذا الكرم. وظل فى مكانه لا يبارحه حتى وافته منيته. فيدفن هناك تحت سفح المقطم، كغيره من أبناء الشعب الصالحين.

* * *

٤٥ أبو الفتح الواسطي مؤسس الرفاعية بمصر

قبل التعرض لشخصية وأفكار أبى الفتح الواسطى مؤسس الطرق الصوفية بمصر، وجد القطب إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية بمصر، وهى الطريقة الصوفية المحلية بها. . . ينبغى أن نلقى ضوءاً على هذه الطرق التى انتسب إليها القرن الهجرى السابع، فقيل إنه قرن الطرق الصوفية بوجه عام، فما مداه؟ وما تأثيره على وجه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بمصر تحديداً؟

الحق أن بعض العلماء والباحثين العرب قرنوا انتشار الطرق الصوفية بتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بوجه عام، وإذا نظرنا إلى القرن السابع تحديداً فى مصر نجد أن هناك بالفعل تدهوراً فى هذه الأحوال جميعاً فما تفسير ذلك؟

لعل أحد الباحثين الأجانب أشار إلى ذلك بوجه عام، حيث رأى أن ذيوع التصوف يصحبه تدهور فى الحضارات. ويضرب مثلاً على ذلك بما حدث فى الهند القديمة، وفى العالم الرومانى والإغريقى، وفى القرون الوسطى فى ألمانيا، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فى فرنسا، فقد خبت الرغبة الصحيحة فى الحياة لدى بعض الموهوبين ذوى العقول النبيلة، والمشاعر المرهفة. حيث انقطع الرجاء فى حياة مستقلة ممتعة. إن كره هؤلاء للعالم المادى والحضارات يأخذ بمجامع قلوبهم، وإن رغبتهم فى الخير المطلق تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد لتخليص أنفسهم وحريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع.

ويتفق مع هذه النظرة التى ترى أن انتشار الطرق الصوفية يقترن بتدهور فى الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عدد من الباحثين، فى مقدمتهم الدكتور عامر النجار، حيث رأى أن التصوف العملى ـ أى تصوف أصحاب الطرق الصوفية ـ جاء مواكباً لضعف الحضارة الإسلامية. ويتفق هذا مع الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى رأى من قبل أن الرغبة فى العزلةوالعودة إلى الله لا تقوى إلا فى ظلال الضعف: فقليل من الناس يتذكر «الله» فى قُوَّته وصحته وشبابه وثرائه، وكثير منهم يذكرون الله فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم، ولهذا يقرر الدكتور عامر النجار أن تصوف الطرق الصوفية قد ازدهر ونما فى عصور ضعف الأمة الإسلامية فى القرن السابع الهجرى، ومن عجيب الأمور أن الحكام فى هذا القرن كانوا يشجعون المصريين على ذلك، ويتركونهم ينضمون إلى الطرق الصوفية كما يريدون، حتى ينشغلوا عن فساد هؤلاء الحكام. ولهذا كان القرن السابع الهجرى أكثر القرون اضمحلالاً إجتماعياً وسياسياً وإقتصادياً، مع أنه كان أكثرها تميزاً بوجود الطرق الصوفية، حيث ظهرت الطرق الصوفية البدوية والشاذلية والدسوقية وقويت طريقتا الرفاعية والقادرية.

وإذا كان للشيخ أحمد الرفاعى فضل فى نشر حركة الصوفية من العراق إلى كل أرجاء العالم الإسلامى، فقد كانت هناك شخصيات صوفية تتلمذت على يديه بالعراق، وصار لها الفضل أيضاً فى نشر هذه الصوفية فى العالم الإسلامى، من هذه الشخصيات البارزة فى تاريخ هذه الطرق، شخصية الشيخ أبى الفتح الواسطى، مؤسس الطرق الصوفية بمصر على وجه التخصيص، حيث وفد إلى مصر من العراق، وأقام بالإسكندرية، وبشر بها.

وكما يرى الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وتطورها» أن هذه الشخصيات الصوفية كانت وراء دفع ونمو حركة الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، إما بطريق مباشر أو بغير مباشر. وفى مقدمة هذه الشخصيات أبو مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبو الفتح الواسطى. والدليل على وجود هذا الدور لهذه الشخصيات إن أبا مدين التلمسانى المتوفى عام ٥٩٤ هجرية هو أستاذ عبد الرازق الجزولى، والجزولى هو شيخ ومعلم كل من عبد الرحيم القنائى، وأبى الحجاج الأقصرى، وهما من أقطاب التصوف فى مصر، كما أن أبا مدين التلمسانى، أستاذ وشيخ عبد السلام

ابن مشيش، أستاذ ومربى أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية بمصر، والذى سيأتى الحديث عنه فى الصفحات التالية من هذا الكتاب.

وقد توفى الواسطى بمدينة الإسكندرية ودفن فيها حوال عام ٦٣٢ هجرية.

وطبيعى أن يظل مكان الواسطى فى زعامة الطرق الصوفية شاغراً. إلى أن يختار من بعده السيد أحمد البدوى صاحب الطريقة البدوية المعروفة، أو كما يسجل الأستاذ على سالم عمار- فى كتابه عن أبى الحسن الشاذلى حيث يقول: «إنه لما وصل خبر وفاة الواسطى إلى خلفاء الرفاعى بالعراق، مركز الدعوة والطريقة الرفاعية، وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوى ليخلفه فى الزعامة بمصر، فوصل مبعوثاً من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة ٦٣٥ هجرية، وفى هذا تقدير كبير لمركز الواسطى ومكانته..»

والجدير بالذكر أن السيدة فاطمة أم السيد إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية أو البرهامية.. هى ابنة الشيخ أبى الفتح الواسطى، الذى أدى دوراً كبيراً فى التخطيط لإقامة واستمرار الطرق الصوفية فى مصر. ويرى المؤرخون أن أبا الفتح قد تصوَّر - إن لم يكن قد خطط - أن يكون حفيده السيد إبراهيم الدسوقى شيخاً كبيراً مثل شيخه الأكبر السيد أحمد الرفاعى.

ومن هنا يمكن القول اتفاقاً مع المؤرخين لهذه الطرق بأن أبا الفتح الواسطى، وأبا مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش كان لهم الأثر فى بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها، وانطلاقها فى القرن السابع الهجرى - قرن التصوف فى مصر - حيث ازدهرت حركة الطرق الصوفية كما رأينا، ولاقت تشجيعاً من الحكام. وفى هذا القرن أيضاً ظهر أهم أعلام الطرق الصوفية.

والجدير بالذكر أيضاً أن الواسطى - وهو من مواليد بلدة واسطة بالعراق، والذى توفى بالإسكندرية - قد لاقى التقدير والتكريم من أهل مصر، فبنوا له مسجداً بالإسكندرية، وضريحاً لقبره يزار.

ذلك لأن مصر لم تنسى كعادتها الذين أعطوا حتى ولو كانوا من البلاد العربية الشقيقة. بل إنها تنزلهم منزلة أبنائها، لا فرق بينهم، ولهذا وغيره من الأسباب نجد الصالحين يهرعون إليها من المغرب والمشرق.. الكل يريد أن يعيش فيها، ويُدفن فى ترابها.

* * *

٤٦ أبو الحجاج الأقصرى وانتشار الإسلام بطيبة الفرعونية

لم يدخل الإسلام الأمم والممالك بحد السيف على ما يزعم أعداؤه، وإنما دخلها بالحجة والإقناع، الحجة بما أتى به من مبادئ وقيم تسمو بالحياة الإنسانية، والإقناع بأن هذا الدين ما جاء إلا لخير الإنسان ونفعه فى كل ما دعا إليه من تعاليم وتوجيهات، أو فى كل ما نَهَى عنه من شرور وآثام.

ولو أن الإسلام كان على هذه الصورة التى رسمها له أعداؤه لما انتشر، ولما استقر، والأكثر لما استقر فيِ القلوب ورسخ فى النفوس. وازداد انتشاره قرناً بعد قرن، واتسعت رقعته حتى فى أمم لم تكن فى الحسبان، فالذى يحصى عدد المسلمين فى البلاد الأوربية والأمريكية والأسيوية اليوم يجدها وقد تضاعفت عشرات المرات قبل هذا القرن، وهو ما يؤكد أن هذا الدين لديه من إمكانية الحجة والإقناع بشكل يجعل الآخرين يدخلون فيه أفواجاً برغم ما يُوَجَّه إليه من افتراءات، وما يمر به من محن.

ولعل قدرة هذا الدين على الحجة والإقناع مضافاً إليها مواكبته لكل زمان ومكان، جعلته يسود وينتشر بهذا الشكل السلمى، البعيد عن العنف وإراقة الدماء.

فمن فضائل هذا الدين أنه لا يُكره أحداً على الدخول فيه عنوة واقتداراً، فلا مانع من أن يظل الناس على دينهم، وأن تظل بعض الأماكن حتى فى بلاد الإسلام على دينها بعد ظهور الإسلام بمئات السنين، إلى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه أهل هذه الأماكن أن الإسلام دين أولى بأن يُتبع، وذلك بالحجة والإقناع،

لابالقوة والإجبار، فالله عز وجل لم يُكره الناس فى قرآنه الكريم على أن يؤمنوا، وإنما دعاهم إلى اعمال العقل فيما يؤمنوا به، فالله عز وجل لم يقدم ذاته فى ألغاز وأساطير، وإنما جعل معرفتنا به سبحانه من خلال صنعه فى خلقه، وهذا ما يؤكده كتاب الإسلام «القرآن الكريم».

ولهذا وغيره لا نجد غرابة فى أن يظل بعض الناس فى دور الإسلام وبلاده على دينهم. ومتى؟ فى أوج عظمة الإسلام وحضارته فى العصور الوسطى.

وهذا هو إقليم «طيبة» (الأقصر الآن) بالصعيد خير مثال على ماسبق، فكما يسجل المؤرخون أن هذا الإقليم بمصر قد بقى على دينه المسيحى حتى بعد ظهور الإسلام بأكثر من ستة قرون، مع أن مصر دخلت حظيرة الإسلام منذ بدايات القرن الهجرى الأول، على ما رأينا من قبل فى الفصول السابقة. ومع هذا لم يحدث لأهلها أى سوء ممن يحيطون بهم من المسلمين الذين دخلوا فى الإسلام، حتى إذا قيض الله عز وجل من يحبب الإسلام إليهم دخلوه مختارين بدون إذعان.

لقد وفد الرجل الصالح يوسف بن عبد الرحيم بن غزى المعروف بأبى الحجاج الأقصرى (نسبة إلى مدينة الأقصر) من بغداد التى ولد بها إلى هذا الإقليم من صعيد مصر الأعلى، حيث لم تكن وفادته من مسقط رأسه بغداد حاضرة من الخلافة العباسية فى عهد الخليفة العباسى المقتفى بأمر الله بمحض المصادفة، بل كانت له فى هذه الوفادة رسالة وجب عليه أداؤها ـ كما يذكر الباحث محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» بعد مراجعة لعدد من الكتب القديمة فى مقدمتها «وفيات الأعيان» لابن خلكان، «الكامل» لابن الأثير و«الطالع السعيد» للأدفوى. . . أن العارف بالله أبا الحجاج الأقصرى ترك أثراً عظيماً فى الأقصر أو طيبة القديمة سيظل خالداً على مر الزمن، وهو جهده فى نشر الدين الإسلامى بهذا الإقليم، إذ استطاع أن يغير وجه الحياة فى هذه المدينة التى كانت أكبر معقل للكهنوتيه منذ فجر التاريخ بنشره الإسلام بين ربوعها، حيث أسلم على يديه الكثير من الرهبان المسيحيين طوعاً لا كرهاً، وعلى رأسهم الراهبة ترزة بنت القيصر، التى كانت تمثل دعامة قوية من دعائم الدين المسيحى فى صعيد مصر، كما أنه احترم من بقى على دينه المسيحى. وعاش المسلمون والأقباط جنباً

إلى جنب فى أخوة صادقة تفيض بالمحبة والإخاء، شعارهم الدين لله والوطن للجميع - مسلمين ومسيحيين - كل ذلك كان بفضل سماحة هذا الرجل الصالح أبى الحجاج الأقصرى ولين جانبه، وواسع أفقه.

ولا يقل موقفه من هذه المعتقدات التى تفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً، ودوره فى القضاء عليها بصعيد مصر، عن موقفه ودوره فى نشر الإسلام فى هذه البقعة من مصر. كان ذلك حين رفض كل الآراء والمعتقدات التى من شأنها المساس بسماحة الإسلام الحقيقية، حين وقف فى وجه الشيعة والآراء الباطنية فى الصعيد. بعد سقوط الدولة الفاطمية، ذلك لأن أبا الحجاج الأقصرى كان سُنياً متشدداً، ترك أهله وعشيرته ووطنه فى بغداد حينما انتشرت هذه الفئة واستكبرت، وأتت بتفسيرات كثيرة ليست لصالح المسلمين. فى هذا الإقليم لم يقف منها موقفاً سلبياً، بل حارب دعاتها ومعتنقيها، ورماهم بالفسوق والعصيان.

ولا تقتصر جهود هذا الشيخ الصالح على هذين الأمرين فحسب، بل نجد له جهوداً متعددة فى دفاعه عن الفضيلة، ومحاربته للبدع والمنكرات، مما كان له كبير الأثر فى ازدهار هذا الإقليم الذى اختاره مستقراً له، حتى خرج بمجتمع الأقصر من حياة الخمور والتخلف إلى السعى المتواصل فى الدنيا من أجل الآخرة، فهو من هؤلاء الصوفية الذين يجمعون بين العبادة الحقة والإصلاح الإجتماعى.

وظل أبو الحجاج الأقصرى على هذا النحو إلى أن كانت وفاته فى عام ٦٤٢ هـ عن عمر يزيد على التسعين عاماً. فيكون يوم وفاته مشهوداً فى الصعيد، حيث تقاطر الناس من كل بلاد الصعيد لتوديعه إلى مثواه الأخير، حيث دفن بضريحه الكائن الآن فوق معبد آمون الشهير بالأقصر.

مات هذا الشيخ الصالح بعد أن حفلت حياته بجلائل الأمور وفى الوقت نفسه عاصر الصراع الدائر فى مصر والشام بين المسلمين والصليبيين، كما أنه لمس بدء تحرك جحافل المغول الذين أخذوا يتخطفون البلاد الإسلامية فى عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله، الذى قُتل بعد سقوط بغداد. فكان هذا الشيخ «أبو الحجاج الأقصري يأسى لحال المسلمين وما آلت إليه أمورهم بسبب حرصهم على متاع الدنيا أكثر من الآخرة.

ولأبى الحجاج الكثير من الآثار العلمية، غير أنه لم يتيسر للباحثين العثور

عليها، كما يذكرون فى أبحاثهم، ولكن النذر القليل من هذه الأبحاث يكفى لمعرفة منهجه وأسلوبه فى الدنيا والدين. ومن هذه الآثار العلمية التى أمكن الحصول عليها منظومته فى علم التوحيد، التى ضمَّنها تسعة وتسعين باباً، وهى تقع فى ثلاثمائة وألف بيت من الشعر، دافع فيها عن العقائد الإيمانية دفاعاً مجيداً، حيث استهلها بقوله:

الحمد لله العلى الصمد   الأول الآخر لا بأمد

وقد تحدث فيها عن ذات الله عز وجل وصفاته، والدار الآخرة، والبعث، والنشور، والجنة والنار، كما تعرض فيها للإمامة والخلافة وشروطهما، وغيرها من موضوعات الدين والدنيا بشكل يكشف عن سعة أفقه، وغزارة معرفته بالعلوم الكلامية وغير الكلامية.

ومن آثاره العلمية أيضاً كتاباته التى تركها كأقوال مأثورة فى الصوفية، ومنها: «من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسى إساءاته وإحسانه، ومهما بقى الحس ومدركات الحس فالعقل هنا مخبول، وإذا لم يبق حس ولا محسوس انطلق العقل..».

لكن الذى يبقى خالدا من هذا الرجل الصوفى هو منهجه فى التربية، إذا كان من هؤلاء الصالحين الذين أحسنوا تربية التلاميذ والمريدين وفق منهج خاص، وطريق واضح، فكان يرى أن للمريد أدباً مع شيخه، وأدباً مع زميله، ولهذا يقر مؤرخوه أن له مدرسة واضحة المعالم فى صعيد مصر، اتسعت للكثيرين ممن أرادوا التأدب بأدبه وسلوك نهجه فى التصوف.

فكما يقول الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» عن هذا الرجل الصالح أبى الحجاج الأقصرى وأثره فى التصوف: إنه «تخرج على يديه سادات وأكابر، نطقت بمناقبهم ألسنة الأقلام، وأفواه المحابر، ممَّن له فضل بارع، وباع فى الكرامات واسع...».

رحم الله شيخنا أبا الحجاج الأقصرى، وجزاه عن جهده عظيم الثواب، فقد كان حقاً وصدقاً رجلاً صالحا فى كل مراحل حياته.

* * *

٤٧ أبو السعود بن أبى العشائر
عراقى يدافع عن مصر

لعل سيرة حياة الرجل الصالح أبى السعود بن أبى العشائر تؤكد بصورة أو بأخرى جملة من الحقائق التى فى مقدمتها أن العالم العربى توحدت أجزاؤه منذ ظهور الدعوة المحمدية فى شبه الجزيرة العربية، حتى أصبح هذا العالم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وأن هذا التوحد قائم - برغم ما يحدث من انقسامات سياسية - ما قام لهذا العالم دين واحد، ولغة واحدة، ومصالح مشتركة، وإلا فما معنى أن نرى هذا الرجل الصوفى الصالح «أبا السعود بن أبى العشائر» المنصرف تماماً إلى عبادة ربه، صياماً وقياماً، تفكراً وتأملاً، يترك بلدته «باذبين» فى العراق قاصداً دمياط بمصر، ليقف بين صفوف أبنائها مجاهداً ضد قوى البغى والعدوان بكل ما أوتى من حول وقوة، غير عابئ بما يربطه ببلده بالعراق من ارتباطات، كل ما يهمه أن ينصر أخاه فى الدين واللغة والمصلحة المشتركة ضد هؤلاء الذين أتوا إليه من الغرب الأوربى للقضاء عليه... لو لم يكن هذا الرجل الصالح يدرك تماماً أن ما يصيب مصر تتأثر له الأمة العربية كلها حتى فى أطرافها المتباعدة.

يُضاف إلى هذه الحقيقة أمر آخر، لعله يتصل بسلوكيات رجل التصوف الحقيقى، المستمد من سلوكيات رجال الصوفية الأوائل الذين كانوا يرفضون أن تكون الصوفية انصرافاً كلياً عن الحياة بكل ما فيها، أو رفضاً بكل ما يتعلق بها من مسئوليات والتزامات تفرضها بالضرورة طبيعة الحياة نفسها، الدائمة التجدد والتغير، لا أن يعتزل الناس ويعيش فى خلوة معتمداً على غيره فى طعامه وشرابه، ومحاطاً بالدراويش والمهاويس الذين يعيشون أيضاً عالة على غيرهم، ظناً منهم أن

هذا هو الطريق الصحيح للصوفية! وغير ذلك من صور خاطئة تسئ إلى الصوفية ورجالها الأوائل أكبر إساءة. . هؤلاء الرجال الصالحون الذين رأوا أن التصوف عمل بغير توقف، وجهد بغير كلل إلى جانب أنه عبادة وتأمل، لا يصرف أحد المنتمين إليه عن الاعتماد على نفسه، والاستكفاء بعمل يده، وإلا فما معني أن يخرج هذا الرجل الصوفى الصالح أبو السعود بن أبى العشائر فى كوكبة من أتباعه ومريديه لينضم إلى صفوف المجاهدين فى بلد غير بلده؟ ويقطع آلاف الأميال والفراسخ إلا لإيمانه بأن صوفيته لا تمنعه عن مزاولة ألوان الحياة، ومنها الدفاع عن بلد يربطه به رباط الدين واللغة والمصالح المشتركة.

يضاف إلى هاتين الحقيقتين الباهرتين. أن مصر خاصة كانت منذ مئات السنين - كما هى اليوم - قلب العروبة النابض، وأن ما يصيب هذا القلب من أذى يشل بصورة أو بأخرى بقية بلدان هذه الأمة العربية. . . وإلا فما معنى أن ينهض هذا الرجل الصوفى الصالح من إحدى قرى العراق النائية ملبياً نداء الدفاع عن مصر وأين؟ فى دمياط. لو لـم يعِ حتى بصـورة خام أو جينينة أن مصـر تمثل هذا القلب النابض لهذه الأمة التى يراد لها الانقسام منذ أن كانت خير أمة أخرجت للناس.

هذا الرجل الصالح أبو السعود بن أبى العشائر الباذبينى القادم من العراق ليدفن عام ٦٤٤ هـ بسفح المقطم فى القاهرة بمصر بالقرب من من مدفن ابن عطاء الله السكندرى، ولد ببلدة باذبين القريبة من مدينة واسط بالعراق وجاء مصر فى عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبى. فى وقت كانت جيوش الصليبيين تدق أبواب مصر.

وفى ذلك يسجل الذهبى فى تاريخه أن جيوش الفرنجة جاءت إلى ثغر دمياط فى مائتى مركب محملة بالجنود والعتاد، ونادى الملك الكامل فى القاهرة بأن النفير عام، «أى التعبئة العامة» معلناً الجهاد فى بلاد الإسلام، لذلك لم ير الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر بُداً من التوجه إلى مصر والانخراط فى صفوف المجاهدين.

وتذكر المصادر التاريخية أن الشيخ أبا السعود قد أبلَى بلاءً حسناً فى المعارك التى دارت بين المجاهدين من مصر والمعتدين من الفرنجة. وإن لم تذكر بعض هذه المصادر التاريخية الدور الذى قام به الشيخ أبو السعود على وجه التحديد، غير أن البعض الآخر من المصادر ـ وخاصة الحديثة ـ تحديد هذا الدور اعتماداً على ما جاء فى كتابى «السلوك» للمقريزى و«بدائع الزهور» لابن إياس، بأن دور الشيخ أبى السعود كان هو التوعية الدينية، والحث على الجهاد فى سبيل الله، حتى أنه لم يرجع إلى القاهرة إلا بعد رحيل الصليبيين عن دمياط، بعد أن عقدوا صلحاً مع الملك الكامل.

ولا يستهان بدور التوعية الدينية التى قام بها الشيخ أبو السعود فى مثل هذه المعارك القائمة أساساً على العقيدة والدين بين الطرفين، فهو دور واسع المدى، عميق الأثر فى الحرب الحديثة والقديمة معاً، ولا يستطيع أن يقوم به إلاَّ مَنْ أوتى القدرة على الإقناع بالحجة والدليل، وهو ما يعرف حديثاً برفع الروح المعنوية لدى القوات المتحاربة كجبهة مقاتلة تستطيع أن تستعيد الأرض، وتصون العرض.

أما كيف كان هذا الرجل الصالح؟ وماذا عن جهوده فى إعلاء كلمة الإسلام؟ فقد أفاضت فى ذلك كتب السير والتراجم، ومنها «الكواكب السيارة» لابن الزيات، و«الطبقات الكبرى» للشعرانى، و«تحفة الأحباب» للسخاوى وغيرها من كتب سجلت أن الإمام الرفاعى مؤسس الطرق الصوفية بالعراق بشر بمجيئه، وبأنه سوف ينشأ على العبادة والمحافظة على تعاليم الإسلام، وبأنه سيكون من المنافحين المدافعين عن هذا الدين.

وأما عن مكانته فى القاهرة ومصر عامة فيذكر ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة» أن إمام القاهرة أبا العباس القراباغى كان إذا سُئل من أتباعه ومريديه وعن الذى سيحل محله فى قيادة السفينة من بعده؟ أجاب قائلا: «ليس فى الجماعة من يجلس مكانى إنما يجلس مكانى رجل يأتى من العراق من بلاط واسط. فيدخل هنا ويصلى صلاة الجماعة. ويجلس بهذا المكان، ويأخذ العهد ويربى المريدين لدين الله على الإيمان والتقوى».

وقد صدقت نبوءة كل من الإمام الرفاعى والإمام القراباغى، فما إن مات الأخير، ونظر أصحابه وأتباعه إلى مَنْ سيخلفه، حتى جاء هذا الرجل الصالح من العراق ومعه أصحابه، ليؤذن آذان الظهر داعياً الحاضرين إلى الصلاة. وليكون هو الإمام الصوفى المنتظر.

وعن آثاره وأخباره يحدثنا الشعرانى فى طبقاته الكبرى بأن الشيخ أبا السعود كان من أجِلاَّء مشايخ مصر، وعظماء أئمتها، وأن الملك الكامل وكذا السلطان نجم الدين الأيوبى كانا يسعيان لزيارته فى زاويته بباب القنطرة ـ ومكانه الآن باب الشعرية ـ كما كان الأعيان وكبار رجال الدولة يسعون إليه طلباً لعلمه وفضله، وتبركاً به كرجل من الصالحين.

ومن مأثور حديث الشيخ أبى السعود هذا القول: «كيف يصح لعابد أن يخلص فى عبادته وهو غير عالم بآفاتها، فإن الهوى روحها. والشيطان خادمها، والشرك مركون فى طبعها، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول فى حلقتها، وسوء الظن وما ينتج عن الكبْر وقلة الاحترام سِيمتُها، ومحبة الصيت والاشتهار حياتها.. فكيف يقرب عبد من مولاه عز وجل مع بقاء هذه الآفات ومصالحتها؟!».

رحم الله هذا الرجل الصالح.

* * *

٤٨ ابـن الحاجـب
فقيه أثبت حيوية اللغة العربية

حياة كل لغة تتلخص فى أمرين: ماض له احترامه وقداسته، وحاضر له حاجاته ومتطلباته. وإذا وقفت اللغة عند الماضى وحده كتب عليها الجمود والركود، وإذا شغلت بالحاضر فحسب، فَقَدَتْ أخص خصائصها من الاطراد والاستقراء وأصبحت وليدة الهوى والمصادفة، وأدت إلى كثير من البلبلة.

ولغتنا العربية فى كل زمان يعتد أبناؤها بماضيها وحاضرها فيتباهون بتراثها الخالد، ويحرصون فى الوقت نفسه على تنميته وتغذيته حتى يواكب الزمن. حتى أصبحت هذه اللغة على أيدى أبنائها المخلصين تمقت الجمود، وتأبى الطفرة، وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه الحاجة. مبدؤها فى ذلك مبدأ إسلامى خالص، وهو: لاإفراط ولا تفريط.

ومن بين أبناء اللغة العربية المخلصين لها «ابن الحاجب» جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس عالم اللغة فى القرن السابع الهجرى. حيث كانت كتاباته ترى أن للغة ماضياً وحاضراً ومستقبل.

فماضيها تراث أدبى من نثر وشعر، وتراث فكرى من علم ودين وفلسفة. وعلى أبناء هذه اللغة مراعاة هذا التراث وتعهده، وتوجيه النظر إليه، والدعوة إلى إحيائه.. والأهم استخلاص ما يلائم الزمن ويتمشى معه من هذا التراث. وحاضرها عمل دائم على تطورها، ومستقبلها أمل فى تقدمها حتى تواكب متغيرات المستقبل.

وعلى الرغم من أن ابن الحاجب يقرر أن اللغة العربية لغة حية معبرة فإنه فى الوقت نفسه يرى أن فى الماضى اللغوى عصور ضعف، وعصور قوة، عصور

ركود وعصور ازدهار. وتساءل: هل ينبغي علينا نحن أبناء هذه اللغة الوقوف عند القرنين الثانى والثالث للهجرة أم نتجاوزهما؟ وانتهى إلى القول بأنه ينبغى الا نقف، بل علينا فى الإجتهاد، ذلك لأن اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم - تتطلب منا الاجتهاد حتى تواكب الزمن الذى توجد فيه.

وأما حاضر اللغة كما يراه ابن الحاجب فهو ما تعيشه من مستحدثات، وما تواجه من مشكلات، وما تضطلع به من الأعباء، وما تعبر عنه من الأمور.. حاضر اللغة بإختصار هى الحياة فى شتى مظاهرها.

والحق أن هذه الرؤية لابن الحاجب، المأخوذة من كتاباته - بتصرف - رؤية متقدمة على زمانه. لعلها تتفق مع أقوال علماء اللغة فى بداية القرن الخامس الهجرى، حيث يرون أن اللغة العربية تمتاز بين اللغات العالمية الكبرى بأنها فى آن واحد قديمة وحديثة عاصرت من اللغات القديمة اليونانية واللاتينية غرباً، والسنسكريتية والبهلوية شرقا، وعمرت بمرونتها واشتقاقها استطاعت أن تيسر فى الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى، وأن تؤدى وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة، مما يشعرنا بأناً نملك حقاً لغة نستطيع أن نتصرف فيها، كما كان يملكها قديماً أبناء العروبة فى الجاهلية والإسلام، ويستخدمونها على حسب ما تقضى به حياتهم وظروفهم.

ونعود إلى ابن الحاجب هذا العالم النحوى المجدد لنتعرف عليه وعلى بعض أعماله، فنجده مصرياً، ولد بصعيد مصر، وبالتحديد فى «إسنا»، فى الأيام الأخيرة من عام ٥٧٠ هـ. حيث كان أبوه حاجباً لأمير الكردى عز الدين موسك الصلاحى.

حفظ القرآن فى القاهرة، ودرس العلوم المتصلة به كالفقه وأصوله على مذهب الإمام مالك، إلى جانب دراسته المستفيضة للنحو والأدب، شعره ونثره. وكان أهمّ شيوخه الإمامُ الشاطبى، والفقيه أبو منصور الأبيارى وغيرهما.

رحل من مصر إلى دمشق، وقضى بها مدة طويلة يلقى دروسه على الناس فى الزاوية المالكية بالجامع الأموى، وكان له طلابٌ وعمود ينتسب إليه فى هذا الجامع العتيق. ثم عاد إلى القاهرة ليلقى دروسه فى الفقه وأصوله بمساجدها، وأخيرا ينتقل إلى الإسكندرية، ويظل بها حتى وفاته فى ٢٦ شوال من عام ٦٤٦ هجرية.

وأعمال ابن الحاجب أغلبها فى الفقه والنحو والعروض. إلا أنه اشتهر بالنحو بوجه خاص، وهو فى هذا الميدان ـ بالذات ـ يختلف من عدة وجوه عن أسلافه، كما كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية فى مصر، وعقائدها فى المغرب. ومؤلفاته واضحة الأسلوب لا تحتاج إلى تفسير. ولعل منها ما يدرس حتى الآن بالأزهر الشريف. من هذه المؤلفات.

ألكافية: وهو كتيب فى النحو العربى يُعَدّ من الأصول فى هذا العلم، وقد طبع عدة مرات بالقاهرة، وشرح بالآستانة:

الشافية: وهو كتيب آخر فى علم الصرف، يرجع إليه كل دارس أو باحث فى هذا العلم. طبع عام ١٨٠٥، وبالآستانة عام ١٨٥٠، ونشر فى ليبسك عام ١٨٧٨م.

«المقصد الجليل فى علم الخليل»: وهو منظومة شعرية من بحر البسيط فى العروض، تعين الباحث فى أصول هذا العلم.

«الأمالى»: وهى فصول عن القرآن الكريم وتركيباته اللغوية العظيمة. ومختارات من شعر أبى الطيب المتنبى.

«القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة»: وعنوانها يدل على مضمونها الذى يهتم بالأسماء المؤنثة فى اللغة.

«رسالة فى العُشر»: وهو بحث صغير فى استعمال كلمة «عشر» ـ بضم العين وتسكين الشين ـ مع الصفتين «أول» و «آخر».

«منتهى السؤال والأمل فى علمى الأصول والجدل»: وهو بحث مهم فى أصول مذهب الإمام مالك، يوضح دعائم وأسس هذا المذهب، والإختلاف بينها وبين المذاهب الأخرى.

«مختصر المنتهى»: ويعرف بالمختصر الأصولى، وهو موجز للكتاب السابق مع شرح لعضد الدين الأبجى، وحواش للتفتازانى، والجرجانى. وقد علَّق على حاشية الجرجانى الحسنُ الهروى.

«مختصر فى الفروع» أو «جامع الأمهات»: ويعرف بالمختصر الفرعى. وهو موجز فى الفقه المالكى مع التوضيح.. وقد قلَّدَ هذا الكتاب مؤلفون كثيرون وغيرها من الأعمال الجادة.

* * *

٤٩ أبو الحسن الشاذلى في حميثرى خبره اليقين

إمام الطريقة الشاذلية أبو الحسن الشاذلى، واسمه كما ورد فى كتب الطبقات والسير هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الذى ينتهى نسبه إلى جده الإمام الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما. ولد بقرية «غُمَارة» التابعة لمدينة سبتة المغربية عام ٥٩٣. وبها نشأ وتلقن بداية تعليمه. ومن هذه القرية المغربية الصغيرة انطلق أبو الحسن الشاذلى إلى غيرها من بلدان المغرب لينتقل إلى المشرق، حيث سافر إلى العراق، وهناك التقى بأبى الفتح الواسطى عام ٦١٨ هـ وكان للقائه بالواسطى أثر كبير فى حياته، فحين اجتمع الشاذلى بهذا القطب العراقى الكبير قال له: «جئت العراق لألتقى بقطبها». وهنا رد عليه الواسطى: «أتطلب القطب بالعراق، والقطب ببلدك المغرب؟». ورجع إلى المغرب. والتقى بقطب زمانه أبى محمد عبد السلام بن مشيش، شيخه فيما بعد، وأستاذه الروحى، وموجه حياته.

صحب أبو الحسن الشاذلى شيخه ابن مشيش فترة من الزمن استطاع فيها أن يستفيد من علمه الغزير، وفى ذات يوم قال له ابن مشيش: «يا على، ارتحل إلى إفريقيا، واسكن بها بلداً تسمى «شَاذُلَة» فإن الله سبحانه وتعالى يسميك الشاذلى.. وبعد ذلك تنتقل إلى تونس ويؤتى عليك من قِبَلْ السلطة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية.

وصدع الشاذلى لأمر أستاذه ابن مشيش، وارتحل إلى شاذلة. وفى غار بجبل زغوان بتونس، مطل على شاذلة، سكن أبو الحسن الشاذلى، وشُغل بالعبادة واصلاً الليل بالنهار فى صلاة وصيام. وطالت إقامته بهذه القرية «شاذلة» حتى اشتهر وذاع صيته.. وعُرِف منذ ذلك الحين بالشاذلى.. وبدأ الناس يقصدونه ـ

كما يسجل الأستاذ الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر» . . حتى أنه اضطر للخروج من رباطه فى أعلى الجبل متخذاً له داراً بمدينة تونس.

وهكذا أصبحت دروس أبى الحسن الشاذلى ومواعظه وتعاليمه من الأمور التى يحرص عليها مئات المريدين والتلاميذ، وبدأت مجالس علمه تتعدد وتتسع، فكان إذا جلس للدرس التف حوله المريدون والأتباع، وإذا سار مشى فى ركبه الكثيرون أيضاً.

ولعله بسبب هذا الأمر استهدف لكيد الحاقدين عليه ودسائسهم وفى مقدمة هؤلاء قاضى القضاة بمدينة تونس أبو القاسم بن البراء الذى كاد له ودَسَّ عند سلطان تونس وقتئذ، متهماً إياه بأنه جاسوس فاطمى جاء من المغرب ليتآمر عليه، مستنداً فى ذلك إلى نسبه الذى ينتهى إلى الحسن بن على وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم.

وقد انطلت هذه الفرية على السلطان، وخاصة أن تونس كانت من قبل فاطمية، وأن كلمة «قطب» يمكن أن تخفى وراءها معنى الإمام الفاطمى.

ويبدو أن هذه المكيدة قد احتلت جزءاً كبيراً من اهتمام المؤرخين لأبى الحسن الشاذلى قدامى ومحدثين، وإلا فما معنى أن يحدثنا عنها ابن الصباغ ـ وقد نقله بتصرف الدكتور عامر النجار ـ من كتابيه «درة الأسرار» و«المفاخر العلية»، يقول ابن الصباغ: «إن ابن البراء أبلغ السلطان قائلا له: إن رجلا من أهل شاذلة، سراق الحمير، يَدعِى الشرف، ويَدّعى أنه الفاطمى، ويشوش عليك فى بلادك. . . واتهمه بالكفر والزندقة».

وهنا أمر السلطان بأن يُعْقَدَ مجلس يحضره الشاذلى ونفر من العلماء والفقهاء ليناقشوه أو ليحاكموه، وليسألوه عن نسبه مراراً وتكراراً والشيخ يجيب بما هو الحق. . وبأنه بالفعل ينتهى نسبه إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما. وسألوه عن علوم الدين والفقه فوجدوه عالماً فقيهاً، وأذهل الحاضرين بحُسن إجاباته. وبأنه ليس كما قال ابن البراء مزيفاً أو مدعياً. ويسألونه عن المريدين والتلاميذ الذين يلتفون حوله، فتأتى إجاباته بما يفيد أن هؤلاء لا خطر منهم،

وأنهم التفوا حوله للتفقه فى الدين والتبحر فى العلم وظلوا يسألونه ويسألونه ويجيبهم بما يؤكد أن الرجل برئ من كل ما نُسِبَ إليه. وعندئذ طَلَبَ منهم السلطان أن يكفوا عن تساؤلاتهم قائلا: «دَعُوه.. هذا رجل من أكابر الأولياء الصالحين». فيرد ابن البراء موجهاً حديثه إلى السلطان ليثيره «والله إنْ تركته ليدخَلن عليك أهل تونس ويخرجنك من أظهرهم. فإنهم مجتمعون على بابك: «لكن السلطان ـ الذى تأكد من علم وتقى أبى الحسن الشاذلى ـ لا يهتم بقول قاضيه. آمراً الفقراء أن ينصرفوا، ليلبث مع هذا الرجل الصالح وقتاً طيباً. وينضم إلى مجلسهما أخو السلطان، وكان كثير الاعتقاد فى الشيخ، وما إن ينتهى مجلس السلطان حتى يصحبه إلى داره.

لكن برغم ثقة السلطان، وتكريم أخيه... أدرك أبو الحسن الشاذلى أن دَسَّ وكيدَ قاضى القضاة لن ينتهيا، وهنا فكر فى البعد عن تونس إيثاراً للسلامة، وتجنباً لما قد يحدث ويُنسَب إليه. ويعلم السلطان بذلك فيغضب، ويستدعى أبا الحسن الشاذلى مرة ثانية ليثنيه عن عزمه قائلا: «أى شئ يسمع به عن إقليمنا.. أنه أتاه ولى من أولياء الله الصالحين فضاق عليه الإقليم حتى خرج فاراً بنفسه!؟» فيرد الشاذلى: «ما خرجت إلا بنية الحج، وإذا قضى الله حاجتى أعود إلى إقليمكم تونس إن شاء الله تعالى». فيسمح له بالخروج ما دام سوف يعود.

لكن ابن البراء وقد أكلت الغيرة والحقد قلبه يكيد مكيدة أخرى خارج تونس لأبى الحسن الشاذلى، حيث أرسل إلى سلطان مصر الملك الكامل محمد الأيوبى رسولا يحمل رسالة منه يقول فيها: «إن هذا الواصل إليكم ـ حيث سيمر على مصر فى طريقة للحج ـ أفسد علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم!».

ولم يكد الشاذلى يصل إلى الإسكندرية حتى يقبض عليه ويُرْسَلُ فى حراسة مشددة إلى مقر السلطان، ليعقد من جديد مجلساً للقضاة والعلماء والفقهاء يحاكمون فيه هذا الوافد الذى جاء من الغرب ليفسد على المصريين بلادهم. لكن تحدث المفاجأة حيث يكتشف السلطان فى مجلسه بأن الرجل على علم وتقوى وإيمان، وأنه ليس كما وصفه قاضى قضاة تونس، وبأنه ما جاء إلى الإسكندرية إلا للمرور عليها فى طريقه للحج لا أكثر ولا أقل ويشعر السلطان بأنها مكيدة

دبرها قاضى قضاة تونس لحاجة فى نفسه، فيعتذر لأبى الحسن الشاذلى ويكرم وفادته حتى يواصل طريقه إلى الحج.

ويؤدى أبو الحسن الشاذلى فريضة الحج ليعود إلى تونس كما وعد سلطانها، ويمكث عامين يلتقي خلالها بتلميذه وخليفته أبي العباس المرسي. وخلال هذين العامين أنهى كل أموره فى تونس، وأعد نفسه للسفر إلى الإسكندرية يرافقه تلميذه أبو العباس المرسى ونفرٌ مِنْ أتباعه الذين كانوا يتزايدون كلما مر على مدينة من المدن فى طريقه إلى الإسكندرية.

وفى الإسكندرية يستقر بالقرب من كوم الدكة ببرج من أبراج السور أوقفه السلطان عليه وعلى ذريته. ليبدأ دروسه داعياً إلى اتباع طريقته، متخذاً مسجد العطارين مكاناً يعقد فيه مجالسه ليظل فى هذه المدينة ما يقرب من الأربعة عشر عاماً، إلى أن يتوفى وهو فى طريقه إلى الحج.

وبرغم أن أبا الحنسن الشاذلى لم يترك آثاراً مكتوبة ـ حيث كان يعتبر آثاره فى تلاميذه من بعده، وذلك حين سُئل: «لِمَ لم تضع الكتب؟ فأجاب: كتبى أصحابى» ـ فإن للشاذلى إشارات لطيفه لبعض آيات القرآن الكريم. تعد بمثابة تفسير صوفى لهذه الآيات، وقد نبه إليها الشيخ الإمام الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن أبى الحسن الشاذلى.

ففى حديثه عن إشارات الصوفية، ومن بينهم أبو الحسن الشاذلى نبه الدكتور عبد الحليم محمود بقوله: «ينبغى أن نلاحظ أمرين:

الأول: أن هذه الإشارات لا تهدف فى قليل ولا فى كثير إلى أن تحل محل التفسيرات المألوفة.

والثاني: أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف، فهى إشارات وليست تفسيرات. ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين.

وكما يرى مؤرخو التصوف أن أهم القضايا التى يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم الا يَدَّعِى الصوفى أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعانى الأخرى، بل لابد من التسليم أولا بالتفسير الظاهرى، أو بالمعنى الحرفى، ولا ضَيْر بعد ذلك ن نذكر مَعَانِىَ أخرى تتكشف للنفس الصافية، فإن هذا ثمرة الإيمان.

وإذا كان علماء الظاهر يختلفون فى تفسيراتهم ومهمتهم واجتهاداتهم - ويعد اختلافهم رحمة - فإن اختلاف أهل الحقائق رحمة من الله أيضاً، لأن كل واحد يتكلم من حيث دقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيث وجده، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات وأرباب القلوب والمريدين والمتحققين فائدة من كلامهم.

ولذلك يرى الدكتور عامر النجار فى كتابه الطرق الصوفية فى مصر أن هذه الإشارات الصوفية فيها إثراء روحى، ولون من ألوان الكشف عن الإعجاز القرآنى، طالما أن الصوفى يؤمن بالتفسير الظاهرى للقرآن، ولا يرى أن إشاراته تقوم مقام هذا التفسير الظاهرى، فهى مجرد إشارات لا أكثر ولا أقل. وإن كان فيها إثراء روحى مشرق المضمون، ونفحة إلهية جميلة.. وبهذا الأسلوب الإشراقى الصوفى فسر أبو الحسن الشاذلى آيات من القرآن الكريم.

مثلا: فسر آية ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1] على هذا النحو: يقال للولى وما تلك بيمينك أيها الولى؟ فيقول: هى دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى. فيقال له: ألقها. فيلقيها، فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها، فيأخذ حذره منها، فإذا حذر منها يُقال له: خُذْهَا ولا تخف، فكما ألقاها أولا بإذن حال بدايته فكذلك بإذن حال نهايته.

يبقى فى الحديث عن شخصية هذا الإمام الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى الحديث عن أحزابه المشهورة، والحق أن أحزاب أبى الحسن الشاذلى - كما يقرر مؤرخوه - تكشف عن طاقة روحية هائلة، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية، والإشراقات، والجوانب الانفعالية الإنسانية. كما تكشف عن إبداع فنى جميل، ولعل حزب البر هو أجمل أحزاب الشاذلى، الأمر الذى جعل الدكتور زكى مبارك يقول عنه: إنها خير ما أنتجت القرائح لما فيها من قوة المعنى، وطرافة الخيال.. إن فقرات هذا الحزب تحتوى على دقائق الأسرار والإشارات التى لايفهمها إلا كبار الحكماء.

---

(١) سورة طه - الآية ١٧.

ولعل قصة انتهاء حياة هذا الصوفى الكبير تدل دلالة واضحة على شفافية نفسه، فكما يقول الشيخ ياقوت العرش، نقلا عن شيخه أبى العباس المرسى، تلميذ أبى الحسن الشاذلى: إن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة، فيجعل طريقه صعيد مصر، وقد حدث فى حجته الأخيرة سنة ٦٥٦ هـ، أن طلب من خادمه أن يستصحب معه فأساً وقفة وخيوطا وبقية ما يُجَهَّزُ به الميت، وقد عجب خادمه لهذا الطلب الذى لم يتعوده من قبل، فسأله عن السبب. وأجابه الشاذلى إجابة مقتضبة قائلا: «عند حُمَيْثَرى الخبر اليقين».

ووصل الإمام الشاذلى إلى حميثرى وهى بلدة على ساحل البحر الأحمر وهناك اغتسل وصلى ركعتين، بعدهما فارقته الحياة ليدفن فى المكان الذى صلى فيه بحميثرى بمحافظة البحر الأحمر.

ويقول ابن بطوطه فى رحلاته: «وقد زرت قبر الإمام الشاذلى، وعليه قبة مكتوب عليها اسمه ونسبه الذى ينتهى إلى الإمام الحسن بن الإمام على رضى الله عنهما.

* * *

٥٠ أبو القاسم القبارى
رجل صالح خافه السلاطين

فى الحديث عن الشيخ الصوفى أبى القاسم محمد بن منصور بن يحيى القبارى السكندرى (نسبة إلى مولده ووفاته بالإسكندرية) ينبغى الإشارة إلى خطر انتشار التصوف فى القرن السابع الذى عاش فيه هذا الصوفى حيث ولد عام ٥٨٧ هـ، ولكى نعرف انتشار هذا الخطر لابد من التعرف على الحالة السياسية والعلمية فى هذا القرن.

فالحالة السياسية يمكن إجمالها فى هذا القرن بأنها كانت ضعيفة إلى حد كبير بسبب اشتغال الدول الإسلامية بحروبها الداخلية، الأمر الذى جعلها غافلة عن الأخطار الخارجية التى تهددها من الشرق والغرب على حد سواء، فتسقط بهذه الحروب الداخلية دولة، وتقوم دولة، بعد أن يفنى فيها عدد من الدولتين، ويتبع هذا ما يتبعه من ضعف عام للدولة الإسلامية من الناحية السياسية.

وكذلك كانت حالة المسلمين العلمية. فقد اكتفوا بما وصلوا إليه فى علومهم، ولم يهتموا إلا باختصار الكتب المبسوطة التى وضعها أسلافهم الأقدمون. وكان هذا لا يحصل إلا نادراً فيما قبل هذا القرن. وممن عُنىَ بهذا ابن الحاجب، الذى كانت له مختصرات فى أصول الفقه والنحو وغيرهما. وقد قصد هو وغيره بهذا أن يسهلوا على طلاب العلوم الإحاطة بها، فلم يكن همهم فيها إلا سرعة الاستحضار، وكان هذا تمهيداً لما سَيَؤُول إليه أمرهم فى العناية بشرح هذه المختصرات، وفقدان ملكة الابتكار فى العلوم، وتأخرهم فيها عن غيرهم. مع أنه كان من المفترض أن يكونوا متقدمين.

يضاعف من انحدار الحالة العلمية بوجه عام فى هذا القرن زيادة العداء للفلسفة، حتى أنه كان لا يشتغل بها فى هذا القرن إلا نفر منهم فى حذر وخفية، لما كان من قوة نفوذ رجال الدين، خاصة المتصوفة الذين حرم البعض منهم قراءة المنطق والفلسفة. ومن عجيب الأمور أن الملوك كانوا يطيعونهم فى ذلك. وربما يكون ذلك لسببين: أولهما ظاهرى، وهو العمل على إرضاء رجال الدين. وثانيهما، خفى، وهو الخوف من إعمال العقل الذى يحتمه الاشتغال بالفلسفة والمنطق والذى نتيجته لن تكون فى صالح هؤلاء الملوك.

وطبيعى أن يزيد ضعف الحالة العلمية من نفوذ المتصوفة حتى يزيد خضوع العلماء لهم. وكان لظهور أقطاب التصوف ـ ومنهم السيد أحمد البدوى، والسيد إبراهيم الدسوقى وغيرهما ـ أثر كبير على زيادة نفوذ المتصوفة وما يدعون إليه.

ونتيجة لذلك أن علا شأن أقطاب التصوف على شأن الملوك والعلماء حتى أذعن المسلمون لدولة التصوف الباطنية، أكثر مما أذعنوا لدولهم الظاهرة، لأن دولة الباطنية فى نظرهم هى التى تصرف أمور الكون فى الحقيقة، وليس لملوك الدنيا إلا تصرف ظاهر فى دولهم. وقد بلغ من هوان أولئك الملوك بإزاء رجال الدولة الباطنية ممن لم يصلوا إلى درجة الأقطاب المعترف بهم وبعلمهم أن يخاطبوهم بما لا يليق. مما ذكره المقريزى فى خططه دليلا على أن هؤلاء المتصوفة الصغار كان يستخفون عمداً برجالات الدولة من ملوك وأمراء وعمال.

فى هذا القرن ولد أبو القاسم القبارى بالإسكندرية ونشأ وترعرع ومات ودفن بظاهرها. وكان كغيره من المتصوفة مرهوب الجانب، حتى وإن كان ليس على شاكلة هؤلاء الذين يستغلون التصوف لمصالحهم الخاصة. حيث كان يختلف عنهم فى أنه من الزاهدين فى كل شئ، فلم يكن له بالإسكندرية ولد ولا صاحب، إذا لم يتزوج طيلة حياته، ولم ينغمس فى نعيم الحياة ومباهجها، وإنما كان عاكفاً عازفاً عن كل ذلك. وكما يقول أحد مؤرخيه القدامى، واسمه محمد زيتون: «لم تعرف من أسرته غير والده منصور، وجده يحيى، وأخاه الذى مات بالإسكندرية فورثه الشيخ القبارى».

ويذكر الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى فى معجمه أن معنى كلمة القبارى هو نسبة إلى ثمرة القبار التى كان الشيخ يفضل أكلها فيقول: «لقد بقى القبارى ثلاث وستين عاماً لم يأكل من اللحوم إلا ما يصطاده من البر أو البحر، ولم يشرب لبناً أو يأكل جبناً. . زهداً وتورّعًا واكتفى بأكل القبّار المباح».

ويصف ابن العماد الشيخ القبارى فى كتابه «شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذَهَب» بالورع والتقوى، فيقول عنه: «كان صالحاً قانتاً منقطع النظير فى الورع. .».

وفى هٰذا المعنى يقول أيضاً المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية» عن الشيخ القبارى: «إنه كان زاهداً، أخلص فى العمل، واجتهد فى قطع الأمل، ومال إلى العُزْلَة، واستعد للرحلة. . كان كثير الخشوع والخضوع مشهورَ الذكر بين الصوفية. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. .».

وإذا كانت هذه بعض جوانب حياة هذا الشيخ الصوفى فإن سلوكه مع ملوك وحكام زمانه كان من الأمور التى تشد الانتباه، حيث تحدثنا فى ذلك المصادر التاريخية ـ وفى مقدمتها ما كتبه مؤرخه محمد زيتون، أو ما رواه ابن المنير ـ من أن الملك نجم الدين أيوب كان يسعى دائماً لرضا هذا الشيخ الصوفى، وأن الظاهر بيبرس كان يحرص على زيارته والاستماع إلى وجهات نظره فى تسيير أمور دولته، وأن السلطان قايتباى قام بتكريمه بعد وفاته تقديراً لعلمه وفضله.

ولعل انتساب حى بأكمله فى الإسكندرية (وهو حى القبارى) إليه لخير دليل على مكانة هذا الشيخ الجليل. وفى هذا الحى مسجد كبير يحمل اسمه، ويتوسطه ضريح يضم رفاته. ويحرص المؤرخون على الإشارة إليه تأكيداً على تخليد ذكرى هذا الرجل الصالح.

* * *

٥١ العز بن عبد السلام
سلطان العلماء

للحياة الفاضلة مقومات وسمات، قيم ومبادئ، أهداف ومثل.. فيها تكون سلامة النفس والحس، وسعة العقل والعلم، واستقامة التصرف والعمل، وقوة العقيدة واليقين.

هذه المعانى أو أكثرها كان يتحلى بها الرجل الصالح، والإمام المجتهد، سلطان العلماء العز عبد العزيز بن عبد السلام.. رجل العروبة والإسلام وبطل دمشق والقاهرة.

ولد هذا الإمام العظيم سنة سبع وسبعين وخمسمائة فى دمشق أو الشام كما يطلق عليها أحياناً، ونشأ بين ربوعها وأهلها وتعلم على أيدى علمائها وفقهائها، فحفظ القرآن الكريم، وأتقن الحديث وأدرك تفسيرهما، وجال فى العلوم الشرعية، فعرف الكثير من مخبوئها وكنوز تصلح زاداً للحياة الإجتماعية وقتئذ. وتحوّل إلى مهنة التدريس ثم الفتوى. وظل فى مسقط رأسه دمشق حتى رحل عنها إلى القاهرة ـ كما سنرى ـ ليتوفى بها عام ستين وستمائة للهجرة.

كان الإمام العز منذ فجر شبابه قوىّ الشخصية، عميق الإيمان، موصول العمل، موفور النشاط.. زاهداً، وَرِعًا، تقيًا شديد الغيره على دينه وتعاليم ربه، صادقَ الكلمة فى مواطن النصح والتوجيه، شديدَ المراس فى مواقف الحق والصراحة ليناً فى مواطن الرقة والتواضع، حتى صدقت عليه كلمة فيلسوف الإسلام ابن الهند وباكستان محمد إقبال، حيث قال عنه: «إنه ناعم كالحرير إذا كان

فى حلقة إخوانه ومريديه وتلاميذه، وهو كالفولاذ إذا دارت المعركة بين الحق والباطل. . . ».

ولقد عاش الإمام العز فى فترة عصيبة من تاريخ المسلمين، تعرضوا فيها لبلاء أطبق عليهم من كل جانب، لأن البعض منهم قد تهاون فى أمر دينه، والبعض الآخر عمل فى تفريق شملهم، حتى أصبحوا شعوباً وأمماً، شيعاً وأحزاباً، بعد أن كانوا أُمَّة واحدة تجمعها كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. أما وقد صارحالهم على هذا المنوال، فقد سُلِّط عليهم من الغرب عدو يضمر الحقد الكظيم على العروبة والإسلام، وهو ما يمثله الصليبيون، ومن الشرق عدو لا يرحم ولا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه متمثلا فى التتار. هذا إلى جانب عدد يعيش بين ظهرانيهم تواطأ مع هؤلاء وهؤلاء، فباع الوطن والعقيدة والنفس.

كان الإمام العز كلما تجددت لأولئك الغزاة محاولة أو هجمة على بلاد الإسلام والعروبة ثار، وأخذ يحرض الجموع المؤمنة ويذكرهم بمجد هذا الدين الحنيف وإعلاء كلمته. . ويحثهم على المبادرة إلى الجهاد والنضال. . وكانت له فى ذلك مواقف مشهودة.

لقد حدث أن سيطر على دمشق ـ أثناء تواجده بها ـ أمير متخاذل، يُدعى إسماعيل بن العادل، اختار الضعف أسلوباً لحياته، والذلة منهجاً لحكمه، والتآمر وسيلة يحقق بها أطماع نفسه ـ كان هذا الأمير المتخاذل الضعيف المتآمر يتولى أمر دمشق من قبل السلطان نجم الدين أيوب، الذى كان يواجه هجمات الإفرنج فى ذلك الوقت، وكان من الطبيعى أن يتعاون هذا الأمير مع هذا السلطان على رد هؤلاء الغزاة، إلا أنه ما حدث من هذا الأمير كان غير ذلك، فنراه يتواطأ مع الإفرنج ضد نجم الدين حين ينجو بحياته، وليكون الصديق الوفى الفائز بالنصيب الأكبر يوم توزيع الغنائم، بل وصَلَ الأمر من هذ الأمير أن أباح للإفرنج شراء السلاح والمؤن من دمشق، سلاحاً يُوَجَّهُ إلى قلب إخوة فى الإسلام والعروبة!؟

عندئذ ثار الإمام العز وغضب، ولم يخشى البطش والجبروت ولم يخفه، وكان

خطيباً لجامع دمشق حينئذ، فكانت كل خطبة له يندد فيها بالخيانة وينادى بحرمة التعاون مع الإفرنج فى أى شئ مادام المسلمون فى حالة حرب وقتال معهم.

لقد أعلن الإمام العز من فوق المنبر قائلا: «اللهم أَبْرِمْ لهذه الأمة إبرامَ رشد، يعز فيه أولياؤك، ويذل فيه أعداؤك، ويُعْمَلُ فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك وغضبك..».

ولم يكتف بذلك، وإنما قام يطوف بين الناس يمنعهم من التعامل مع الأعداء، ومَنْ يساندهم.. مهما كانت حاجتهم.. مردداً على مسامعهم: «يحرم عليكم مبايعتهم إذا كنتم تتحققون أنهم إنما يشترون السلاح ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين..».

وتتوالى الأيام والإمام العز بن عبد السلام يزداد تألقاً وسطوعاً حتى وإن كابد العزل والنفى والتشريد.. ويزداد قرباً من الناس وبُعْداً عن حكامهم من المتخاذلين والخونة. ويزداد تمسكاً بما ينادى به من إعلاء كلمه الحق والدين. فيزداد اضطهاد الحكام له، ويتضاعف كلما رأوه يثابر على أداء رسالته. حتى رأينا معانى البطولة التى تجلت فيه شاباً فتياً، لم تتركه كهلا ولا شيخاً، بل صاحبته بقية عمره الذى زاد على الثمانين عاماً حتى وإن وهن جسده على مر هذه السنين، فإن همته ظلت كما هى قوية فتية.

فها هو ذا فى شيخوخته يشن حملة شعواء على الملوك والسلاطين المتزمتين، حين يرى حاكماً مترفاً فى يوم عيد يُسرف فى تعاليه وتجمله وأبهته، ويخرج بين عسكره ووجهاء قومه فى زينته.. ليقبل الناس الأرض بين يديه... هنا يغضب الإمام العز، ويتعمد أن ينادى هذا الحاكم باسمه مجرداً، وينصحه بأن يصلح المفاسد الموجودة فى جهاز حكمه، فيرد عليه الحاكم معتذراً: «هذا ما عملته، هذا من زمان أبى». فيقول له العز معرضا: «أأنت من الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[1].

وينتهى هذا الموقف العاصف بين الحاكم والإمام ليقول له أحد تلاميذه: «لمَ فعلت هذا مع الحاكم» فيرد الإمام العز قائلا: «رأيته يا بنى فى تلك العظمة،

(١) استشهاد من القرآن الكريم من سورة الزخرف ـ من الآية ٢٣.

فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه». فقال التلميذ: «أمَا خفتَه يا إمامنا؟» وأجاب الإمام العز: «والله يا بنى لقد استحضرت هيبة الله عز وجَل يوم اللقاء.. فصار هذا الحاكم أمامى كالقط..».

وكان الإمام العز بن عبد السلام.. رجلا يقدس الحق ويخضع له، ويسارع بالعودة إليه إذا تبين له خطأ فيه أو انحراف عنه، وتلك سمة من سمات أخلاق العلماء فى كل عصر وفى كل مكان. الموضوعية فى محاسبة الرأى حتى ولو كان هذا الرأى له، والرجوع عنه إذا وجده بجانب الحقيقة، فلا شئ يهم العالم فى أى مجال من المجالات سوى الحقيقة وتوضحيها للناس. وكلما اقترب العالم من الحقيقة ازداد موضوعية، وبالتالى ازداد احترام الناس له.

وهكذا كان إمامنا العز بن عبد السلام.. لقد حدث أنه أفتى ذات مرة بأمرٍ من الأمور، ولعله اجتهد فى ذلك وأخلص وراَعَى أمر ربه كعادته دائماً فيما أفتى، وعلى الرغم من هذا فقد ظهر له خطأ فى رأيه، وهنا لم يُكابر أو يعاند، ولم يتردد أو يتراجع فى إعلان الحقيقة ولو كانت تسبب له - كشيخ للإسلام - حرجاً، بل على العكس أخذ ينادى بين الناس على نفسه قائلا: «مَنْ أفتى له العز بن عبد السلام بكذا وكذا، فلا يعمل به، فإنه أخطأ.. والله على ما أقول عليم وشهيد..».

هذا الطراز من العلماء الذى يعامل نفسه بموضوعية كما يعامل غيره من الناس، لابد أن يكون بين الناس ذا هيبة ووقار. هذا إلى جانب أن إيمانه العميق، وعلمه الواسع قد أشاعا على ملامحه سمتاً يرغم الآخرين خشيته وإجلاله. لقد كان يقيم فى دار اختارها لنفسه خارج القاهرة مع أهله، وذات ليلة جاء إليه نائب السلطان، وكان من أمراء المماليك، مصحوباً بجماعة مثله من الأمراء وكبار رجال الدولة والجند، يريدون الاعتداء عليه، والبطش به فى هدأة الليل، إلى درجة أن هذا المملوك الكبير جاءه شاهراً سيفه ومن خلفه أتباعه ورجاله وجنده، فاعلين ما فعله قائدهم، حتى يمعنوا فى تخويفه، وكسر شكيمته.

ترى ماذا يكون تصرف رجل أعزل مُسِن يعيش فى الخلاء؟ لقد أقبل عليهم فى ثبات ورباطة جأش، وقال لهم بصوت عميق قوى مؤثر: «أهلاً بضيوفنا!». عندئذ

انبهر المماليك وكبيرهم بقوة شخصية هذا الإمام، وسطوع روحه، ويبست أيديهم على سيوفهم وتجمدت، ولم يجدوا ما يفعلونه إزاء هذا الموقف غير المتوقع إلا أن يطلبوا منه العفو والدعوات.

ولعل ظروف وفاته تشير إلى ما كان عليه من إخلاص وأمانة، وعلم وعمل، وجهاد وكفاح، وتقوى وصلاح.. لقد انتهت حياته أثناء إلقاء درسه بين تلاميذه ومريديه أثناء تفسيره لقول الحق﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وفى وداعه إلى مثواه الأخير خرجت مصر كلها تشيعه، فخرج الرجال والنساء والأطفال، وأمر السلطان ـ الذى كان قد أفتى بعدم صلاحيته لأنه مملوك ـ أن يحمل الأمراء نعش هذا الشيخ العظيم. بل اشترك معهم فى ذلك.. تقديراً لعلمه وصدقه وتقواه.

وفى مسقط رأسه دمشق وما يجاورها من المدن أقيمت له جنازة ضخمة، وصلوا عليه صلاة الغائب.

واستقر جثمان هذا الإمام العظيم فى مثواه الأخير تحت سفح المقطم وعاد السلطان بيبرس إلى قصر ملكه يتنفس الصعداء ويقول: «الآن قد استقر أمرى فى الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا.. لخرجوا علىَّ وانتزعوا الملك منى.. لقد كان الإمام العز بن عبد السلام سلطاناً فوق السلاطين.. وكان حقاً وصدقاً سلطان العلماء.

***

(١) سورة النور ـ من الآية ٣٥.

٥٢ القرطبى
صاحب كتاب جامع أحكام القرآن

التطور والاتساع فى انتشار كتاب الله الكريم، لابد أن يواكبه جهد متزايد فى مجال تيسير فهم معانى وأهداف هذا الكتاب، لجمهور المسلمين وعامتهم، فضلا عن خاصتهم، وذلك لمساعدتهم على حُسْن تدبر معانيه وإدراك أهدافه، ومن ثم تلاوته حق التلاوة.

لقد وصف حجةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى شروطَ هذه التلاوة الحقة فقال: «تلاوة يشترك فيها اللسان، والعقل والقلب.. فحظ اللسان من هذه التلاوة تصحيح الحروف بالترتيل، وحفظ العقل منها تدبُّر المعانى، وحظ القلب الاتعاظ بما فى هذا الكتاب الكريم من زجر وأمر ونهى.. فاللسان يرتل، والعقل يتدبر، والقلب يتعظ..».

ومن هنا أصبح على المسلمين فى كل مكان وزمان أن يكثروا من تلاوة آيات هذا الكتاب الكريم ويتدبروا معانيه، ويفسروها للناس، حتى يدرك قرَّاؤُهُ، ومرتلوه، والآخذون بأحكامه معانيه وأهدافه، ومراميه ومقاصده.

ومن بين هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تفسير أحكام القرآن الكريم فى العصر الوسيط أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، صاحب «تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن الكريم..».

والحق أن المؤرخين لا يعرفون تأريخاً محدداً لميلاد هذا العلامة المفسِّر، وإن كانت الآراء قد أجمعت على أنه ولد فى قرطبة ـ إحدى مدن الأندلس ـ ما بين عام ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، إلا أنهم حددوا تأريخاً لوفاته بمنية ابن خصيب «مدينة

المنيا الآن بالوجه القبلى فى مصر» كما يقرر الزركلى فى كتابه «الأعلام» بأنه رحل من قرطبة بالأندلس إلى بلاد المشرق فى عصر ملوك الطوائف، واستقر بمنية ابن خصيب إلى أن توفى ليلة الإثنين التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ الموافق عام ١٢٧٣ ميلادية، ودفن فى هذه المنطقة من صعيد مصر.

ويتفق مع كتاب «الأعلام» للزركلى، كتاب نفح الطيب للمقرى فى جزئه الثانى الخاص بالتعريف بمن رحل عن بلاد الأندلس إلى بلاد المشرق، ومنهم القرطبى رضى الله عنه.

ويرى كل من ابن فرحون فى «الديباج المذهب فى معرفة أعلام المذهب ـ أى مذهب مالك ـ»، والمقرى فى كتابه «نفح الطيب» أن القرطبى كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه، وعبادة، وتصنيف».

ومن أبرز مؤلفاته «تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم».

وهو كتاب كبير يحتوى على عدة مجلدات، بعض المؤرخين يذكرون أنها خمسة عشر، وآخرهم الأستاذ توفيق الحكيم الذى أعد كتاباً تحت عنوان «مختارات من تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن» ذكر أنها عشرون مجلداً، وهذا التفسير الذى قام به القرطبى يُعَدُّ من أجلِّ التفاسير وأعظمها نفعًا، أسقط منه القصص والتواريخ، أثبت بدلها أحكام القرآن، واستنبط أدلته، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وغيرها وسوف نعود إلى منهجه فى هذا الكتاب وموضوعاته. بعد أن نذكر بقية كتب ومؤلفات هذا العلامة الكبير، ومنها كتاب «الأسنَى فى شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكرة بأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقصى» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة». والذى قال عنه ابن فرحون بأنه لم يقف على تأليف كتاب أحسن منه فى بابه وموضوعه، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبى ﷺ، وله تواليف وتعاليق مفيدة.

ومن سمات هذا المفسر الكبير أنه كان مطرحاً للتكلف، فلا يتصنع ولا يتكلف فى أمر من الأمور، وإنما كان رجلا بسيطاً متواضعا يمشى بين الناس كما تذكر الروايات التاريخية: «بثوب واحد، وعلى رأسه طاقيته» لا يغيرهما قط إلا لغرض النظافة، أو عندما تبليان.

وعن كتابه «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان» يقول فى تقدمته إنه: «الفارق بين الشك واليقين، الذى أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الأولياء مناقضته، وأخرست البلغاء مُشاكَلَته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. جعل أمثال عبراً لمن تدبرها. وأوامره هدًى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار فقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] خاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموا..».

ومن تفسيره للقرآن يقول القرطبى: «رأيت أن أشتغل به مدى عمرى؛ وأستفرغ فيه منّتى، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمن من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهده لما تذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبينًا ما أشكل منهما بأقاويل السلف، ومن تبعَهُم من الخَلَف، وعملته تذكرة لنفسى، وذخيرة ليوم رمْسِى، وعملاً صالحا بعد موتى..».

ويسجل فى منهجه لهذا التفسير العظيم شرطاً مهما هو إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، حيث يقول: «من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله» حيث يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لايعرف من أخرجه إلاَّ منْ اطلع على كتب الحديث، فيبقي من لا خبرة له بذلك حائرًا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علمٌ جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى مَنْ خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك... وأضْرِبُ عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلاَّ ما لابد منه ولا غنى عنه للتبيين والتوضيح. فضمنتُ كل آية تتضمن حكماً أو حكمين مسائل يتبيَّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير الغريب والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل.

وهكذا كان منهجه ـ رضى الله عنه ـ فى التفسير الذى أنفق فيه سنوات من عمره حتى توفى فى منية ابن خصيب «مدينة المنيا الآن» وله فيها مقام يُعرف باسمه.

***

(١) سورة الأنعام ـ من الآية ٣٨.

٥٣ أحمد البدوى والفرار من دولة المرابطين

أقبل على هذه المدينة المتواضعة ـ وقتئذ ـ من مدن دلتا مصر نشوان مغتبطاً.

صحيح أن طول السفر ومشقته، وفيح الصحراء وتراميها، قد أصابته بالضنى والألم.. بيد أن الغاية النبيلة التى كان يسعى إليها أنسته آلامه وجراحه وأفاضت على روحه بالبِشْر والسرور، فدخل هذه المدينة كأنه عابر سبيل طالت به مدة السفر والترحال من مدينة إلى أخرى، ومن قطر إلى آخر، فَآوَى إليها ليستريح ويتزود، فربما يواصل السفر. ولكنه بقى وأستقر، والتف حوله الاتباع والمريدون من كل صوب وحدب، ليكونوا فيما بعد طريقة صوفية لا تزال باقية حتى اليوم، برغم ما مضى عليها من السنين والقرون.

أما هو: فهو السيد أحمد البدوى، وأما المدينة: فهى طنطا، عاصمة الغربية بمصر.. ويبقى السؤال: ما الذى جعل ابن المغرب فى الشمال الإفريقى يجوب الصحارى والبلاد، وينتقل من الغرب إلى الشرق، مروراً بالمدن والأقطار المتعددة ليستقر فى هذه المدينة الوادعة، ويلتف حوله كل هؤلاء الأتباع والمريدون، وتبقى تعاليمه وكلماته منقوشة فى داخل الصدور، حتى وإن مات ودفن فى هذه المدينة التى سرعان ما نُسبت إليه. حتى لا يكاد يذكر اسمها حتى يقفز إلى الذهن ساكنها السيد أحمد البدوى وطريقته الأحمدية؟

للإجابة على السؤال وغيره نقول:

تتفق روايات وكتابات المؤرخين حول حقيقة، هى أن هذا الرجل الصالح من أصلٍ عربى خالص، إنحدر من أشرف وأكرم البيوت العربية، حيث ينتهى نسبه إلى

الإمام على بن أبى طالب «كرَّم الله وجهه»، وقد انتقل أجداده إلى مدينة «فاس» المغربية فى عصر الدولة الأموية فراراً من اضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفى للعلويين. وفى المغرب تزوج هذا الجد الشريف بابنة أخٍ للسلطان، فولدت له عليا، الذي تزوج بدوره من امرأة عالية النسب، فولدت له ستة من الأبناء، أصغرهم أحمد. . الذى لُقب فيما بعد بالبَدوى، وعُرف بصاحب الطريقة البدوية أو الأحمدية.

وإذا كان اسمه أحمد بن على حتى ينتهى نسبه إلى على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم. . فإن اسمه يتضمن تسعة أئمة من الأئمة الاثنى عشر المعروفين فى المذهب الشيعى، وأن نسبه ينتهى إلى الإمام الحسين وليس الإمام الحسن رضى الله عليهما. وهذا على خلاف ما هو معروف من أن صوفية المغرب الذين هم من أصل مغربى ينتهى نسبهم دائماً إلى الحسن كما يقر الدكتور عامر النجار فى كتابه عن «الطرق الصوفية فى مصر»، وكما يقرر الدكتور على صافى فى كتابه «الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى». بقوله: «وأما صوفية المشرق فى العراق ومصر والشام وفارس وبلاد خراسان فإنهم عودونا الانتساب إلى الإمام الحسين. والسبب فى انتساب المشارقة إلى الإمام الحسين، والمغاربة إلى الإمام الحسن راجع فيما أعتقد إلى أن المشارقة كانوا كالشيعة فى محاولة الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطة. أما الذين انتسبوا إلى الإمام الحسن فكانوا يدعون إلى الخلافة الباطنية غير حافلين بشئ، فى خلافة أهل الظاهر، حيث زعموا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عقد للحسن الخلافة الباطنية بعد أن نزل لمعاوية بن أبى سفيان عن الخلافة الظاهرية».

معنى هذا أن الذين ينتسبون إلى الإمام الحسين يدعون إلى الخلافة الظاهرية، فى حين أن الذين ينتسبون لأخيه الإمام الحسن وهم المغاربة ـ يدعون إلى خلافة الباطنية.

ومعنى هذا أيضاً أن السيد أحمد البدوى إذا كان وُلِدَ ونشأ بالمغرب فإنه عاد إلى أصوله بالمشرق، لأنه حسينى النسب، وهو ما تؤكده لوحة حياته التى صيغت باتفاق جميع المؤرخين، حيث هاجرت أسرة السيد أحمد البدوى ـ والده «على»

وجميع أشقائه ـ إلى مكة المكرمة وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس بالمغرب إلى مكة بالحجاز حوالى أربع سنوات، وقد مروا بمصر فى طريقهم وعاشوا فيها فترة تقدر بحوالى ثلاث سنوات.

وكما يسجل الدكتور عامر النجار فى كتابه عن الطرق الصوفية بمصر: «ويقال عن قصة انتقال أسرة السيد أحمد البدوى من فاس إلى مكة إن أباه عليًا جاءه الهاتف فى المنام ـ أنْ يا علىّ، ارْحَلْ من هذه البلاد إلى مكة المشرفة، فإن لنا شأناً ـ فرحل بأسرته..».

ولندع شقيق السيد أحمد البدوى ـ ويدعى الشريف حسن ـ يروى ذلك قائلا: «فما زلنا ننزل على عرب، ونرحل عن عرب فيتلقوننا بالترحيب والإكرام. حتى وصلنا إلى مكة المشرفة فى أربع سنوات».

ويواصل روايته إلى أن يقول: «فلما وصلنا إلى مكة وعلم الناس بقدومنا هرعوا إلينا، وسلموا علينا، واعتقدوا فينا الخير. وأتى إلينا سلطان مكة وأشرافها، فجاءوا إلينا، وتعرفوا بنا. وسأل السلطان: أين الشريف أحمد الملثم؟ اجمعوا بينى ـ أى السلطان ـ وبينه، فإن جدي الرسول صلي الله عليه وسلم وصفه لي وأرانى صفته فى المنام، وقال لى يخرج من المغرب، وهو ابن سبع سنين، ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشر عاماً. وأشار لى ـ أى السلطان ـ أن أسير إليكم، وأجتمع بكم، وأسلم عليكم، وعلى الشريف أحمد الملثم ـ أى أحمد البدوى ـ وأتبرك به. وقال لى: إنه سيظهر له حال، وأى حال، ويربى المريدين، يجئ منهم رجال، وأى رجال. فقال له والدى: إن هذا الولد حديث السن، وأين يقدر على هذا الحال؟ فقال السلطان: أعدْ، إن جدى رسول الله ﷺ أرانى صفته، ففى أنفه شامة سوداء من كل ناحية أصغر من العدسة، وهو أقنى الأنف، صبيح الوجه. فلما حضر أخى أحمد ـ أى البدوى ـ ورآه السلطان عرفه بالصفات فقام إليه واعتنقه وأجلسه إلى جانبه».

ولعل وصف الإمام الشعرانى فى كتابه الطبقات الكبرى يؤكد ما ذهَبْتُ إليه هذه الرواية على لسان شقيق السيد أحمد البدوى، حيث يصفه قائلا: «كان غليظ الساقين، طويل الذراعين، كبير الوجه، أكحل العينين، طويل القامة، قمحى اللون، وكان فى وجهه ثلاث نقط من أثر جدرى. فى خده الأيمن واحدة، وفى

الأيسر اثنتان. . أقنى الأنف، على أنفه شامتان فى كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح موسى. . . ».

ومن هنا يتضح أن أسرة السيد أحمد البدوى قد سافرت إلى الحجاز، وأما السبب المباشر لذلك فهو لاضطراب الأحوال فى بلاد المغرب إثر قيام دولة المرابطين واضطهادهم لأتباع دولة الموحدين، ومنهم أسرة السيد أحمد البدوى، التى استقرت بالحجاز حتى توفى عائلها الشريف على بن إبراهيم، ودُفن هناك. وكانت وفاة هذا العائل نقطة تحول فى حياة الابن أحمد البدوى. فقد عكف على العبادة، وامتنع عن الزواج، واعتزل الناس، وعاش فى صمت لا يفصح عما يجول فى خاطره، وأصبح فى حالة وَجْدٍ وَوَلَهٍ. دائمين إلى أن سافر إلى العراق، حيث رأى رؤيا تأمره بالرحيل إليها.

ولعل هذا هو السبب فى رحيله إلى العراق، أو لعله كما يذهب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور حيث ينبه إلى هذه الرحلة فى كتابه عن السيد أحمد البدوى قائلا: «يبدو أن السيد أحمد البدوى أدرك أن مكة ـ مع عظيم مكانتها ـ كانت أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله ـ ففكر فى الهجرة منها إلى بلد واسع الإمكانيات البشرية والمادية.» فكانت مصر.

ومهما يكن السبب، فالثابت تاريخياً أن السيد أحمد البدوى سافر إلى العراق، وزار «أم عبدة» مركز الطريقة الرفاعية، كما زار قبر السيد عبد القادر الجيلانى. وفى العراق تشبع بمبادئ كل من القطبين الرفاعى والجيلانى، ماضياً فى سلوكه من الصمت والصوم، والقيام، وقراءة القرآن الكريم. حتى قرر الرحيل إلى طنطا بمصر فى عهد الملك الكامل محمد الأيوبى.

. ولم يكن تأثير السيد أحمد البدوى مقصوراً على المدينة التى اختارها مقاماً لحياته ومدفناً له بعد موته، وهى طنطا، وإنما امتد تأثيره فشمل القطر المصرى وغيره من الأقطار الإسلامية، وذلك عن طريق أتباعه ومريديه الذين انتشروا فى شتى البقاع، والذين عُرِفُوا بالسطوحية، حيث كان قطبهم السيد أحمد البدوى يجلس على سطح منزله أثناء لقائه بالمريدين والأتباع. واستمر على هذا النحو حتى توفى عام ٦٧٥ هـ، ودُفن فى المكان الذى كان يتعبد فيه بطنطا، وهو الذى أُنْشِئَ عليه المسجد الأحمدى فيما بعد.

* * *

٥٤ إبراهيم الدسوقى والتحذير من بيع الأخلاق

هذا الرجل الصالح من عترة النبى ﷺ، وما أجمل الحديث الذى يدور حول هذه العترة الشريفة.. وحديثنا هذه المرة عن القطب الصوفى برهان الدين إبراهيم ابن عبد العزيز الذى ينتهى نسبه لأبيه إلى السيدة فاطمة الزهراء، وزوجها الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهما. ونسبه لأمه ينتهى إلى القطب الصوفى أبى الفتح الواسطى، الذى أدى دوراً كبيراً فى تأسيس وتشييد بنيان الطرق الصوفية فى مصر.

ولد هذا القطب الصوفى بمصر فى مدينة «دسوق» سنة ٦٢٣ هـ، ولذلك عُرِفَ بإبراهيم الدسوقى. وتربى فى بيئة مصرية خالصة. بين جماعة من أهل الوَرَع والتقوى، فشب محباً للعلم، حريصاً على التدين، فقد درس علوم اللغة والدين، وحفظ القرآن والحديث، وتأمل أصول العقيدة والفقه، وتدبر جوانب التفسير، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى صبيًا، وشابًا ناضجاً.

وتذكر المصادر التاريخية ـ وفى مقدمتها ما سجله الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه «المجددون فى الإسلام» أو الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» من أن هذا القطب دخل الخلوة وهو فى الخامسة من عمره، ولما شبَّ عن الطوق واشتد عوده بدأ المريدون والأتباع يتوافدون عليه، وفى مقدمتهم السيد أبو النصر صاحب الضريح المجاور لضريحه فى مدينة دسوق التى ينتسب إليها هذا القطب الكبير.

وظل معتكفاً فى خلوته حتى مات والده عام ٦٤٦ هـ، فغادرها لأول مرة وكان

عمره إذ ذاك ثلاثة وعشرين عاماً. بعد أن ألح عليه أتباعه ومريدوه على ترك هذه الخلوة؛ والخروج إلى الحياة العامة، يُدَرِّسُ ويُعَلِّمُ، ويُفَقِّه، فتركها ليتخذ له مكاناً بجوارها.

وقد عُرفت طريقته بالطريقة «البُرهامية» نسبة إلى اسمه «إبراهيم» أو الطريقة البرهانية نسبة إلى صفته «برهان الدين» أو الطريقة «الدسوقية» نسبة إلى مسقط رأسه «دسوق». وقد كان لهذه الطريقة أسلوبها الذى يختلف عن أساليب غيرها من الطرق الصوفية: والتى يمكن تمييز أتباعها عن الطريقتينَ «البدوية» و«الرفاعية» حيث كان أتباع وأنصار إبراهيم الدسوقى «الطريقة البرهامية» ـ كانوا يرتدون العمامة الخضراء، بينما كان أنصار الطريقة البدوية يرتدون العمامة الحمراء، ومن قبل كان أنصار الطريقة الرفاعية يرتدون العمامة السوداء.

والحق أن أتباع القطب إبراهيم الدسوقى قد بالغوا فى تقديس أعماله وأفكاره، بل وإن هذا المنهج اتبعته بعض الكتب، الأمر الذى جعل الدكتور عامر النجار يحذر منه فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر» قائلا عن واحد من الكتب التى اهتمت بالتأريخ لهذا القطب قائلا: «ينبغى أن نأخذ من هذا الكتاب بحذر، وأن نتوقف عندما نجد الأسطورة تستشرى خلال صفحاته..».

والجدير بالذكر أن الجانب العملى من تصوف القطب إبراهيم الدسوقى يظهر فيه بوضوح التصوف السنى، فقد كان يقول لمن يطلب فيه سلوك الطريق: «يا فلان. اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسُنة نبيه محمد ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. وأن تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية، والامتثال بطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقادا...».

وكثيراً ما كان ينصح أتباعه باتباع الشريعة الغراء فيقول: «اسلك المناهج السديدة، والشريعة القويمة، التى من عمل بها كان عمله مضموناً، فإن مَن سلكها واتبع أمرها نجا، فإن الله أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا، وأن تستقيموا ولاتلهوا».

إلى أن يقول فى قوة لأتباعه، ناصحاً لهم بالتمسك بأهداف الشريعة: «مَنْ أحَبَّ أن يكون من ولدى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة، وليختم عليها بخاتم الحقيقة، وليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات.. الشريعة أصل، والحقيقة فرع. فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات مندرجة فيها...».

فالجانب العملى من تصوف القطب إبراهيم الدسوقى يقوم على العمل بكتاب الله تعالى، وسُنة رسوله ﷺ، كما يقوم على المكابدة والمجاهدة.. وذلك بالإكثار من الصيام والقيام، والذكر، وقراءة القرآن، وبالتسبيح والدعاء والإبتهال من جهة، وعلى الزهد فى الدنيا، والترفع عن متعها ومباهجها ولذائذها من جهة أخرى.

وبرغم أن أفكار القطب إبراهيم الدسوقى واضحة المعالم، فإن أبناء طريقته على مر العصور قد خالفوا ذلك مبالغين. ويشير الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر» قائلا: وإذا كان بعض أبناء الطريقة البرهانية ـ نسبة إلى مؤسسها برهان الدين إبراهيم الدسوقى ـ فى عصرنا هذا قد خالفوا طريق شيخهم البرهانى الكبير، وبعدوا عن تصوفه العملى السنى، الداعى إلى العمل بكتاب الله تعالى، وسُنة نبيه الكريم، فإن شيخهم فى القرن السابع الهجرى كان يخشى هذا اليوم، ويدعو أتباعه.. ألا يُسيئوا إلى طريقته، أو يدنسوها، أو يبتدعوا البدع والخزعبلات.. يقول القطب إبراهيم الدسوقى لمثل هؤلاء الأتباع: «يا أولادى، ناشدتكم بالله، ألا تسيئوا إلى طريقى، ولا تلبسوا فى تحقيق، ولا تدلسوا، ولاتدنسوا.. وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا منا أوراقاً من غير عمل فلا حاجة لنا بكم..».

ولطالما حَذر أتباعه من مخالفة طريقه قائلا: «وإنى أبرأ إلى الله ممَّن يأخذ على الطريق عوضاً من الدنيا، ويتلف طريقى من بعدى، ويخالف ما كنت عليه أنا وأصحابى. اللهم إن كان أحد أصحابى يفعل خلاف طريقى فلا تهلكنى بذنوبهم.. فإن الله يبغض الفقير الذى يبيع أخلاف أهل الطريق بلقمة.. وطريقي إنما هو طريق تحقيق وتدقيق.. فيا أولادى، إن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون..».

إن أساس الطريقة البرهانية التى سنَّها القطب إبراهيم الدسوقى تتلخص فى هذه الكلمات: «حقيقة الطريق لا يقدر عليها إلا كل مجاهد للنفس، مجالد لهواه..».

أو كما يقول الدسوقى نفسه: «واعلم أن الطريق إلى الله تفتت الأكباد، وتضنى الأجساد، وتدفع الشهاد، وتسقم البدن، وتذيب الفؤاد.. فهيمان القلب فى باطن الأمر، ونشآن السكر فى مداومة الذكر، ومجاهدة النفس والحواس والحس فى حصول الأُنس.. وهو الهيمان الحقيقى المشكور الذي هو أفضل من هيمان كل وادٍ، ودأب مبرور، والمحافظة على السنن والفروض، والتأهب يوم العرض.».

والطريقة كلها عند الدسوقى ترجع إلى كلمتين: «تعرف ربك وتعبده»... فمن قبِلَ ذلك عنده.. فقد أدرك الحقيقة والشريعة.

ونظرا لسعة فقه وعلم القطب الدسوقى وتقواه وورعه عينه الملك الكامل محمد الأيوبى شيخاً للإسلام، فقبل المنصب، وقام بمهامه على خير وجه، ولكنه رفض أن يتقاضى عن ذلك أجراً، بل وهب العائد المادى لهذا المنصب الجليل لفقراء المسلمين، وظل يشغل هذا المنصب الدينى فترة من الزمن، بعدها تفرغ كلية لتلاميذه ومريديه وأتباع طريقته.

وعلى عادة غيره من أقطاب الصوفية، كان الدسوقى شجاعاً، واضحاً، صريحاً، لا يهاب الحكام، ولا يخشى فى الله لومة لائم، ومن ذلك ما نقرؤه بأن الدسوقى أرسل للسلطان الأشرف رسالة شديدة اللهجة بسبب ظلم اقترفه مع الشعب، فغضب السلطان، وأرسل يستدعيه للمقابلة. ولكن الدسوقى رفض الذهاب إليه قائلا: «إنى هنا، ومن يريدنى فعليه الحضور للقائى». ولم يجد السلطان مفراً من النزول على إرادة هذا القطب، لما عرفه عن قدره ومكانته عند الناس، فوفد إليه واعتذر له». وقد أحسن الدسوقى استقباله، وبشَّره بانتصار وشيك، وفعلا انتصر على الصليبيين، وقضى على بعض معاقلهم فى عكا..».

وتتفق كل المصادر التى أرخت لحياة القطب إبراهيم الدسوقى على أنه ظل أَعْزَبَ، واهباً وقته للتصوف والتعبد والتأمل، وأنه إلى جانب ذلك كان يجيد عدة لغات، فى مقدمتها السريانية والعبرية، وأنه كتب عدداً من المؤلفات فى الفقه والتوحيد.. وأنه ظل على هذا النحو حتى كانت وفاته سنة ٦٧٦ هـ وهو فى الثالثة والأربعين، حيث دُفن فى المكان الذى كان فيه مُصَلاَّه.

* * *

٥٥ الإمام العتريس
المنادى بحرب الصليبيين

فى مواجهة ضريح السيدة زينب رضى الله عنها، يشد انتباه الزائر إلى هذا المكان الطاهر، وجود ضريحين: أحدهما يضم رفات رجل صالح، هو الإمام العتريس، شقيق العارف بالله إبراهيم الدسوقى المدفون بدسوق فى محافظة كفر الشيخ، والذى ينتهى نسبهما إلى الإمام الحسين، فالإمام على بن أبى طالب، وزوجته فاطمة الزهراء رضى الله عنهم أجمعين.

والإمام العتريس كما تقدمه الكتابات القديمة: هو السيد الكامل، والصوفى الواصل، والعابد الزاهد، والمتبتل الناسك محمد بن أبى المجد بن قريس، نشأ فى بيت علم وفضل تقوى وصلاح، شرف ومجد. فأبوه أبو المجد بن قريس كان عالماً دينياً. انتمى إلى الصوفية، وسلك طريقها. وأمه السيدة فاطمة بنت أبى الفتح الواسطى، تلميذ الإمام أحمد الرفاعى مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق، والذى أَوْفَدَ أبَا الفتح الواسطى إلى مصر ليستقر بالإسكندرية وينشر فيها الطريقة الرفاعية.

وأقام هذا العالم الصوفى ـ جد الإمام العتريس ـ مدة بالإسكندرية، كان يعظ الناس ويرشدهم بمسجد العطارين. وتذكر الروايات التاريخية بأن هذا الجد كان أستاذاً للعارف بالله أبى الحسين الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية. وكانت بنته السيدة فاطمة محدثة فى الدين، حافظة للقرآن الكريم، متقنة للحديث الشريف وتفسيره.

هذا البيت الكريم الذى كان يجمع هذين الأبوين الصالحين ـ الرجل الصالح أبا المجد وزوجته السيدة فاطمة ـ نشأ فيه الإمام العتريس وإخوته العشرة الذين برزَ

منهم العارف بالله إبراهيم الدسوقى، وأخوه محمد الفصيح المدفون بسنهور قرب دسوق والعارف بالله شرف الدين المدفون بدسوق.

وطبيعى وقد ولد ونشأ وتربى فى هذه البيئة الدينية أن تكون اهتمامات الإمام العتريس منذ نعومة أظفاره دينية صرفة. فيبدأ بحفظ القرآن، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، ثم يهتم بالتفسير. فيمم وجهه إلى كتب التفسير لمن سبقه من الأئمة والعلماء والفقهاء، وأن يدرس أصول الفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وأن يسلك بعد ذلك مسلك الطرق الصوفية المنتشرة فى ذلك العصر، حيث كانت هذه الطرق خير وسيلة يلوذ بها المسلم فى مواجهة ما يجرى من أحداث تزيد من قلقه واضطرابه، كهجمات التتار فى الشرق، أو الصليبيين فى الغرب على بلاد الدولة الإسلامية التى أصابها التمزق والفرقة، وأصبحت عاجزة عن ردِّ الغزاة فى أغلب أمصارها، كان على المسلم فى ظل هذه الأحداث أن يلوذ ويلجأ إلى أحد الطرق المتصلة بالدين وكانت الصوفية هى المنتشرة فى ذلك الوقت، فانضم إليها الإمام العتريس.

وأما عن تاريخ ميلاده، فبالرجوع إلى رسالة الصبَّان التى يذكر فيها تاريخ هذا الإمام الصالح ونسبه إلى آل البيت من جهة الإمام الحسين رضى الله عنه، وأن يذكر أن الإمام العتريس هو الشقيق الثالث فى الترتيب للعارف بالله إبراهيم الدسوقى، الذى ولد سنة ثلاث وعشرين وستمائة للهجرة. فمعنى هذا أن الإمام العتريس ولد بعد هذا التاريخ، أى فى نهاية عصر الدولة الأيوبية التى انتهت سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة. يؤيد ذلك ـ وهو ما وصل إليه الدارسون ـ وما ذكره الصبان فى رسالته الشهيرة، من أن الإمام العتريس، وشقيقه العارف بالله القطب إبراهيم الدسوقى. قد شاركا المسلمين فى حرب التتار والصليبيين فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأوائل سلاطين دولة المماليك البحرية.

وقد استقر الإمام العتريس فى القاهرة فى عهد السلطان بيبرس بعد انتصار المصريين على التتار فى موقعة عين جالوت المشهورة، واتخذ مكاناً له إلى جوار الأزهر الشريف، وظهر علمه وفضله، وذاع بين الناس صيته، وتجاوزت شهرته القاهرة إلى بعض القرى والمحيطة بها، والتف حوله مريدو الطريقة البرهامية. هى الطريقة التى تنتسب إلى شقيقه القطب إبراهيم الدسوقى كما مر بنا.

ولعل هذا يفسر لنا مدى ارتباط الإمام العتريس بشقيقه القطب إبراهيم الدسوقى ارتباطاً وثيقاً جعله يهتم بأتباعه ومريديه بعد وفاته. . هذا الارتباط الذى يمكن أن نلمحه فى بيت من المُدَوَّن على اللوحة المثبتة على ضريحه، وهو:

بِسِرِّ أبِى المجد الدسوقى وصِنْوِه محمد العتريس كُنْ متوسِّلاَ

أما كيف كانت علاقته بالمسجد الزينبى بالقاهرة من القوة إلى درجة أنه أوصى بأن يدفن فى رحابه إلى جوار السيدة زينب فإن لذلك سبباً. . صحيح أن الإمام العتريس من أحفاد الإمام الحسين شقيق السيدة زينب رضى الله عنهما، وصحيح أيضاً أنه كان من الصالحين بشهادة الكتابات القديمة والحديثة، إلا أن هذا السبب لا يكفى لكى يُدفن إلى جوارها دون غيره ممن ينتسبون إلى آل البيت، أو الرجال الصالحين.

ولعل السبب المباشر لذلك هو أن الإمام العتريس كان دائم التردد على هذا المسجد بشكل تصفه بعض المصادر والروايات بأنه استقر به الحال إلى الجلوس فى المسجد ليخدمه ويرعاه، وفى الوقت نفسه كان يقيم حلقات من الدرس حول سيرة صاحبة المقام ونسبها الطاهر، وفيها أيضاً كان يُبَصِّرُ الناسَ فى أمر دينهم، ويعلمهم ويثقفهم، ويرشدهم إلى قواعد هذا الدين الحنيف، وكيف أن فيه خير الدنيا والآخرة.

وهكذا ظل الإمام العتريس ملازماً لهذا المقام الزينبى الطاهر، سائراً على الطريق الذى بدأه السلف الطاهر من أجداده من آل البيت. . حتى اعتبره الناس إماماً لهذا المسجد لما أدركوه منه من علم وفضل. . حتى انتقل إلى رحمة الله فى أواخر القرن السابع الهجرى، فكان لابد أن تنفذ وصيته التى تطلب دفنه فى رحاب المقام الزينبى بالجهة البحرية المواجهة لضريح هذه السيدة الطاهرة.

ولأن الإمام العتريس كانت له الكثير من الإنجازات والأعمال والكتابات، فقد وجد مدفنه اهتماماً ملحوظاً بعد ذلك، حيث أُقيم على المدفن ضريح جديد، أمر بإنشائه الوالى سعيد باشا، تظلله قبة كتب عليها كلمات تشير إلى نسبه الطاهر، وصلته بجده الإمام الحسين رضى الله عنه، وقرابته لشقيقه العارف بالله إبراهيم لدسوقى، كما ذكر علمه وفضله وخدمته للمقام الزينبى الطاهر.

* * *

٥٦ مرزوق اليمانى
مجاهد يمنى بمصر

نحن على موعد مع رجل صالح ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما، بعد أن التقينا باثنين ينتهى نسبتهما إلى هذا الإمام الشهيد، وهما القطب أحمد البدوى الذى جاء وافداً من المغرب ليستقر بطنطا فى دلتا مصر، والقطب الآخر هو إبراهيم الدسوقى الذى ولد وعاش ومات بمدينة دسوق بمصر، والأول أسس الطريقة الأحمدية، والثانى الطريقة البرهانية.

أمّا الرجل الصالح الذى نلتقى به هذه المرة فهو مرزوق اليمانى الذى وفد من اليمن إلى مصر ليستقر بحى الجمالية فى القاهرة، وليكون خليفة للقطب أحمد البدوى بعد وفاته.

لكن لماذا قطع هذا الرجل الصالح هذه المسافات الطويلة حتى يصل إلى المكان الذى عاش فيه ومات؟ الإجابة تقول: إن لوصول هذا الرجل الصالح إلى مصر سبباً ربما لا نتوقعه من رجل من الصوفيين.

ولكى نعرف هذا السب وغيره فلنتأمل سيرة حياة هذا القطب الذى وُلد باليمن عام ٦٠٤ هـ. وتوفي ودفن بمصر سنة ٦٧٧هـ إنه كان حسينياً نسباً، حيث ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين رضى الله عنه. شافعيًا مذهباً، حيث اتبع مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، أحمديًا طريقة، حيث سلك طريقة السيد أحمد البدوى.

وتذكر المصادر والمراجع أن هذا القطب نشأ وترعرع فى كنف والدين فقيرين، غير أنه لم يكد يشب عن الطوق ويبلغ الحادية عشرة من عمره: حتى صُدم بوفاة والديه، ليتركاه وحيداً فى هذه الدنيا. وطبيعى أن تكون لهذه الحادثة أثرها على

حياته. فهناك من يرى أنها كانت بمثابة نقطة التحول، إذ لم يطب له العيش باليمن، ومن هنا ألحت عليه فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام الواسعة، تلك التى تموج بالأحداث والمحن الناتجة عن هذه الهجمة الضارية من الصليبيين.

وكما تقرر هذه الكتابات أن فكرة الجهاد فى سبيل الله سيطرت عليه بشكل ملحوظ، وفى مقدمة هذه الكتابات ما كتبه المقريزى فى تأريخه له، والدكتورة سعاد ماهر فى كتابها عن مساجد مصر وأوليائها الصالحين.. نعم، لقد كانت هذه الفكرة تراود قلوب الشباب وقتئذ، حيث وقر فى النفوس أن الإسلام فى خطر، وأن هناك مَنْ يريد القضاء عليه، ولذلك وجب الجهاد، فهو فريضة إسلامية.

وفى هذا تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها قائلة: «إننا لا نشك فى أن الرؤيا التى أخذت تلح على مرزوق اليمانى، وتكررت له ثلاث ليالى متتالية، ولم يجد بُدًا من أن يقصها على جدته التى كانت تكفله بعد الموت المبكر لوالديه، وفحوى هذه الرؤيا «أن شيخاً عربياً تدل عليه أمارات الهداية.. يأمره بالانتقال من اليمن إلى مصر..».

هذه الرؤيا كانت سبباً آخر - بعد الرغبة فى الجهاد عن دار الإسلام - ولذلك قرر السفر والهجرة بعيداً عن مسقط رأسه باليمن.

وعلى عادة غيره من الصالحين الذين هاجروا من بلدانهم إلى مصر لم يتوجه إليها مباشرة، بل قصد مكة المكرمة أولا، حيث التقى بعلمائها وفقهائها، وانكب على ما وقع بين يديه من كتب ومراجع، يتزود منها ما شاء الله له أن يتزود من الثقافة والعلم، ولم يكتف بذلك، وإنما أنفق بعض الوقت فى الارتحال من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة طلباً للمزيد من المعرفة على أيدى أهل العلم هناك.

وفى المدينة سمع الأخبار المؤلمة عن قرب تقدم واقتحام الفرنجة الصليبيين للمدينة المنورة، وهو ماأهاج المشاعر، حيث تدنس أقدام هؤلاء الفرنجة أرض مدينة الرسول وهو ما لا يرضاه أى مسلم على الأرض، ففيه اعتداء على المقدسات الإسلامية، وأى اعتداء!

والحق أن صلاح الدين الأيوبى قد واجه هذا الأمر الجلل بكل حسم وعزم،

وهو ما لا ينساه له التاريخ وإذا عدنا إلى مرزوق اليمانى فإننا نراه كمسلم لم يرض لنفسه أن يظل هكذا غير إيجابى تجاه الأحداث، وهو ما لا يرضاه له دينه، ولهذا أعد نفسه للسفر إلى مصر لينضم إلى فلول المجاهدين فى سبيل الله ضد هذه الهجمات، كغيره من المتطوعين المسلمين الذين تدافعوا إلى مصر والشام طلباً فى التضحية والفداء.

ووصل إلى مصر، وأصبح له فيها شأن عظيم، فها هو ذا الأمير الكامل ابن شقيق صلاح الدين الأيوبى يثق فى علمه ويجعله مشرفاً على المدرسة الكاملية بالجمالية بالقاهرة، وهى تعد ثانى مدرسة للحديث بعد مدرسة دمشق التى أسست من قبل لتفسير الحديث الشريف.

وعلى عادة غيره من المتصوفة اتخذ مرزوق اليمانى خلوة فى حى الجمالية، قريبة من المدرسة الكاملية، خاصة بعد لقائه بالقطب أحمد البدوى فى القاهرة، وروايته له الرؤيا التى كان قد رآها باليمن، والتى كانت سبباً فى التفكير فى السفر. ولم يكد ينتهى من قصته، حتى قام السيد أحمد البدوى من فوره وألبسه العمامة الحمراء، وأعطاه العهد الوثيق يداً بيد، فكان ذلك نقطة تحول جديدة فى حياة اليمانى، حيث أصبح الخليفة الأول للقطب أحمد البدوى.

لقد كان فى لقاء هذين القطبين الكبيرين: أحمد البدوى، ومرزوق اليمانى نفع كبير تحقق على أيديهما للإسلام والمسلمين.

والجدير بالذكر أن مرزوقاً اليمانى تولى قيادة المحمل منذ وطأت أقدامه أرض مصر حتى وفاته. وذلك بعد حادثة تناقلها الرواة، مؤداها أن هذا الجمل أسرع الخطى إليه عندما رآه، وقد بقى هذا التقليد فى ذريته من بعده جيلاً بعد جيل، حتى توقف المحمل.

* * *

٥٧ على أبو الشباك الرفاعى
صوفى يدعو إلى قيمة العمل

الحديث الآن عن العارف بالله «على أبى الشباك الرفاعى» المعروف برفاعى مصر، وهو أحد أولياء الله الصالحين الذين دعت طريقتهم فى التصوف إلى تمجيد العمل، والحث عليه، وتيسيره لمن أراد إذا كان هذا فى الاستطاعة، وهو أسلوب استمده من جده العارف بالله أحمد الرفاعى، مؤسس الطريقة الرفاعية التى بدأت فى العراق حيث كان يعيش.

لقد كان هذا الجد الصالح يعلن صراحة ـ وليس ضمناً ـ عن شعار وأسلوب طريقته قائلا: «لا ينضم إلى صفوفنا عاطل»، ولذلك نراه كان يشترط على تلاميذه ومريديه أن يكون للواحد منهم عمل يتقنه حتى يعيش منه ويكفيه مذلة السؤال، فإن لم يتيسر له هذا العمل فليبحث له عن عمل، ووضع خطة له، يسير عليها مَنْ جاء بعده من الأبناء والأحفاد، ومنهم الحفيد «على أبو الشباك الرفاعى» مؤدى هذه الخطة: «طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة. . ».

وهى قيم ومبادئ مستمدة من السلف الصالح الذى قامت على سواعدهم خير أمة أخرجت للناس، ولم يكن تحقيق ذلك بالتمنى، ولكن بالعمل والجد فيه.

ولم يكن غريباً ـ والأمر كذلك ـ أن تكون معنى الولاية فى رأى حفيده «على أبو الشباك الرفاعى» هى اتخاذ القدوة والمثل من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم.

إن الولاية فى رأى رفاعى مصر «على أبى الشباك» عزم وعمل، تقوى وزهد،

إيمان وإصلاح. . هى نصرة للدين، وإقامة لشعائره، وعمل على عزته، ومعاونة فى حمل أعباء أهله.

وليس الولىُّ فى رأى العارف بالله «على أبى الشباك الرفاعى» هو من يتماوت، أو يتكاسل، أو يعيش لنفسه، أويكون عالة على غيره من الناس، أو مَنْ يتصنع الخلوة متكاسلاً عمَّا يفيد مجتمعه من الأعمال، أو مَنْ ينقطع عن الناس متظاهراً بالعبادة. أو الذى يجمع حوله أعداداً من المجاذيب والدراويش الذين لا يعملون فيصبحون عالة على المجتمع. إنما الولى الحق هو ذلك الذى تكون حياته ومواقفه وأعماله كلها موجهة لخدمة الجماعة التى ينتمى إليها، بحيث يكون هو القدوة، وهو المثل بين المريدين والأتباع فى الطريقة. التى تجمعهم، حتى وإن بعدت بين أفرادها المسافات.

هذه المبادئ والقيم التى استمدها رفاعى مصر من جده مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق أحمد الرفاعى تجعلنا نسأل عنه كواحد من الصالحين، وكيف عرفت مصر الطريقة الرفاعية من خلاله؟

سؤال إجابته تدعو إلى النظر فى تاريخ حياته، منذ وفد والده أحمد الصياد الحفيد المباشر للعارف بالله أحمد الرفاعى إلى مصر سنة ثلاث وثمانين وستمائة هجرية، وبقى فيها فترة تزوج خلالها حفيدة الملك الأفضل، ابنة أحد أمراء المماليك فى عهد السلطان سيف الدين قلاوون، لينجب منها ولده «عليًا».

غير أن الجدير بالذكر أن هذا الطفل ـ وهو حفيد للأمراء والملوك ـ ولد بعد رحيل والده أحمد الصياد عن مصر. وبقى فى كنف أمه وأهلها بمصر معززاً مكرماً.

ولابد أن يكون هذا الطفل قد سمع عن أبيه الذى ينتسب إلى مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق، تلك التى انتشر أتباعها فى المشرق العربى وامتد حتى بلاد المغرب. وأنه سمع الكثير عن هذا الجد، خاصة أن الصوفية فى ذلك الوقت كان لها التقدير والاحترام، وهى أمور تتضاعف أهميتها عند المماليك خاصة، لأسباب كثيرة، ترجع جمعيها إلى سيطرة الصوفية فى ذلك العصر، ونفوذها الواسع.

ومن هنا نشأ الطفل وشب تقيًا صالحاً، ساعده فى ذلك أن تعهدته أسرته لأمه بالتربية الدينية الصالحة، أن يقرأ ويحفظ القرآن الكريم، وأن يطلع ويتأمل الحديث النبوى الشريف، وأن يعد نفسه كِى يتحمل عبء مسئولية الطريقة الرفاعية التى أنشأها جده، لكى يكون جديراً بلقب رفاعى مصر، تمييزاً له عن هذا الجد رفاعى العراق.

وهكذا بدأ المريدون والأتباع يلتفون حول هذا الرجل الصالح لما سمعوه عنه من التقوى والصلاح، ولما عرفوه عن جده لأبيه أحمد الرفاعى من الكرامات، ولما لمسوه من هذا الحفيد من الإهتمام بإحياء ونشر أسلوب الجد، وإتخاذ طريقته الصوفية أسلوبًا فى الحياة، متخذاً من مسكن أسرته التى تنتسب إلى الملك الأفضل فى سوق السلاح مقراً للطريقة الرفاعية بمصر.

ولا يعنى اتخاذ العارف بالله «على أبى الشباك» القاهرة مركزاً للطريقة الرفاعية أن يقال إنه أول من أدخل هذه الطريقة إلى مصر، حيث سبقه إلى ذلك الشيخ أبو الفتح الواسطى، أحد أتباع مؤسس الطريقة أحمد الرفاعى، الذى وفد من العراق فى أوائل القرن السابع الهجرى، أى قبل رفاعى مصر بنحو نصف قرن، ولكنه أقام بالإسكندرية، ومنها نشر طريقة أستاذه رفاعى العراق.

والذى جعل هذه الطريقة الرفاعية تُنسب إلى رفاعى مصر «على الشباك» أمران: أولهما دينى متصل بسيرته، حيث إنه حفيد للقطب أحمد الرفاعى الذى ينتهى نسبه إلى العلويين، ولذلك فإن جده السابع «رفاعة» هاجر إلى المغرب هرباً من عسف واضطهاد العباسيين لأتباع على بن أبى طالب وابنه الإمام الحسين رضى الله عنهما فى المشرق. وقد استقر هذا الجد الأكبر رفاعة فى أشبيلية بالأندلس. وهناك تزوج وأنجب عدداً كبيراً من الأولاد، وقد سافر أحد أحفاده يحيى رفاعة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وبعد إقامة قصيرة فى مكة رحل إلى البصرة، حيث سُمى بالرفاعى، وأنجب ولديه الحسن الرفاعى، وأحمد الرفاعى الذى تنسب إليه الطريقة الرفاعية.

أما الأمر الثانى الذى جعل الطريقة الرفاعية تنسب إلى رفاعى مصر «على

الشباك» دون غيره. فهو اجتماعيٌ، متصل بقرابته للملك الأفضل من ناحية والدته على ما رأينا، وهو أمر على جانب كبير من الأهمية فى ذلك الوقت.. حيث كان نفوذ المماليك فى مصر واضحاً.

لهذا ولغيره من أسباب تتصل به - أى برفاعى مصر - نسبت الطريقة الرفاعية إليه، برغم أن هناك من سبقه داعياً إليها، مثل أبى الفتح الواسطى على ما رأينا.

أما لماذا سمى رفاعى مصر بعلى أبى الشباك، فذلك لأنه كان يحرص أحياناً على تلقى طلبات أتباعه ومريديه ويرد عليها من النافذة «الشباك»، ولذلك لَقَّبَهُ العامة فى ذلك الوقت بأبى الشباك. ولعل ذلك متصل أيضاً بأحوال اجتماعية خاصة به كواحد من سلالة الملوك والأمراء.

ولقد ظل رفاعى مصر بالقاهرة يدعو إلى الطريقة الرفاعية التى ورثها عن جده رفاعى العراق.. حتى توفى ودفن بالمسجد المعروف باسمه فى القلعة. وكما يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية أنه كان يَرِدُ لزيارة سيدى على أبى الشباك رفاعى مصر وحفيد رفاعى العراق خلق كثير من القاهرة ومن غيرها فى القطر المصرى، لاعتقادهم أنه يستطيع أن يشفى المصابين بالأمراض النفسية أو العصبية المعروفة عند العامة بالرياح الطبيعية، وهو مجرد اعتقاد ربما ساعدهم على الشفاء.

ولعل مثل هذه الاعتقادات التى ليس لها سند من العلم يجعلنا نشير من بعيد إلى ما ينسب إلى الطريقة الرفاعية من كرامات وأفعال ما زال أهل ريف مصر يؤمنون بها، ومنها إصطياد الثعابين. وهنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى حديثها عن مسجد الرفاعى بالقلعة أنها رجعت إلى ترجمة الإمام الرفاعى فلم تعثر على أى إشارة من قريب أو من بعيد تدل على أنه كان يأتى بمثل هذه الكرامات والأفعال التى جاءت على ألسنة أتباعه ومريديه كما يقول ابن خلكان: «ولأتباعه أحوال عجيبة من مسك الثعابين وأكلها، والنزول فى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها».

أقول إن هذا مجرد اعتقاد من الأتباع والمريدين لا يؤيده سند من العلم اللهم إلا إشارة ابن عربى إلى نوع من الرياضات الروحية تؤهل مزاوليها على الإتيان بأعمال غير عادية، إن لم تكن خارقة.

غير أن هذا لا يقلل من شأن رفاعى مصر المتصل نسبه برفاعى العراق الذى ينتهى نسبه إلى العلويين، وبأن هذا الجد قد ترك كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم الدينية فى التوحيد والتفسير، والحديث والتصوف، والفقه، ومنها كتاب «البهجة» و«شرح التنبيه فى الفقه الشافعى». وأن حفيده رفاعى مصر ما زال يحظى بتقدير أهلها، فما زال أتباع طريقته يفدون إلى مسجده بالقلعة، ولهم لقاءات تتجدد أسبوعيًا يحرصون فيها على إحياء طريقته إلى جانب أيام يخصصونها للإحتفال بذكراه.

* * *

٥٨ أبو العباس المرسى
ابن مرسية بالأندلس

كانت أصول طريقته مستمدة من تعاليم أستاذه أبى الحسن الشاذلى. وهى: تقوى الله عز وجل فى السر والعلانية، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى الإدبار والإقبال، والرضا بما قسم الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله فى السراء والضراء.

وكان كأستاذه أيضاً (أبى الحسن الشاذلى) يدعو اتباعه إلى السعى للرزق وإلى العمل، وكان يكره من المريد لطريقته التعطل وسؤال الناس. وكثيراً ما حث أتباعه على الأخذ بأسباب العمل ـ أياً كان العمل ـ بشرط أن يكون شريفاً.

وكان هو بالنسبة لأستاذه (أبى الحسن الشاذلى) كالشيخ الإمام محمد عبده إلى السيد جمال الدين الأفغانى.. وأبو العباس المرسى تلميذ لأبى الحسن الشاذلى وصفيّه، وصديقه، بل أكثر من ذلك صهر له، حيث تزوج ابنة أستاذه الشاذلى رضى الله عنهم جميعاً.

ذلك هو القطب الصالح أبو العباس المرسى، الذى أوصى أستاذه أبو الحسن الشاذلى أتباعه به قبل أن يموت ـ لما رأى منه من تقوى وصلاح وحب للخير ـ قائلا: «عند مماتى عليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى».

وأبو العباس المرسى من أسرة عربية ضاربة الجذور فى العروبة برغم أنه ولد فى عام ٦١٦ هـ بمدينة مُرْسِيَة إحدى مدن «بلنسية» بالأندلس حيث ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة كبير الأنصار وسيد الخزرج من ناحية. وقيس بن سعد الذى عُين والياً على مصر من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى

الله عنه. . ولأنه وُلد ونشأ فى «مرسية» بالأندلس فقد غلبت عليه تسميته بأبى العباس المرسى، فعُرف فى كثير من الكتابات باسم شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى. غير أن هذا الاسم يختصر إلى أبى العباس المرسى، وهو ما اشتهر به بعد ذلك حين انتقل من مسقط رأسه «مرسية» بالأندلس إلى غيرها من البلاد، وآخرها مصر، حيث كانت وفاته بها عام ٦٨٥ هـ بعد حياة امتدت إلى تسع وستين عاماً.

أما كيف انتقل من بلده «مرسية» إلى مصر والإسكندرية ليدفن فيها، وليكون له أتباع ومريدون فإن لذلك قصة ـ يمكن تبيين بعض خيوطها من المادة المفيدة عن هذه الشخصية الصوفية التى كتبها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال.

تبدأ خيوط هذه القصة حيث كان أبوه عمر بن على يعمل تاجراً، وتبعاً لتقاليد التجار وقتئذ كان هذا الأب يريد أن يعد أولاده لاحتراف التجارة من بعده، حفاظاً على أموال واسمه بين التجار ولما استكمل أبو العباس المرسى تعليمه ألحقه أبوه بأخيه، وأصبح الأب يعتمد على ولديه فى إدارة تجارته والإشراف على شئونها.

وطبيعى أن يكتسب هذا الفتى الذى أصبح شاباً تجارب من دنيا التجارة، حيث تفرض على العاملين بها أن يتصلوا بمختلف البيئات والطبقات، مما يتيح للتاجر فرصة التعرف عن قرب بأخلاق الناس وطباعهم.

ويستمر على هذه الحالة مثابراً على عمله فى التجارة، وفى الوقت نفسه مطلعاً على ما يتيسر له من علوم عصره، حتى يبلغ الرابعة والعشرين، ويصبح مكلفاً، ويصطحبه والده مع بقية الأسرة (أمه وأخيه الأكبر) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

كان من الصعب على هذه الأسرة أن تسلك فى هذه الرحلة الطويلة من مرسية بالأندلس إلى مكة والمدينة بالحجاز طريق البر. عندئذ آثرت أن تسلك طريق البحر، لتستقل سفينة تبحر بهم بحذاء الشاطئ الإفريقى. . ولكنها لم تكد تمضى أياماً حتى هبت عليها عاصفة شديدة، راح بسببها كل مَنْ كان على السفينة بما فيهم الأب والأم، ولم ينج منهم سوى أبى العباس المرسى وأخيه الأكبر، حيث قُدر

لهما النجاة، ووصلا إلى البر سالمين، ليتخذا طريقهما إلى المشرق، إلى أن وصلا إلى تونس. وفيها آثرا الإقامة بها الأخ الأكبر، واتجه إلى مهنته القديمة، وأما الأخ الأصغر أبو العباس المرسى فقد أراد أن يفيد غيره مما حصل من معارف وعلوم، فأتخذ لذلك داراً متواضعة، فيها قام بتعليم الصغار والصبية القراءة والكتابة والحساب، وحفظ القرآن الكريم وتفسيره.

وفى تونس يلتقى أبو العباس المرسى بشيخه وأستاذه أبى الحسن الشاذلى، الذى كان قد سمع بعلمه وفضله وتقواه، فسعى لمقابلته والجلوس إليه، والتعلم منه. ويلازمه ملازمة ظله. حتى إذا عزم أبوالحسن الشاذلى مغادرة تونس متجها إلى مصر كان أبو العباس المرسى فى صحبته، حتى وصل معه إلى الإسكندرية. وفى هذا يقول أبو العباس المرسي: «كنت مع الشيخ فى السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذنى ضيق شديد، حتى ضعفت عن حمله، فأتيتُ إلى الشيخ أبى الحسن، فلما أحس بى قال لى: آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ثم نزل به الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلِّقه، حيث يقول :(إنى جاعل فى الأرض خليفة) ما قال فى السماء ولا فى الجنة، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف. فأنزله سبحانه وتعالى إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضاً لك قسط من آدم، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف، فأنزلت إلى الأرض لتعبد الله بالتكليف، فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة الله فى أرضه..». وعلق أبو العباس المرسى على ذلك قائلا: «فما انتهى الشيخ أبو الحسن من هذه العبارة حتى شرح الله صدرى وأذهب عنى ما كانت أجده من الضيق والوسواس».

وعن أبى الحسن الشاذلى تلقن أبو العباس المرسى كيفية الجمع بين الفقه والتصوف، وهو ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس التصوف التى تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد، والزهد والعبادة، ولا تستلزم فى كثير من الأحيان المعرفة بالعلوم الظاهرة ـ لقد أتقن أبو العباس المرسى العلوم الدينية

إتقاناً تاماً. حتى كان مَنْ يتحدث إليه فى علم منها ينصرف عنه مدركاً بأنه لا يحسن إلا هذا العلم. وقد عاونه على طلب العلم والتبحر فيه كتبٌ كثيرة فى التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف اطلَّع عليها، حتى عُرِفَ بين معاصريه بالتبحر والنبوغ فى العلوم الإسلامية، مع تخصصه ونبوغه فى علوم الحقيقة وأصول الطريقة، حتى كان يقول: «شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه».

ولما تقدمت السن بأبى الحسن الشاذلى وفقد بصره، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شئون أتباعه رأى أن يستخلف تليمذه وصفيه وزوج ابنته أبا العباس المرسى على إدارة شئون دعوته، فأعلن استخلافه له فى حفل جامع بين أتباعه فى مسجد العطارين بالإسكندرية ـ وقد اضطلع بالقيام بهذه المهمة خير قيام، فكان يشرف على أتباع الطريقة، ويلقنهم الدروس، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم، ملازماً لشيخه وأستاذه أبى الحسن الشاذلى. حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ هـ عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج إلى الحج ومعه نخبة من أتباعه يتقدمهم أبو العباس المرسى. وفى الطريق مرض الشيخ مرضاً شديداً لم يملهله طويلا حتى مات قبل أن يدخل الأراضى المقدسة، ليدفنه تلميذه أبو الحسن، ويستأنف رحلة الحج التى من بعدها يعود إلى الإسكندرية، ويتخذ مجلس أستاذه وشيخه الراحل، فيشيع ذكره، ويشتهر أمره، ويقصده الناس من كل مكان يسألونه المعرفة، ويلتمسون منه البركة.

وهكذا أصبح معلوماً لدى الأتباع والمريدين أن أبا العباس المرسى يتسم بعدة صفات، منها عبادة الله كأنه يراه. وكراهية التكلف والتظاهر بالزهد والمسكنة، والادعاء والرياء ـ ومن هذه الصفات أيضاً عزة النفس، والتعفف عمًّا بأيدى الناس، والثقة كل الثقة بالله عز وجل، حتى أنه كان يقول لأتباعه: «والله ما رأيت العزة إلا فى رفع الهمة عن الخلق. وما رأيت السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين». ولهذا كان لا يسعى إلى مقابلة سلطان أو أمير. ولايرجو من أى منهما توسطاً أو شفاعةأو حتى إنه إذا جاءه أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام فى حاجة له، يقول له أبو العباس المرسى: «أنا أطلب لك ذلك من الله..».

حضر إليه يوماً لزيارته الأمير علم الدين سنجر. وهو مدير السلطنة، وصاحب الحول والطول فى عهد السلطان قلاوون، فما طلب منه أبو العباس المرسى شيئاً، حتى إذا قال له أحد أتباعه: يا سيدى اطلب من هذا الأمير أرضاً يزرعها أصحابك. فرفض رفضا باتاً، وكان يردد دائماً: «اللهم أغننا عنهم، ولا تغننا بهم، إنك على كل شئ قدير». وأقام أبو العباس فى الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة، حتى توفى، لم يحاول خلالها أن يزور والى المدينة أو أن يقصده فى طلب أو شفاعة، فى الوقت الذى كان الوالى يلح فى طلب لقائه والتحدث إليه، وكان دائم الرفض والامتناع عن لقائه وبقى على هذه الحال من الزهد والتقشف، والإباء والتعفف، حتى توفى بالإسكندرية عام ٦٨٥ هـ تاركاً بعده عدداً من التلاميذ الأفذاذ الذين يتقدمهم ابن عطاء الله السكندرى والبوصيرى وابن الحاجب وياقوت القرشى.

* * *

٥٩ الإمام البوصيرى
صاحب قصيدة نهج البردة

لا يذكر اسم الإمام البوصيرى إلا وتذكر معه قصيدته الخالدة فى مدح الرسول ﷺ المعروفة بنَهج البَرْدَة والتى مطلعها:

أمِنْ تَذكُّرِ جيرانٍ بِذِى سَلَمِ مَزَجْتَ دمعاً جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمِ
أمْ هَبَّتِ الريحُ من تلقاء كاظِمَةٍ وأَوْمَضَ البرقُ فى الظَّلماءِ من إِضَمِ

وسُميت هذه القصيدة «بنهج البردة» لأنها كانت على نهج قصيدة البردة التى أنشدها كعب بن زهير بن أبى سلمى فى مدح الرسول ﷺ والتى مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يعد مكبول

ومنها:

وقد نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

وأما لماذا سميت قصيدة كعب بن زهير بالبردة، وقصائد الشعراء الذين جاءوا بعده ومدحوا النبى بنهج البردة، فلذلك سبب، هو أن كعب بن زهير بن أبى سلمى، وقد كان شاعراً مخضْرماً، أدرك الجاهلية والإسلام. هجا الرسول فى واحدة من قصائده فأتىَ تائباً بعد فتح مكة، ودخول الناس فى دين الله أفواجا.. وجاء الرسول منشداً قصيدته المشهورة. فخلع عليه الرسول ﷺ بردته، وأعطاه إياها.. استحساناً لشعره واظهاراً لعفوه، ومن هنا سميت قصيدته «البردة».

ومن عجيب الأمور أن بردة الرسول كرداء توارثها أبناء كعب بن زهير واحتفظوا بهاطوال عصر الخلفاء الراشدين، إلى أن جاء معاوية بن سفيان فاشتراها من ورثة

كعب بن زهير بعشرين ألف درهم ليلبسها بعد أن تولى الخلافة. وصارت هذه البردة إرثاً لخلفاء بنى أمية، فكانوا يلبسونها فى المناسبات والأعياد الإسلامية تبرُّكاً بصاحبها الرسول ﷺ. كما توارث الشعراء اسمها بقصائدهم فى مدح الرسول مع تحريف بسيط هو «نهج البردة» أى على غرار البردة وكان من بينهم الإمام البوصيرى.

ومن هنا ندرك أن البوصيرى يجمع إلى تفقهه فى الدين البلاغة فى القول، فقد كان شاعراً من الشعراء المجيدين والدليل قصيدته نهج البردة وغيرها من قصائد. ولعل هذا يدعونا إلى التعرف عليه أكثر وأكثر..

هو الشيخ الصالح شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد الصنهاجى المعروف بالبوصيرى، نسبة إلى قرية «بوصير» وهى موطن أمه وأحياناً كان يُلقب بالدلاصى، نسبة إلى قرية «دلاص» موطن أبيه.

غير أن نسبه البوصيرى ينتهى إلى أصول مغربية، حيث كان أبوه من أحفاد الصنهاجى بالمغرب العربى، حيث يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية بأنه من المرجح أن يكون أحد أجداده لأبيه قد وفد إلى مصر مع بربر المغاربة الذين أشار إليهم ابن حوقل فى كتاباته.

ويذكر السيوطى فى كتابه «حُسن المحاضرة» أن الإمام شرف الدين أبا عبد الله الصنهاجى المعروف بالبوصيرى مغربى الأصل بوصيرى المنشأ، وأنه ولد سنة ٦٠٨ هـ، وتوفى سنة ٦٩٦ هـ وكان كما يقول الشهاب بن حجر: «من عجائب الله فى النظم والنثر، وإن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة نهج البردة لكفاه ذلك فخراً بين الشعراء. لقد ازدادت شهرة هذه القصيدة إلى درجة أن الناس كانوا يتدارسونها فى البيوت والمساجد، ودور العلم التى كانت موجودة وقتئذ.

ولقد بدأ البوصيرى حياته فى مهنة الكتابة على الجبايات أو الضرائب، إلا أن عدم أمانة المشتغلين معه جعلته يزهد فى الوظائف، بل ويزهد فى مباهج الحياة ومتعها، حيث رآها كلها إلى زوال ولا يبقى إلا العمل الصالح، فينصرف إلى حياة التصوف، والانقطاع للعبادة، وقد نظم فى ذلك شعراً عن موظفى عصره قال فيه:

نُقَدْتُ طوائف المستخدمينا فلم أرَ فِيهِمُو حُرًا أمينا

ولعل ما وصل إليه من تفكير فى الحياة وجدواها، هو الذى جعله يفر إلى الإسكندرية، ويلتقى بزعيم الصوفية هناك أبى العباس المرسى، تلميذ الإمام أبى الحسن الشاذلى وخليفته فى الطريقة الشاذلية. ويصحبه البوصيرى، ويتتلمذ عليه، ويكون من مريديه وأتباعه فى التصوف.

وهذا ما يشير إليه على مبارك فى خططه التوفيقية حيث يقول: «كان البوصيرى وابن عطاء الله السكندرى تلميذين لأبى العباس المرسى. فخلع على البوصيرى لسان الشعر فكان بارعاً فيه، وخلع على ابن عطاء الله السكندرى لسان النثر فكان مجيداً فيه. وقد لازم البوصيرى أستاذه أبا العباس المرسى، وأخذ عنه العلم والفضل، ثم نهج بعد ذلك فى شعره منهجاً متميزاً فى التصوف حيث مدح النبى فى نهج البردة وغيرها من قصائد أهمها الهمزية فى المدائح النبوية التى استهلها بقوله:

كيف ترقَى فى رُقِيَّكَ الأنبياءُ يـا سمـاءً ما جاوزَتْهَا سماءُ

وأخلص فى الحب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ.

ويقال إن السبب فى نظم الإمام البوصيرى لقصيدته البردة. هو إصابته بفالج ألمَّ به، وقد أعيا هذا الفالج أطباء عصره فلم يستطيعوا علاجه. ففكر البوصيرى فى نظم قصيدة يستشفع بها لدى الله ورسوله، وكانت هى قصيدة نهج البردة، التى ما أن أتمها حتى برئ تماماً من مرضه.

ولذلك فإن عدداً من النقاد والمؤرخين يرون أن هذه القصيدة إذا لم يكن عنوانها نهج البردة. فما أحراها أن يكون عنواها «البرأة» لأن ناظمها البوصيرى بَرِئ من مرضه المسمى بالفالج.

ولعل النقاد والمؤرخين يقصدون بذلك أولا انتساب القصيدة إلى سبب نظمها وهو الشفاعة إلى الله برسوله، وثانياً لتمييزها عن قصيدة كعب بن زهير بن أبى سلمى، فتكون بعنوان غير البردة. وهو «البرأة». مع أن البوصيرى اختار لها عنواناً قبل نهج البردة هو «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية» على طريقة أهل

زمانه فى الكتابة، إلا أن نهج البردة كان من الشهرة بحيث بقى فى أذهان الناس، إلى درجة أن صاحب القصيدة البوصيرى وقُرَّاءَها قد نسوا هذا العنوان واستقر فى الأذهان نهج البردة.

والجدير بالذكر أن النقاد والمؤرخين قد أفاضوا فى الحديث عن قصيدة الإمام البوصيرى «نهج البردة» متتبعين مراحلها منذ كانت مجرد خاطرة فى وجدان صاحبها البوصيرى يريد أن يظهرها للوجود. إلى أن أصبحت عملاً إبداعياً متكاملا، وضمن هذه المراحل ما يقال: إن البوصيرى ظل ينشد متفرقات من أبياتها. حتى إذا أتى إلى الشطرة الأولى من بيت: «فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ» فتوقف ولم يستطع أن يستكمله، وظل على هذه الحالة أياماً عديدة إلى أن رأى - فيما يرى النائم - النبى ﷺ يطلب منه قراءة شطرة هذا البيت الذى توقف عندها فقرأها وهنا أتمها بعد أن استيقظ قائلا «وأنه خير خَلْقِ الله كُلِّهِم».

فأصبح البيت:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وأنه خير خَلْقِ الله كلهم

وتكتمل القصيدة فى ١٨٠ بيتاً، ولتكون أعظم قصائده، وليؤلف على وزنها الشعراء قصائدهم فى مدح النبى وفى مقدمتهم فى العصر الحديث أمير الشعراء أحمد شوقى.

وهكذا عاش البوصيرى أديباً صوفياً. حتى توفى عام ٦٩٦ هـ بالإسكندرية، ودفن على أرضها وأقيم له مسجداً بإسمه هناك بجوار أستاذه أبى العباس المرسى.

* * *

٦٠ عبد العزيز الديرينى والسلطان المملوكى لاجين

أن يجتمع لإنسان ـ أى إنسان ـ التصوف بإشراقاته الراقية، واللغة بمعرفة أسرارها العالية، والأدب بتنوع فنونه الرفيعة.. مع التقوى والورع والإيمان فلابد أن يكون هذا الإنسان موضع تقدير الناس واحترامهم وحبهم وإجلالهم، يستوى فى ذلك الكبير والصغير. خاصة الناس أو عامتهم.

ولقد اجتمعت هذه جميعها للرجل الصالح عبد العزيز الديرينى، المتصوف، واللغوى، والأديب، تلميذ أبى الفتح الواسطى، وامتداد مؤسس الصوفية بالعراق الإمام أحمد الرفاعى، ومعاصر قطباها بمصر السيد أحمد البدوى، والسيد إبراهيم الدسوقى.

إن لوحة حياة هذا المتصوف الأديب اللغوى الصالح تشير إلى أنه أحد مشايخ التصوف المعروفين فى مصر بالزهد والورع، والتقوى والإيمان، أو كما يذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته المشهورة: «هو الشيخ الورع، ذو الحالات الفاخرة، والأحوال الشريفة، والكرامات المشهورة، والمصنفات الكثيرة فى التفسير والفقه واللغة والتصوف وغير ذلك من الأعمال الجليلة..».

فالشيخ عبد العزيز الديرينى إلى جانب كونه مُلِمًا بعلوم الدين فقيهًا بأمورها، عليماً بجوانب ديننا الحنيف، فهو أيضاً عالم بأسرار لغتنا العربية، نحوها وصرفها قواعدها وبلاغتها، وبعد ذلك هو أديب مبدع، له فى المجال الأدبى آثار لا تمحى، فقد عُرف عنه نظم الشعر فى أغراضه المختلفة، بشكل يعده نُقَّادُ العرب ومؤرخوه فى هذه الفترة واحداً من الشعراء المجيدين.

إن إجادته للشعر يشير إليها ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى» بما يفيد ذلك، حيث يقول: «.. وللشيخ عبد العزيز الديرينى نظم كثير شائع، منه منظومته التى ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم العلم والفضل».

ثم يذكر ابن تغرى بردى أمثلة لشعره فى هذا الصدد، منه قصيدة مطلعها:

وأذكر الآن رجالا ... كأنجم يزهو بها الزمان
مشايخى الأئمة الأبرار ... وإخوتـــى الأخيـــار

إلى أن يقول وكأنه يشير إلى الفترة التى عاشها من سنوات القرن السابع الهجرى فيؤرخ لها قائلا:

لم يبق فى الستين والستمائة ... من أشياخنا إلاَّ فئة

ونظرة أخرى إلى لوحة حياة هذا الرجل الصالح كما تسجلها كتب السير والتراجم، وتقرها أقلام مؤرخيها.. تقول إن الشيخ عبد العزيز الديرينى ولد فى قرية صغيرة من قرى مصر فى وسط الدلتا، هى قرية «ديرين»، وهى بلدة تقع على بعد كيلو مترين من «نبروه» بمحافظة الدقهلية، وأنه عاش عصر المماليك فى مصر. حيث عاصر فى آخر أيامه الملك المملوكى المنصور لاجين. وكان هذا الملك متديناً، كثير القيام والصيام، قليل الأذى والشر، ولذلك كان من الطبيعى أن يجل العلماء، ويحترم رجال الدين، ويقدِّر المتصوفين منهم خاصة حق قدرهم، فكان يسعى إليهم ويطلب ودهم، وكانوا هم من جانبهم يحضرون مجالسه التى كانت تزخر بألوان من المناقشات حول الدين والدنيا..

كان من هؤلاء العلماء والمتصوفة الذين يتصدرون مجالس الملك لاجين.. الشيخ عبد العزيز الديرينى. ولم يكن هذا الشيخ الوقور يسعى إلى هذه المجالس إلاَّ بطلب من لاجين، وكثيراً ـ كما يذكر الرواة والمؤرخون ـ ما طلب إليه هذا الملك الحضور إلى القاهرة للانتفاع بعلمه.

لقد بلغ تقدير الملك لاجين للشيخ عبد العزيز الديرينى حداً أنه أنشأ له مسجداً سماه باسمه وهو على قيد الحياة، حتى يتيح له فرصة اللقاء بتلاميذه ومريديه فى حلقات علمية وأدبية. حتى إذا جاء من قريته «ديرين» إلى القاهرة توجه إلى هذا

المسجد المقام حتى الآن بحى الروضة بالقاهرة وأقام فيه وصلى بالناس، وعقد حلقاته . . . ولذلك عرف هذا المسجد بإسمه بعد وفاته إلى اليوم.

وتستطرد كتب التراجم والسير فى حديثها عن الشيخ عبد العزيز الديرينى فتذكر أنه كان كثير العلم، واسع الإطلاع، يصحبه الكثيرون من العلماء والفقهاء، ومنهم مَنْ انتفع بعلمه وصحبته فى مدن وقرى وسط الدلتا، بجوار مسقط رأسه «ديرين»، والتى يعرفها المؤرخون ببلاد الريف، وفى ذلك يسجل الشعرانى فى طبقاته قائلا: «وكان مقر ومقام الشيخ عبد العزيز الديرينى ببلاد الريف ـ وسط الدلتا ـ من أرض مصر، وكان الناس يقصدونه من سائر الأقطار العربية، حاملين إليه مشاكلهم الفقهية التى يطلبون منه حلاً لها».

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الديرينى أخذ العلم عن عدد من العلماء والفقهاء ورجال التصوف، وفى مقدمة هؤلاء رجل التصوف الأكبر، الإمام أبى الفتح الواسطى، وفى ذلك يقول الديرينى نفسه: «لقد أشار سيدى أحمد الرفاعى، على سيدى أبى الفتح الواسطى بالسفر إلى الإسكندرية، فسافر إليها. وفيها أخذ عنه ناس لا يحصون، وكنت أنا واحداً منهم، وكان سيدى أبو الفتح الواسطى مبْتَلَىً بالإنكار عليه، فاجتمع علماء الإسكندرية وفقهاؤها وعقدوا فيما بينهم وبينه المجالس العلمية، فكان يقرعهم الحجة بالحجة. ويسفه قولهم، ويبين سوء رأيهم، ويوضح قلة معرفتهم وكان خطيب مسجد العطارين من أشدهم عليه. . ».

وفى إشارة عبد العزيز الديرينى ما يوضح أنه فى هذا العصر كان هناك اهتمام بالعلم والعلماء، برغم تدهور الأحوال السياسية، فيكفى أن تحكّم مصر بالمماليك وليس بأبنائها. غير أن الاهتمام بالعلم وأهله كان من سمات هذا العصر، وإلا فما معنى اهتمام السلاطين أنفسهم بذلك، واهتمام العلماء المصريين أنفسهم بغيرهم من العلماء العرب؟ وما معنى أن تقام هذه المناقشات بين علماء الإسكندرية وبين أبى الفتح الواسطى القادم بأفكار جديدة من العراق. لو لم يكن هناك اهتمام علمى؟ وربما كان ذلك اهتمام بالدين وعلومه، فليس هناك ما يلوذ به المصريون ـ إبان المحن غير الرجوع إلى الدين وفهمه فهماً صحيحاً، ومعرفة آراء مَنْ يأتى بتفسيرات جديدة فيه وهو علم على أى حال.

كذلك تشير المصادر التاريخية إلى كرامات الديرينى تلك التى تعددها الكتب القديمة، ولعلنا نسجل ما كتبه ابن تغرى بردى فى كتابه «المنهل الصافى» قائلا: «طلب جماعة من فقراء الصوفية كرامه من الشيخ الديرينى، فقال لهم: وهل ثمة كرامة أعظم من أن الله تعالى يمسك بنا الأرض ولم يخسفها وقد استحققنا الخسف».

وقد توفى الديرينى سنة ٦٩٧ هـ ودفن بمسجده بقرية ديرين بمحافظة الدقهلية وهو غير المسجد الموجود بحى الروضة بالقاهرة الذى بناه له السلطان ليصلى فيه الناس بالقاهرة.

* * *

٦١ ابن دقيق العيد
قاضى القضاة بمصر

ولد هذا العالم الجليل بقوص عام خمس وعشرين وستمائة، ونشأ فى بيئة علم وفضل، فقد كان أبوه مجد الدين بن دقيق العيد من أعلام المذهب المالكى، فتفقه على يديه، ودرس جوانب هذا المذهب الذى يعنى بالحديث، وتعلم على الإمام العز بن عبد السلام الذى كان شافعياً، فتفقه على يديه، ودرس جوانب المذهب الشافعى الذى كان يعنى بالرأى، وبذلك اجتمع لديه دراسة المذهب المالكى والمذهب الشافعى، إلى جانب دراسته للعلوم غير الفقهية على شيوخ وعلماء زمانه، حتى نبغ فى العلوم العقلية والنقلية معاً، فكان للعلوم جامعاً وفى فروعها وفنونها وتفصيلاتها بارعاً. . . ذلك هو العالم المجدد تقى الدين بن دقيق العيد.

كان يتسم بشخصية فذة، تجعل للعلم ورجاله هيبة وتقديراً، فكان لا يخشى فى الحق لومة لائم، وكان تقديره للإنسان إنما لعلمه وفضله، وليس لجاهه أو سلطانه، حتى إذا خاطب من الناس أحداً ـ سلطاناً منهم أو غير سلطان ـ ناداه بقوله: «يا إنسان» أما إذا كان المخاطب فقيهاً كبيراً ناداه بقوله: «يا فقيه»، ولايسمح بهذه الكلمة إلا لأهل العلم والفضل من أمثاله.

وعلى الرغم من هذا فقد كان يجد تقديراً واحتراما من الملوك والسلاطين، فعندما حضر إلى السلطان المملوكى حسام الدين لاجين قام إليه السلطان وقَبَّلَ يده، وهو يطلب رضاءَهُ ودعواته، فلم يزد الإمام تقى الدين على أن يقول له: «أرجوها لك بين يدى الله عز وجل»، إشارة إلى أن هذا الصنيع من السلطان

مهما كان لايمحو المظالم التى يشكو منها الناس، والتى يعلمها الله وحده الذى بيده الحساب والعقاب.

وهكذا كان أسلوبه مع سائر الأمراء وكبار رجال الدولة وقتئذ، والسبب التفاف الناس حوله، وأنه فى غنى عن السلاطين والأمراء.. إلى درجة أنه عندما عرض عليه منصب قاضى القضاة على المذهب الشافعى بمصر، وهو منصب يتمناه أى عالم أو فقيه، رفضه فى إباء شديد ولم يقبله إلاَّ بعد أن قيل له: إن لم تفعلْ ولَّوْا فلاناً أو فلاناً، وهما رجلان لا يصلحان لهذا المنصب الحساس، لسمعتهما التى كانت محل شك، لما اقترفاه من أخطاء فى حق الشعب.

وهنا رأى الإمام تقى الدين بن دقيق العيد أن القبول أصبح واجباً يحتمه عليه أمر دينه، ومع هذا عزل نفسه أكثر من مرة غير آسف. فكانوا فى كل مرة يعيدونه بعد تنفيذ ما يطلب، وهو الرجل الصالح والخير. حتى ظل فى منصب قاضى القضاة إلى أن تُوفى عام اثنين وسبعمائة للهجرة.

ورب سائل يسأل: ولماذا يرفض إمامٌ عَلَى عِلْمٍ مثل ابن دقيق العيد أكبر المناصب.. أو أنه يعزل نفسه منها بين آونة وأخرى؟

إن السبب الذى تذكره المصادر والروايات هى أن هذا الإمام كان غير راضٍ عن حالة الحكم فى عصره، ولا عن استئثار أولئك المماليك ـ وهم الغرباء المجلوبون شراءً بالمال ـ بحكم مصر والشام. وليس ببعيد عن ذهنه هذه الفتوى التى أعلنها أستاذه الإمام العز بن عبد السلام بعدم شرعية تولى المملوك المشترى حكم بلاد المسلمين، لهذا ولغيره من أسباب كان الإمام ابن دقيق العيد يأبى المنصب، وإذا قبله كان يعزل نفسه منه، حتى لا يقوم بعزله حاكم لا يتعرف به أصلا بحكم الشريعة وكان يضمن قصائده مخبوء نفسه، حيث كان يشير إلى ذلك قائلا:

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها — أهل الفضائل مرزولون بينهم
قد أنزلوا لأناً غير جنسهم — منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فمالهم فى توقىٍّ ضَيْرنا نظر — ومالهم فى ترقى قدرنا همم

على أن الباحثين يتساءلون: متى كانت شكوى ابن دقيق العيد؟ هل كانت وهولا يزال ببلده قوص لا يعرف أولئك الحكام ولا يعرفونه؟ أم كانت شكواه بعد

أن ضُرِبَ بقوله - فى بلده قوص - عُرض الحائط فتركها إلى القاهرة وبلغ فيها ما بلغ من السلطان، فكان الفساد هو الفساد، فى قوص أو فى القاهرة، وكانت عواقب ذلك الفساد ذهاب الدنيا عن المسلمين ظاهرة لا تخفى على أحد، وهو ما أدركه وسجله الطبرى فى القرن الثالث الهجرى، فما بالنا وقد وصلنا إلى القرن السابع للهجرة، حيث زاد الفساد وتفاقم وصار ينذر بالخطر؟

والجواب على ذلك فى كلمة واحدة: هو كل ذلك، وهو ما آلت إليه حال الأمة الإسلامية من فُرْقَة وتمزق، وسيادة للأجنبى على أرضها، حتى ولو كان مملوكاً يُبَاع ويُشْتَرى.

ولعل الإمام تقى الدين بن دقيق العيد كان قد أدركه اليأس من صلاح الأحوال، فسلم أمره لله يفعل ما يشاء، فهو على كل شئ قدير، وإلاَّ فما معنى قوله فى قصيدة طويلة منها:

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آسِي
فلا ترج الناس فى حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياسِ
ولا ترد شكوى إليهم فلا ... معنى لشكوى إلى قاسِ
لا رغبة فى الدين تحميهمُ ... عنها ولا حشمة جُلاسِ
فأهرب من الخلق إلى ربهم ... لا خير فى الخلطة بالناسِ

وعلى الرغم من هذا الوضع المتدهور فى الأمة الإسلامية نجد لابن دقيق العيد لفتات ولوامع تدل على أنه كان من أصحاب النزعات التجديدية فى التفكير الإسلامى، حتى إن العالم المرحوم عبد المتعال الصعيدى اختاره واحداً من المجددين فى القرن السابع الهجرى.

من هذه اللفتات أنه لماَّ جاء التتار إلى الشام عام ثمانين وستمائة، وَرَدَ مرسومُ السلطان إلى القاهرة بعد خروجه للقائهم أن يجتمع العلماء ويقرءُوا البخارى، ففعلوا، حتى إذا بقى منه شئ أخروه إلى اليوم التالى، ولما كان اليوم التالى رأوا ابن دقيق العيد فى المسجد، قال لهم: ما فعلتم ببخاريكم؟ فقالوا: بقى منه جزء أخرناه لنختمه اليوم. قال لهم: «الفضل الحال من أمس العصر». وهو يعنى ما فعلتم ببخاريكم أن ينبه إلى أن النصر قد تم للمسلمين قبل الانتهاء من قراءة البخارى،

وأنه تم بما أمر الله بإعداده من قوة ومن رباط الخيل، وليس بقراءة أو نحوها من هذا التفكير.

على أن الذى يقطع عند الدراسين والعلماء والفقهاء على أن ابن دقيق العيد كان من مجددى الإسلام فى القرن السابع الهجرى أمران: أولهما ما ذكره فى مقدمة «شرح الإلمام» من أنه يجب أن يجعل الرأى هو المأموم. والنص هو الإمام، فترد المذاهب إليه، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه، ولا يصح أن يجعل الرأى - الذى هو فرع للنص - أصلاً يرد النص إليه بالتكلف والتخيل، حيث يقول: «ويحمل على أبعد المحامل، بلطافة الوهم وسعة التخيل، ويرتكب فى تقرير الآراء الصعب، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس، وتستنكره العقول».

والأمر الثانى.. انتصاره لتلك المختصرات المعقدة التى عرفت فيما بعد باسم المتون. وكان ابن الحاجب وأقرانه من المتأخرين هُمُ أول من سَنَّ هذه البدعة فى العلوم، وقد اختلف علماء القرن السابع الهجرى فى أمر هذه المختصرات، فكان ابن دقيق العيد من أنصارها، ومن أنصار الاعتماد عليها فى التعليم.

ولعله بانتصاره لهذه الطريقة التى قُدِّرت لأولى الغلبة بعده، وكان أصحابها هم المجددين من المسلمين عبر القرون.. ولعل هذا كان من أسباب اتفاقهم على أنه من مجددى القرن السابع الهجرى.

وعن سبب تسمية جده لأبيه «دقيق العيد» كما يسجل معاصره الأدفوى: أن هذا الجد كان عليه فى يوم العيد طيلسانٌ شديد البياض، فقال بعضهم لبعض: كأنه دقيق العيد. فَلُقِّب به هو وأبناؤه وأحفاده.

ولعل خير ما نختتم به الحديث عن ابن دقيق العيد هو ما جاء فى وصفه على لسان الأدفوى، حيث يقول: «هو التقى ذاتاً ونعتاً، والسالك الطريق التى لا عِوَجَ فيها ولا أَمْتاً، والمحرز من صفات الفضل فنوناً مختلفة. وأنواعاً شتى، والمتحلى بالحالتين الحسنيين صمتاً وسمتاً..».

ولقد توفى هذا العالم الجليل سنة اثنتين وسبعمائة، ودفن بسفح المقطم، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، سارع الناس إليه، حتى وقف جيش من البشر ينتظر الصلاة عليه، ورثاه جماعة من الأدباء والعلماء بالقاهرة وقوص، مؤكدين أنه كان صالحاً وتقياً، عالماً وفقيهاً، أديباً وشاعراً.

* * *

٦٢ ابن عطاء الله السكندرى
صاحب الحكم والأقوال المأثورة

الحديث هذه المرة عن قطب من أقطاب الصوفية. أتقن إلى جانب علوم الباطن - التى هى من صميم التصوف - علوم الظاهر من شريعة وفقه، ومع الاثنين كان له اهتمامات أدبية واضحة يستطيع أن يلمحها القارئ لكتاباته من مجرد الصياغة الأدبية الرفيعة المستوى. وهذه الخصائص أهلته جميعها لأن يحتل عموداً من أعمدة الأزهر الشريف، وأن يكون له تلاميذ ومريدون ليس على مستوى مصر وحدها، أو العالم العربى فحسب، وإنما على مستوى العالم الإسلامى كله.. ذلك هو العالم الصوفى الجليل ابن عطاء الله السكندرى.

هذا الصوفى الجليل مصرى أصيل، وُلد فى الإسكندرية، وبها كانت نشأته وتربيته وتعليمه وتثقيفه على أيدى علمائها وفقهائها، وعلى قطب الصوفية فيها أبى العباس المرسى، شيخ الطرق الصوفية فى العالم العربى الإسلامى، وخليفة مؤسسها أبى الحسن الشاذلى تعلم وتفقه.

وتاريخ ابن عطاء الله السكندرى يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الحركة الفكرية بوجه عام، وتاريخ التصوف فى القرنين السادس والسابع الهجريين بوجه خاص، حيث انتشر فيهما التصوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساساً لفهم الدين الإسلامى فهماً روحياً، بعد أن ظلوا يناضلون التصوف وقتاً طويلا، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله عز وجل هى التفرغ لعبادته، والفناء فى حبه، والاتصال به عن طريق تصفية وتنقية القلب من كل أدران الشك، والسمو بالروح والنفس.

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية، فهو الذى وَضَّحَ فكرتها، وصاغها فى قالب علمى، كما أنه كان أول من ترجم لأستاذه أبى العباس المرسى، ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبى الحسن الشاذلى، فأسدى لهذه الطريقة ولقطبيها أجَلَّ الفوائد، كما أتاح لأتباعها معرفة الكثير عن هذه الطريقة.وعن أقوال وتعاليم قطبيها الكبيرين.

لكن ابن عطاء الله السكندرى كان نموذجاً وحده بين المتصوفة. فقد كان يجمع بين العلمين: علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق، وكان ـ بشهادة المؤرخين مَن العلماء والفقهاء ـ مبرزاً فى الاثنين معاً. فكان بهذه الصفة يستطيع أن يخاطب الجميع ـ صوفيين أو غير صوفيين غير أن هذا المزيج من علم الظاهر وعلم الباطن لم يأتِ هكذا فجأة، بل سبقته خطوات وخطوات. .

إن من عجيب الأمور فى سيرة هذا العالم الصوفى الجليل أنه نبغ أول حياته فى علوم الظاهر، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طريقتهم وعلومهم، إلى أن أتيحت له الفرصة للتعرف على قطبها أبى العباس المرسى، ومنذ ذلك التاريخ آمن بطريقتهم وعلومهم.

لكن كيف كانت البداية فى دخول عالم التصوف؟

لقد بدأ ابن عطاء اله السكندرى مريداً بعد أن حصل من العلم قدراً وفيراً، وبعد أن نبغ فى دراسة الفقه والشريعة والأدب. وعلوم الظاهر عامة، لهذا لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذ أبى العباس المرسى إليه، وبعد وفاته انتقلت إليه إمامة الطريقة الشاذلية، فجلس مجلس أستاذه يفسر القرآن تفسيراً صوفياً، ويلقى المواعظ والدروس بين أتباع هذه الطريقة.

ومن الإسكندرية ـ التى وُلد فيها ونشأ وتعلم ـ انتقل إلى القاهرة. ليتخذ له عموداً من أعمدة الأزهر الشريف. يلقى فيه دروس الصوفية، ويشرح آدابها وتعاليمها، فكان ـ كما تذكر الروايات والمصادر إلى جانب علمه الواسع فى الدين عامة والصوفية خاصة ـ أديبًا حلوَ الحديث، مشرق العبارة، مما كان لذلك أكبر الأثر فى نفوس سامعية، ونفوس قرائه بعد ذلك. ولهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلال.

وطبيعى أن يكون عالم هذا شأنه أن يسمع به السلطان المملوكى «حسام الدين لاجين»، فشاقه أن يراه ويستمع إليه ليتأكد من صدق ما يسمع عنه، فاستدعاه إلى مقر السلطانية.

وعن خبر هذه المقابلة يسجل ابن عطاء الله السكندرى جانباً منها، وهو الخاص بالمواعظ التى ألقاها فى حضرة هذا السلطان.

قال: «لما اجتمعت بالسلطان حسام الدين لاجين رحمه الله، كان على ما عرفت يريد أن يستمع إلىَّ، والحق أننى سعدت بذلك، فقد كانت فرصة نادرة أستطيع فيها توصيل ما أشعر به من آراء، حيث بدأت الحديث معه بقول: «يجب عليكم الشكر لله، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء، حتى انشرحت قلوب الرعايا بكم.. والرخاء أمر لا يستطيع الملوك والسلاطين تكسبه واستخلاصه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء...».

فقال السلطان لاجين موجهاً سؤاله إلى ابن عطاء الله: «وما الشكر الذى تراه؟».

قال ابن عطاء الله: «شكرٌ باللسان، وشكر بالأركان، وشكر بالجَنَان».

قال السلطان: «وكيف يكون الشكر فى كل واحدة من هذه؟».

قال ابن عطاء الله: أما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله سبحان وتعالى، حيث قال: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

وأما شكر الأركان فمعناه طاعة الله عز وجل، حيث قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾.

ويبقى شكر الجَنَان، وهو الاعتراف بأن الله وحده هو المُنْعِمُ، حيث قال تعالى: ﴿وما بكم مَنْ نعمة فمن الله﴾.

قال السلطان لاجين: «وما الذى يصير به الشاكر شاكراً؟».

قال ابن عطاء الله: «إذا كان ذا علم فبالتوجيه والإرشاد والتبيين وإذا كان ذا غنى فبالبذل والعطاء والإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه وسلطان.. فَبِإِظْهَار العدل فيهم، ودفع الظلم عنهم، وعدم الإضرار بهم».

ويُسَرُّ السلطان لاجين غاية السرور لمقابلة هذا العالم الجليل وسماعه منه ما يصلح أمر نفسه حيال الخالق والرعية، ولعل سبب هذا السرور أسلوب ابن عطاء الله الواضح الصريح المعبر المعتمد على الحجة والمنطق، حتى نفذ إلى قلبه واستحوذ على إعجابه.

ولا يقل أسلوب ابن عطاء الله السكندرى فى الحكم والأقوال المأثورة. . عن أسلوبه فى الحديث والمناقشة، ولعله بلغ الذروة فى كتابه المعروف بالحِكم العطائية، إبداعاً وتركيزًا. . تحليلاً وشرحاً. وكان له فيها منهج خاص حيث كان لايعنى بالمعنى وحده، ولا بالأسلوب فحسب، بل كان يعنى أيضاً بالبيان، على اعتبار أن للبيان سحرًا خاصًا، لهذا كان يتخذ الألفاظ ذات الجرس الخاص، والنغم الموسيقى المؤثر، ومن هنا كان يحكم ابن عطاء الله سحر يؤثر فى نفوس سامعيه وقارئيه، كما يقرر الدكتور جمال الدين الشيال.

ولهذا ظل كتاب «الحكم» لابن عطاء الله مصدرًا علمياً يُقرأ قروناً طويلة فى الأزهر الشريف، وفى جامعة الزيتونة بتونس، وفى جامعة القرويين بفاس. فإلى جانب أنه يقدم جانباً من فكر هذا العالم الصوفى الجليل، فهو يقدم علماً من علوم الصوفية مكتوب بصيغة أدبية عالية المستوى. يقول فى إحدَى حكَمه عن الله عز وجل، والتى تبين منهجه الفريد، الذى يراعى التدرج فى تفصيلَ أَجَزاء هذه الحكمة أو الحقيقة على النحو التالى:

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى أظْهَرَ كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر بكل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الذى ظهر فى كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب إليك من كل شئ؟

كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود كل شئ؟

وهكذا نراه يراعى التدرج فى تقديم أجزاء الحقيقة المراد معرفتها.

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله السكندرى عن غيره من المتصوفة.. هى فى كونه لم يدخل طريق الصوفية إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة الإسلامية ـ وهى من علوم الظاهر ـ ولهذا كان يعتز بهذه المعرفة، برغم خشيته من أن تمنعه الشريعة من مواصلة طريق التصوف أو تمنعه من القربى من شيخه وأستاذه أبى العباس المرسى.

ولعله مر ـ بسبب ذلك ـ فى أول أمره بفترة قلقة مضطربة، حيث كانت نفسه تتأرجح بين الطريقين: علوم الظاهر، وعلوم الباطن. إلى أن أخذ بيده أستاذه المرسى أبو العباس وأنقذه من هذه الحيرة وذاك القلق، مشيراً عليه أن يمكن أن يجمع بين العلمين معاً، وأن يبرز فيهما أيضاً.

ولعل هذه النصيحة من شيخه وأستاذه أبى العباس المرسى كان من نتائجها أن تزودت معارفنا بكتابات عالم جليل يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن فى مزج فريد، بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر، بل نراهما يعاون كل منهما الآخر على بلوغ الحقيقة.

ولقد توفى ابن عطاء الله السكندرى بالقاهرة. سنة تسع وسبعمائة. ودفن فيها وليس فى مسقط رأسه الإسكندرية وضريحه معروف بجبانة الإمام الليث. وله بالإسكندرية مسجد منسوب إليه، لكن لم يضمْ رفاته الطاهرة.

* * *

٦٣ أبو القاسم الطهطاوى وعلوم الظاهر والباطن

للعلم بالشئ أساليب وطرق، فهناك العلم بالنقل، وهو العلم المعروف. ويتأتى للمرء بالرجوع إلى معارف من سبقوه.. ينقل منها ما شاء له النقل، شريطة أن يرجع المصادر إلى أصحابها.

وهذا العلم ينشأ من كون المعرفة تراكمية، بمعنى أن معارفنا كخَلَف مستقاة من معارف السابقين علينا من السَّلَف، وبهذا يتوارث العلم الخلف عن السلف، ولا يمنع هذا النقل عن السلف، من إضافات للخلف. يضيفونها إلى ما تركه السابقون، كل حسب جهده وتفكيره ورؤيته لما بين يديه من مادة علمية تركها السابقون، وبهذا تتراكم المعارف الإنسانية جيلاً بعد جيل، فى تسلسل يحفظ لكل حقوقه فيما أضاف، وليس هناك إنسان لا يعتمد على معارف مَنْ سبقوه إلا آدم عليه السلام، حيث لم يسبقه بشر ينقل عنه المعارف العلمية.

وهناك العلم بالعقل وهذا يعتمد على العلم بالنقل، فيتأمل المرء ما تركه السابقون ويتدبره، ويحلله، وينتهى إلى نتائج تختلف عمَّا سبقوه، ويكون ذلك بإعمال عقله، وهو بذلك يرتقى بعلم السابقين ويطوره ويُضْفِى عليه من ذاته أحكاماً ونتائجَ جديدة، طبقاً لخطوات علمية مشروعة، يقرها العقل الإنسانى.

وهذا العلم مشروع حتى فى تفكيرنا الإسلامى، ذلك لأنه يعتمد أساساً على العقل وتفكيره، والتفكير فريضة من فرائض الإسلام، به أمرنا الله عز وجل فى آيات كثيرة تدعو إلى إعمال العقل وتدبيره، حتى فى شأن التعرف على الله عز وجل والإيمان به، فلم يقدم ذاته سبحانه وتعالى فى ألغاز وأساطير، وإنما قدمها فى تأمل صُنعه فى خلقه وتدبر ذلك، ولعل هذا هو الإيمان الذى يُطلب من

المسلم أن يهتدى إلى الله بعقله وتفكيره، لا أن يكون الإيمان تلقيناً بغير علم أووعى أو فهم. ولهذا يقولون: إن عبادة العالم خير وأنفع من عبادة الجاهل. إذ أن الأول يعمل تفكيره، وإذا اهتدى فإنه يهتدى عن اقتناع لا يُداخله شك أو ريبة.

كذلك هناك العلم عن طريق القلب وشفافيته، وهو لا يتأتى بالدرس على الآخرين، أو النقل عنهم، وإنما يهبه الله عز وجل فى قلب مَنْ يشاء من عباده، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم، لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل، ولم يشغلهم عنه سبحانه أى من شواغل الحياة الدنيا، وانصرفوا عن الدنيا وزهدوا فيها. وهذا النوع من العلم لا يتأتى إلا للأولياء الصالحين الذين لا خَوَفٌ عليهم ولا هم يحزنون. وأكبر مثل على ذلك هو الخضر عليه السلام. الذى يعلم علماً وهبه له الله عز وجل فى قلبه دون غيره.

وطبيعى أن يكون لهذا العلم درجات حسب قرب العبد من ربه عز وجل.

ويبدو أن علم الشيخ الصالح أبى القاسم الطهطاوى من هذا النوع الأخير، وإلا فما معنى أن يذكر عنه مؤرخوه - وفى مقدمتهم أحمد رافع الطهطاوى - فى كتابه الثغر الباسم فى مناقب سيدى أبى القاسم» ومحمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العضر الإسلامى» بأنه لم يتلقَ درساً ولاعلماً من أحد، وأنه لم يجلس حول عالم أو فقيه يأخذ على يديه علوم العقيدة والدين، ولكنه استهل حياته سائحاً هائماً فى الجبل المقابل للبلدة التى اختارها مستقرًا له - «طهطا» - والمعروف بجبل «الساهرة»، والذى يقع فى الجانب الشرقى من هذه المدينة. . وأنه كان يستمر فى سياحاته الروحية شهوراً طوالاً، لا يأكل إلاَّ من عشب الأرض، وينتقل من مكان إلى مكان، متدبراً فى صُنع الله، ولا يفتر لسانه عن ذكره، حتى يقول كل من أحمد رافع والحجاجى: «وذات يوم حينما فرغ من صلاته وجد شخصاً واقفاً خلفه ومعه طعام فقدمه إليه وقال له: «كُلْ وارجع إلى بلدك. فقد أذن لك فى الأكل، وحان وقتك. فقال له أبو القاسم: من أنت؟ فقال له الرجل: أنا أخوك الخضر» فأكل، وشرب من تلك العين التى كانت بجواره، ومن ثم بدأت شهرته تتسع، وبدأ نجمه يتألق كعَلَم مَنْ أعلام التصوف الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى. وقد أيده الله سبحانه وتعالى بالكرامات، وأجرى على لسانه الحكم ونوابغ الكلم، ورفع له المكانة بين الخلق،

وملأ الصدور من هيبته ووقاره. . . فقصده الناس من مختلف مدن الصعيد للتبرك به، ومن ناحية ثانية كان رضى الله عنه لا يستقر فى مكان أو بلد، حيث كان يتجول ويسبح فى مختلف مدن الصعيد، وخاصة قنا التى كان يزورها بإستمرار، حيث يوجد قبر أستاذه عبد الرحيم القنائى.

ويذكر مؤرخو هذا الشيخ الصالح أنه تعرض للكثير من الأفكار من علماء عصره، ومن جمله ما يقوله عنه الإمام العالم المعنى شمس الدين الراعى: «. . .وقد حضر إليه جماعة من أكابر علماء مصر، من جملتهم الإمام المفتى، أحد المجددين فى المائة الثامنة للهجرة سراج الدين البلقينى يقصد السلام عليه، واختبار حاله، وأضمر كل من الحاضرين حاجة فى نفسه، فتحدثوا معه، ثم سألوه عن علوم كثيرة وهو يجيبهم عنها، ثم سكتوا. فتكلم أبو القاسم الطهطاوى بكلام عظيم لم يفهم منه الحاضرون إلا اليسير، فنظروا بعضهم إلى بعض كالمنكرين عليه فى هذا العلم. فنظر هو إليهم وأنشد قائلا:

وما علمنا نقل ولا بدراسة ولكن به الأنوار ضاءت من القلب

فقاموا جميعاً احتراما له، وسألوه الدعاء فدعا لهم، وكاشف لكل منهم ماأضمره فى نفسه. . .».

وقد عاش هذا الشيخ الصالح ـ كما يذكر مؤرخه أحمد رافع ـ حياة لا تعرف الفتور أو الكسل، بل كان دائماً يسعى إلى بناء الفرد الصالح المؤمن بالله حق الإيمان، حتى توفى فى مستهل المحرم من عام ٧٦٢ فى عصر السلطان المملوكى قلاوون عن عمر يناهز التسعين عاماً. ليدفن فى زاوية أنشأها فى حياته بمدينة طهطا التى نُسبَ إليها، وصار له فيها ولد كثير، من بينهم رائد النهضة الفكرية فى العصر الحديثِ رفاعة رافع الطهطاوى أحد أحفاد أحفاده.

ولم يترك هذا الشيخ الصالح آثاراً علمية مكتوبة، اللهم إلاً أقواله وحكمه إلتى استقرت فى قلوب تلاميذه ومريديه على مر السنين. ومن بين هذه الأقوال أقواله فى علوم الطريق، والتى تدل على قدمه الراسخة فى ميدان التصوف وكذلك حكمه التى يقول عنها بأنها تنطق على قلوب العارفين بلسان التصديق، وفى قلوب العباد بلسان التوفيق، وفى قلوب الموحدين بلسان التذكير، وفى قلوب المحببن بلسان الشوق. .».

* * *

٦٤ ابن هشام الأنصارى فى النحو أعلم من سيبويه

ابن هشام الأنصارى واحد من الصالحين القلائل الذين يجمعون بين التفقه فى الدين والتفقه فى اللغة. فإلى جانب اهتمامه البارز بالقضايا الفقهية على المذهبين الشافعى والحنبلى، وكتابته عدداً من المؤلفات فى شرح هذين المذهبين، فإنه قد عُنى عناية فائقة بعلم النحو، الأمرالذى جعل العلامة عبد الرحمن بن خلدون يذكره فى مقدمته الشهيرة على أنه من المراجع الموثوق بها فى هذا العلم على وجه التحديد، ومفضلا إيَّاه على الكثيرين من علماء النحو، وفى مقدمتهم سيبويه. وذلك للدور الجليل الذى قام به فى عملية تيسير النحو بشكل يضمن سلامة اللغة العربية، وفى الوقت نفسه يؤكد ثراءها وجلالها، وسعة استخداماتها.

وابن هشام الأنصارى من مواليد القاهرة، حيث ولد سنة ثمان وسبعمائة. ونشأ بها، وتلقى دراسته الأولى فى دور العلم المتاحة وقتئذ، فالتحق بمكاتب تحفيظ القرآن الملحقة بالمدارس، والخانقاوات المنتشرة فى ذلك الوقت. حيث تعلم شيئاً من العلوم الدينية إلى جانب إتمامه حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل صبياً صغيراً، بل وأتقن إلى حد كبير قواعد اللغة العربية إتقاناً شد انتباه أساتذته، خاصة وهو فى هذه السن المبكرة. حتى إذا أتم المرحلة التمهيدية فى التعليم التحق بالمدارس التى تطور تعليمه فيها، فدرس أصول الدين، كالفقه والحديث والتفسير، وكذا علوم اللغة كالنحو والصرف والبيان فضلاً عن دراساته العقلية للفلسفة والمنطق وعلم الكلام.

وكما تسجل الدكتورة سعاد ماهر فى تأريخها لمسجد هذا الرجل الصالح، بالإشارة إلى تاريخ حياة هذا العالم الفقيه بأن حياته العلمية كانت حافلة بألوان من

النشاط الفكرى، إذ لم يقتصر جهده على التدريس بمدارس مصر فحسب، بل تجاوزها إلى غيرها من مراكز العلم والثقافة فى البلاد العربية. فرحل إلى مكة، وجاور بها، وقرأ ودرس كتاب سيبويه عدة مرات، وأطلع على غيره من كتب علماء اللغة، إلى جانب لقاءاته بعدد من علماء الأمة الإسلامية وقتئذ.

لقد أقام ابن هشام فى مكة لغرض العلم والدين سنة كاملة، فيها قام بتأليف كتاب فى الإعراب، ورجع إلى مصر ليبقى بها سنتين أو ثلاثاً، يعود بعدها مجاوراً فى مكة، حيث اطلع على كل ما كُتب فى علوم اللغة من نحو وصرف وبيان، وقد أعانته هذ الاطلاعات الواسعة على ما أنتجه العقل فى كل هذه المناحى اللغوية.. على تأليف كتابه «المغنى».

وطبيعى وقد ولد ونشأ وتعلم ابن هشام حياته فى مصر أن يتزوج منها، وينجب عدداً من الأبناء، يشتهر منهم ومن أحفاده العلماء والفقهاء والأدباء، وأن يتتلمذ على يديه وعلى أيدى أبنائه كثير من العلماء والفقهاء والأدباء، حتى أصبح مألوفاً أن يُقال عنه وعن ذريته فى الكتابات القديمة: «هكذا ظلت غَرْسَةُ العلم التى استنبتها ابن هشام بكده وكدحه فى أسرته.. يتوالى على العناية بها من بعده أبناؤه وأحفاده إلى زمن غير قصير، ويستظل بها طلاب العلم والمعرفة فى أكثر من جيل، وأكثر من مكان».

والحق أن ابن هشام قد أخذ عن شيوخه وأساتذته سواء فى مصر أو فى الحجاز - الشئ الكثير، فقد انتفع بما لديهم من علوم العصر وفنونه، وكان ما انتفع به خيْرَ عدة، وأصلح ذخيرة.. انتفع بها فى حياته العلمية والفقهية، فأثبت تفوقه وتقدمه عن جداره، حيث بز علماء وفقهاء عصره فى القاهرة وفى مكة، سواء فى الفقه اللغوى، أو الدينى، أو التأليف، أو التدريس.

ففى الفقه يحدثنا «ابن إياس» عن جهود ابن هشام، فيذكر أنه كان شافعى المذهب، حيث نشأ وتربى على هذا المذهب، ودرس الفقه الشافعى عندما كان يقرأ «الحاوى الصغير» للإمام الشافعى، كذلك كان يدرس التفسير على المذهب الشافعى، وله فى ذلك كتابات وتلاميذ.

غير أن ابن هشام لم يقتصر فى دراسته على المذهب الشافعى، فقد انتقل إلى المذهب الحنبلى قبل وفاته بسنوات قليلة، وله فى ذلك كتابات ودروس كثيرة، وربما لو طال به الزمن لكانت تتساوى مع كتاباته ودروسه فى الفقة الشافعى، الذى أنفق فى قراءته وتأمله وتفسيراته الجانب الأكبر من حياته ـ ومع قصر الفترة التى اهتم فيها بالفقة الحنبلى نراه قد استفاد وأفاد من كان بعده.

وفى علوم اللغة لا يقل إسهامه فيها عن الإسهام فى العلوم الفقهية. . وقد كان ابن هشام موضع تقدير معاصريه من العلماء والمؤرخين لما قدمه فى هذا المجال من جديد بَزَّ به السابقين عليه من النحاة.

لقد قال عنه السبكى: «إنه نحوى هذا العصر». .

ولقبه الصفدى «بشيخ النحاة». . وترجم له ابن مفلح المقدس فقال: «إنَّ ذِكْرَ ابن هشام سارَ فى الآفاق، وانتهت إليه مشيخة النحو فى الدار المصرية، وأنه كان متفردًا فى هذا الفن على وجه التخصيص».

وقال عنه ابن تغرى بردى: «وأما العربية فكان من المشار إليه فيها، والمعمول على كلامه عنها، وهو فارسها، ومالك زمانها، وله فيها التصانيف المفيدة الجيدة».

يصفه ابن حجر بأنه كان فاضلاً، متواضعاً، تقياً، صالحاً، ثم يقول عنه: «إن ابن هشام الأنصارى انفرد دون غيره من أبناء زمانه بالفوائد الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيقات البالغة، والاطلاعات المفرطة، والاقتدار على التصرف والكلام. . ».

وذكره السيوطى فقال: «كان أوحد عصره فى تحقيق النحو، وكان صالحاً خيراً ديِّناً. . ».

وترجع الدكتورة سعاد ماهر تفوق ابن هشام النحوى الأنصارى إلى استفادته من عدد من العلماء والفقهاء فتقول: «لقد درس ابن هشام العربية على «ابن المرحل» الذى كان إماماً فى النحو، مدققاً فيه، عارفاً باللغة وعلم البيان والقراءات. . وعلى الشيخ تاج الدين الفاكهانى الحديث، والفقه، والأصول العربية، والأدب، وسمع من الشيخ شمس الدين بن السراج الذى وصفه ابن

الجزرى بأنه كان ينقل القراءات نقلاً جيداً، وإليه انتهت الرياسة فى تجديد الكتابة (الخط) وإسناد القراءات بالديار المصرية.

كذلك تفقه فى الحديث على يد قاضى القضاة «بدر الدين بن جماعة» الذى كان محدثاً فقيهاً، كما حضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزى، الذى يقول عنه الأسنوى: إنه كان مطلعا على غالب الفنون والفقه والنحو والحساب والفرائض».

وعن تحوّل ابن هشام عن مذهبه الشافعى إلى المذهب الحنبلى تقول الدكتورة سعاد ماهر: إن ابن هشام لم يكن الفقيه الوحيد الذى تنقَّلَ من مذهب إلى آخر، فهناك الشيخ أبو حيان المالكى الذى تحوَّل إلى المذهب الشافعى، فلما سُئِل عن السبب فى ذلك أجاب: «بحسب البلدة». وغيره كثير من العلماء والفقهاء، مثل الشيخ ابن مالك المالكى الذى تحوَّل إلى المذهب الشافعى، وابن الدهان البغدادى الذى تفقه على مذهب أبى حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى لما تولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية فى بغداد، التى ينص واقفها على أن يكون واجباً على مَنْ يتولى تدريس النحو بها أن يكون شافعياً..».

ولم يقتصر تقدير ابن هشام هذا التقدير العلمى على معاصريه أو على من جاء بعده من العلماء المصريين بمئات السنين، بل إن تقديره امتد ليعرفه قراء ابن خلدون من الأجانب، حيث ذكره فى مقدمته فقال: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يُقال له: هشام النحوى الأنصارى. أَنْحَى من سيبويه..».

ويضيف ابن خلدون عند حديثه عن كتاب «مغنى اللبيب» لابن هشام قائلا: «فوقفنا منه على عِلْمٍ جم، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة، ووفور بضاعته..».

وهكذا كانت شخصية ابن هشام الفقيه النحوى.. شخصية تجمع بين التفقه فى العلوم الدينية إلى جانب التفقه فى العلوم اللغوية، فكان موضع احترام علماء وفقهاء زمانه، وظل كذلك إلى أن توفاه الله فى عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة، فيقام له ضريح شأنه شأن الأولياء الصالحين فى مواجهة باب النصر خارج سور القاهرة القديم، يعرف بضريح الإمام الصالح ابن هشام الأنصارى.

* * *

٦٥ رابعة العدوية
أم الخير رائدة التصوف الإسلامى

رابعة العدوية البصرية هى البنت الرابعة فى الترتيب للرجل الصالح إسماعيل، ولدت في البصرة بالعراق ولذلك سميت بالبصرية، وانتسبت إلى سيدها عتيك من بنى عدوة فسُميت بالعدوية، ولُقبت بأم الخير لسعيها فى أوجه الخير.

كانت نموذجاً فريداً للمرأة المسلمة الصالحة. فكانت رأس العابدات، ورئيسة الخاشعات، وزعيمة الناسكات. حتى عرفت فى زمانها بعظيم فضلها، ومزيد علمها وكمال أدبها، كانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة، وإذا سُئلت ما تطلبين من هذا؟ قال: «لا أريد ثوابا بقدر ما أريد إسعاد رسول الله ﷺ، حتى يقول لإخوته من الأنبياء: انظروا هذه امرأة من أُمَّتى.. هذا عملها!».

كانت أول من استعمل كلمة «الحب الإلهى» استعمالا صريحاً، فيما تناجى به الله تعالى. وإقبالها عليه وإيثارها له.

عاشت يومها وليلها بوجدان الحاسة لا بإحساس الغريزة، فكانت دائما فى تسامٍ وتصعيد وتحليق كما فى ذكر وابتهال وتسبيح، فى تأمل وتفكر وتدبر... مناجاة لله لم تأت من رجل من أئمة الفقه المعروفين فى عصرها، ولا من عالم من العلماء المشهود لهم بالعلم، إنما جاءت من امرأة أنجبتها أمَة، فحملت فى يمينها عبء رسالة التصوف فى الإسلام.

وكان تصوفها سلوكاً وشعوراً، فهو سلوك حيث تتجنب الشهوات والملذات، وترمى إلى طهارة الجسم وصفاء النفس. وهو شعور حيث تشعر بالغبطة والسعادة عندما تصل إلى هذه الطهارة وهذا الصفاء.

كما أن التصوف عندها عمل وتأمل، عمل حيث يقوم على المجاهدة، قيام الليل وصيام النهار، بذل النفس والتضحية بالنفيس، وهو تأمل حيث تفكر فى آيات الله فى خلقه، فتتجاوز عالمَ الظاهر إلى الباطن، وتتحقق لها تلك الشفافية النورانية التى تميزها عن غيرها من عباد الله.

والتصوف عندها أيضاً عدمٌ ووجود. عدم للعاجل ووجود للآجل، عدم للفانى ووجود للباقى، عدم للعبد ووجود للرب... وبهذا السلوك الصوفى العظيم أصبحت أُمَّة بنفسها وبجهادها ومعارفها، أُمَّة بما تركت من تراث روحى عميق، ومن أدب مثالى رفيع، ومن هدى مشرق مبين.. وهى فوق هذا رائدة لأكبر منهج روحى فى تاريخ الروحانيات وزعيمة لأكبر وثبة وجدانية للقلوب فى تاريخها العريض، ومنشئة لأول مذهب فى التصوف، حيث كانت صاحبة شِرْعته، ومفجرة ينابيعه، وفاتحة آفاقه..

هل نحن فى حاجة إلى مزيد؟ بالطبع نعم. فنحن فى حاجة إلى معرفة الكثير عن حياة رابعة، وما حدث فيها من تطورات، وهل كانت هذه التطورات طبيعية أم أنها كانت فجائية؟ وفى حاجة لمعرفة الكثير عن كلمتها الخالدة «الحب الإلهى» وإشاراتها ورموزها فى نثرها وشعرها، وهل يمكن أن تكون هذه الكلمة أساساً لمذهب فى التصوف الإسلامى؟ كذلك نحن فى حاجة لمعرفة الكثير عن مكانتها بين أعلام الصوفية فى الإسلام، وهل يمكن أن تكون هى رائدة للعديد من الأعلام والمبرزين فى هذا المجال بالذات؟ ثم نحن فى حاجة إلى الوقوف عند هذه الاتهامات الظالمة التى استهدفتها، هل كان تاريخها بقادر على الرد؟.

ولعلنا فى تحقيق هذا المطلب بكتابات الأقدمين والمحدثين، وفى مقدمتها ثلاثة مصادر، هى مع ترتيب ظهورها «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى» لأستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى، و«رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام» للأستاذ طه عبد الباقى سرور، و«العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين» للأستاذ الدكتور عبد المنعم الحفنى» إلى جانب المصادر الإسلامية الكبرى فى مظانها الأولى التى تعلن عن نفسها كلما تطلب الأمر.

ولنبدأ بالميلاد والنشأة.

الزمان: مطلع القرن الثانى للهجرة.. والمكان: البصرة بالعراق.. تلك المدينة التى أنشأها المسلمون فكانت ملتقىً للعلماء المتكلمين والمفكرين، وفى الوقت نفسه مكاناً للمترفين والمنعمين والأثرياء، حتى قال عنها سهل بن عبد الله التسترى: «لما دخلت مدينة البصرة وجدت فيها أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة». وفى الوقت نفسه وصفها ياقوت الحموى فى معجمه: «بأنها كانت تطوى تحت أجنحتها مئات من دور العزف والغناء واللهو الناعم». على هامش حياة هذه المدينة الذاهب أهلها بين الإيمان والمعرفة، واللهو والترف، استقر كوخ صغير لرجل يدعى إسماعيل، اشتهر بين غيره من مئات الأكواخ الصغيرة بأنه «كوخ العابد» إشارة إلى أن صاحبه كان رجلاً بسيطاً، جردته الحياة من كل متاعها وترفها. ولم تُبْقِ له إلا الإيمان والعبادة.. حتى لقب بالرجل العابد.

اعتاد هذا الكوخ الصغير أن يستقبل فى كل عام مولودة أنثى تنتزع دموع خيبة الأمل من عيون الأم، التى لا ترى فى الوافدة الجديدة إلا عبئاً جديداً يثقل كاهل الأسرة المتواضعة، فى حين تبعث بسمة التفاؤل والأمل فى وجه الأب المؤمن، الذى لا يرى فى وجه كل وافدة جديدة إلا نعمة وخيراً، حتى إذا بلغ عددهن ثلاثاً، كانت الدعوات تعلو من الأم أن يرزقها الله بولد يحمل اسم الأب، ويكون عوناً لأخواته من البنات. ولكن يشاء الله ـ ولا راد لمشيئته ـ أن تُرْزَقَ بالبنت الرابعة.. التى تضيف إلى الأم هماً وغماً مضاعفاً، على ما آلت إليه أحوال الحياة وقتئذ من شظف وبؤس.

ويسجل فريد الدين العطار لحظة ميلاد هذه المولودة فى مؤلفه «تذكرة الأولياء» قائلا: «إنه فى الليلة التى أتت فيها رابعة ـ التى عُرفت فيما بعد برابعة العدوية ـ إلى الدنيا لم يكن فى بيت أهلها شئ يصلح للوليد عند ولادته، حتى أنه لم يكن هناك ثمة مصباح للنور، ولا خرقه تُلَفُّ بها المولودة». وهذا هو الأب العابد العارف عن طلب الحاجة من الآخرين يضطر هذه المرة. فيطرق الأبواب بدون مجيب، فيعود إلى بيته حزيناً كاسفَ البال، ولكنه مع ذلك غير قانط من رحمة الله، بل مقبل عى صلاته وتوكله على الله تعالى. حتى إذا أخذته سِنَة من النوم، رأى فيما يرى النائم النبى ﷺ يأتيه ويقول له ما يقصه فى الصباح:

«لاتَحْزَنْ فهذه الوليدة سيدة جليلة، وإنَّ سبعين من أمتى لَيرجون شفاعَتَها . .» ثم أمره بالتوجه إلى أمير البصرة، ويكتب له رقعة من ورق يخبره فيها أن النبى زاره فى منامه وأمره أن يذهب إليه ويقول له: «إنك تصلى مائة ركعة كل ليلة، وفى ليلة الجمعة أربعمائة، ولكنك فى الجمعة الأخيرة نسيت، فلتدفَعْ كَفَّارَتَها لصاحب هذه الرقعة».

ويعلق الأستاذ سرور على هذه الرواية: «بأنها قد تكون حقيقة واقعة، وقد تكون أقصوصة خيالية نُسجت حول رابعة وكراماتها». غير أن الثابت: أن المولودة ولدت فى أسرة صالحة فقيرة لم تنجب ذكورًا، وأنها سميت رابعة لأنها كانت رابعة الإناث فى هذه الأسرة، وأنها وُلدت فى بيئة عربية إسلامية خالصة، وليس كما يخوض وينحرف بعض المستشرقون يرجون نسبتها إلى أصول فارسية أو أعراق مسيحية وأنها نُعتت بالبصرية تمييزاً لها عن سَمِيِّها الأُخرى «رابعة الشامية» كما يذهب الشعرانى والمناوى وابن الجوزى وابن خلكان فى تواريخهم، مؤكدين أن سميتها الشامية لها ظروف أخرى، لعل أبرزها أنها تزوجت، فى حين عاشت رابعة العدوية طوال حياتها عذراء بتولاً، برغم تقدم أفاضل الرجال لخطبتها، لأنها انصرفت إلى الإيمان والتعبد، ورأت فيه بديلا عن الحياة مع الزوج والولد.

ونطوف مع فريد الدين العطار فى ترجمته لسيرة رابعة العدوية، فنراه يصورها لنا فتاة نشأت مع النور. . فقد كانت منذ طفولتها الباكرة عجباً بين لداتها، ذكاءً وإيماناً وشعوراً، وأنها حفظت القرآن الكريم وتدبرته، وقرأت الحديث الشريف وتدارسته، وحافظت على الصلاة وهى فى عمر الورود، حتى تكوَّن لها وجدان دينى لماح وهى لم تزل طفلة صغيرة.

ومن الروايات المتفق عليها بأن والد رابعة قدَّم لأسرته طعاماً فأقبلوا عليه إلا رابعة، وهنا لاحقتها العيون متسائلة: فنظرت إلى أبيها هاتفة: يا أبتِ، لست أجدُكَ فى حلٍّ من حرام تطعمنيه. . ورفع الأب العابد رأسه عجباً وقال فى دهشة لها متسائلا: أرأيتِ يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً؟ فقالت: نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خيراً مِنَ أن نصبر فى الآخرة على النار» وعلى هذا النحو الباهر كانت نشأتها.

ويتوفى الأب العائل لهذه الأسرة، وتلحق به الأم، وتذوق رابعة فى مقتبل حياتها مرارة اليتم مع قسوة الحرمان، ويُضاعف من كل ذلك ما أصاب البصرة وقتئذ من قحط ومجاعة قلبت الأمور رأساً على عقب، فدعت الأُسر إلى الرحيل عنها، وكان منها أسرة رابعة التى لا عائل لها، فجعلت تضرب فى الأرض التماساً للقوت الضرورى، ويُفرق الدهر بين الشقيقات الأربع، وتعدو رابعة البنت الصغيرة وحيدة فقيرة، لا تجد ما يسد رمقها.

وطبيعى أن تصحب الأزمات الاقتصادية اختلالات اجتماعية. وتتدنى الأخلاق، وتبرز الرموز الشوهاء من ذئاب بشرية، ومصاصى دماء، وتجار رقيق، لتقع هذه البنت اليتيمة فى يد أحدهم ليبيعها بستة دراهم لآخر غليظ القلب، قاسى المشاعر، فيسومها الكثير من ألوان العذاب.. وهكذا تنتقل من هوانٍ إلى هوانٍ.. غير أن هذا الهوان لم يُطفِىء ذلك القبسَ المتغير فى قلبها، ولم يَخمد هذا الإيمان فى نفسها حتى يصبح هذا الإيمان سرها وحياتها وتاريخها، ويصدق عليها قول الله عز وجل: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾[1] فكانت تهرب من شظف الحياة وضيق الدنيا ، إلى سعة الإيمان ورحمة الله.

ومن عجيب أمر هذه الفتاة الصغيرة أنها كانت تناجى ربها باكية: «إلهى أنا يتيمة معذبة أرسفُ فى قيود الرق وسوف أتحمل كل ألم، وأصبر عليه، ولكنّ عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ويفكك أوصال الصبر فى نفسى، منشؤه ريب يدور فى خلدى: هل أنتَ راضٍ عنى؟! تلك هى غايتى».

ومن منطلق عبادة الله سبحانه وتعالى ابتدأت رابعة ترتفع درجات ودرجات.. إنها تعبد الله وتنشد رضاه، وفى قلبها همس جديد، وفى روحها نداء حار.. أشياء: مبهمة تراودها ولا تفهم سرها.. غير أن مؤرخيها وكتاب سيرتها يقفون عند هذا السر قائلين: إنه الحب الكبير.. الحب الذى ستُعْرَفُ به رابعة، ويكون علماً عليها وتكون علما عليه، وهو الحب الإلهى فى أسْمَى صوره، وأبهى معانيه، ولتكون من بعد صاحبة مدرسته..

---

(١) سورة الحجرات ـ من الآية السابعة.

ها هى ذى رابعة تسير ثابتة الخُطى.. مستقيمة الغرض والهدف، فلا التواء ولا انحراف.. تؤدى عملها فى بيت سيدها بما يرضى ضميرها، وتؤدى فريضة ربها فى إخلاص وتفانٍ، حتى إذا استيقظ سيدها ذات ليلة فيسمع صوت مناجاتها وهى ساجدة: «إلهى أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن مناجاتك.. لكنك تركتنى تحت رحمة مخلوق قاسٍ من عبادك...» وبينما يراقبها سيدها إذ يخطف انتباهه انبلاج ضوء حولها يفزع له، وتبدأ الرحمة تعرف طريقها إلى قلبه المغلق فيظل ساهراً مفكراً، حتى إذا كان الصباح دعاها قائلا: «أى رابعة، وهبتك الحرية فإنْ شئت بقيتِ هنا ونحن جميعاً، فى خدمتك، وإنْ شئتِ رحلت. أنىَّ رغبتِ». فما كان منها إلَا أن ودَّعَتْهُ وارتحلت لتبدأ مرحلة جديدة.

وكما يقرر مؤرخو رابعة ونقاد سيرتها.. بدأت هذه الفتاة الصغيرة فترة مجهولة فى حياتها، فيها نشطت بعض الكتابات المغرضة التى تركت لخيالها العنان، فصورت هذه المرحلة من حياة رابعة بصورة غير كريمة، أن فريد الدين العطار، وهو أكثر المؤرخين تتبعاً لتفاصيل حياة رابعة، قال عن هذه الفترة بالذات: «إن رابعة بعد تحررها من رقها احترفت مهنة العزف على الناى. - وهى للعلم مهنة لاشُبهة فيها - زماناً، ثم اعتزلت الناس بعد ذلك، وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة».

هذا رأى واحد، لكن ترى ماذا يفعل تغريد عصفور واحد فى حديقة واسعة.. نقول ماذا تفعل رواية منفردة وسط كم هائل من كتابات مغرضة للمستشرقين لاتجد دفعاً من أبناء لسانها العربى؟! ومن عجيب أمرهذه الكتابات أنها بعد أن تكيل الهجوم على رابعة ألواناً نراها تنتهى فتقر وتعترف بأن رابعة عاشت بعد هذه الفترة مؤمنة عابدة. لها تأثيرها الأخلاقى، وآثارها العلمية. ولا نعرف كيف يتفق هذا مع ذاك؟

غير أن الطامة الكبرى كانت فى هجوم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى»، ومما يزيد المأساة أن كتاب الدكتور بدوى ظل مرجعاً لكثير من الكتابات عنها، وبالطبع تأثرت هذه الكتابات بوجهه نظره.

فالدكتور بدوى يؤرخ لهذه المرحلة المجهولة من حياة رابعة حتى يقف عند مسألة احترافها العزف على الناى، فنراه يقدم ذلك بتسجيل أنها كانت باهرة الجمال، ساحرة الفتنة، حتى يقول: «ويحتمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملامسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد، ويخيل إلينا أنها قطعت شوطاً طويلا فى طريق الإثم. وغرقت فى بحر الشهوات، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة».

ويواصل الدكتور بدوى نظريته فيقول: «وأوغلت رابعة إذن فى طريق الشهوات ما وسعها الإيغال».

ويبرر تحولها إلى الإيمان الذى له شواهد وآثار، لا يستطيع أحد نكرانها.. إنه يضرب أمثلة لشخصيات غير إسلامية، حتى يتمم نظريته بشكل يرضيه وقد لايرضى المنهج العلمى، فيقول: «فهذه الإنقلابات الروحية الكبيرة، إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة الطرف الأول المنقلب. فعنف «إيمان القديس بولس كان نتيجة إنكاره المسيحية، وعنف الحياة النقية لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الشهوات الحسية التى حييها قبل تحوله إلى الإيمان.. إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين، أما التطرف فمن شيمة الممتارين الذين يبدعون ويثبتون التاريخ وما كان يمكن رابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا!! من أعماق الشهوات العميقة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها».

هكذا يبنى الدكتور بدوى نظريته الهجومية على الاحتمال والتخيل حين يقول «يحتمل ويخيل»، والأغرب أن يصبح الاحتمال والتخيل من قبيل الحقائق العلمية لديه، وهو ما ترفضه كل الأعراف العلمية التى تضمنتها كتاباته، وعلى وجه الخصوص تلك التى تهتم بمناهج البحث التى كان يلقنها لطلابه ومريديه.

والأكثر أن الدكتور بدوى بتوكيده لمعنى التحولات والانقلابات فى النفس البشرية من أمرٍ إلى نقيضه، من الرزيلة إلى الفضيلة، من عنف الأفكار إلى عنف

الإيمان يجعلنا نعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك عابد مؤمن قوى فى عقيدته وإيمانه، ما لم يكن من قبل ملحداً فاسقاً! ولو طبقنا هذه النظرية لَمَا بقى هناك مكان للأولياء والقديسين والصالحين والمؤمنين، إلا أن يكون شرط تميزهم عن غيرهم بوصولهم إلى هذه الدرجات العالية أن يمروا بمرحلة من الفسق والفجور، وهو ما يرفضه كل منطق على الأرض.

وعلى هذه النظرية المؤسفة للدكتور بدوى عقب الأستاذ سرور فى كتابه تعقيباً سريعاً سمح به سرده لسيرة رابعة.. وبقى الأمر معلقاً.. حتى تولى الردّ بصورة علمية مكثفة ودقيقة الدكتور الحفنى فى كتابه «العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين» فأنصف هذه السيدة، وأثبت بالحجة والدليل أنه لا مجال لاحتمالات وخيالات الدكتور بدوى ما دامت هناك حقائق ووقائع تاريخية، والأكثر أنه كشف علة هجوم الدكتور بدوى لهذه السيدة الفضلى.

ويعرض لنا الدكتور الحفنى ما ذهب إليه الدكتور بدوى من تفسيرات، وخلال ذلك يصحح ما جاء من أخطاء، كأن يقول عن «تريزا الأقلبية» بأنها تريزا الأبيلية، ويكشف التطابق والمشابهة فى التحليل بين الدكتور بدوى والكاتبة الفرنسية سيمون دى بفوار فى تحليلها لتحوُّل تريزا الأفيلية ليخرج فى النهاية بتفسير لا ينطبق على رابعة لاختلاف الشخصيتين، فيقول: «هذا هو رأى الدكتور بدوى، وهو يصدر عن مذهب فى التأريخ للسير يقوم على الفروض والاحتمالات، وذلك قد يكون صحيحا، إلا أنه بشروطه - كما يقول توينبى - فلا بد أن تأتى الفروض والاحتمالات من مقدمات صحيحة، ولابد أن تكون هناك إرهاصات لما سيقدم من سلوكيات مستقبلة عند الشخصية المؤرخ لها..». ثم يقول: «ولا أرى إلا أن الدكتور بدوى اعتسف الفروض والنتائج، وكان حاله - كما قال سارتر عن الشيوعيين فى فرنسا من أنهم يجبرون الأحداث على الدخول فى فروضهم الفلسفية، فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك، أو الزيادة فيه ليناسب قوالب فروضهم، وتكون النتيجة أن الحدث يُشوَّه، وذلك نفسه ما أعتقد، أن الدكتور بدوى - فى أحكامه عن أفكار مسبقة - يختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفى ينسجم عليها عند التطبيق. وكتاب رابعة للدكتور بدوى لم يكن

سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة التى يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفى».

ثم يطرح الدكتور الحفنى مذهب الدكتور بدوى وتطبيقه فى حالة رابعة العدوية للمناقشة، ليخرج فى النهاية إلى حالة من التناقض ما كان ينبغى أن يتردى إليها هذا الكتاب. . يضاف إلى هذا رصد الدكتور الحفنى لطائفة من الآراء والأقوال للعلماء والمؤرخين فى الشرق والغرب فى تصوف رابعة واتساق شخصيتها، ليختم كتابه بفصل رابعة وأعلام عصرها من العلماء والفلاسفة والمؤرخين، وكأنه يريد أن يقدم للدكتور بدوى الدليل التاريخى على القيمة العلمية والروحانية لرابعة العدوية، إلى جانب تقديمه للأدلة المنطقية على هذه القيمة.

ويبقى بعد ذلك رأى رابعة فى الحب الإلهى، حيث استعملت هذا اللفظ تعبيراً عن إقبالها على الله تعالى، وإعراضها عمًّا سواه، ولم يكن حبها لله خوفاً من النار أو طمعاً فى الجنة، بل كان شوقاً إلى الله سبحانه وتعالى وأُنسًا به، وابتغاء مرضاته، وهو ما عُرف فيما بعد بالحب الإلهى. ولعلها تجمل نظرتها إلى هذا الحب الإلهى شعراً رقيقاً راقياً، حيث تقول:

أحبك حبين حب الهوى — وحُباً لأنك أهل لذَاكَا
فأما الذى هوحب الهوى — فشغلى بذكْرِكَ عَمَّنْ سواكاَ
وأما الذى أنت أهلٌ له — فكشفُكَ لِلْحُجْبِ حتى أراكاَ
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاكُ لى — ولكنْ لَكَ الحمد فى ذا وذاكاَ

فالحب الإلهى عندها حبان، حب تشتغل فيه بذكرها لله، وتنشغل به عمًّا سواه، وتسميه حب الهوى، وحب تنكشف فيه الحجب، ويتجلى جمال المحبوب الحقيقى وتعبر عنه بأنه الحب الذى. . الله أهلٌ له. وأعلى وأرقى الحبين هو الحب الثانى، إذ يحصل فيه مشاهدة الحضرة الإلهية فى الدار الآجلة فى حين أن الحب الأول هو حبها لله لإنعامه عليها بحظوظ العاجلة.

وقد استوعب حب الله لذاته كل خلجات قلبها، حتى قالت فيه لما سئلت عن

حبها للرسول الكريم: «إنى والله أحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين، وقد مهدت بحبها لله وبربطها بين الحب والكشف.. السبيل لغيرها من أعلام التصوف، من أمثال ذى النون المصرى، والحلاج وإبن الفارض وابن سبعين.

لأن اسم رابعة قد اقترن بالحب الإلهى حيث أصبح مرادفاً لها، ممتزجاً بها، سارياً فى تاريخها فى ذكرها ـ حتى وفاتها ظلت رائدته وصاحبة مذهبه، ومفجرة ينابيعه فى القلوب، ومطلقة ألحانه فى الوجود.. هذه المعانى السامية لحب.. هى بعينها العنوان الأكبر لروحانيات الإسلام بما ينبثق من أنوارها، ويتفجر من ينابيعها من فيض وكشف، ومعرفة وإلهام، لم تعرف قبل رابعة، ومن هنا كان دور رابعة فى التصوف الإسلامى من أخطر الأدوار، فهى الصورة الأولى، وهى أول منارة أرسلت الشعاع الروحى لتنتعش وتتجمل بالفضائل الخلقية والنفسية، ويكفى للدلالة على مكانة رابعة ما يقرره المؤرخون باستعراضهم للخطوط الرئيسية للمعارف الصوفية عند الصفوة المختارة من رجال الروحانية الإسلامية، فتبين أنهم جميعاً يمشون تحت ظلال رابعة، ويعيشون على نبعها، حتى قال عنها الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق: «رابعة هى السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الإسلامى، وهى التى تركت فى آثاره كثيراً من نفثات صادقة بالتعبير. وإن الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر لهو نفحه من نفحاتها».

وأن يقول عنها نيكلسون: «لقد رسمت رابعة معالم الطريق، فأندفع الموكب الصوفى فى الإسلام يسير فى سرعة خاطفة على منهجها فى الحب والمعرفة..» ليتمم هذا الرأى ماسينيون: «لقد كان دور رابعة حاسماً، فعلى وقع خطواتها سار ابن الفارض والحلاج وغيرهما من أعلام التصوف الإسلامى».

ولهذا يحق لنا أن نتفق مع مؤرخى رابعة العدوية البصرية. بأنها صاحبة مذهب، وأن كل من اتبع سبيلها، ومشى على نهجها، وسبح فى بحارها.. لم يأتِ بجديد بعدها.

* * *

٦٦ سراج الدين البلقيني
مجدد القرن الثامن

سراج الدين البلقينى عالم وفقيه. . اختلف المؤرخون والعلماء فى أمر تجديده فى الإسلام وتساءلوا: هل هو بالفعل أحد المجددين فى القرن الثامن الهجرى أم أنه غير ذلك؟

فللتجديد فى الإسلام شروط ومواصفات اصطلح عليها علماء الدين وفقهاؤه، فى مقدمتها ألا يُقصد بالتجديد فرقة دون فرقة، أو مذهب دون آخر. . بل يهدف القائل بالتجديد إلى خير المسلمين، كما يقصد أن ينهض بهم جميعاً، ليجمع بينهم على غايته من التجديد، ويجعل كلمتهم واحدة فيما يقصده من النهوض بهم، ولايصح أن يكون لمذهب المجدد فى الدين أثر فى غايته من التجديد ولا فيما يرمى إليه من النهوض بالمسلمين.

ولذلك رأى العلماء والفقهاء أن مَنْ تصير غايته هى التجديد بهذه المعانى جميعها لا يضره بعد هذا أن يكون سُنياً، أو شيعياً، أو غير ذلك من فِرَق المسلمين. لأنه فى دعوته إلى التجديد ـ إنْ كان جاداً وصادقاً ـ ينسى مذهبه الدينى ولا ينظر إلا إلى أنه مسلم لا غير.

ولذلك أيضاً اقتصرت صفة التجديد فى الإسلام على الندرة من العلماء فى القرن الواحد. فربما لا يزيد عدد المجددين فى الإسلام فى القرن الواحد عن عدد أصابع اليد الواحدة، وربما يكون واحداً فحسب من علماء كثيرين فى القرن الواحد، التمس فيه الجميع أنه هو وحده الذى يجدد فى أمر دينه بما ينفع المسلمين ويفيدهم.

ويناقش الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه «المجددون فى الإسلام» مسألة أحقية البلقينى بلقب المجدد فيقول: «ولا يذكر من ذهب إلى أن البلقينى كان مجددَ القرن الثامن إلاَّ أنه بلغ رُتبة الاجتهاد، وكان له ترجيحات فى مذهب الشافعى خلاف ما رجحه النووى، واختيارات خارجة عن هذا المذهب، ومنْ هذا أنه أفتى بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة، وقال إنه خارج عن المذهب الشافعى. وقد قيل: إن ثلاثة من العلماء ـ العراقى، والبلقينى وابن الملقن ـ كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس القرن الثامن الهجرى: العراقى فى معرفة الحديث وفنونه، والبلقينى فى التوسع فى معرفة مذهب الشافعى، وابن الملقن فى كثرة التصانيف».

ويستطرد الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى مناقشة هذا الأمر حتى يقول: «والحقيقة أن مثل البلقينى لا يصح أن يكون مجدداً، لأن أمره لا يتجاوز التوسع فى معرفة مذهب الشافعى. وإذا كان له فيه ترجيحات تخالف ترجيحات النووى فإنها لا تقربه من ذلك، كما لم تقرب النووى من رتبة التجديد فى ترجيحاته. لأن كلاً منهما كان يرجح فى دائرة تقليده لمذهب الشافعى، فلا تبلغ به أن يكون مجتهداً أو مجدداً.

ويؤكد الشيخ عبد المتعال الصعيدى على رأيه هذا قائلا: «كذلك، إن اختيارات البلقينى الخارجة عن المذهب الشافعى لا تبلغ به أن يكون مجتهداً أو مجدداً، لأنها كانت مثل فتاويه بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة، وإزالة المنكرات، وإبطال المكوس والحانات».

ولكن على الرغم من أن الشيخ عبد المتعال الصعيدى رأى ذلك فإنه يعتبر البلقينى أحد مجددى القرن الثامن الهجرى فى كتابة المجددون فى الإسلام.. ولعل الشيخ الصعيدى ـ وهو من كبار علماء الأزهر ـ قد اعتبره من المجددين فى الإسلام ـ برغم ما يرى ـ تأثراً بما ذكره السيوطى بكتابه «حُسن المحاضرة» حيث يقول ـ أى السيوطى ـ عن البلقينى: «سمعت ولده ـ أى ولد البلقينى ـ يقول: ذكر الشيخ كمال الدين الدميرى أن بعض الأولياء قال له: إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها بُدِئت بِعُمَر، وخُتِمت بعمر. يعنى عمر ابن عبد العزيز، وعمر البلقينى».

ويقول السيوطى أيضاً: «ومن اللطائف أن شطر المبعوثين على رءُوس القرون الماضية مصريون: عمر بن عبدْ العزيز فى الأولى، والشافعى فى الثانية، وابن دقيق العيد فى السابعة، والبلقينى فى الثامنة. . وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة عام التاسعة من أهل مصر».

وعلى أى حال يمكن اعتبار البلقينى من مجددى القرن الثامن الهجرى إتفاقاً مع ما جاء فى كتاب «المجددون فى الإسلام» للشيخ عبد المتعال الصعيدى، أو كتاب «حُسن المحاضرة» للسيوطى وغيرهما من كتب للعلماء والمؤرخين.

يبقى التعرف على البلقينى نفسه، حيث تطالعنا لوحة حياته فتذكر أن سراج الدين البلقينى هو عمر بن رسلان بن نصير البلقينى.

ولد بقرية بلقينة عام ٧٢٤ هـ التابعة لمحافظة الغربية الآن، وحفظ القرآن وصلى به وهو لم يزل طفلاً فى السابعة من عمره، وأتبع ذلك بحفظ الكثير من المتون الخاصة بالنحو والفقه والتفسير.

جاء به أبوه إلى القاهرة وهو فى الثانية عشرة من عمره، وجعله يعرض ما يحفظه من القرآن والحديث، وما يعرفه من الفقه والنحو والتفسير على جماعة من علمائها، فبهرهم بذكائه، وكثرة محفوظه، وسرعة فهمه، إلى درجة أن هؤلاء العلماء طلبوا من والده أن يظل ابنه فى القاهرة حيث العلماء والفقهاء حتى ينمى استعداده للعلم.

واستقرت أسرة البلقينى فى القاهرة، وأخذ ابنها عمر ينهل العلم من علمائها. فتلقى الفقه على الشيخ السبكى، والنحو على أبى حيان، والحديث على ابن القماح. وظل على هذه الحال حتى إذا نال قدراً من العلوم والمعارف اشتغل بالتدريس.

وفى التدريس برع فى الفقه والحديث والأصول وما إليها من العلوم الدينية والعربية، وكان فيها جميعاً من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم تشاهده حلقات التدريس من قبل. حتى اشتهر اسمه، وذاع صيته، حيث اجتمع فى دروسه فقهاء المذاهب الأربعة برغم أنه كان أحفظ الناس لمذهب الإمام الشافعى. وكان يتكلم

في الحديث الواحد من بكرة النهار إلى ما بعد الظهر، وأحياناً يصلى بالحاضرين العصر والبقليني لم يفرغ بعد من حديثه.

وكان من العلم والفضل بحيث أُخْتِيرَ لقضاء الشام خلفاً للسبكى وباشر هذا العمل ما يقرب من السنة، وفيها أنصفه بعض العلماء كابن كثير الذى قال عنه: «أذكرتنا بسمت ابن تيميه». وكابن شيخ الجبل الذى قال له: «ما رأيت بعد ابن تيميه أحفظ منك للحديث..».

ثم عاد البلقيني إلى مصر ليتولى فيها منصب قاضي قضاتها، وليظل بعد ذلك في هذا المنصب سنوات، حتى حين يتركه يظل متقدماً على قضاة مصر، لأن كثيراً منهم إمّا كان من تلاميذه المباشرين، وإما من التلاميذ غير المباشرين الذين أخذوا العلم عن طريق المباشرين.

وإلى جانب علمه وفضله الذى شهد له بهما علماء مصر والشام اشتهر بين الناس بالإيمان والتقوى، فكان نموذجاً وحده لرجل العلم والدين. واستمر على هذا الحال، يعظ ويفتى، ويجتهد، ويجدد، ومن قبل يعلم ويثقف، حتى كانت وفاته عام ٨٠٥. ليضمه تراب مصر التى أنجبته.

* * *

٦٧ أبو العباس القلقشندى
صاحب موسوعة صبح الأعشى

للعرب المسلمين الأقدمين سبق فى كتابة الموسوعات على غيرهم من الأمم ذات الحضارات، قديمها وحديثها، وهذا النوع من الكتابات دليل على دورهم فى حركة التنوير بوجه عام.

ففى تاريخ الفكر الإسلامى لم يكد يمضى على الرسالة المحمدية قرن من الزمان حيث نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف ومعها حركة واسعة للتقنين العلمى.. وكان ذلك ملحوظاً فى علوم اللغة والفقه، ثم نقل ثقافات الآخرين وتمثلها. حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده فى القرن الحادى عشر (الرابع الهجرى والخامس). حتى بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة الموسوعة أو دائرة المعارف.. التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات، وكانت الفلسفة الإسلامية بما تتضمنه من جمع لأطراف المعارف وتأملها وتحليلها قد بلغت ذروتها عند الفارابى وابن سينا.. مما يشير إلى سلطان العقل وسيطرته ـ وقتئذ ـ على جمع المعارف.

وكان مع الفلسفة فى تلك الإشارات التنويرية إلى سلطان العقل حركة قوية فى النقد الأدبى، لأننا إذا قلنا «النقد الأدبى» للعرب الأقدمين فكأننا قلنا: إنه العقل بتحليلاته العلمية التى لم يكن الركون إلى مسألة (أحكام الذوق) فيها إلا بمثابة الحلية الصغيرة التى توضع على الثوب العريض. وحتى الشعر ذاته، فقد غلبت عليه هذه النظرة التى تطمح إلى تجميع المعارف والسيطرة عليها وتأملها وتحليلها وكأنها بذلك تريد أن تجمع الكون كله فى حبة رمل، فكانت نظرة الشعراء، وفى

مقدمتهم أبو العلاء المعرى تطل على الإنسان من أعلى لتسبر أغواره، وتكشف حقيقته.

وأبو العباس القلقشندى صاحب موسوعة صبح الأعشى الذى عاش ومات فى القرنين الثامن والتاسع (٧٥٦ ـ ٨٢١) للهجرة كان واحدًا من هؤلاء العرب المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة جليلة، هى الإسهام بنصيب فى بناء الثقافة العربية الإسلامية من خلال كتاباته المتعددة، وأبرزها موسوعته «صبح الأعشى»، التى لا يخلو عمل فكرى فى الثقافة الإسلامية إلا ويرجع إليها، متزودًا منها بالكثير من المعارف التى سبق غيره فى تجميعها والسيطرة عليها.

وبرغم أهمية القلقشندى وموسوعته وبقية كتبه، فإنه لا يحظى من الكتاب والمؤرخين بحظ كبير فى التأريخ له أو الكتابة عنه، سواء الأقدمين أو المحدثين.

فمن الأقدمين نجد هناك إشارات إلى تاريخ وفاته عام ٨٢١ هـ سجلها كل من المقريزى، وابن حجر، والعَيْنى، والسخاوى.. ولعل أوسع ترجمة كانت عن القلقشندى كتبها السخاوى فى كتابه «الضوء اللامع»، ومع هذا تستوعبها سطور قليلة قال فيها: «هو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال الفزارى القلقشندى (إشارة إلى بلدة قلقشندة الموجودة الآن بالقليوبية)، ثم القاهرى (إشارة إلى عمله فى مدينة القاهرة) الشافعى (إشارة إلى انتسابه إلى المذهب الشافعى، والد النجم (إشارة إلى ابنه العالم الفقيه الذى اشتهر أمره فيما بعد..).

ويضيف السخاوى إلى هذه السطور التى توضح نسبه سطورًا أخرى: «ولد سنة ٧٥٦ هـ، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع من ابن الشيخه.. وكتب فى الإنشاء، وناب فى الحكم، وبرع فى الأدب والفقه، وشرح قطعاً من جامع المختصرات، وكتب صُبح الأعشى فى أربعة مجلدات (الثابت أنها سبعة ـ كما قرر المحققون من بعد، وفى مقدمتهم الأستاذ إبراهيم الأبيارى، والدكتور عبد اللطيف حمزة ـ وليست أربعة وهذا الكتاب (يقصد صبح الأعشى) جَمَعَ فيه فأوْعَى، وكان يستحضر أكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوى، وكتاباً فى أنساب العرب... ومات يوم السبت العاشر من جمادى عام ٨٢١ هـ، وعمره خمسة وستون عاماً..

بعد أن برع فى العربية، وعرف الفرائض، وشارك فى الفقه، وسمع الحديث، ونظم الشعر، وكتب النثر..».

هكذا أرخ السخاوى بهذه الكلمات القليلة للقلقشندى، هذا العالم الجليل الذى خدم الأدب والعلم أجل الخدمات! وهكذا يشير إلى موسوعته (صبح الأعشى إشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم يطلع عليها، ولم يقف على محتواها، وأكبر دليل على ذلك أنه أخطأ حتى فى عدد مجلداتها، فبينما هى فى الحقيقة سبعة كما يقرر المحقق الكبير إبراهيم الأبيارى فى تقدمته لتحقيق كتاب «نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى) وهو كتاب جليل النفع يأتى فى المرتبة الثانية بعد كتابه «صبح الأعشى» الذى اشتهر به، والموجود الآن بدار الكتب فى سبع مجلدات كاملة غير منقوصة.

ومراحل حياة القلقشندى يمكن تركيزها فى ثلاثة مراحل مهمة، وذلك من هذه الصفحات التى اهتمت به، سواء فيما كتبه الأستاذ الأبيارى فى مقدمته الضافية لكتاب «نهاية الأرب» أو ما سجلة الدكتور عبد اللطيف حمزة عن القلقشندى فى سلسلة أعلام العرب. والحق أن الأبيارى وحمزة قد أنصفا هذا الرجل أكثر مما أنصفه معاصروه، وفى مقدمتهم السخاوى، وابن حجر، والمقريزى، والعينى.. هذه المراحل الثلاثة هى:

* مرحلة النشأة والتعليم: حيث نشأ أبو العباس القلقشندى نشأة علمية سليمة، وتربى تربية إسلامية صحيحة فى بيت علم وفضل. إلى أن توجه إلى الإسكندرية طلباً للعلم، وأقام بها سنوات، وفيها التقى بمشاهير العلماء التى كانت الإسكندرية تغص بهم. وظل متلقياً للعلم والفقه والأدب والحديث والتفسير حتى أجازه شيخ الإسكندرية وقتئذ سراج الدين بن أبى الحسن، المشهور (بابن الملقّن).. بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى، كما أجاز له (ابن الملقّن) الرواية على الكتب (الصحاح الستة، ومسند الشافعى، ومسند أحمد بن حنبل وغيرها من الكتب التى هى أصول الفقه الإسلامى، ولا يجوز لعالم أن يقوم بالفتوى إلا إذا كان قد درسها وهضمها وتمثّلها.

* أما المرحلة الثانية من مراحل حياة القلقشندى فهى مرحلة التفقه والتدريس والتأليف. حيث عمل بالتدريس، وانتفع به الكثيرون، وتفقه في العقيدة والدين، وكان فى ذلك من أهل الاجتهاد، حيث حاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد. وقد أنتج فى هذه المرحلة الثانية من حياته كتباً فى الفقه، أهمها «شرح لجامع المختصرات فى فروع الشافعية»، و«شَرْح الحاوى الصغير فى الفروع» للقزوينى، وكتباً أخرى فى الأدب، أهمها «حلية الفضل والكرم فى المفاضلة بين السيف والقلم»، و«شَرْحَ قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير» وغيرها، حتى استطاع القلقشندى أن يستفيد من هذه المرحلة ويفيد، ويعد هذه المرحلة امتداداً لمرحلة النشأة التعليمية، وبداية للمرحلة التالية التى تركت أجل الأعمال للثقافة الإسلامية.

* وهذه المرحلة هى الثالثة، وهى مرحلة تولى كتابة الإنشاء فى الديوان، حيث اختاره السلطان لذلك، فأسفر عن ذكاء ملحوظ، وقريحة فذة أنتجت طائفة من الكتب، منها كتاب أو موسوعة «صبح الأعشى»، الذى استغرق فى وضعه مايقرب من العشرين عاماً، وكتب أخرى فى العلم بأنساب العرب، وأهمها كتاب «نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب» الذى وضعه بعد موسوعة «صبح الأعشى» كما يقرر المحققون المحدثون. وقد اشتملت مقدمة كتاب «نهاية الأرب» على خسمة فصول، هى بحق خير زاد لمن يريد التعرف على أنساب العرب وقبائلهم المتعددة واشتملت خاتمته على خمسة فصول أخرى اهتمت بديانات العرب قبل الإسلام ومفاخراتهم، والحروب الواقعة بينهم وأسواقهم وعاداتهم وتقاليدهم.

غير أن مجلدات أو موسوعة «صبح الأعشى» أهم بكثير من كتاب «نهاية الأَرَب»، بل دَأَبَ المؤرخون المحدثون على القول بأنه لولا (الصبح) لما ظهر كتاب (النهاية) وقد صرحْ القلقشندى نفسه بأنه إنما وضع كتابه «نهاية الأرب» لا لشئ إلا لأن كتابة الإنشاء فى الديوان الذى اختير للعمل فيه استلزمت العلم بقبائل العرب وأنسابهم.

ولعل القلقشندى نفسه كان يدرك قيمة هذا الكتاب، فقد رغب تعميم الفائدة منه وتقريبها إلى عدد أكبر من القراء، فاختصر هذه الموسوعة الضخمة المسماه

«صبح الأعشى» إلى مختصر أطلق عليه «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر» تحسباً منه بأن من القراء من لا يقوى على قراءة هذه الموسوعة الضخمة، ولا يصبر على هذه القراءة. ومَنْ أراد واستطاع فعليه بمجلدات الموسوعة. وهكذا رأى القلقشندى مبكراً أن يعمل العالم أو المؤلف حسابه لهاتين الطائفتين من القراء فى وقت واحد.

وكما يقرر مؤرخو القلقشندى ومحققوه أن كتاب «صبح الأعشى» هو أهم وأخطر كتب القلقشندى على الإطلاق. وهو الكتاب الذى يُعْرَف به عبر العصور، ويشتهر به ويذكر بين المؤلفين، فلا يمر اسم القلقشندى فى مجال من مجالات الفقه أو العلم أو الأدب إلا يطرأ على الذهن أنه مؤلف «صبح الأعشى» وكفى. والنادر من القراء الذين يعرفونه بأنه مؤلف نهاية الأرب، أو قلائد الجمان، أو شارح مُسْنَد الشافعى، أو ابن حنبل. بل إن معرفته ترتبط بتأليفه هذه الموسوعة الضخمة «صبح الأعشى».

ويذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة إشارة إلى قيمة هذا الكتاب فيقول: «..وفى أوائل القرن العشرين طالعتنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير، أو الموسوعة العظيمة، فهال الناس جميعاً ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم والفائدة، وشجع ذلك دار الكتب على المضى فى نشره بالطرق العلمية السليمة..».

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدى للثقافة العربية الإسلامية جليلَ الخدمات عن طريق نشرها لهذه الموسوعة العلمية الأدبية للقلقشندى.

إن هذا العَلَمَ من أعلام الفكر الإسلامى لا يحظى من أبناء وطنه بالاهتمام الجدير به، اللهم إلا ما قامت به جامعة بنها فى عام ١٩٨٥ من عقد ندوة علمية حوله كواحد من أعلام محافظة القليوبية، والتى فيها رفاته، ومسجده هناك فى بلدته قلقشندة التى انتسب إليها.

* * *

٦٨ المقريزى
الفقيه المؤرخ صاحب الخطط

ربما لا يكتمل بحث أى دارس فى تاريخ القاهرة إلا بالرجوع إلى كتاب مهم جدًا عن تاريخها، عنوانه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو الكتاب المشهور باسم الخطط، للمؤرخ أحمد بن على المقريزى، حيث إنه توافر على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع وميادين إلى دروب وقياسر وحمامات، إلى رباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم رجال الدولة ونظم الحكم فى مختلف العصور.

ولعل مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب تشى بالكثير مما نريد أن نعرفه عن شخصية هذا المؤرخ الخالد، لما اكتنف هذه الشخصيات من منحنيات ذكرها البعض - إمَّا قصدًا للإساءة إلى هذا المؤرخ، أو عن غير قصد، حيث جاءت فى سياق الحديث عنه.. والأمران معاً يتطلبان التوضيح الذى ربما توفق فى تقديمه هذه الصفحات، هذه العبارة التى جاءت فى مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب، والتى تزيل الكثير من اللبس والغموض حول أصالته العربية تقول: «وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى».

لكن قبل التعرض لما وراء هذه العبارة من دلالات ومعانٍ، أو أسباب وعلل، نتعرف علي شخصية صاحبها.

إنه أحمد بن على المقريزى، ولد فى عام ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بالقاهرة، فى أسرة معروفة أجيالها بالعلم فى دمشق بسوريا، أو فى بعلبك

بلبنان. . أو هذا الحى من القاهرة. أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة المثقفة من الطبقة الوسطى ـ على قول المصطلح الاجتماعى المعاصر ـ أمّا هذه الحوادث فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكية، ذات بطولات شامخة سالفة، وأمجاد ماضية، ملأت عين التاريخ فى الشرق والغرب. ومن نافذته الفكرية شهد المقريزى الكثير من هذه الحوادث طوال عشرين عاماً، هى عمر طفولته وصباه، وبدايات شبابه.

وإبّان هذه الحوادث المتقلبة عكف المقريزى ـ طفلاً وصبياً وشاباً ـ على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته، وهى دراسة علوم الدين، وحفظ القرآن، ومعرفة النحو، ودراسة الفقه والتفسير والحديث، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ، وتقويم البلدان، والأدب والحساب.

غير أن نظرة متفقه مع الدكتور محمد مصطفى زيادة إلى أعماله التأليفية تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة، مثله فى ذلك مثل أستاذه عبد الرحمن بن خلدون، الذى رأى ما رأى بأسبانيا الإسلامية، والشمال الإفريقى من تفكك وفساد وفتنة وانحلال، فألهمه ذلك إلى تأليف تاريخه المسمى بكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

لقد ترددت هذه النغمة فى مؤلفات المقريزى لأسباب كثيرة، أولها تلمذته المباشرة على العلامة ابن خلدون وثانيها المحيط المملوكى الذى عاش وانغمس فيه، وثالثها أن أسرة المقريزى جاءت إلى مصر حديثاً فى حياة أبيه من موطنها بعلبك بلبنان، ولا بد أن امتلأت أحاديث هذه الأسرة بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة ومقارنتها بالحياة اللبنانية، فتولدت عند مؤرخنا المقريزى روح الإستطلاع والفحص منذ طفولته وصباه وشبابه.

وكما يسجل الدكتور محمد مصطفى زيادة فى حديثه عن هذا المؤرخ الخالد، بأن اسمه يرجع إلى حارة مقريز فى بعلبك بلبنان، ولا يسع الدكتور زيادة إلاَّ أن يشير ـ فى هذا الصدد ـ إلى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم «المقريزى» فى اللغة الإيطالية، حيث يطلق على جهة بإيطاليا قريبة من عاصمتها روما، مما يحتمل معه

أن تكون حارة «مقريز» البعلبكية هى سكن لجالية من الجاليات الإيطالية الكثيرة التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى أيام الحرب الصليبية، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوربية من الشرق.

ولكن الدكتور زيادة يحقق هذه المسألة تحقيقاً علمياً خلاصته أنه لا ينبغى أن يتسرب إلى الذهن أن المقريزى من سلالة إيطالية، لأن أباه وأسلافه معروفون فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة، وينتسب إلى الفاطميين على قوله فى الحديث عن نفسه، وجده لأمه من المحدثين الأحناف الكبار، هذا إلى جانب أن المقريزى جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم، وهو ما لا ينتظر أن تشتغل به أسرة أجنبية التى عادة ما يشتغل أبناؤها فى المهن والصناعات والحرف. وثمة دليل ثالث على أصالة المقريزى العربية الإسلامية، هو أن المؤرخ السخاوى الذى اشتهر بتعقب أخبار السابقين والمعاصرين لم يذكر شيئاً عن هذا الاحتمال، مع ما هو معروف عن السخاوى من الغرام بالبحث فى أصول الناس وأسرارهم، ولا سيما أهل صناعته من المؤرخين.

وبحكم طبقته واعتباره من أهل العلم، وهى المهنة المميزة لهذه الطبقة عن طبقة أهل السيف وهم المماليك. . التحق المقريزى بالخدمة الحكومية فى ديوان الإنشاء بالقلعة وهو الديوان الذى يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية، فعمل كاتباً به، وهى وظيفة لا يبلغها إلا أصحاب المؤهلات العالية، والموهبة والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان.

بعد ذلك اختير قاضياً شافعياً، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الجنفية الذى نشأ فيه، ثم أصبح إماماً لجامع الحاكم الفاطمى، ثم مدرساً للحديث والتفسير بالمدرسة المؤيدية، وهى وظيفة يقابلها أستاذ كرسى بالجامعة. ويبدو أن هذه الوظيفة كانت بتوصية من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون للسلطان برقوق.

لكن لم يستمر فى هذه الوظائف التى تدور فى فلك الدين والعقيدة، إذا انتقل إلى وظيفة الحسبة، حين عينه السلطان برقوق محتسباً للقاهرة والوجه البحرى،

فانتقل بذلك من المشتغلين بالفقه والدين والتعليم إلى دائرة الإدارة والاختلاط بالناس، حيث الأسواق والأسعار والموازين والنقود والشوارع وتنظيم الحركة بها. مع الإشراف على المدارس والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات، ومراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمهندسين والمعلمين والمعماريين، يُضاف إلى كل ذلك مراقبة الباعة الجائلين والمتعطلين والشحاذين وغيرها من وظائف تشترط فيمن يتولاها الكفاءة والدقة والعدل والنزاهة فى الحكم، والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية.

غير أن المقريزى تنحى عن وظيفة «المحتسب»، إذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته، وصرفته عن القراءة، وتطلبت منه الجلوس على أريكة المحتسب للفصل بين الناس وحل مشاكلهم ليعود إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى، حين عينه السلطان برقوق مدرساً للحديث والتفسير بالمدرستين الإقبالية والأشرفية بدمشق فى سوريا، ثم قاضياً بها، وهى وظيفة اعتذر عن قبولها. حيث سئم الوظيفة وما يتبعها من مسئوليات تَصرُفه عن العلم والتفقه فيه، والتأليف والكتابة، بل والتأريخ وهى أعمال نذر نفسه لها جميعاً.

ولعله كتب فى هذه الفترة كتاب السيرة النبوية بعنوان «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأخوال والأتباع» الذى استهله قائلا: «إنه غير جميل أن يتصدى للتدريس والإفتاء، والجلوس للحكم بين الناس، والفصل فى قضاياهم. . أن يجهل من أحوال رسول الله، وجميل سيرته ما لا غنى عن معرفته.» وكتب أيضاً - إبان تواجده بدمشق - كتاباً آخر فى التاريخ الإسلامى. عنوانه «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التى بنى عليها أستاذه عبد الرحمن بن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ.

ويعود إلى القاهرة حيث ينصرف إلى التدريس والتأليف. وكما يقول الدكتور زيادة فى تأريخه للمقريزى بأنه حج إلى بيت الله الحرام ليفصل بين مرحلتين من حياته، ليقضى هناك بمكة خمسة أعوام اشتغل خلالها بتدريس الحديث وتفسيره،

ولعله قام بتأليف عدد من الكتب فى هذه الفترة، منها «الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام» و«ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى» و«التبر المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك» وغيرها من كتب صغيرة تعنى بتاريخ العرب وأخبارهم..

ويرحل عن مكة عائداً إلى القاهرة، حيث يستقر فيها بقية حياته فى حارة «برجوان» التى كان يفاخر بها على سائر حارات القاهرة، ليجعل من داره مكاناً للتدريس والتأليف حيث بدأ كتابة مؤلفه الأشهر فى تاريخ القاهرة والمعروف باسم: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو الكتاب المعروف باسم الخطط المقريزية. وسُمى بالخطط لأنه اعتنى بدراسة معالم القاهرة من حارات وشوارع ورباع وأسواق ومدارس ومستشفيات ومساجد، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم لرجال الدولة ونظم الحكم..

وزادت مؤلفاته الكبرى والصغرى على المائة كتاب، ولعل من أهمها بعد كتاب «الخطط» وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» كتابين: الأول منهما «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» الذى أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة الإسلامية بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية. والكتاب الثانى هو «إغاثة الأمة بكشف الغمة» الذى تناول فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى زمنه، مما أدى إلى انتشار الأمراض، وأهمها الطواعين، وأرجع كل ذلك إلى سوء تدبير الملوك والحكام، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد، وهو تخريج اقتصادى لم يسبق إليه أحد من المؤلفين قبله.

ويظل على هذا النحو مؤلفاً وفقيهاً ومؤرخاً ومفسراً حتى يلقى ربه، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة، التى أحبها وتغنى بكل شبر فيها، وكان ذلك عام ١٤٤٢ ميلادية الموافق ٨٤٥ للهجرة.

* * *

٦٩ شمس الدين الحنفى
صوفى أدهش السلاطين

الحديث الآن عن العارف بالله شمس الدين محمد بن على بن حسن البكرى الشاذلى. الذى ينتهى نسبه إلى خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق رضى الله عنه.. والمشهور فى مصر بالسلطان الحنفى.

ولد هذا العارف الصالح سنة سبع وأربعين وثمانمائة هجرية، ونشأ يتيم الأبوين، فتولت إعالته وتربيته خالة له كانت متزوجة من رجل متوسط الحال. فى ظاهره التقى والطيبة وحُب الخير، وفى باطنه القسوة والغلظة والشر. فكان يتظاهر لزوجته بأنه يحب الخير لهذا الغلام، وأنه يريد أن يعلمه صنعه يعيش منها، ويبطن له ماهو غير ذلك تماماً. ويبدو أن الفتى قد أدرك حقيقة زوج خالته، فكان يطيعه على مضض، حتى إذا ألحقه بواحدة من الصناعات كان يهرب منها مُيَمِّماً وجهه شطر مكتب تحفيظ القرآن الكريم. وتكرر منه ذلك مرات، حتى إذا عرف زوج خالته.. راقَبَ الغلام إلى حيث يذهب، فرآه ينتهى إلى مكتب التحفيظ، وهنا أخرجه من المكتب بشدة، وسبَّه وعنَّفَهُ، وضربه ولطمه، حتى غشى عليه، وصار يبكى وينتحب، ويقول تلقائياً وهو لم يزل طفلا صغيراً ما يصلح افتتاحية لقصيدة:

ما هكذا كنت فى أهلى وفى وطنى إن الغريب غريب أينما كانَ

ولكنه برغم كل ذلك واصل الذهاب إلى مكتب التحفيظ، حتى أتم حفظ القرآن الكريم، وبدأ مرحلة جديدة من طلب العلم، وفى الوقت نفسه يتكفل بإعالة نفسه من جنس ما يطلبه من العلم، فاشتغل بتجارة الكتب. واستمر على

هذه الحالة فترة، يبدو أنه كان فيها راضياً عما يفعل، وخاصة أنه استطاع أن يستغنى عن أن يكون عالة على خالته وزوجها القاسى.. إلى أن مر به رجل من الصالحين، لا تذكر الروايات اسمه، برغم أثره الكبير على تحوّل حياة هذا الفتى الذى أصبح شاباً.

لقد ابتدره هذا الرجل الصالح قائلا: «أنت إلى الآن لم تتفرغ تماماً لطلب العلم» وبعد حديث طويل بينهما أشار عليه أن يقيم فوق قطعة من الأرض يملكها صديق له ميسور الحال، كان زميلاً للفتى فى مكتب تحفيظ القرآن.. فرد عليه الشاب قائلا: «إن هذا مرهون بموافقة صاحب الأرض». وما إن وافق حتى بنى عليها خلوة يقرأ فيها ويتعبد، وهو لم يزل شاباً فتياً.

وحين بلغ العشرين من العمر عرض على صديقه وزميله الذى تنازل له عن قطعة الأرض التى بنى عليها خلوته: قائلاً: «أرأيت لو ذهبنا إلى الشيخ ناصر الدين الميلق - وكان من مشايخ الصوفية - نأخذ عنه العلم والطريق.. العلم الذى ينقصنا، والطريق الذى سار عليه السلف الصالح قبلنا».

ويوافقه صديقه وزميله على هذه الفكرة التى كان لها كبير الأثر على حياة الحنفى بعد ذلك، حتى نراه يقول: «وذهبنا إلى الشيخ ناصر الدين، وتعلمنا منه الذكر على طريق القوم من الصوفيين الصالحين، وصرنا نتردد عليه لننتفع به وننهل من علمه وفضله. وعرفنا بعد ذلك أن الشيخ ناصر الدين الميلق قد أخذ العلم والطريق عن جده شهاب الدين الميلق، والجد أخذه عن الشيخ ياقوت العرش، وهذا أخذه عن الشيخ أبى العباس المرسى، وهذا الأخير أخذه عن أستاذه أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين..»

ومما يذكر فى التاريخ للحنفى، أن إمامَ الشاذلية أبا الحسن الشاذلى قد تنبأ بظهوره قبل مائتى سنة، حيث قال ذلك أحد مشايخ الصوفية، ويدعى الشيخ حسن الخباز المدفون بقرافة الشاذلية مؤكدا قوله بما تناقله عن السابقين عليه، حيث ذكر: «أخبرنى بذلك ابن اللبان، عن ابن عطاء الله السكندرى، عن ياقوت العرش، عن أبى العباس المرسى، عن أبى الحسن الشاذلى أنه قال: «سيظهر بمصر

رجل يعرف بمحمد الحنفى يكون خاتماً لطريقتى، ويشتهر فى زمانه، ويكون له شأن عظيم».

وفى رواية أخرى عن الشاذلى رضى الله عنه له أنه قال: «يظهر بمصر شاب يُعرف بالشاب التائب، حنفى المذهب، واسمه محمد الحنفى، ويُربَّى يتيماً ويعيش فقيراً..»

ومهما يكن مبلغ الصدق أو عدمه فى هذه الروايات وغيرها، فالثابت أن الحنفى تربى بالفعل يتيماً، وعاش فقيراً، وسار على طريقة الإمام الشاذلى بعد ذلك، حتى أصبح قطباً لهذه الطريقة فى مصر.

وطبيعى أن يكون للحنفى مكانة فى عصر المماليك، هؤلاء الذين كانوا يعملون حساباً لرجال الدين، وعلى وجه التحديد أصحاب الطرق الصوفية حتى إن الشيخ عبد القادر الجيلى يروى: «أن أحد سلاطين المماليك قصد زيارة الحنفى فى زاويته، فقام الحنفى واستقر فى خلوته عازفاً عن لقاء هذا السلطان، فما كان من الأخير إلا أن دخل عليه إجلالاً وتعظيماً، وبادره بالتحية، ليردها الحنفى وهو جالس فى مكانه، حيث كان لا يقوم لأحد قط ـ سلطاناً كان أو مليكاً أو وزيراً. ولا يغير من طريقة جلسته لدخول أى منهم، وكان كل من يدخل عليه خلوته، لايجلس بجانبه احتراماً وتقديراً لمكانته، وإنما يختار له مكاناً فى أحد جوانب الخلوة. يفعل هذا طلباً لرضا هذا الرجل الصالح».

وحتى إذا حدث أن كان أحد السلاطين لا يعتقد فى هؤلاء الصالحين نراه يتظاهر بذلك خوفاً من التفاف الناس حولهم، حتى أنه حدث أن أحد سلاطين المماليك ـ ويدعى «الظاهر جقمق» ـ كان سيئ الاعتقاد بطائفة الصوفية، وكان لايحب الحنفى على وجه التحديد، بل يكاد يبغضه، ومع ذلك كان يبعث إليه رجاله طالباً دعواته، وكان يقول لمن حوله: «إنى لا أقبل هذا الرجل ولكن أطلب دعواته وأتعجب من نفسى».

ويروى أنه زاره ذات يوم الملك المؤيد، فقيل له: «إن الحنفى فوق سطح بيته، فطلب من مريديه أن يبلغوه حتى ينزل ويكون فى استقباله، فصعد إليه أحد

المريدين يبلغه بقدوم الملك، فما كان من الحنفى وقد استفزه هذا الطلب الذى اعتبره أمراً ملكياً أن قال لمريده: «قل له الحنفى لا يجتمع بأحد فى هذه الساعة» فرجع الملك المؤيد إلىَ القلعة بالعاً هذه الإهانة التى لو كانت قد حدثت من أحد كبار رجالِ دولته من المدنيين لكان له معه شأن آخر، ولكنه مع الحنفى قَبِلَهَا راضياً، إمَّا تقديراً لمكانته كرجل من الصالحين الذين يُعامَلُون معاملة خاصة، أو متظاهراً بهذا التقدير والاحترام، فلا يأتى بعمل من شأنه أن يكون مضاداً لمشاعر المئات والألوف التى تلتف حوله من المريدين والأتباع.

وزيادة فى إظهار هذا التقدير أرسل الملك المؤيد أحد أمرائه ومعه شكارة مملوءة بالعملة الفضية، حتى إذا جلس إليه وسلمها له بما فيها من عملة. صار الحنفى يقبض منها ما يملأ يده ويعطيها للناس، حتى انتهى منها ولم يزل الأمير جالساً معه، كأنه يريد أن يحمل رسالة إلى مليكه، وهى «أن الفقراء أمثال الحنفى فى غِنىً عن ذهبه وفضته، وأنهم لو أحبوا الدنيا ما كان لهم مثل هذا المقام بين الناس».

وهناك رواية سجلها شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر. ذاكرا لفضلٍ لاينساه لهذا الرجل الصالح «الحنفى» ومكانته عند الملوك والسلاطين، وخلاصة هذه الرواية: أنه عندما عُزل ابن حجر من منصبه كشيخ للإسلام، أرسل الحنفى أحد مريديه إلى السلطان وقال لهِ: بلِّغْهُ ـ أى السلطان ـ بأن يرد الشيخ ابن حجر إلى ولايته. فكتب السلطان مرسوماً بعودة شيخ الإسلام ابن حجر، احتراماً لطلب الحنفى.

ورواية أخرى تشير إلى ما كانت عليه مكانة الحنفى عند الملوك والسلاطين والأمراء، حيث يروى أنه حين مرض أحد السلاطين زاره الحنفى، غير أن الناس عندما تسامعوا بنبأ تلك الزيارة ترادفوا على باب السلطان، يطلبون قضاء حاجاتهم المتأخرة بمناسبة هذه الزيارة الكريمة. وهنا أمر السلطان بألا يرد لطالب حاجة طلباً إكراما لخاطر زائره الصالح. حتى بلغ عدد القضايا التى حكم فيها خمساً وثلاثين قضية، كانت من قبل معلقة برأى السلطان.

وهكذا كان الحنفى رضى الله عنه موضع تقدير واحترام ملوك وسلاطين زمانه من المماليك، ولذلك اشتهر أمره بين الناس بأنه هو السلطان الحقيقي والدائم الذى لا يرد للناس طلباً. حتى إذا أراد بعضهم أن يلوم أحداً فى أمر من الأمور استشكل عليهم، سرعان ما يقولون: سنرد الأمر إلى السلطان الحنفى ليحكم فيه. ولعل هذا هو سبب شهرة الحنفى بلقب السلطان.

وأما سبب تسميته بالحنفى، فإن ذلك يرجع إلى كونه على المذهب الحنفى، وكان يحكم به ويفتى، ولذلك سُمِّيَ بالحنفى اختصاراً لاسمه.

وقد عاش السلطان الحنفى مُحاطاً بمحبة الفقراء والبسطاء، واحترام أصحاب الجاه والسلطان طول حياته، إلى أن توفى ودفن فى المكان الذى بنى عليه خلوته، والمعروف الآن بحى الحنفى، أحد أحياء القاهرة الآن.

* * *

٧٠ أبو العلا الحسينى سلطان العلماء

وفد من مكة المكرمة بعد أن وُلد فيها وعاش مقتبل حياته، ليعيش فى مصر بقية سنوات عمره، حتى جاوز المائة عام. وينتسب إلى آل البيت النبوى الشريف، فهو من أحفاد الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما، وكان من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده.. هؤلاء الفقراء الذين يعرفون فى كل زمان ومكان بالأولياء الصالحين. اختار لنفسه مكاناً هادئاً على النيل بعيداً عن صخب الحياة الدنيا وضوضائها ليقيم عليه مبنىً صغيراً يتخذه له لا يبرحها أربعين عاماً... وعلى الرغم من ذلك فيتزاحم حول هذه الخلوة المريدون والأتباع.. ليكوِّن مجموعهم فيما بعد أهالى حى «بولاق أبو العلا» بمدينة القاهرة.

ذلك هو العارف بالله السلطان أبو العلا... الذى ذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته فقال عنه: «كان رضى الله عنه من أكمل العارفين، وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطورات، ومكث نحو أربعين سنة فى خلوة مسدود بابها، ليس لها غير طاقة وكان مَنْ لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوى سيماوى، وكان رضى الله عنه بريئاً من جميع ما فعله أصحابه من الشطح الذى ضُربت به رقابهم فى الشريعة».

وتستوقفنا فى هذه الكلمة الدالة للإمام الشعرانى عن السلطان أبى العلا أمور كثيرة، فى مقدمتها ثلاثة.

الأمر الأول: حول مسألة أنه عاش فى خلوة أربعين عاماً قضاها فى التعبد والبعد عن الناس ليتفرغ تماماً لعبادة الله وطاعته، أملاً فى أن يُنزله الله مَنزلة

أوليائه الصالحين وينال درجة من درجات أحبائه المكرمين. والحق أن هناك وسائل للتقرب من الله غير الاعتزال عن الناس والاستغراق تماماً فى العبادة فكما عرفنا أن الولاية ليست فى مجموعها اعتزال وخلوة، ولكنها أيضاً عبادة وعمل، ذلك لأن العمل يمثل فى شريعة الإسلام جانباً لا يُستهان به من عبادة الله، ولولا أن السلف الصالح من الصحابه رضوان الله عليهم والتابعين وتابعى التابعين عملوا وكافحوا وجاهدوا بل وقاتلوا فى سبيل الله. . لما قامت للإسلام أمة، هى خير أمة أُخرجت للناس، فلو أن هؤلاء - رضوان الله عليهم - اعتزلوا الحياة، وعاش كل منهم فى خلوة بقية سنوات عمره، لَمَا وصَلَ الإسلام إلى ما وصل إليه من المدنية والحضارة.

لكن على أى حال لكلٍّ ظروفه. وربما كان الاعتزال والخلوة هما الوسيلة المثلى فى عصر هذا الرجل الصالح.

والأمر الثانى: أن السلطان أبا العلا كان غير مسئول عمّا يفعله بعض المتهوسين والمجاذيب من أتباعه، ممن يأتون بأعمال بعيدة كل البعد عن التفكير العقلى، وإلا فما معنى أن نرى حتى اليوم البعض يضم قبضته على الهواء ثم يخفى هذه القبضة فى ملابسه ليخرجها بعد ذلك ويفردها ولا شئ غير ذلك؟!! إن كل ما يصدر عن هؤلاء بعيد عن العقل. وكتاب الإسلام - القران الكريم، وهو كتاب للعقل، ودعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله - يدعونا بعبارات تختلف فى أسلوبها، وتتفق فى معناها إلى استعمال العقل، ووزن كل شئ بميزانه. . وعلى هذا فكل مالايأتى عن طريق العقل، أو ما لا يحكمه العقل لا يعتد به. . ، فالعارف بالله السلطان أبى العلا برئ منه، وغير مسئول عنه، لأنه كان أعرف من هؤلاء وهؤلاء بتعاليم الإسلام، ومنها أن التفكير الصادر عن العقل يعد فريضة إسلامية.

الأمر الثالث: الذى نلحظه فى كلمة الإمام الشعرانى عن العارف بالله السلطان أبى العلا: هو اعتباره من الفقراء، وهذا حق وصدق، فالعارف بالله - وهو من الصوفية - يعد من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده، فالفقير إلى الله هو من يقبل على الله باطناً وظاهراً بأنواع القرابات والعبادات، ويعتمد عليه سبحان وتعالى، ويتوكل - دون أن يتواكل - فى أمر دنياه.

وهذا المعنى الذى سجله الإمام الشعرانى فى طبقاته عن السلطان أبى العلا.. لا يختلف كثيراً عن المعنى الذى سجله الأستاذ توفيق على حسن فى كتابه عن هذا الرجل الصالح حيث قال: «إن السلطان أبا العلا الحسينى رضى الله عنه، من العُبَّاد الزاهدين، والنُّسَّاك العارفين.. وصل فى المعرفة إلى درجة عالية، وفى الولاية إلى مكانة سامية.. أفاض الله عليه بكثير من أسراره، وخصه بوافر بره ونفحاته... اعتزل الناس ليتفرغ لعبادة ربه وخالقه، مكث أربعين سنة فى خلوته، وليس بالخلوة نوافذ غير طاقة يأتيه منها أكله وشربه بواسطة أتباعه ومريديه، وذلك ليبتعد عن شرور الخلق، ومظالم الناس. عاش رضوان الله عليه عمراً يزيد على المائة والعشرين عاماً.. قطعه كله فى طاعة الله وعبادته، فأكرمه الله بمنزلة أوليائه، ودرجة أحبائه، والله يصطفى من يشاء من عباده، ولا حرج، ويهب مَنْ يريد أسراره، ولا مانع. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير».

والكتابات الحديثة التى سجلت تاريخ حياة هذا الرجل الصالح تذهب إلى أنه ولد بمكة، ولكنها لا تذكر السنة التى وُلد بها، وإنما نكتفى بالقول أنه وُلد فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، وأنه عاش مائة وعشرين عاماً، وتذكر أنه توفى فى عام ٨٩٠، أو عام ٨٩٥ للهجرة.

وكما لا تحدد هذه المصادر سنة الميلاد أو تاريخ الوفاة فإنها لا تحدد أيضاً السنة التى نزح فيها إلى مصر، ولا كيفية وصوله إلى عاصمتها، ولماذا اختار المنطقة التى بنى عليها خلوته والمعروفة الآن ببولاق.

ولكن هذه المصادر قديمها وحديثها تتفق على أن السلطان أبا العلا عاش المرحلة الأخيرة من حياته فى مصر، وتتفق أيضاً على أنه من آل بيت النبى ﷺ، وأن اسمه الحقيقى المسجل على ضريحه هو «الحسين أبو على».. الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين، ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم أجمعين، وأنه اختار مصر كغيره من العلويين طلباً للأمن والاستقرار، ورغبة فى العلم والمعرفة، حيث التقى فيها بعلمائها وأئمتها، وأخذ عنهم الكثير.

كذلك تتفق بعض الكتابات فيما بينها فترى أنه حل بمصر فى الأربعين من عمره، وأنه توفى فى العشرين بعد المائة، أى أنه بقى فى مصر ثمانين عاماً. قضى منها أربعين عاماً - هى الأخيرة من حياته - معتزلا فى خلوته.

وأنه من النبتة الشريفة المباركة التى نذرت نفسها لعبادة الله والدفاع عن دينه الإسلام.

وأن السلطان أبا العلا مدفونٌ بضريحه الموجود بمسجده ببولاق فى القاهرة، كما يسجل على مبارك فى خططه التوفيقية فى حديثه عن هذا المسجد والضريح قائلا: «وبداخله ضريح سيدى أبى العلا الحسينى» وفى كل عام يُقام له مولد أمام هذا المسجد، يفد إليه المريدون والأتباع من كل أقاليم مصر، تقديراً لما لهذا الرجل الصالح فى نفوسهم من الإعزاز والتقدير.

* * *

٧١ زكريا الأنصارى
مجدد القرن التاسع الهجرى

الحديث عن زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى، المعروف فى كتب السير والتراجم بالقاضى زكريا الأنصارى، والذى كان فى مقدمة المجددين فى الإسلام على رأس مائة العام التاسعة، يجرنا للحديث عن أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن عالم الدين كان لا يقتصر - فى علمه - على علوم الدين ومنها الفقه والتفسير والحديث فحسب، بل كان شبيهاً بأجداده العرب الأقدمين، عالماً شاملاً، فإلى جانب علمه بالدين نراه يهتم بعلوم أخرى فلا يقتصر اهتمامه بعلوم لها اتصال بالدين، كالنحو والصرف واللغة، والمعانى والبيان والبديع، والمنطق، والتصوف... بل امتد كذلك إلى علوم أخرى كالطب، والحساب والجبر، والمقابلة، والهيئة والفرائض، والهندسة، وغيرها من العلوم المدنية التى كان أسلافنا من العرب الأقدمين يدرسونها ويتوافدون عليها إلى درجة أن الجامع الأزهر منذ أُنْشِئَ اهتم بها وقام بتدريسها.

ولو أن اهتمام الأزهريين بهذا المنهج العلمى الشامل قد استمر لَظَهَرَ من علماء الأزهر علماء فى الطب والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم غير الدينية. لكن فى الوقت الذى أهمل فيه الأزهر هذا المنهج الشامل كانت أوربا تستعد لنهضتها الحديثة وعدتها فى ذلك ما أخذته عن العرب الأقدمين، من أصحاب هذا المنهج الشامل الذى كان يمثلهم ابن سينا، وابن رشد، والرازى، وابن الهيثم، وابن حيان، وغيرهم ممن كان الواحد منهم يتقن الطب، أو الهندسة، أو الرياضيات، أو الفلسفة، إلى جانب إتقانه للحديث والفقه والتفسير.

أقول لو أن الأزهر استمر على منهجه الذى كان متبعاً حتى القرن التاسع مثلا، الذى عاش فيه القاضى زكريا الأنصارى، لكان للأزهر اليوم شأن آخر، لكن الذى حدث أن الأزهر بعد ذلك رأى الاقتصار على العلوم الدينية والشرعية، وما يتصل بها من فقه ولغة وأدب. وإذ امتد اهتمامه إلى غير ذلك من علوم، فإن اهتمامه يكون سطحياً بسيطاً لا يغنى.

ويبدو أن اهتمام رجل الدين بهذا المنهج العلمى الشامل كان له أكبر النتائج - على الأقل - المستمدة حتى من حضارتنا العربية، وإلاَّ فما معنى العودة إلى الإهتمام بهذا المنهج الشامل لرجل الدين بحيث يأخذ شكل المعارف الموسوعية الجامعة؟

لقد طُوِّرَت جامعة الأزهر فى نهايات القرن الرابع عشر الهجرى وستينات القرن العشرين لتغطى هذا الاهتمام وتقوم به، حيث أنشئت بهذه الجامعة كليات علمية كالطب، والهندسة والتجارة، والزراعة، واللغات الأجنبية، وغيرها من الكليات ذات الاهتمام بعلوم الدنيا.. وكأن الأزهر يعود إلى سابق منهجه الشامل.. وهى عودة محمودة لا يختلف فى فائدتها أحد يهمه أمر الدين الإسلامى، وكيف يكون رجاله على علم بعلوم الدين والدنيا معاً.

ولعل فى سيرة القاضى زكريا الأنصارى خير مثال على ذلك، فنراه ينشأ على حفظ القرآن الكريم فى قريته «سنيكة» التابعة لمحافظة الشرقية. التى ولد فيها عام ٨٢٦ هـ. فلا يلتقى بذلك، وإنما يتجه إلى دراسة مختصر التبريزي فى الفقه، لينتقل من الشرقية إلى القاهرة، حيث يلتحق بالجامع الأزهر، فيأخذ الفقه عن القاياتى، والعلم عن البلقينى، والتفسير عن شيخ الإسلام ابن حجر، والنحو عن الشمنى وابن همام.

ولا يكتفى بهذا القدر من العلوم التى تؤهله لأن يكون عارفاً أو عالماً بدينه الإسلامى، وإنما يتجاوزه، فيدرس علوماً منها الصرف، والأصول، واللغة، والهيئة، والهندسة، والميقات، والحساب، والجبر والمقابلة، وعلم الحرف، والتصوف، وغيرها.

ولم يزل هذا المجدد مشتغلا بطلب العلم على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة، والأدب والعفة، والابتعاد عن زخرف الحياة، مع شرف النفس، ورجاحة العقل، وسعة الصدر، والاحتمال والصبر، حتى أذن له شيوخه فى الإقراء، والإفتاء.

ثم ينتقل القاضى زكريا الأنصارى إلى مرحلة جديدة من حياته، حيث يتصدى للتدريس فى حياة الكثيرين من شيوخه وأساتذته، وينتفع به طلاب العلم جيلا بعد جيل، بل ويستطيع أن يسهم إلى حد كبير فى تدريس بعض العلوم المتصلة بالحياة أو يضع مناهج لها، ومن هذه العلوم التصريف والمعانى والبيان، والبديع، والمنطق، والتصوف، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة، والهندسة، وغير ذلك من العلوم التى كانت تدرس وقتئذ بالأزهر، ولم يكن الأزهريون قد أهملوها ونظروا إليها نظرة أقل من نظرتهم إلى العلوم الدينية المحضة. بدعوى التخصص فيها.

وطبيعى والأمر كذلك أن يعلو قدر هذا العالم المجدد المتنور، وذلك بما حازه من علوم أفاد بها غيره، وطبيعى أيضاً أن يولى المناصب المرموقة كالتدريس فى مقام الإمام الشافعى، وهو أرفع منصب علمى وقتئذ. ثم يتولى ويشرف على مدارس وخانقاهات صوفية. إلى أن يتولى منصب قاضى قضاة مصر بعد امتناع منه كثير، وتعفف أكثر.

ويمارس القاضى زكريا الأنصارى العمل فى القضاء، ويكون فى عمله قدوة ومثلاً لمن يجئ بعده فى هذا المنصب الحساس، ويستمر فيه مدة ولاية السلطان الأشرف قايتباى، ويستمر بعد هذا العهد بدون توقف منه أو إيقاف من السلطان، إلى أن يكف بصره، فيستبعد بسبب آفة العمى. ولكنه برغم ذلك يواصل التدريس والإفتاء فى أمور الدين والدنيا، والتصنيف فى الأدب والثقافة.

ولهذه الجهود يُعَدُّ القاضى زكريا الأنصارى مجددًا على رأس القرن التاسع الهجرى ـ كما يسجل الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ـ لشهرة الانتفاع به، لكثرة تصانيفه، واحتياج أغلب الناس إليها فيما يتعلق بأمر دينهم ودنياهم.

ولا ريب أن هذا المجدد قد أسهم فى أمور كثيرة، فى مقدمتها أمران جديران بالاعتبار.

الأمر الأول: أن الجامع الأزهر فى عهده لم يكن يضيق بدراسة علوم الهندسة والطب والرياضيات، وما إليها من العلوم بمعناها الدقيق، لأن القاضى زكريا تعلمها، ثم اشتغل بتدريسها والتأليف فيها، ولا غرو فى ذلك، فقد كان الجامع الأزهر أكبر معهد على مستوى العالم العربى، ولذلك كان لعلمائه وطلابه رغبة فى تحصيل كل العلوم، وكانت لهم همم كبيرة فى ذلك.

والأمر الثانى الذى تيسر بفضل وجود هذا المجدد، أن هذه العلوم غير الدينية قد تبسطت وتيسرت، حتى أمكن دراستها لطلاب العلم بالأزهر، بعد أن كانت دراستها مقصورة على عبقريات الحضارة العربية الإسلامية من أمثال الكندى، والرازى، وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة.

ويظل هذا المجدد مواصلا طريق العلم مدرساً وقاضياً وصاحب فتوى، إلى أن يتوفى عام ٩٢٥ ويدفن بالقاهرة بمسجد الإمام الشافعى.

* * *

٧٢ جـــلال الدين السيوطى المؤرخ والعالم والفقيه

فى الفكر الإسلامى لم يكد يمضى على الرسالة الدينية الجديدة قرن من الزمان حتى نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف، ومعها حركة التقنين العلمى، وكان ذلك ملحوظاً فى علوم اللغة، وفى الفقه، ثم نقل ثقافات الآخرين. حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده فى القرن الحادى عشر (الرابع الهجرى وامتداده فى الخامس الهجرى) بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة دائرة المعارف التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات.

ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية كانت رائدة فى هذا المجال الموسوعى، مما يميزها عن غيرها من الثقافات العالمية بعد ذلك، ويجعلها سابقة عليها.

وهذه الحركة الموسوعية كانت تنشط تبعاً للظروف التى تمر بها هذه الثقافة، سواء كانت هذه الظروف طيبة أو غير ذلك.

ولعل هذه الحركة الموسوعية فى الثقافة العربية الإسلامية كانت تنشط إذا ما مر بالعالم الإسلامى محنة من المحن التى يُمتحنْ بها، وهنا يهرع المؤلفون إلى جمع المعارف التى حصلها السابقون حتى يستفيد منها اللاحقون. وقد حدث هذا حين كانت محنة المسلمين فى الأندلس فى أواخر القرن الثامن الهجرى بسنوات قليلة، وبالتحديد فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة، يوم أن خرج المسلمون من أسبانيا، وانقطعت عن العرب كل السبل إلى وَصْلِ تقدمهم، أو الاستمرار فيما بدءوا.

وقد سبق محنة سقوط غرناطة العربية فى الأندلس، وزوال السيادة العربية فى

الغرب محنة أخرى فى الشرق، حين سقطت بغداد فى أيدى المغول سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) وانتهت بدخول العثمانيين سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (٩٢٣ هـ). وهذه الفترة التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثة قرون سميت بالعصر المغولى، وذلك بسيادة المغول للرقعة العربية من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً.

وكما بطش المغول بالمسلمين فى الشرق بطش الأسبان بهم فى الغرب، ومن ضمن ما صنعوا إحراقهم المكتبات العربية، وإتيانهم على الكتب.. ونفس الأمر فعله الأسبان فى الغرب، حيث أحرقوا وأبادوا عشرات الآلاف من الكتب العربية، والتاريخ يذكر ما فعله الكاردنيال «ريمتسى» فى آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافى نحو ثمانين ألف مجلد.

وبسبب هذا العسف الذى لحق المسلمين فى الشرق العربى على أيدى المغول فى بغداد، والغرب الأندلسى على أيدى الأسبان فى غرناطة، هاجرت الجموع من الغرب والشرق إلى مصر، التى لم تكن قد امتدت إليها محنة الغرب الأسبانى أوالشرق المغولى، فهاجر إليها العلماء، حيث لا أسبان ولا مغول، وكان من بين هؤلاء عدد من المؤرخين فى مصر والشام، عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منهم ابن خلِّكان (٦٨١ هـ) صاحب وفيات الأعيان، وابن أبى أصيبعة، (٦٦٨هـ) صاحب طبقات الأطباء، وصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) صاحب الوافى بالوفيات، وأبا الفدا (٧٣٢ هـ) صاحب المختصر فى أخبار البشر، والذهبى (٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الإسلام، وابن شاكر الكتبى (٧٥٤ هـ) صاحب كتاب فوات الوفيات، وابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنة، والمقريزى (٨٤٥ هـ) صاحب الخطط، وغيرهم.

كما ظهرت نتيجة أخرى لهذه المحنة التى ألمت بالعالم العربى ـ غربه وشرقه ـ بدت فى لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى، حتى أصبح هذا العصر يسمى بعصر الموسوعات أو عصر المجاميع. حيث خاف العلماء على اللغة والأدب من الضياع، فاستكثروا من المعاجم، ولا عجب فى ذلك، حيث أحس الناس وقتئذ ـ بانطواء صفحات، وزوال معالم، وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها.

ومن أصحاب هذه الموسوعات والمجاميع والمعاجم: ابن منظور (٧١١ هـ) صاحب لسان العرب، والوطواط (٧١٨ هـ) صاحب نهاية الأرب، وابن فضل الله العمرى (٧٤٨ هـ) صاحب مسالك الأبصار، والفيروزا بادى (٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط، والقلقشندى (٨٢١ هـ) صاحب موسوعة صُبح الأعشى.

وفى ظل هذه المحنة التى شملت العالم العربى شرقه وغربه، وتلك اللهفة الحافزة لجمع المعارف والمعلومات، وتلك الغيرة الشديدة على تسجيل الأحداث وتحليلها - نشأ المؤرخ والعالم والفقيه جلال الدين السيوطى (٨٤٩ هـ) وعاش ومات، وأرخ لنفسه قائلا: «. . . وأما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومشايخ الطرق الصوفية. . وقد بنى مدرسة بأسيوط وأوقف عليها أوقافاً وكان مولدى - بالقاهرة - بعد المغرب ليلة الأحد، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحُملت فى حياة أبى إلى الشيخ محمد المجذوب، وكان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى بالقاهرة. . . ونشأت يتيماً، فحفظت القرآن ولى من العمر دون ثمانى سنوات. ثم حفظت العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك. وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة ٨٦٤ هـ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن علامة زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى، الذى يقال إنه بلغ السن العالية، وجاوز المائة بكثير. . وأُجزتُ بتدريس العربية فى مستهل سنة ٨٦٦ هـ، وألفت فى هذه السنة. وكان أولَ شئ ألفته شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقينى، فكتب عليه تقريظاً. ولازمته فى الفقه إلى أن مات، وأُجزت بالتدريس والإفتاء من سنة ٨٧٦ هـ. . .

ثم لزمت شيخ الإسلام شرف الدين المناوى، فقرأت عليه قطعة من المنهاج، وسمعته عليه فى التقسيم، وسمعت دروساً من شرح البهجة وحاشية عليها من تفسير البيضاوى.

ولزمت فى الحديث والعربية، شيخنا الإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى، فواظبته أربع سنين، وكتب لى تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية، وكان من تأليفى، وشهد لى غير مرة بالتقدم فى العلوم بلسانه

وبنانه. ورجع إلى قولى مجرداً فى حديث، فإنه أورد فى حاشيته على الشفاء حديث ابن أبى الحمراء فى الإسراء. وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجه فى مظنته فلم أجده، فمررت على الكتاب ـ ثلاث مرات ـ فلم أجده، ورأيته فى معجم الصحابة لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسخته، وأخذ القلم، فضرب على لفظ ابن ماجه، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ فى قلبى واحتقارى فى نفسى. . .

ولزمت شيخنا العلامة محيى الدين الكافيجى أربع عشرة سنة، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعانى وغير ذلك، وكتب لى إجازة عظيمة.

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفى دروساً عديدة فى الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه، وتلخيص المفتاح والعضد.

وشرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب، سوى ما غسلته ورجعت عنه.

وسافرت بحمد الله إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، ولما حججتُ شربت من ماء زمزم لأمور، منها: أن أصل فى الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، وفى الحديث إلى رتبه الحافظ ابن حجر.

وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين، ورزقت التبحر فى سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة. . . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ـ سوى الفقه والنقول ـ التى أطلعت عليها فيها ـ لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد شياخى، فضلا عمَّن دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً. ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه، والجدل، والتصريف. ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما علم الحساب فهو أعسر شئ علىّ، وأبعده من ذهنى. . .

وقد كملت عندى الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً.

وقد أزف الرحيل، وبدأ الشيب، وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية القياسية ومداركها، ونقوضها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها.. لقدرت على ذلك من فضلٍ، لا بحولى ولابقوتى...

وقد كنت فى مبادئ الطلب قد قرأت شيئاً فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهيته فى قلبى، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته.. فعوضنى الله عنه علم الحديث، الذى هو أشرف العلوم وأما مشايخى فى الرواية سمعاً وإجازة فكثيرون.. عددتهم نحو مائة وخمسين.. وهذه أسماء مصنفاتى....». وبدأ فى تصنيف كتبه.

وقد أحصى بروكلمان نحو خمسة عشر وأربعمائة مؤلف.

كما أحصى له حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون نحوَ ستة وسبعين وخمسمائة كتاب، ومن قبل أحْصَى له ابن إياس فى تاريخه بأن كتبه بلغت الستمائة، وأحصى له الشعرانى فى ذيل طبقاته أربعمائة وستين مؤلفاً.

ويعلق الأستاذ أحمد الأبيارى على كثرة مؤلفات السيوطى قائلا: إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعين التى عكف فيها السيوطى على العبادة والتأليف.. لهذا العدد من الكتب فهو قد بدأ التأليف ـ كما يقول فى ترجمته لنفسه ـ عام ٨٦٦ هـ، وكانت وفاته عام ٩١١ هـ.. فإننا لا نستكثرها عليه..

وقد عاش السيوطى عظيماً، يعف عمًّا فى يد الأمراء والوزراء وسَعَى إليه هؤلاء الأمراء والوزراء. وعز فى أنفسهم حين عز فى نفسه.

وحسبك عنه أنه لما مات عام ٩١١ لم يتعرض أحد لتركته، مع أن زمانه كان زمن جَوْر، وإليك ما قاله جمال الدين الشبلى فى كتابه «السنّا الباهر بتكميل النور السافر»: «دُفن جلال الدين السيوطي فى قبر والده، وعمل له الأمير قرقماش..

صندوقاً من خشب، وستراً أسود مطرزاً بالأبيض بآية الكرسى، وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة للتبرك».

ويقول الشعرانى فى ذيل طبقاته ولما جئت إلى مصر قبيل موت السيوطى اجتمعت به مرة واحدة تبركاً، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته. إلى أن يقول: «مات جلال الدين السيوطى رضى الله عنه فى ليلة الجمعة عام ٩١١. وكان له مشهد عظيم».

وقد حقق العلامة أحمد تيمور مكان قبره فى كتيب صغير بعنوان قبر الإمام السيوطى، وتحقيق موضعه، فانتهى إلى أنه فى المكان المعروف عند العامة ببوابة السيدة عائشة. حيث يقول: «وقبره مشهور عند أهل هذه الناحية، الخَلَف عن السَّلَف؟ من زمن وفاته إلى اليوم، ويرجع الفضل فى حفظه إلى حسن اعتقاد الناس فيه، وقصدهم إياه بالزيارة كل حين، ويقيمون له مولداً كل سنة فى نصف شعبان.

وفى مدينة أسيوط مسجد يُعرف بجامع سيدى جلال الدين السيوطى، وبه ضريح تزعم العامة جهلاً أنه ضريح السيوطى، ولم يُعرف سبب نسبة هذا المسجد إلى السيوطى ويقول أحمد تيمور: والذى يسبق إلى الظن أنه المدرسة التى ذكرها السيوطى بكتابه «حسن المحاضرة». . تلك التى بناها أجداده بأسيوط.

* * *

٧٣ الإمام الشعرانى صاحب الطبقات الكبرى

لكل دين نزعة إلى الظاهر تمثلها شرائعه وعباداته وشعائره المحسوسة، ونزعة أخرى إلى الباطن، أى إلى المضامين العميقة الروحية التى يحجبها الحِسّ.

هكذا أشار إلى هاتين النزعتين، واتفق على تواجدهما الفلاسفة من الأجانب والمسلمين. . والتصوف الإسلامى فى حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشعائر والطقوس المحسوسة لأى دين، لكى تواجه النفس فى أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاّق، وتدلف بها فى بحار أنوار القدس الغامرة لتسبح فى ينبوع النور، وتنعم بالتواجد فى جلال الحضرة الإلهية كما يقول الصوفية.

ولقد أثبت مؤرخو التصوف، وعلماء الدين وفلاسفته، أن التصوف ظاهرة عالمية ترتبط بكل دين إذا سلك المعتنقون له طريق المجاهدة الروحية. ولكن جمهرة علماء النفس يرون فى هؤلاء المتصوفة صنف من المرضى النفسيين، وأن الأعراض التى تظهر عليهم، وحالة التوتر المُصاحبَة للجذب الصوفى هى بعينها نفس أعراض المرضى النفسيين. ويرد على هذا الرأى الدكتور محمد على أبو ريان، أستاذ الفلسفة وتاريخها بكلية الآداب بكتابه «الحركة الصوفية فى الإسلام» قائلا: «يجب أن نفطن إلى مغالطة علماء النفس التى تنطوى على هذا الحكم المتسرع، وهو أنه لا يكفى أن تتشابه الأعراض الخارجية فى هاتين الحالتين (حالة التصوف بما فيه من جذب، وحالة المرض النفسى) حتى نحكم بأنهما حالة واحدة. ذلك أن ثمة فرقاً أساسياً بينهما، وهو أنه بينما يستطيع الصوفى بقدرته الذاتية العودة إلى حال الصحو أو الحالة الطبيعية بعد الجذب الصوفى، نجد أن المريض النفسى يعجز عن شفاء نفسه بنفسه، وقد يستحيل عليه أن يعود إلى الحالة الطبيعية العادية بإرادته الذاتية».

ومن هنا نرى أن التصوف حقيقة اعترف بها العلماء والمؤرخون حتى وإن اختلفوا فى بعض أشكاله وتفاصيله، ونتائجه الخاصة بالفرد، أو نتائجه العامة بالنسبة للمجتمع.

وإذا كان التصوف حقيقة لها وجودها ما وجدت الأديان، فإن هناك من اهتم برصدها وتحليلها فكرياً، وتقصى أخبارها وتسجيلها تاريخياً. . ومن الطائفة الثانية الإمام عبد الوهاب الشعرانى، صاحب كتاب الطبقات الكبرى التى عنيت بالتأريخ لرجال التصوف بشكل يجعل أى باحث فى هذا الجانب لا غِنى له عن الرجوع إلى هذه الطبقات، حتى يمكنه التعرف على الكثيرين من المتصوفة وأحوالهم.

ولم يكن كتاب الطبقات الكبرى الذى اشتهر به الإمام الشعرانى هو الكتاب الوحيد الذى تركه، بل إن لهذا الإمام الجليل عدداً من الكتب التى أثرت المكتبة الإسلامية، حيث يذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية أنه رأى منها سبعين كتابا، منها على سبيل المثال لا الحصر كتب: «الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية»، و «الأنوار القدسية فى معرفة آداب الصوفية»، و«بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق»، و«درر الغواص من فتاوى الشيخ على الخواص»، و«القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية»، و«الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر»، و«المنن الكبرى»، و«لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية»، و«مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين»، و«مشارق الأنوار»، و«المنح السنية»، و«اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر». .

وغيرها من كتب قال عنها صاحبها الإمام الشعرانى بأن الذى دعاه إلى كتابتها هى الحالة المتردية التى كان عليها التصوف والصوفية فى زمنة، بل وينعى ويعتب على مَنْ توفى من أكابر المشايخ أنهم لم يهتموا بتسجيل فضل التصوف قائلا: «فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم، ويقولون لبعضهم: ما دريتم ما جرى؟ فلان آخر عمل شيخاً!. كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها، والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها والسعى على تحصليها. .»

ويحذر الإمام الشعرانى من قراءة كتب العارفين، إلا لعالم أو مَنْ سلك طريق القوم، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغى له قراءة شئ منها، خوفاً عليه من إدخال الشبه التى لا يكاد يفطن أن يخرج منها. ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم: «يامَنْ يرانا ولا نراه»، أو «ما فى الوجود إلا الله» ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به، لما يورثه من الغموض والإبهام عند العوام خاصة. وكذلك لا يجوز إجماعاً ـ عند أهل السنة ـ إرادة ذاته سبحانه وتعالى بقول بعضهم شعراً:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا ... نحن روحان حَلَلْنَا بَدَنَا

أو قولهم:

تمازجت الحقائق بالمعانى ... فصرنا واحداً رُوحاً ومعنى

ولهذا فقد دافع الإمام الشعرانى عن محيى الدين بن عربى وأوضح ما يريد أو يهدف إليه من أقواله، مثل قول ابن عربى: «حدثنى ربى عن قلبى أو حدثنى ربى عن نفسه بإرتفاع الوسائط» قائلا: ليس مراد أو هدف ابن عربى أن الله سبحانه وتعالى كلمه كما كلم الأنبياء. وإنما مراده أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف بعض الأحوال.

ويذكر الدكتور عبد المنعم الحفنى فى موسوعته الصوفية أن كتاب المنن الكبرى للشعرانى من أفضل وأشرف كتب الأخلاق، فقد وضح فيه الآداب الإسلامية، وأن كتابه لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية هو طرح لمعتقداته، مما يمكن أن يكون هُدًى ونبراسا ومثلاً حياً للصوفى فى الأخلاق، باعتبار أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى لكل مسلمة، حيث يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب: هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثله، الباعث لى على تأليفه ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم عن دنياهم. ولم أرَ أحداً يفتش على ما ينقصه من أمور دينه». وفى سبيل الغاية نفسها ألف كتابَ الأنوار القدسية، وخصصه لتوضيح المناهج الصوفية، والصلات التى تربط الشيخ والمريد بالآداب ككل.

وقد فضح الإمام الشعرانى الدجالين والمُدَّعِين والمشعوذين فى كتابه الأشهر «الطبقات الكبرى». ورأى فيهم البلاء والنكبة على الإسلام حين تعقب شيوخ

عهده، مظهراً جهلهم وسوء أدبهم. والمرء يعجب لإدراج الشعرانى لهؤلاء الذين انتقدهم مع تراجم السلف الصالح، وسرعان ما يزول العجب حين يكتشف أن رغبة الشعرانى فى ذلك هى إتاحة المقارنة بين هؤلاء المدعين وأولئك من السلف الصالح.

والغريب أن الإمام عبد الوهاب الشعرانى من أصل مغربى فعائلته ـ كما تذكر المصادر ـ من تلمسان، وأن الذى جعل أجداده يغادرون تلمسان إلى مصر نبوءة من الصوفى الأكبر أبو مدين التلمسانى، فغادروا تلمسان إلى صعيد مصر. وغادروا الصعيد ليستقروا بالمنوفية، وبالتحديد فى قرية «ساقية أبو شعرة» التى استوطنوها، ووُلد فيها حفيدهم الإمام عبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات الكبرى عام ٨٩٨ هـ. وبعد أن توفى وَالِدَاهُ وتركاه يتيماً ليس له إلا الله نصيراً ـ كما يقول ـ سافرِ إلى القاهرة عام ٩١٠ هـ ليقيم فيها بمسجد الغمرى مدة سبعة عشر عاماً يتعلم ويعلم، يتهجد ويتعبد. واتصل بصفوة العلماء وقتئذ، وفى مقدمتهم القاضى زكريا الأنصارى، والمؤرخ جلال الدين السيوطى.

أما كيف اندمج الشعرانى المريد الشاب القروى، الذى يعد من وجوه عديدة شخصية نموذجية فريدة فى الوسط المدنى بالقاهرة. فهذا ما فصله المستشرق الفرنسى الكبير «ريجيس بلاشير» فى حديثه عنه فى دراسته عن تأسيس القاهرة، ومن جملة ما قاله عن الشعرانى: «ولا ريب فى أن غلبة الطابع الريفى على الأحياء المتطرفة من المدينة، وتوثق العلاقات بين المدينة والريف، تدعمهما شبكة من الروابط الإنسانية والدينية ذات صبغة شاذلية (نسبة إلى الإمام الشاذلى).. لاريب أن هذا كله قد أتاح للشعرانى التكيف والاندماج فى القاهرة».

ثم يحدثنا هذا المستشرق الفرنسى بعد ذلك عن الشعرانى وشيوخه، وأهمهم الشيخ على الخَوَّاص، وأستاذه إبراهيم المتبولى، وكلا الرجلين من أتباع الطريقة الشاذلية المعتدلة، التى تؤمن بضرورة العمل اليدوى كوسيلة لخلق التوازن، مع التأمل والتفكير. كما تدعو أنصارها ممارسة الصوفية إلى مزاولة حرفة تضمن لهم مكاناً فى المجتمع وقتئذ، وتقيهم من أن يصبحوا عالة عليه.

وهكذا كان للشيخ على الخواص دكان صغير يبيع فيه الزيت، كما كان يكسب قوته من نسج الخوص. واشتغل أستاذه إبراهيم المتبولى زمناً ببيع الحمص، أما تلميذه عبد الوهاب الشعرانى نفسه فقد اشتغل بالحياكة. وهكذا ـ كما يقرر هذا المستشرق ـ نلاحظ لدى الجميع احتراماً للعمل الذى اختارته لهم مشيئة الله، وللنظام الاجتماعى الذى ارتضوه لأنفسهم.. انتظاراً لنظام آخر يكون من نصيبهم فى الآخرة..».

وهكذا كان الإمام الشعرانى عالماً محققاً له جهوده الصادقة فى الدعوة إلى الله تعالى. حتى توفى فى عام ٩٧٢ هـ.

* * *

٧٤ شمس الدين الرملى
مجدد القرن العاشر

شمس الدين الرملى. . هو محمد بن أحمد بن حمزة الرملى. . كان فى مقدمة المجددين فى الإسلام على رأس المائة العاشرة الهجرية.

وقبل أن نطوف بسيرته كما سجلتها بعض الكتابات، لنا أن نتوقف لحظات عند صورة العالم فى القرن العاشر، متأملين هذا القرن الذى امتد من سنة ١٤٩٦م إلى سنة ١٥٩١م. حيث كانت الدولة التركية أقوى دولة إسلامية فى العالم، وكان على رأسها السلطان بايزيد الثانى، ابن السلطان محمد الفاتح. وكان ملكاً محباً للسلام، فوقفت هذه الدولة فى عهده عند الحدود التى فتحها أبوه. وقد خرج عليه ابنه سليم الأول، فانضم إلى جيش الانكشارية، فترك له الحكم سنة ١٥١٢، فقام السلطان سليم بالحكم، وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم، إلى أن قضى عليهم، ثم توجه إلى قتال الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بفارس، وانتصر عليه، واستولى علي قاعدة ملكه تبريز، وانتزع منه الفرق. ثم توجه إلي قتال المماليك بمصر فحاربهم وأسقط دولتهم، وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بنى العباس بمصر.

وبعد أن توفى السلطان سليم الأول خلفه ابنه السلطان سليمان القانونى، وفى عهده وصلت الدولة إلى أوج عظمتها، حيث استولت على بلاد الصرب والمجر وغيرها من بلاد أوربا الشرقية، ووصلت فتوحاته إلى النمسا فى أوربا الغربية، ثم المغرب العربى، واليمن فى المشرق العربى، وواكب هذه الفتوحات إصلاحات دينية ومدنية، إلى أن توفى وخلفه ابنه سليم الثانى، الذى لم يكن كأبيه السلطان سليمان القانونى من ناحية الصفات التى تمكنه من التوسع والإدارة فى هذه المملكة

العظيمة، ولذلك لم يكن هناك من الإنجازات التى تُنسب إليه سوى استيلائه على مدينة تونس، وفتح الباب أمام الدول الأوربية ـ وخاصة فرنسا ـ لدخول رعاياها كمبعوثين، مما كان له كبير الأثر بعد ذلك لازدياد نفوذهم فيها. وتوفى ليخلفه ابنه مراد الثالث، الذى بدأ عهده بقتل إخوته حتى لا يُنازعوه فى الملك، وفى عهد هذا السلطان زادت الامتيازات الأجنبية فى داخل أراضيه، وخاصة فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا. كما وقعت فى عهده بعض الحروب خاصة مع الدولة الصفوية بفارس، وانفصلت بعض المناطق الأوربية مثل «ترنسلفانيا» التى أعلنت العصيان عليه بتحريض ومساعدة من النمسا وألمانيا.

وطبيعى والأمر كذلك أن ينقسم المسلمون فى هذا إلى دولتين شرقيتين غير الدولة التركية العثمانية. الأولى هى الدولة الصفوية بفارس، والثانية هى الدولة المغولية ببلاد الهند، وأن تضعف بلاد المغرب العربى حتى تكاد بلاده تسقط فى يد الأسبانيين والبرتغاليين.

لكن برغم كل شئ فإن المسلمين فى هذا القرن كانوا على شئ من القوة، إذ كانت الدولة العثمانية التركية مرهوبة الجانب بين الأمم الأوربية، يقابل هذه القوة السياسية ضعف فى الناحية العلمية، حيث فشا الجهل، وأضافوا عداوة العلوم الأدبية، إلى عداوتهم للعلوم الفلسفية، وطغت العامية على الفصحى بعد استيلاء الدولة العثمانية على معظم بلاد العرب، وجعلها اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى الدواوين الحكومية، وبهذا ازداد العلم هواناً أمام غيبة لغة البلاد، وأمام استشراء نفوذ مُدَّعى التصوف وما يتسمون به ـ وقتئذ ـ من جهل فاضح.

وفى هذا المناخ ظهر شمس الدين الرملى ليكون أحد المجددين فى هذا القرن العاشر الهجرى، حيث ولد عام ٩١٩ هـ بالقاهرة، وكان مختلفا عن أترابه، وإلا فما معنى أن يذكر الإمام الشعرانى فى طبقاته الوسطى بأنه صَحِبَ هذا المجدد (أى شمس الدين الرملى) منذ كان يحمله على كتفه طفلاً صغيراً إلى أن كبر، وأنه مارأى طفلا واعياً بدينه، عارفاً عَمًّا يغضب ربه، منصرفاً عن اللهو واللعب مثل هذا الطفل، الذى نشأ على الدين، والتقوى، والصيانة، وحفظ الجوارح، وطهارة العرض، ونقاء السريرة. وقد رباه والده فأحسن تربيته.

ويذكر الشعرانى أن هذا الوالد كان يعمل بالتدريس، وعلى يديه تلقى هو ـ أى الشعرانى ـ العلم، فقد لقن ابنه ـ شمس الدين ـ خلاصة علمه وخبرته فى الفقه،

والتفسير، والنحو، والصرف، والمعانى، والبيان، والتاريخ، إلى درجة أن الابن استغنى بالوالد وعلمه عن التردد إلى غيره من علماء ذلك العصر الذى امتهن فيه العلم. وفى ذلك يذكر الإمام الشعرانى ـ نقلاً عن هذا الوالد ـ قوله: «تركت محمداً بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا فى النادر».

وطبيعى وقد كان والده يعمل بمهنة التدريس فإنه قد احتل المكان الذى كان يشغله هذا الوالد، ليحضر درسه أكثر تلاميذ والده، حتى ولو كانوا أكبر سناً منه. وإذا سُئِلَ أَحَدُ هؤلاء التلاميذ عن السبب الذى يدعوه لملازمة هذا العالم الشاب ـ كما كانوا من قبل يلازمون والده. رد قائلا: لأنى أستفيد منه ما لم يكن لى به علم.

وهكذا أصبح مألوفاً أن يقصد هذا المجدد طلابُ العلم من كل الأقطار العربية والإسلامية. حتى يذيع صيته، وتعم شهرته، ويستحق بين أهل زمانه أن يُلقب بالشافعى الصغير، لأنه كان مرجع أهل مصر وغيرها من الأمم فى تحرير الفتاوى الفقهية، وكان مع هذا يتولى منصب إفتاء الشافعية بمصر.

ومن الآثار العلمية لهذا المجدد الصالح أنه كان من أوائل الذين ابتدعوا أسلوب الحواشى، وله فى ذلك العديد من الحواشى المعتمدة مع السابقين.

والحق أن هذه الطريقة ـ طريقة الحواشى ـ برغم مآخذ النقاد عليها، فإنها كانت وسيلة لتعلق الناس بهذا النوع من التأليف، إلى درجة أنهم أهملوا النظر فى كل كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير. وكان لهذا أثره فى ذيوع وانتشار كتب هذا العالم المجدد فى جميع الأقطار العربية والإسلامية، حتى صارت كتبه فى مقدمة مراجع المذهب الشافعى.

ولهذا وغيره كان شمس الدين الرملى يعد مجدداً فى القرن العاشر، إذ أنه صار فى مقدمة العلماء الذين يُنْتَفَعُ بعلمهم، وأن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى يحتاج إليها الباحث فى العلوم الشرعية.

وهكذا ظل هذا العالم الصالح المنصرف إلى علمه على عهده بالعلم بحثاً ودرساً إلى أن توفى فى عام ١٠٠٤ هـ ليدفن بمدافن القاهرة.

* * *

٧٥ أبو المراحم العيدروسى
الفقيه الشاعر الرحالة

فى الجهة البحرية من المقام الزينبى الطاهر دُفن الإمام وجيه الدين أبو المراحم عبد الرحمن الحسينى العيدروسى التريمي، نسبة إلى بلدة «تريم» الموجودة باليمن.

ولد هذا الإمام اليمنى الأصل، المصرى الحياة والممات، بعد غروب شمس ليلة الثلاثاء، التاسع من شهر صفر، سنة خمس وثلاثين ومائة وألف للهجرة.

وقد ورد فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك، ما نقلته الكتابات الحديثة أن الإمام العيدروسى نشأ على عفة وصلاح، وتقوى وورع وعلم وفضل فى حجر كل من والده وجده فى تريم باليمن، حيث أجازاه وألبساه خرقة الصوفية.

وفى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، أى وهو فى الثامنة عشرة من عمره، توجه فى صحبة والده إلى الهند، فنزلا بمدينة «بندر السحر»، واجتمعا بالكثيرين هناك من رجال العلم والدين من الفقهاء والعلماء الذين تربطهم بهما صلة رحم وقربى.

وتأتى أهمية هذه الزيارة فى تأريخ هذا الإمام الجليل أن واحداً من أقاربه ترجع أصوله إلى العيدروسية بالهند قد تولى رياسة دولة آباد فى شبه القارة الهندية، وقد ساعده هذا الرجل وعاونه، حيث فتح أمامه الطريق إلى كل مجالس العلماء هناك، والأكثر أجازة إجازة مطلقة بالطرق الصوفية هناك.

وبعد أن أُجيز الإمام العيدروسى فى الطرق الصوفية بدأ ينتقل من بلد إلى آخر من بلاد الهند طلباً للعلم وزيادة فى التفقه، ورغبة فى زيارة أولياء الله الصالحين، الأحياء منهم والأموات، إلى أن عاد إلى بلدته تريم باليمن مجدداً العهد بذوى

رحمه وقرباه، ولم يطل به المقام طويلاً فى اليمن، حيث توجه منها إلى مكة المكرمة، فأخذ عن شيوخها وفقهائها العلم والفقه، ثم ذهب إلى الطائف، وزار قبر الحبر ابن عباس رضى الله عنه ومدحه بقصيدة. ثم التقى بالسيد عبد الله الميرغني وصار بينهما ود كبير لا ينقطع.

وفى سنة إحدى وستين ومائة وألف للهجرة. توجه الإمام العيدروسى إلى مصر، وكان وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمره، لينزل أول ما ينزل فى مدينة السويس ويزور رجلها الصالح العارف بالله «عبد الله الغريب» ويمدحه بقصيدة.

ومن السويس رحل الإمام العيدروسى إلى القاهرة، وزار ضريح الإمام الشافعى، وغيره من أولياء الله الصالحين. ومدح كُلَّ واحدٍ منهم بقصيدة تناسب المقام، وقد جمع تلك القصائد التى كان ينظمها حسب المناسبة فى ديوانه المعروف باسم «رحلة العيدروسى».

وفى القاهرة نال هذا الإمام حفاوة يستحقها كرجل علم وفضل، وفيها أيضاً هرع إليه العلماء والفقهاء، وكبار رجال الدولة فيها، من الأمراء والوزراء والحكام، وما هى إلا فترة قصيرة حتى احتشد عنده الكثيرون الذين وقفوا ببابه، وصارت له معهم مطارحات في الشعر، ومناقشات في الفقه. وكان ممن التقى به شيخ زمانه العالم الصوفى عبد الخالق الوفائى، الذى أحبه ومال إليه لتوافق مشربيهما. فأجازه وألبسه الخرقة الوفائية، وكنّاه بأبى المراحم تقديراً للمكانة التى بدأ يحتلها فى قلوب الناس.

وهكذا أمضى الإمام العيدروسى فى مصر ثمانى سنوات بعدها سافر إلى الحجاز، وهناك تزوج بنت عمه وسكن بها فى الطائف، ثم تزوج مرة أخرى زوجة ثانية، هى الشريفة رقية بنت السيد أحمد بن هارون لتنجب له ولداً أسماه «المصطفى»، وبقى بعد ذلك فترة فى الحجاز، بعدها عاد إلى مصر مصحوباً بأسرته ليستقر بها.

وتتفق الروايات والمصادر التاريخية على أن الإمام العيدروسى استطاع فى فترة ليست بالطويلة أن يكون وحيد عصره، والمرجع الذى يُرْجَعُ إليه فى أمور العلم والفقه. وها هو ذا كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك يذكر بأنه قد أثنى عليه العلماء والفقهاء، وخضع له واحترمه الأمراء والحكام على اختلاف مناصبهم.

ومن مظاهر هذا التقدير أنه كان لا يُرَدُّ له طَلَبٌ، وأن يكون فى الطليعة مع العلماء والفقهاء فى شتى المناسبات الدينية والسياسية.

غير أن الإمام العيدروسى المحب دائماً للسفر والرحيل لم يستقر به المقام فى القاهرة وحدها، بل شاء أن يقوم بهجرة ولو داخلية فى مدن القطر المصرى، فبدأ بمدن الصعيد، والتقى هناك بمريديه وأتباعه فى الطريقة، ثم يَمَّمَ وجهه شطر الوجه البحرى. بادئاً بزيارة طنطا، حيث القطب أحمد البدوى، ودسوق حيث قطبها العارف بالله إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة البرهامية، والإسكندر حيث قطبها أبو العباس المرسى ودمياط ورشيد.

لكن هذه الهجرة الداخلية لم تكن لتشبعه وهو المحب دائماً للتجوال والسفر، فعاود السفر إلى خارج مصر، إلى الشام حيث توقف بدمشق وغزة ونابلس، ثم إلى تركيا حيث اسطنبول، وكان فى حله وترحاله موضع إجلال وتقدير.

ولم يتوقف عن السفر إلاّ بعد أن تقدم به العمر وهنا اختار القاهرة مقرًا أخيرًا له، فعكف على العبادة من ناحية، ونشر العلم والمعرفة من ناحية أخرى. وكتب العديد من المؤلفات القيمة. وظل هكذا إلى أن لبى نداء ربه يوم الثلاثاء فى الثانى عشر من المحرم سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، بعد حياة حافلة بالعلم والتنقل والعبادة دامت سبعة وخمسين عاما.

وقد خرجوا بجنازته من بيته فى قلعة الكبش بحى السيدة زينب ليصلوا عليه بالجامع الأزهر، وليُدفن فى المقام المواجه بضريح السيدة زينب رضى الله عنهما حسب وصيته لأنه كان دائم الزيارة لها. وكان أحياناً يقوم على خدمة مسجدها.

وقد قام الوالى سعيد باشا ببناء ضريح لهذا الرجل الصالح عليه قُبة كتبت على جدرانها هذه الكلمات:

شاد سعيد العصر فى مصر   خير مقام قد زها مثل العروسى
فى نور آل البيت تاريخه   كان بناء العتريس والعيدروسى

هكذا انطوت صفحة من الصفحات التى تحمل تاريخ رجل من الصالحين، أفاد بعلمه وفضله المسلمين فى كل مكان كان يتوجه إليه.

* * *

ختام

والآن . . وقد بلغ هذا الكتاب تمامه ـ فى حدود المستطاع ـ وأشرفت صفحاته على غايتها فى هذه اللحظات التى أضع اللمسات الأخيرة بين سطوره، أجمع مجلدات وكتباً وقصاصاتٍ إليها يرجع الفضل كله فى إتمامه . . تمهيداً لدفعه إلى المطبعة .

الآن أشعر بأننى أفرغ من صحبة عزيزة مباركة . . تتمثل فى هذا الحشد العظيم من أعلام التاريخ الإسلامى، اختاروا مصر مكاناً لغرس قيمهم ومبادئهم . . ومع أننى أودعهم فإننى لا أشك لحظة فى تعلقى بهم، وحبى لهم، بعد أن عشت مع أفكارهم ومواقفهم زمناً طويلا .

ولَعَلِّى أستأذنهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بأن أسأل نفسى سؤالا : هل أوفيتهم كل ما يستحقونه من التقدير والإجلال، أو من الرصد والحصر لكل ما تركوه لنا؟

بالقطع لا . فكل ما قدمته من هذه الصفحات لا يعدو أن يكون مجرد إشارة إلى هذه الأعمال العظيمة، وتلك المواقف الخالدة لهذا السلف الصالح .

أقول مجرد إشارة لهذه الأعمال والمواقف الغزيرة كالسحاب الثقال، المنتشرة كالضوء الباهر .

هى مجرد مفاتيح إلى شخصياتهم، بها يستطيع القارئ أن يدرك ما قد فاته، فقد يجده بدون عناء أو مشقة . .

هى مجرد إيماءة متواضعة إلى هؤلاء الأعلام فى التاريخ الإسلامى ـ إيماءة وحسب ـ لأننا لو أردنا البحث حول شخصية كل واحد منهم وتأثيره فى زمانه ومكانه لأستغرق الاهتمام مجلداً أو مجلدين . . فما بالنا لو اجتمع خمسة وسبعون عَلَماً فى كتاب واحد؟!

لهذا ولغيره من أسباب أقول: إن هذا الجهد ـ الذى اسعفه توفيق من الله وعونه ـ ليس سوى إشارة إلى أعمالهم ومواقفهم، أو مفاتيحِ إلى شخصياتهم أو إيماءة إليهم. إن كنت قد أخطأت فى التعبير عنها فلى أجرُ مَنِ اجتهد، وإن كنت قد أصبت فلى أجر من اجتهد وأصاب.. والله ولى التوفيق،

سامح كريم

المعادى
١٥ رمضان ١٤١٥هـ
١٥ فبراير ١٩٩٥م

المراجع

القرآن الكريم

سيرة ابن هشام

الإصابة فى تمييز الصحابة — لابن حجر العسقلانى

تاريخ الخلفاء — للسيوطى

تاريخ الإسلام — للذهبى

الكامل — للمبرد

تحفة الأحباب وبغيه الطلاب — للسخاوى

مساجد مصر — للدكتورة سعاد ماهر

محمد والذين معه — عبد الحميد جودة السحار

المجددون فى الإسلام — عبد المتعال الصعيدى

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — لابن إياس

النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة — لابن تغرى بردى

رحلة بن بطوطه — لابن بطوطه

تاريخ الرسل والملوك — لابن جرير الطبرى

الممالك والمسالك — لابن حوقل

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — لابن حجر العسقلانى

الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — لابن الزيات

الطبقات — لابن سعد

فتوح مصر وأخبارها — لابن عبد الحكم

شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب — لابن العماد

العقد الفريد — لابن عبد البر

تاريخ المسلمين — لابن العميد

عيون الأخبار — لابن قتيبه
البداية والنهاية — لابن كثير
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمرى
الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى
فتوح البلدان — للبلاذرى
السنن الكبرى — للبيهقى
إغاثة الأمة بكشف الغمة — للمقريزى
الخطط والآثار — للمقريزى
السلوك لمعرفة دول الملوك — للمقريزى
حياة محمد — للدكتور محمد حسين هيكل
على هامش السيرة — للدكتور طه حسين
الوعد الحق — لدكتور طه حسين
الأعلام — للزركلى
اعلام الاسكندرية — للدكتور جمال الدين الشيال
رجال حول الرسول — خالد محمد خالد
على إمام المتقين — عبد الرحمن الشرقاوى
الحسين ثائراً وشهيداً — عبد الرحمن الشرقاوى
تاريخ الإسلام السياسى — حسن ابراهيم حسن
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبى — د. عبدالرحمن بدوى
تاريخ الإسلام — للذهبى
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — للسيوطى
الطبقات الكبرى — للشعرانى
الطبقات الصغرى — للشعرانى
الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية — للمناوى
الخطط التوفيقية — لعلى مبارك
عمرو بن العاص — للعقاد
أبو الشهداء «الحسين» — للعقاد

صبح الأعشى	للقلقشندى
أدب مصر الفاطمية	للدكتور محمد كامل حسين
مروج الذهب	للمسعودى
القبارى زاهر الإسكندرية	محمد زيتون
مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع	ياقوت الحموى
البلدان	لليعقوبى
الفلسفة الإسلامية	للدكتور إبراهيم مدكور
الحركة الصوفية فى الإسلام	للدكتور محمد على أبو ريان
الطرق الصوفية فى مصر	للدكتور عامر النجار
شخصيات صوفية فى صعيد مصر	محمد عبده الحجاجى
فلاسفة الإسلام	للدكتور سعد عبد العزيز
السيدة نفيسة	محمد شاهين حمزة
أئمة الفقه التسعة	عبد الرحمن الشرقاوى
عظماء فى تاريخ الإسلام	حسنى النشار
رابعة شهيدة العشق الإلهى	د. عبدالرحمن بدوى
رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام	طه عبدالباقى سرور
العابدة الخاشعة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمخذونين	د. عبدالمنعم الحفنى
مع النبى فى رمضان	سامح كريم
قمم وأفكار إسلامية	سامح كريم
الحرس القديم للثقافة الإسلامية مقالات بالأهرام	سامح كريم
دائرة المعارف الإسلامية المترجمة	
الموسوعة العربية الميسرة	

كتب للمؤلف

١ ـ رمضان والحرب	١٩٦٨	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٢ ـ لمحات من حياة الرسول	١٩٧٠	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٣ ـ يوم عاشوراء	١٩٧١	كتاب التعاون
٤ ـ عيد الأم فى الإسلام	١٩٧٢	كتاب التعاون
٥ ـ طه حسين ـ مواقف وأعمال	١٩٧٤	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٦ ـ العقاد ـ مواقف وأعمال	١٩٧٥	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٧ ـ ماذا يبقى من طه حسن	١٩٧٥	كتاب مؤسسة الشعب
٨ ـ معارك طه حسين الأدبية والفكرية	١٩٧٧	دار القلم ـ بيروت
٩ ـ إسلاميات طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين	١٩٧٧	دار القلم ـ بيروت
١٠ ـ ماذا يبقى من العقاد	١٩٧٨	دار القلم ـ بيروت
١١ ـ طه حسين يتكلم	١٩٧٨	دار المعارف
١٢ ـ العقاد فى معاركه السياسية	١٩٧٩	دار القلم ـ بيروت
١٣ ـ العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية	١٩٨٠	دار القلم ـ بيروت
١٤ ـ قمم وأفكار إسلامية (ج ١)	١٩٨٤	دار ألف والوفا للنشر
١٥ ـ مع النبى فى رمضان	١٩٨٩	دار الخانجى
١٦ ـ رحلة التنوير	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
١٧ ـ أعلام فى التاريخ الإسلامى بمصر	١٩٩٥	الدار المصرية اللبنانية

الفهرس

(أ) إهداء ٧

(ب) مدخل الشخصيات ٩

١ ـ عمرو بن العاص ٢١

٢ ـ أبو الدرداء ٢٦

٣ ـ عقبة بن عامر ٣٠

٤ ـ مسلمة بن مُخَلّد ٣٥

٥ ـ عبد الله بن الحارث الزبيدى ٤٠

٦ ـ سارية الجبل ٤٤

٧ ـ بشر بن أبى أرطأة ٤٩

٨ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص ٥٣

٩ ـ قيس بن سعد ٥٧

١٠ ـ محمد شبل الأسود ٦٤

١١ ـ محمد بن أبى بكر ٦٨

١٢ ـ عاتكة بنت زيد ٧٣

١٣ ـ الإمام الحسين ٨٠

١٤ ـ السيدة زينب ٨٩

١٥ ـ السيدة سكينة ١٠٠

١٦ ـ السيدة فاطمة النبوية ١٠٨

١٧ ـ الإمام زيد بن على زين العابدين ١١٥

١٨ ـ الإمام حسن الأنور ـــــ ١٢٢
١٩ ـ السيدة نفسية ـــــ ١٢٥
٢٠ ـ السيدة رقية ـــــ ١٣٥
٢١ ـ القاسم محمد الطيب بن جعفر الصادق ـــــ ١٣٨
٢٢ ـ يحيى الشبيهى ـــــ ١٤١
٢٣ ـ ابن طباطبا ـــــ ١٤٥
٢٤ ـ السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب ـــــ ١٤٩
٢٥ ـ عبد الرحمن بن هرمز ـــــ ١٥٢
٢٦ ـ إبراهيم الجواد ـــــ ١٥٥
٢٧ ـ السيدة عائشة ـــــ ١٥٩
٢٨ ـ الليث بن سعد ـــــ ١٦٤
٢٩ ـ الإمام الشافعى ـــــ ١٧٠
٣٠ ـ ذو النون المصرى ـــــ ١٧٧
٣١ ـ ساعى البحر ـــــ ١٨٣
٣٢ ـ القاضى بكار بن قتيبة ـــــ ١٨٧
٣٣ ـ أبو جعفر الطحاوى ـــــ ١٩١
٣٤ ـ عفان بن سليمان البغدادى ـــــ ١٩٥
٣٥ ـ الحافظ صدر الدين الأصفهانى ـــــ ١٩٩
٣٦ ـ عطية عز الدين العلوى ـــــ ٢٠٣
٣٧ ـ أبو بكر الطرطوشى ـــــ ٢٠٧
٣٨ ـ سند بن عنان ـــــ ٢١١
٣٩ ـ أبو الطاهر بن عوف ـــــ ٢١٤
٤٠ ـ أبو البركات الخيوشانى ـــــ ٢١٧
٤١ ـ القاسم الشاطبى ـــــ ٢٢١
٤٢ ـ عبد الرحيم القنائى ـــــ ٢٢٤
٤٣ ـ ابن الصباغ القوصى ـــــ ٢٢٨

٤٤ ـ عمر بن الفارض ـــــ ٢٣٢
٤٥ ـ أبو الفتح الواسطى ـــــ ٢٣٧
٤٦ ـ أبو الحجاج الأقصرى ـــــ ٢٤٠
٤٧ ـ أبو السعود بن أبي الشعائر ـــــ ٢٤٤
٤٨ ـ ابن الحاجب ـــــ ٢٤٨
٤٩ ـ أبو الحسن الشاذلى ـــــ ٢٥١
٥٠ ـ أبو القاسم القبارى ـــــ ٢٥٧
٥١ ـ العز بن عبدالسلام ـــــ ٢٦٠
٥٢ ـ القرطبى ـــــ ٢٦٥
٥٣ ـ أحمد البدوى ـــــ ٢٦٨
٥٤ ـ ابراهيم الدسوقى ـــــ ٢٧٢
٥٥ ـ الإمام العتريس ـــــ ٢٧٦
٥٦ ـ مرزوق اليمانى ـــــ ٢٧٩
٥٧ ـ على أبو الشباك الرفاعى ـــــ ٢٨٢
٥٨ ـ أبو العباس المرسى ـــــ ٢٨٧
٥٩ ـ الإمام البوصيرى ـــــ ٢٩٢
٦٠ ـ عبدالعزيز الديرينى ـــــ ٢٩٦
٦١ ـ ابن دقيق العبد ـــــ ٣٠٠
٦٢ ـ ابن عطاء الله السكندرى ـــــ ٣٠٤
٦٣ ـ أبو القاسم الطهطاوى ـــــ ٣٠٩
٦٤ ـ ابن هشام الإنصارى ـــــ ٣١٢
٦٥ ـ رابعة العدوية ـــــ ٣١٦
٦٦ ـ سراج الدين البلقينى ـــــ ٣٢٦
٦٧ ـ أبو العباس القلقشندى ـــــ ٣٣٠
٦٨ ـ المقريزى ـــــ ٣٣٥
٦٩ ـ شمس الدين الحنفى ـــــ ٣٤٠

٧٠ ـ أبو العلا الحسينى ـــــ ٣٤٥
٧١ ـ زكريا الإنصارى ـــــ ٣٤٩
٧٢ ـ جلال الدين السيوى ـــــ ٣٥٣
٧٣ ـ الإمام الشعرانى ـــــ ٣٥٩
٧٤ ـ شمس الدين الرملى ـــــ ٣٦٤
٧٥ ـ أبو المراحم العيدروسى ـــــ ٣٦٧
* **ختام** ـــــ ٣٧١
* **المراجع** ـــــ ٣٧٣
* **كتب للمؤلف** ـــــ ٣٧٥